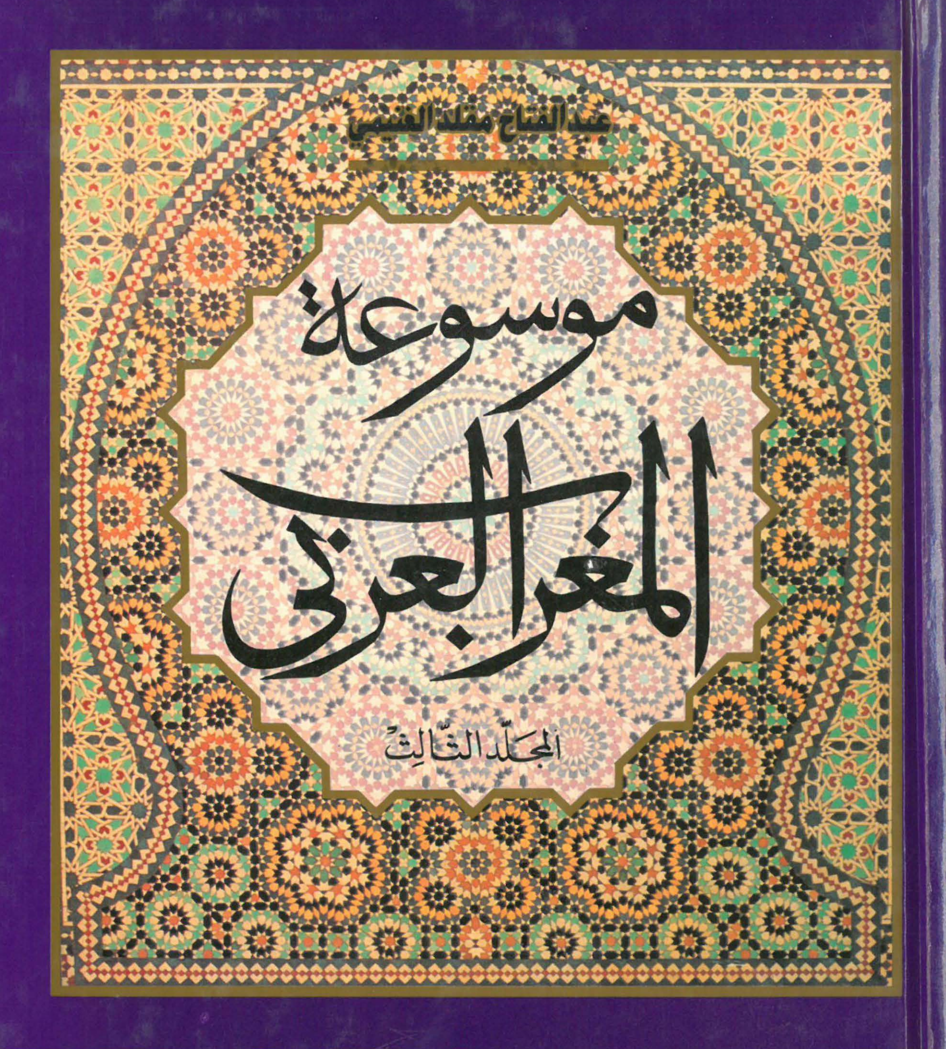
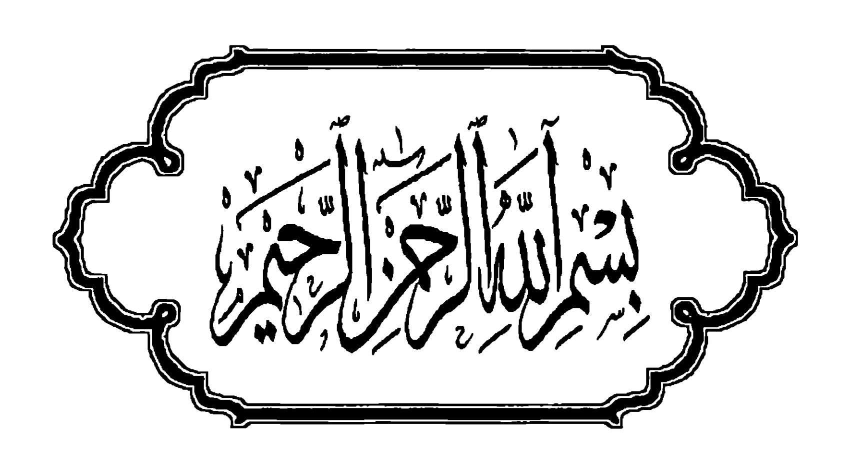


مكتبة مدبولي

القاهرة


بسم الله الرحمن الرحيم



موسوعة تاريخ المغرب العربى

بنى حفص وبنى زيان وبنى مرين

بنى وطاس والسعديين وظهور الأشراف العلويين

دراسة فى التاريخ الإسلامى

الجزء الخامس والسادس

الناشر : مكتبة مدبولى

الطبعة الأولى

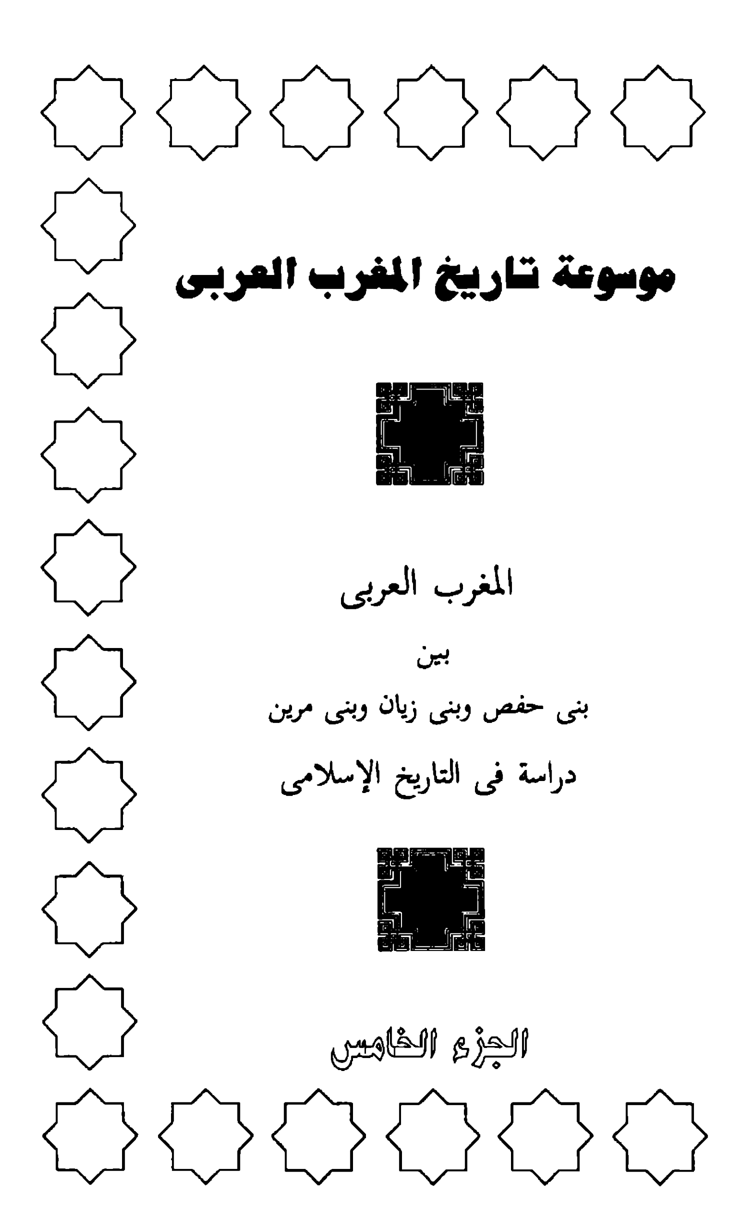
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

الناشر

مكتبة مدبولي

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع

تليفون ٧٥٦٤٢١



موسوعة تاريخ المغرب العربى

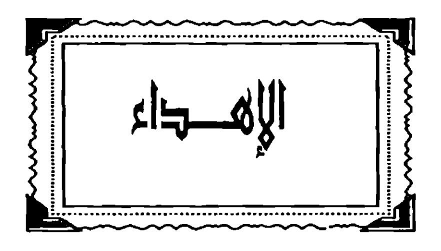
المغرب العربى

بين

بنى حفص وبنى زيان وبنى مرين

دراسة فى التاريخ الإسلامى

الجزء الخامس



إلى ابنتىْ

مروة وبسمة ..

قرة عينى ومهجة فؤادى ودفء الأيام وحنان الأبوة وفلذة الكبد ورؤية المستقبل البعيد ..

هذا الجزء الخامس من موسوعة المغرب العربى ..

د. عبد الفتاح مقلد الغنيمى

التـمـــهـــيد

إن هذه الدراسة تعالج قضية هامة هى عروبة المغرب ودوره فى مجد الإسلام والعروبة؛ فالمغرب حصن الإسلام ودرعها الواقى الحارس للبوابة الغربية للعالم العربى، والذى صان للإسلام مجده وللعروبة عزتها، والذى وقف صامداً يتحدى وبلات الأعداء وعدوانهم ويصد عاديات الزمن؛ بل إنه عارك الأحداث وعاركته الأحداث وخرج من كل هذا منتصراً ظافراً شامخاً شموخ جباله العالية وسفوحه الشماء التى تأبى إلا أن تحافظ على الوجه العربى الذى امتد فى أعماق التاريخ أكثر من اثنى عشر قرناً قبل الفتح العربى، فعمر عروبة المغرب أكثر من ثلاثين قرناً من الزمان. لذا .. فقد ثبتت أصالته العميقة فى المجد والشدائد التى مرت عليه وصار الوجه العربى للإسلام بصورته النقية الطاهرة عبر العصور الطويلة ورد كيد الأعداء فى نحورهم عندما حاولوا تشويه صورة العربى المغربى الأصلية وطمس معالمها وتمجيد العنصرية البربرية، والتى ما هى إلا العروبة قبل الإسلام وتلاحم عرب الإسلام مع أبناء عمومتهم عرب ما قبل الإسلام حول الامتزاج للدماء العربية بقبائلها وبطونها وعشائرها. وعلى هذا .. ذاب العرب والبربر أخوة وأبناء عمومة وأصل وتاريخ واحد فى كيان واحد.

ولذا .. فإن تاريخ الإسلام والعروبة فى بلاد المغرب موضوع حيوى لايزال رغم هذه الموسوعة، وما كتب من دراسات حول هذا الموضوع فى أمس الحاجة إلى مزيد من البحث العلمى والموضوعى لتحرى حقيقة ما يقصده كتاب الغرب من التحريض حول البربرية والعربية بغية تمزيق الكيان الواحد ولمحاولة طمس وتشويه تاريخ العروبة والإسلام وإخفاء معالم الحقيقة وإحياء العنصرية البربرية لضرب العروبة وعـزل المغرب عن أخوة العروبة والإسلام فى الشـرق ومنعــهم من التلاحــم مع أخــوة المغــرب، وعلى هذا.. فإن من يطالع هذه الأجزاء يدرك أهمية الدراسة فى الربط بين عناصر الأمـة العربية الإسلامية، وهـل أبناء البربر ما هم إلا عرب ما قـبل الفتح الإسـلامى!!

فبربر المغرب ذوو أصول عربية واحدة، فيما عدا أقليات قليلة على الساحل. أما البربر داخل البلاد .. فهم أبناء الفنقين الذين هاجروا قبل الفتح بعشرة قرون أو يزيد بغية وضع اللبنة الأولى فى بناء مغرب العروبة والإسلام بعد الفتح. لقد كان المغرب أصعب منالاً على الغريب لكنه سهل الاندماج مع أخوة العرب؛ فالعادات والتقاليد والقيم والأعراف والتقاليد تطابقت، ومن هنا .. جاء الامتزاج والاختلاط وأصبح الكيان واحدا. لذا .. صار درع وحصن العروبة، وها هى الثقافة العربية الإسلامية، واللسان الفصيح، تتحدى الأقدار، ولم تتخذه الأقدار تحطمت على صخرته الأخطار، وغرقت فى مياهه سفن الأعداء ومدافعها. فهو طوال تاريخه الممتد من الفتح الإسلامى حتى عصرنا الحاضر، صامد صمود الأبطال أمام كل محاولات النيل من مقوماته التاريخية والحضارية، ومن هنا خرج ظافراً إسلاماً وعروبة، وصانت عقيدة الإسلام أرضه من كل دنس أجنبى واسترد هويته العربية وحضارته الإسلامية، وكانت عزيمة أبنائه وقوة عريكتهم لاتلين ولا تهزم أبد الدهر.

فتحيةً لأبناء المغرب العربى من حدود مصر الغربية العربية حتى محيط المحيط الأطلسى عرباً وإسلاماً قيما حضارية خالدة أبد الدهر، تتحدى كل كيد يكاد لهذه الديار الطاهرة أرض القيروان، وفاس، وتلمسان، ومراكش، والرباط، وطرابلس، وبرقة، وزويلة، وفزان، ووهران، وتطوان .. وكل مدينة مغربية حتى نواكشوت. تلك الأرض التى استردت أنفاسها متلاحمة مع عروبة المشرق، التى لن يطول الزمن عليها لكى يكون لها مع الأحداث موقف.

وفى هذا الجزء من الموسوعة نرى كيف انفرط عقد الوحدة المغربية أثر سقوط الخلافة الموحدية، ولم يعد هذا العقد وحدة واحدة منذ ذلك التاريخ الوسيط حتى عصرنا الحاضر (اتحاد دول المغرب العربى)؛ بل إن الأقسام التى نشهدها اليوم ما هى إلا تقسيمات قد جرت عبر التاريخ الوسيط. فنجد أن ما يسمى بالمغرب الأدنى ما هو

إلا تونس الحالية، والمغرب الأوسط ما هو إلا الجزائر، والمغرب الأقصى ما هو إلا بلاد المغرب، فكأن الأقدار شاءت أن تقوم هذه الأقاليم مقسمة بين الحفصين فى تونس وبنى زيان فى الجزائر وبنى مرين فى المغرب الأقصى، وهذا ما سنطالعه فى الأبواب والفصول القادمة.

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمـة

الحمد لله رب العالمين الهادى لصراطه المستقيم، والصلاة والسلام على محمد ابن عبد الله النبى الخاتم، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

أما بعد .. .. ..

فهذا هو الجزء الخامس من موسوعة تاريخ المغرب العربى الذى نقدمه للقارئ الكريم؛ لأنه صاحب الحكم السديد على ما جاء بهذه الدراسة من مواضيع مختلفة تصب كلها فى قالب واحد هو تاريخ المغرب العربى، وهذا الجزء من الموسوعة يعالج تاريخ المغرب فى فترة من أدق فترات تاريخه الطويل، إذ شهدت تلك الحقبة التاريخية (٦٢٦-٩٨١م) تمزق المغرب الموحد فى ظل الخلافة الفاطمية، والمرابطية، والموحدية إلى ثلاث دويلات لعبت كل دويلة منها دورها فى المغرب .. فكانت دولة الحفصين فى المغرب الأدنى، ودولة بنى زيان فى المغرب الأوسط، ودولة بنى مرين فى المغرب الأقصى، وقد ظهرت تلك الدويلات على انقاض دولة الموحدين. وقد لعبت كل دولة من هـذه الدول دورها السـياسى، والعسـكرى، والحـضارى، والثقافى، والعمرانى بقدر ما أتاحت لها الظروف، وساهمت فى دفع حركة التاريخ نحو الاتجاه الذى تريده كل دولة.

وقد قسمت هذه الدراسة إلى ثلاثة أبواب، وقسم كل باب إلى عدة فصول كل فصل منها يعالج موضوعاً متمماً للذى قبله ومتصلاً فى حلقة دراسية تؤدى فى النهاية إلى الهدف من وراء تلك الدراسة.

وعالجت فى **الباب الأول** انهيار دولة الموحدين، وظهور الإمارات الثلاث، وكان الفصل الأول عن كيفية ظهور دولة الحفصين، وما هى العوامل التى ساعدت على

ظهورها، والفصل الثانى عن الدولة الحفصية فى عهد أبى زكريا عبد الواحد وإعلان استقلالها عن الدولة الأم (الموحدين) فى المغرب الأقصى والفصل الثالث عالجت فيه دور الخليفة المستنصر فى إعلان الخلافة، وبنى حفص، والغزوة الصليبية على تونس، وكذلك الفصل الرابع يعالج موضوع الخلافاء الحفصيين الذين حكموا البلاد بين الغزوة الصليبية ودور كل منهم فى أحداث المغرب الأدنى. وكان الفصل الخامس فتحدثت فيه عن سيطرة بنى مرين على تونس وحكم بلاد المغرب الأدنى وجاء الفصل السادس، وهو عن الدولة الحفصية بعد طرد بنى مرين من الديار الحفصية. وكان الفصل السابع عن سلاطين بنى حفص فى ظل الخلافة العثمانية حتى سقوط الدولة. وفى الفصل الثامن تحدثت عن علاقة الدولة الحفصية بالدولة المجاورة لها فيما عدا بنى زيان، وبنى مرين؛ لأن هذه العلاقة جاءت فى نهاية البحث فى فصل خاص. ثم الفصل التاسع والأخير فى الباب الأول، وهو عن مآثر الخلافة الحفصية فى مختلف الميادين.

ثم تحدثت فى **الباب الثانى** عن ظهور بنى زيان على مسرح الأحداث فى المغرب ودولتهم فى طور التكوين، وتم تقسيم هذا الباب إلى عدة فصول، فيها الفصل الأول عن ظهور الدولة ككيان سياسى، والفصل الثانى عن الصراع مع بنى مرين وموقف بنى زيان من هذا الصراع، وكذلك الصراع مع بنى حفص ومحاولات بنى زيان الإخلال بميزان القوى فى المغرب، وجاء بعده الفصل الثالث ليعالج موضوع الدولة الزيانية فى أوج مجدها، والفصل الرابع عن القبائل العربية ودورها فى بناء الدولة، وفى الفصل الخامس تحدثت عن علاقة الدولة بالدول المجاورة والعلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية. ثم الفصل السادس عن النشاط الحضارى والثقافى والاقتصادى للدولة، وهو يعالج بصمات دولة بنى زيان فى مختلف نواحى الحياة فى المغرب الأوسط، وكانت خاتمة هذا الباب بالفصل السابع، وفيه كان الحديث عن نهاية الأسرة

اليغمراسنية الزيانية على مسرح الأحداث السياسية فى المغرب الأوسط.

وثالث أبواب الدراسة عن بنى مرين على مسرح الأحداث فى المغرب الأقصى كسابق التقسيم؛ فقد قسم هذا الباب إلى عدة فصول منها الفصل الأول عن بداية ظهور الدولة ومراحل تكوين الدولة، ودور القادة فى بناء كيانها، وفى الفصل الثانى كان الحديث عن جهاد بنى مرين فى الأندلس والدور الذى قاموا به دون غيرهم فى المغرب فى تحمل عبء الدفاع عن قضايا مسلمى الأندلس، وفى الفصل الثالث كان موضوع هذا الفصل عن دور البحرية المرينية فى تحمل العبء الأكبر فى قضايا الأندلس، وحماية سواحل البلاد، وفى الفصل الرابع تحدثت عن المد المرينى فى المغرب الأوسط والأدنى؛ على حساب بنى زيان وبنى حفص، ومحاولات توحيد المغرب الإسلامى، والفصل الخامس تحدثت فيه عن مظاهر وحكم بنى مرين وإنجازاتهم فى المغرب الأقصى فى مختلف الأنشطة السياسية والفكرية والحضارية والثقافية وغيرها من المجالات، وفى الفصل السادس قسمته إلى فصلين وإن كان الموضوع واحدا؛ بحيث صار الفصل السادس عن السياسة الخارجية لسلطنة بنى مرين، والفصل السابع عن العلاقات السياسية، والثقافية، والاقتصادية؛ بين بنى مرين وبنى زيان، وبنى حفص الدويلات الثلاث؛ ثم الفصل الثامن عن نهاية الدولة المرينية وسقوطها.

ثم جاءت بعد ذلك **خاتمة البحث**، وهو ما توصلت إليه من نتائج فى تلك الأبواب الثلاث بفصولها المختلفة، وفى نهاية النهاية .. كانت قائمة المصادر والمراجع العربية المخطوط والمطبوع منها، كذلك الرسائل الجامعية التى عولت عليها كثيرا لاسيما الرسائل التى كانت تعالج مثل مواضيع الدراسة؛ حيث كانت المدد والعون فى ظهور هذه الدراسة إلى حيز الوجود، وقد أعاننى كثيراً، وإن كانت لم تؤد الهدف المقصود من وراء تلك الدراسة فيما استدعى بذل الجهد المضاعف بحثاً وراء العديد من الحقائق والمواضع التى لم يصل إليها الباحثون، ولم يعالجوها فى دراستهم .. فكانت

تلك الدراسة بهذه الصورة لاسيما أن جميع الرسائل الجامعية، التى اعتمدت عليها لم يحاول دارسوها الاعتماد على المصادر الأجنبية؛ إلا النذر اليسير الذى جاء فى رسالة واحدة، ولم يتعد أصابع اليد الواحدة، ومن هنا .. يدرك المرء أهمية الاطلاع والبحث فى المصادر الأوربية؛ كى يستطيع أن يخرج بنتائج علمية موضوعية سليمة لاسيما فى المواضيع التى كان الطرف الأوربى أحد أطراف الصراع، ورغم صعوبة تتبع كتابات الغربيين الذين كتبوا عن المغرب، والذين عالجوا قضاياه فى رؤيتهم الخاصة؛ إلا أن هذه الدراسة تظهر للعيان مدى تغلغل الإسلام والعروبة التى حاولت السياسة الاستعمارية العنصرية إزالة رواسبها بغية عزل المغرب عن أشقائه فى العالم العربى والإسلامى.

وفى ذلك .. فإن هذه الدويلات كانت بربرية الأصل عربية الدماء والعروق إسلامية المنهج والأصالة، ذات ثقافة أصيلة تنم عن مدى امتزاج عنصرى الشعب العربى (العرب وأبناء عمومتهم البربر)، فى بوتقة واحدة ربطت بين عناصر سكانه وساعدت كثيرا على نشر الإسلام واللغة العربية.

ورغم الجهد الذى بذل فى تلك الدراسة إلا أنها ليست القول الفصل؛ فالكمال لله وحده، وأنها قد لا تخلو من النواقص والهفوات.

وأسأل الله أن أكون قد وفيت بعض الدين لقضايا الوطن العربى الإسلامى، لاسيما ذلك الجزء الذى يحرس بوابة العالم العربى الغربية، والذى عارك الأحداث وعاركته الأحداث، حتى انتصر عليها، وها هو شاهد بأن المغرب الأصيل عروبة، والإسلام باقٍ أبد الدهر ما طالت الأحداث منه قيد أنملة.

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

الباب الأول

انهيار دولة الموحدين وظهور الإمارات الثلاث

ليس هناك جدال فى أن دولة الموحدين تعتبر من أعظم الدول فى التاريخ الإسلامى؛ فلقد بلغت بتاريخ المغرب فى تلك الحقبة التاريخية ذروتها، وتمكنت من تحقيق وحدة المغرب بأقسامه المختلفة ممتداً من برقة شرقًا إلى المحيط الأطلسى غرباً، ومن سواحل البحر المتوسط إلى مشارف أفريقية المدارية جنوباً ، هذا بالإضافة إلى سيطرتهم على بلاد الأندلس، والتاريخ يشهد بأن دولة الموحدين كانت آخر الدول الإسلامية فى المغرب، التى توحدت هذه الأرجاء الواسعة الممتدة من حدود مصر غرباً حتى ساحل المحيط الأطلسى شرقًا؛ تحت سيطرة دولة واحدة، وأن وحدة المغرب لم تقم من ذلك التاريخ حتى وقتنا الحاضر؛ حيث أنه فى هذه المساحة الواسعة بلغت الحضارة المغربية أوجاً جديداً حتى أن عصر الموحدين يعتبر العصر الذهبى فى تاريخ المغرب إلا أن نفوذ دولة الموحدين قد تقلص حتى كاد أن يصبح قاصراً على الأقسام الثلاثة للمغرب من الغرب إلى الشرق مراكش والجزائر وتونس، وهذه الأقسام الثلاثة تبدو أحسن حالاً من دولة المرابطين التى انهارت سواء فى الأندلس أو فى جنوب الصحراء. أما فى مناطق المغرب العربى .. فقد انهارت دولة الموحدين أيضاً بنفس السرعة خلال القرن السادس الهجرى الثالث عشر الميلادى إذ أخذ حكام كل من تونس والجزائر فى الاستقلال عن الدولة الأم فابتداءً من عام ١٢٢٦م استولت أسرة الحفصين على تونس واستقلت بحكمها مما أوضح أن الحالة الطبيعية للمغرب هو الانقسام الثلاثى الذى ما زال قائماً حتى الآن.

أما مراكش فقد ظلت خاضعة لحكم الموحدين لثلاثين سنة أخرى، حتى عام ١٢٦٩م حين استولت عليها أسرة بنى مرين، وهى من قبيلة زناتة، وكانت قد بدأت الحروب الأهلية والمنافسات التى انتهت بقيام حلفائهم القدامى وهم بنو مرين الزناتيون

بدخول مراكش والقضاء على آخر الموحدين عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م، وكان على رأس بنى مرين أبو يوسفيعقوب بن عبد الحى الذى ينتسب إلى بنى مرين الزنانين، وفى هذا التاريخ تنتهى أسرة الموحدين، ويحل محلهم فى المغرب الأقصى بنو مرين.

لقد كان البيت الموحدى فقيراً جداً فى الرجال فلا نكاد نجد موحدياً واحداً ذا قدرة أو كفاية فى إدارة الدولة؛ بل إننا نجد كثيراً من أبناء الدولة مسئولين عن ضياعها وانهيارها، وخاصة أبناء المنصور أبى عبد الله محمد المعروف بالعادل، وأبى العلاء ادريس المعروف بالمأمون، وأبى محمد عبد الله المعروف بالبيباسى؛ فهؤلاء الثلاثة أذلوا كيان البيت الموحدى، وخاصة أبو العلاء ادريس المأمون، وهو الذى كان السبب فى أن تعصف الرياح بالبيت الموحدى، وتقصم ظهره؛ حيث أنه كان من الضعف بحيث لم يعد للموحدين أدنى سيطرة على البلاد، وأخذ كل حاكم يستقل بناحيته التى يحكمها، وكان ضعف الموحدين قد شجع بنى مرين، وبنى زيان الزنانين على العمل على إزالة ملكهم والحلول محلهم، وتمكنت هذه الجماعة القبلية الزنانية من تحقيق أهدافها فى السيطرة على البلاد.

وعادت بالمغرب إلى عصر سيادة زناتة، وهو عصر اتصف بالفوضى والاضطراب والحروب الأهلية، وعدم ازدهار الحضارة الإسلامية وانحراف نظام الحكم عن الطريق السوى. وهكذا انهارت دولة الموحدين أمام هجمات بنى مرين الذين احتلوا العاصمة مراكش فى عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م. وظهرت على أنقاض دولة الموحدين أربع دول مستقلة هى الدولة الحفصية فى تونس عام ٦٢٧هـ/١٢٣٠م، وهى فرع لدولة الموحدين وامتداد لها ثم دولة بنى زيان (عبد الواد فى تلمسان ونواحيها بالمغرب الأوسط عام ٦٢٣هـ/١٢٣٥م، ودولة بنى مرين أو بنى عبد الحق فى فاس، وهى الدولة التى استقلت بالمغرب بعد أن قضت على خلافة الموحدين نهائياً عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩. ومملكة غرناطة، وهى آخر ما بقى للمسلمين من ممتلكات فى أسبانيا، وقد استقل بها الأحمر، أو بنو نضر عام ٦٣٥هـ/١٢٣٨م، وهذه المملكة

الأندلسية لاتدخل فى نطاق المغرب العربى، ومن هنا .. فسوف تلقى الضوء على الإمارات الثلاث، التى ورثت عرش الموحدين فى المغرب وظلت تحكم هذه البلاد حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادى العاشر الهجرى.

وقد ساعد على انهيار مملكة الموحدين ما انتهت إليه من اضطراب نتيجة صغر سن السلاطين وانصرافهم عن تطبيق الشريعة الإسلامية واستئثار ذوى قرباهم بالنفوذ واستقلالهم من أجل مصالحهم الخاصة مما ساعد على ازدياد حدة الثورات الداخلية التى لاحقت الخلفاء الموحدين مما اضطرهم إلى حكم استبدادى قائم على القتل وسفك الدماء، ومن ثم .. سارت الأمور على هذا النحو من الضعف الذى أدى إلى نهاية الدولة بالصورة التى انتهت إليه، وهكذا .. كان ضعف السلطة الموحدية فى المحافظة على الدولة فى المغرب والأندلس قد أدى إلى ظهور هذه الزعامات المحلية التى استقلت فى أماكنها بالمغرب وأقامت دولاً لعبت دوراً لا يماثل الدولة الموحدة الواحدة دولة الموحدين.

وعلى أية حال فقد انفرط عقد الغرب العربى فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر، وغابت شمس امبراطورية البربر إذ اضمحلت دولة الموحدين، وحلت بالتدريج محلها الدول الثلاث السابق الإشارة إليها، وقد حاولت كل دولة من هذه الدول الثلاث أن تبسط نفوذها على كل المغرب مباشرة، وتأسيس دولة كبيرة على نمط الموحدين. ولم تعترف هذه الدول بعضها البعض بالاستقلال فاستمرت الحروب فيما بينهم وربما وقعت الحرب بين الأمراء المرشحين للحكم فى الدولة الواحدة، ولتقارب القوى الحربية والسياسية لكل منهم لم ينحسم النزاع.

ولقد كانت دولة الحفصيين أسبق الدول الثلاث ظهوراً، وأوسعها انتشاراً؛ حيث أعلن عن تكوينها رسمياً عام ١٢٢٧م، واستمرت دولة مزدهرة حتى عام ١٥٧٤م؛ بفضل سهول تونس الزراعية، وتجارتها مع جنوب أوربا والسودان، وقد اتسع نفوذ هذه الدولة فامتد من طرابلس شرقاً إلى عنابة غرباً.

ومهما يكن .. فإن دولة الموحدين تمكنت من مواصلة العمل المجيد الذى بدأه المرابطون من إقامة صرح الحضارة المغربية؛ فقد حفل القصر الموحدى بالعديد من المشروعات وخلقت بعدها حضارة زاهرة وكانت دولة مميزة وأن تلك الدولة تدهورت قبل الأوان ولم تصل الى غايتها ورغم كل هذا فقد فشل الموحدون فى ذلك الوقت فى نشر مفهوم مضمون الدولة والحياة الحضرية بين القبائل البربرية والعربية العديدة ، وخصوصا أنهم كانوا دائبين على التميز فى جميع مجالات النشاط بين قبائل مصمودة وزناتة من جهة وبين باقى قبائل البربر من جهة أخرى وكان هذا الفشل معناه ضعف مقاومتهم الشديدة للبدو المستمر من جهة ولاحظ ازدياد القوة الأسبانية المعادية ولتفادى ذلك قسم الموحدون حكومة امبراطوريتهم مع أواخر القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر الى قسمين شرقى وغربى حيث أعطوا للحفصين حكم الجزء الشرقى من الأمبراطورية فى تونس .

ولقد استطاع الموحدون أن يصدوا تيار الجماعات البدوية المتدفقة عليهم وأن ينجحوا فى ذلك نجاحا كبيرا ولكن الحروب ضدهم زادت حدتها بعد تحطيم وحدة المغرب ومن ثم أخذ الجزء الغربى من المغرب العربى يقاسى من جراء هزيمته من أسبانيا عام ١٢١٢ هـ فى موقعة العقاب ومن ثم سيطرة قبائل زناتة على المداخل الشرقية لمراكش فى حين أصبحت تونس تحت حكم الحفصين لجزء مستقل عن بقية أجزاء المغرب العربى واستقلت بأفريقية .

أما عن دولة بنى عبد الواد (بنى زيان) فقد ظهرت فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى واتخذت من تلمسان حاضرة لها وقد ازدهرت هذه المدينة فى هذه الفترة اذ كانت مركزا ثقافيا ولم تحكم دولة بنى زيان سوى الجزء الغربى مما يقابل الجزائر حاليا وقد كانت هذه الدولة مطمع حكام تونس (بنى حفص) والمغرب الأقصى (بنى مرين) كما كانت مدنها الساحلية تكون جمهوريات مستقلة أشبه بالجمهوريات القائمة على السواحل المواجهة لايطاليا ومن ثم فقد أدى هذا التفكك الى طمع

الصقليين في الجزائر فغزوا بعض مدنها الساحلية واحتلوها فترة خلال القرن الرابع عشر ولم تحقق الجزائر وحدتها الاقليمية الا في العهد العثماني .

ومما هو جدير بالذكر أنه كان بين سكان هذه الدولة بعض القبائل الزنانية التي كانت تمثل عناصر رعوية ترعى الماشية غير عابئة بثراء تونس في الشرق ومراكش في الغرب على السواء .

وأما في المغرب حيث المغرب الأقصى فعاصرت الدولتان السابقتان دولة بنى مرين التي ينتمي قادتها الى قبيلة رناتة البربر وقد بدأ ظهورهم في جنوب مراكش في بداية القرن الثالث عشر ثم انتشر نفوذهم الى فاس ومكناس واخيرا استولوا على مدينة مراكش عام ١٢٦٩ م وقد ورث المرنيون بحكم موقعهم الجغرافي تقاليد سياسية الموحدين في الأندلس القائمة على تقديم المساعدات للمسلمين هناك وللأسف فقد دب الخلاف بين المرنين ودولة بنى الأحمر حول تملك بعض الموانئ على شاطئ الأندلس مما عرض مراكش لغزو الدول المسيحية ولا سيما بعد أن سقطت سبتة في أيدى البرتغاليين عام ١٤١٥ م .

وهكذا ورثت هذه الدول الثلاث عرش الموحدين الذى كان يحكم هذه البلاد من عاصمة واحدة بينما تمزقت الدولة الى ثلاثة عواصم في تونس وتلمسان وفاس .

* * * *

الفصل الأول

كيف ظهرت دولة الحفصين

كانت وفاة الخليفة يعقوب المنصور الموحدى عام ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م قد أثارت حزنا عميقا في الأوساط الاسلامية نظرا للدور الكبير الذى لعبه في حركة الجهاد الاسلامي في الأندلس الا أنها في نفس الوقت حركت أطماع الطامعين من أعداء الدولة الموحدية من جديد فعاد بنو غانية حكام جزر البليار ـ ميورقة ، منورقة ، يابسة) الى شن غاراتهم على افريقية وتونس وتمكنوا من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسى جريا على عادة اسلافهم من المرابطين ، كذلك حاول عبد الله بن غانية فى عام ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠ م أن يسترد جزيرة يابسة من أيدى الموحدين ، الا أن اسطول الموحدين انتصر عليهم بعد أن اشتبك مع أسطول ابن غانية فى معركة بحرية ، وفى عام ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م استعاد الموحدون مدينة تونس والمهدية من بنى غانية وأحلافهم من عرب بنى هلال ثم أنزلوا هزيمة حاسمة على آخر رجـال (بنى غانية وهو يحى بن أبى اسحاق) واختار الناصر أكبر رجال الدولة الموحدية وهو أبا محمد عبد الواحد بن أبى حفص شيخ قبيلة هنتانة واليا على أفريقية وأطلق يده فى تلك الولاية وجعله بذلك واليا مستقلا فى ذلك الجزء الكبير من دولة الموحدين وبدأ أبو محمد عبد الواحد عمله فى أفريقية بنصر كبير أحرزه على يحيى بن أبى اسحاق بن غانية المنورقى فى اقليم الزاب عام ٦٠٤ هـ / ١٤٠٧ م وكان هذا النصر نهاية دولة بنى غانية وعرب بنى هلال فى أفريقية والمغرب الأوسط وتثبيتا لأقدام أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص فى أفريقية وبالفعل بدأت دولة الموحدين تنقسم الى قسمين .

وكان من رأى الخليفة الموحدى أبى عبد الله محمد الناصر لدين الله ابن المنصور (٥٩٥ هـ / ٦١١ هـ ١١٩٩ - ١٢١٤ م) أن استقرار نفوذ الموحدين فى أفريقية لن يثبت الا بالإستيلاء على جزر البليار جميعها حيث أنها قاعدة بنى غانية ومصدر

المتاعب التى يواجهها الموحدون فى أفريقية لهذا صمم الناصر على السيطرة ونجح الأسطول الموحدى فى السيطرة على هذه الجزر الشرقية أو جزر البليار وقبض على ابن غانية وأرسل إلى مراكش ومن ثم رأى الخليفة الموحدى أن يتبع ملوك بنى غانية فى أفريقية فتحرك اليهم بجيشه وأسطوله عليهم ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م واستولى على تونس والمهدية وفر يحيى بن غانيه بأهله وولده الى صحراء طرابلس ثم رأى الناصر ان استمرار بقاء الموحدين فى أفريقية يتوقف على اقامة حاكم دائم يكون له مطلق التصرف فى ادارتها فاختار لهذا الغرض واليا من أقربائه وهو الشيخ عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى جد الملوك الحفصين .

وبذلك فانه يمكن القول بأنه من ذلك الوقت انتقسمت دولة الموحدين الى دولتين احداهما الدولة المؤمنية نسبه الى عبد المؤمن بن على فى مراكش ، والحفصية فى تونس نسبه الى أبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى شيخ قبيلة هنتاتة المصمودية وأحد القائمين بدولة المهدى ابن تومرت مؤسس حركة الموحدين والخليفة عبد المؤمن من بعده .

فالدولة الحفصية شعبة من دولة الموحدين كما هو واضح من العرض السابق وأنها من أصل الأسرة حيث أن مؤسسها أحد أقارب الخليفة الموحدى الناصر وترجع علاقة الحفصين بأفريقية أثر الانتصار الكبير على ابن غانية وفراره الى الصحراء عام ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م حينما فوض الخليفة الموحد محمد الناصر أمر أفريقية الى وزيره وصهره الشيخ أبى محمد بن عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى ومنحه جميع السلطات التى تخول له حكما مستقلا بهذه الولاية عن الدولة الموحدية فى مراكش (موقف الخلافة العباسة سابقا من ابن الأغلب فى تونس) وهذا الحديث يعتبر فى واقع الأمر ايذانا بقيام ولاية مستقلة فى أفريقية وتمتعها بالاستقلال التام فى حكم أفريقية بعيدا عن سيطرة الدولة المركزية فى مراكش وعلى هذا فقد استمدت الدولة الجديدة

أطلق عليها المؤرخون (ابن خلدون وغيره) الدولة الحفصية وينتسب الحفصيون الى أبى محمد عبد الواحد بن أبى بكر بن الشيخ أبى حفص عمر بن يحيى بن محمد بن وانودين بن عليه بن أحمد بن والال بن أدرين بن خالد بن السبع بن الياس بن عمر ابن وافين بن محمد بن نجية بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ولأجل هذا النسب الشريف خطب لهم بأمير المؤمنين والناس مصدقين فى انتسابهم والشيخ أبو حفص من قبيلة هنتاتة من قبائل المصامدة وهنتاتة أكثرهم جميعا وهم القائمون بدعوة المهدى بن تومرت والسابقين اليهاوأبو حفص أحد العشرة الذين بايعوا المهدى . ولما ذخل الناصر بن المنصور أفريقية عندما تغلب على ابن غانية وهزمه الناصر وطرده ورجع الى تونس أراد أن يولى أفريقية من يقوم مقامه فوقع اختياره على الوالى عبد الواحد وكان رحمه الله عالما فاضلا ذكيا فطنا شجاعا محسنا .

وتوفى أبو محمد عبد الواحد عام ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م فخلفه ابنه أبو عبد الله ابن أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص وفى ربيع ثانى عام ٦٢٣ هـ ابريل ١٢٢٦م أصدر أبو العلاء ادريس المأمون تاسع خلفاء الموحدين (٦٢٦-٦٢٩هـ/١٢٢٩-١٢٣٢م) أمرا باقامة أبى عبد الله محمد بن عبد الواحد واليا على أفريقية وجعلها دائمة فى أهل بيته ، فسار الى تونس (أفريقية) مع أخويه أبى زكريا يحيى وأبى عبد الله اللحيانى . ويمكن اعتبار ذلك التاريخ ميلادا للدولة الحفصية فى أفريقية وبنو حفص هم الذين اتخدوا تونس عاصمة لأفريقية ولكن أول من استقل بأفريقية هو أبو زكريا .

ولما استتب الأمر لبنى حفص بأفريقية وكان شأن الجالية الأندلسية عظيما فى البلاد فقد قدم الى تونس أهل البيوتات وكان فيهم من شغل مناصب هامة فى الأندلس مثل بنى سعيد أصحاب القلعة بجوار غرناطة وكذلك بنى الحسن فرحب بهم

بنو حفص وجعلوا لهم النظر فى الانتقال كما كان لهم بالأندلس وسيظل أبو حفص عمر الهنتاتى الشخص الثانى للدولة الموحدية خاصة وهو رئيس قبيلة هنتاتة أقوى قبائل المصامدة اذ ذاك ويرث أولاده مكانته وقد لقب أبو حفص بالشيخ وأهل بيته بالأشياخ بل لقب بالشيخ الجليل وكان هو كبير الدولة الحفصية .

وكان أحد أبناء أبى حفص الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص الذى قام بدور كبير فى خدمة الدولة الموحدية فى عهد الناصر الموحدى وعبد الواحد هذا هو الذى استعان به الناصر ليقضى على الثائر المرابطى ابن غانية بعد أن تمكن من ان يسيطرعلى أجزاء كبيرة من أفريقية ولم يجد الخليفة الموحدى بدا من مواجهة خطر بنى غانية الداهم فاضطر الى الخروج الي أفريقية عام ٦٠١ هـ واستطاع هزيمة يحيى بن غانية هزيمة قاسية ولم ينجح الا فى الهروب ومعه أهله من انتقام الموحدين الى الصحراء .

وقد قام الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص بدور كبير فى مقاومةهذا الثائر المرابطى وبعد أن اطمأن الناصر الى حدود أفريقية ، فكر فى ايجاد حل نهائى للقضاء على أسباب الخطر والأضطراب ويعيد الى أفريقية الهدوء وهو الذى تحتاج اليه السلطة المركزية فى مراكش ووجد الناصر أن أفريقية فى حاجة الى حاكم قوى حيث أن افريقية تقع بعيدة عن مراكش مقر السلطة المركزية ، فاختار الناصر الشيخ عبد الواحد لهذه المهمة وقد لجأ اليه الموحدون ليحمى أفريقية من عبث العابثين من بنى غانية ولقد كانت براعة الشيخ عبد الواحد العسكرية بحيث يمكن القول بأن الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن حفص كان هو الرجل المناسب لتولى هذا المنصب الهام وذكر المراكشى أن الناصر عزم على الرحيل الى المغرب فنظر فيمن يوليه أفريقية فوقع اختياره على وزيره الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن الشيخ أبى حفص فعقد له ذلك عام ٦٦٣ هـ ولقد رفض عبد الواحد هذا المنصب كثيرا وذلك لأن بنى حفص يتطلعون

ويطمعون فى مركز الخلافة وربما يكون عبد الواحد قد نظر الى مراكش والدعوة الموحدية .

ومهما يكن من أمر فانه يمكن اعتبار ولاية عبد الواحد على أفريقية مرحلة من مراحل نشأة الدولة الحفصية التى سارت بعد ذلك خطوتين آخريين فى عهد أبى زكريا وابنه المستنصر حتى استقامت دولة الخلافة ومما يؤكد أن هذه الولاية هى المرحلة الأولى للوجود الحقيقى فى افريقية استقرار الشيخ أبى محمد عبد الواحد بها وعدم تأكيده على ضرورة العودة للمغرب والدولة الحفصية ولهذا فان الحفصيين ينتسبون الى عمر ابن يحيى بن محمد بن أبى حفص كبير هنتاتة أعظم قبائل المصامدة وهم السابقون الى القيام بدعوة المهدى بن تومرت مؤسس حركة الموحدين ، وكان عمر هذا أول من تابعه وبايعه ولذا كانت مكانته تلى مكانة عبد المؤمن ولقب بالشيخ وأصبح قائد جيشه وكان اذا خرج عبد المؤمن للحرب استخلفه مكانه وظل أبناؤه يتداولون امارة الأندلس كما كان هو الذى قضى على ثورة ابن غانية فى افريقية وكانت أفريقية مكافأة له لكى يتولى حكمها مستقلا عن مراكش ويعد هذا النجاح المطرد الذى حققه ابن أبى حفص فى القضاء على خطر ابن غانية وبعض عناصر البربر الأخرى للقضاء على هذا الخطر الذى يهدد دولة الموحدين والتى ربما يعود نشاط الأعداء المسيحيين من جديد اضافة الى بدو وبربر وسط المغرب وفى سبيل درء هذين الخطرين قسم الخليفة الناصر حكومته فعين واحدا من الحفصيين وهى واحدة من أبرز العائلات التى ظهرت بين الموحدين ليحكم شرق الخلافة الموحدية من تونس . ولسوء حظ الموحدين فان الحفصين حققوا نجاحا كبيرا فى تقهقر البدو ولكن الحروب ضدهم زادت من تحطم وحدة المغرب .

وهكذا كان تعيين أبى محمد واليا على أفريقية (تونس) من قبل الموحدين ليس تأمينا للحدود الشرقية وصد غارات المعتدين بقدر ما كان أول انهيار وتمزق الدولة اذ أن ولاء بنى حفص للدولة الأم فى مراكش لم يدم طويلا ولم تكن العلاقات على

خير ما يرام ذلك لأن النصر الذى حققه الناصر والذى ثبت به حدود الدولة شرقا بانتصاره على بنى غانية والبدو والذى به استعاد سطوة وسيطرة الدولة الى هذه الاقاليم الواسعة لكن استقلال أفريقية عن مراكش كان بداية النهاية للدولة الموحدية فقد أتاح الفرصة للحكام القادمين لكى يعلنوا استقلالهم عن مراكش وقطع كل صلة لهم بالخلافة الموحدية وعلى الرغم من أنهم فرع من المصامدة هذه العصبة المجيدة من حماة الاسلام الا أنه عندما اتيحت لهم أول بادرة فى ضعف الدولة فى مراكش فانهم سرعان ما أعلنوا الستقلالهم .

وكان أول من خرج على سلطة الموحدين وأعلن الانفصال الرسمى والنهائى والتعبية هو السلطان أبو زكريا بن عبد الواحد الحفصى (٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) وبدأت فترة الدولة كامارة مستقلة فى عهد السلطان أبى زكريا ثم تحولت الى خلافة وكان لزكريا علاقة حسنة وطيبة مع امبراطور المانيا فردرك الثانى وقد ساعده ذلك فى السعى لتوسيع حدود دولته على حساب دولة الموحدين بأنه أخذ يتطلع الى مراكش العاصمة حيث أنه كان من الحكام الأكفاء وأصبحت تونس تمثل جزيرة مستقرة نسبيا مستقلة عن المغرب وبحلول عام ٦٢٧ هـ / ١٢٣٠ م كانت مملكة الحفصين المستقلة قد قويت شوكتها واستطاعت أن تكون مركز اشعاع حضارى وتجارى فقد أبرمت اتفاقات تجارية مع أوربا واجتذبت كثيرا من تجارة الصحراء اليها .

وكان تحول الامارة الى خلافة إسلامية فى عهد أبى عبد الله محمد (٦٤٦ هـ / ١٢٤٩ م) والذى اتخذ لقب المستنصر بالله وتلقب بالخليفة لعدم التزامه بالخلافة العباسية التى قامت فى القاهرة بعد سقوط بغداد على يد التتار والذى تسمى بأمير المؤمنين .

وقد دام حكم أسرة الحفصيين لتونس أكثر من ثلاث قرون اذ أن بداية حكم الأسرة كان عام ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م واستمرت حتى عام ٩٨١ هـ / ١٥٧٤ م.

ويرجع عمر بن يحيى الى أصول عربية قرشية الى نسب عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين ولا يمكن التحقق أو التأكد من صحة ذلك وقد استفاد منه ابناؤه وأحفاده لما قامت الدولة وقد كان أبو حفص عمر من أوائل الذين بايعوا ابن تومرت فاذا طبقنا مقياس الموحدين لتولى الحكم على ابن حفص وجدناه مستحقا لأن يتبوأ مكانة بين أنصار الدعوة وقد احترمت الدولة أبا حفص وجعلته ثالث ثلاثة بعد المهدى وصاحبه عبد المؤمن بن على . وقد حرص الموحدون على اعطائه لقبا كما أعطت سابقيه القابا وتلقب بالشيخ وقد لزمه هذا اللقب طوال حياته . وقد ظل الشيخ أبو حفلص مخلصا للدعوة فى حياة المهدى وبعد مماته وقد استمر الشيخ أبو حفص على وفائه واخلاصه للدولة ويقدم لها خدماته وقد شارك ابن حفص فى مهام الدولة وشارك أبو حفص فى قيادة القوات المحاصرة لوهران وقابس وغيرها من المدن ، ولم يقتصر دور الشيخ أبى حفص فى عهد عبد المؤمن على قيادة الجيوش والانتصار فى المعارك بل تعداه الى أدوار أخرى فقد كان مستشارا لعبد المؤمن الذى حرص على أخذ رأيه فى المشاكل الصعبة .

فها هو عبد المؤمن يلجأ للشيخ أبى حفص لما أراد الخروج الى أفريقية عام ٥٤٢هـ ولم يكن موقف أبى حفص موقف التابع بل كان يحرص على ابداء رأيه ولو كان مخالفا لرأى الخليفة نفسه ويظهر جليا مدي احترام عبد المؤمن للشيخ أبى حفص واضحا جدا حيث يستخدم نعتا للقب الرسمى للشيخ فيسبقه بالأجل بل يصل أمر هذا الاحترام الى أن يخص عبد المؤمن أبا حفص بابنته فيزوجه أياها .

ولقد ظل الشيخ أبو حفص طوال حياته مع الموحدين شعلة نشاط يخطط ويقود الجيوش فاتحا للمدن ومؤدبا للقبائل . فى عام ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م اغار أبو محمد عبد الواحد على قبائل سليم وغنم أموالهم وأسر شيوخهم بتونس رهينة ليرغم اتباعهم على الطاعة والتخلى عن مناصرة بنى غانية الذين تولى محمد بن عبد السلام ولى طرابلس مهاجمتهم بجوار جبل نفوسة وسلب عنادهم .

والدولة الحفصية كانت من الدول طويلة العمر قليلة المجد ربما لأنها لم تعتمد على قوة عسكرية ذاتية ولم يكن لها عماد معنوى فقد اعتمدت اساسا على قوة مصمودية قليلة واعتمدت على جند العرب من البادية والبربر والمرتزقة من صنهاجة وزنانة وربما كان أقدر أمرائهم أبو زكريا الذى أعلن استقلاله عن الموحدين وبسط سلطانه على كل أفريقية وطرابلس وخطب له على منابر الجزائر وتلمسان وطنجة ومكناسة وخطب له كذلك بنو وطاس الذين استولوا على فاس بعض الوقت وكانت له عناية بالمنشآت والعلوم والثقافة ويمكن القول أن سلطانه الفعلى كان على أفريقية وأما المغرب الأوسط وطرابلس فكان اسميا وقصير العمر .

* * * *

الفصل الثانى

« الدولة الحفصية فى عهد أبى زكريا بن عبد الواحد »

أزهى عصور الدولة

بعد أن أعلن أبو زكريا أول أبناء الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن يحيى أبى حفص عمر الفنتاتى أفريقية كإمارة مستقلة فإنه بدأ فى الوقوف ضد الخليفة الموحدى فقام بطرد عمال الموحدين من أعمالهم وحرمهم من البلاد. وقد خطا أبو زكريا خطوة تجاه الخلافة الموحدية عندما أعلن قيام الدولة الحفصية فى صورة واضحة قانونًا وأسقط اسم الخليفة المأمون من الخطبة مكتفيًا بالدعاء للمهدى والخلفاء الراشدين معلنًا بدء استقلال أفريقية عن السلطة المركزية فى المغرب الأقصى وبدأ الاستقلال الحقيقى عن الخليفة الموحدى وتلقب أبو زكريا بلقب الأمير وسك النقود والكتب والرسائل بذلك وظل يدعو للمهدى لأنه لم يرد أن يسبق الأحداث، وذلك خوفًا من ظهوره بصورة المعادى للخليفة الموحدى والخارج عن طاعة وسلطة الخليفة، ويكفى فقط أنه أزاله من الخطبة وكان خلعه للطاعة فى نفس العام الذى تولى فيه وهو عام ٦٢٧هـ، ويعتبر إعلان البيعة للأمير أبى زكريا فى نفس العام نقطة تحول كبرى فى تاريخ البيت الحفصى إذ تستطيع أن تؤرخ بها سنة ظهور الدولة الحفصية وأصبحت هناك دولة مستقلة لها شكل قانونى ودستورى وذات حدود ولها أمير بويع بالإمارة من قاضى القضاة والعلماء ورجال الدين والعامة.

وقد استطاع أبو زكريا الاستفادة من الموقف السياسى المضطرب فى المغرب الأقصى، وما قام به الخليفة المأمون من أعمال منافية للدين والتقاليد والأعراف الإسلامية. وبذلك وضع اللبنة الأولى لبناء وتكوين الدولة الحفصية التى كتب لها أن تعيش ثلاثة قرون ونصف، ولكنه كان عليه الانتظار سبعة أعوام حتى يشعر أن مكانته

قد استقرت تماماً قبل أن ينادى بنفسه حاكماً عام ٦٣٤هـ، واهتم أبو زكريا أن يظهر دولته بمظهر قوى فى أول قيامها فسعى إلى توسيع حدودها فاتجه غرباً فاستولى على قسنطينة وبجاية، وضمها إلى دولته الناشئة وولى العمال على أفريقية من قبله وجعلهم من قرابته وتولى أخوه أبو عبد الله اللحياتى على بجاية، وعين الوزراء والحكام وقبض على وزراء الموحدين ونفاهم خارج البلاد.

وعلى الرغم من ظروف دولة الموحدين ومشاكلها الخارجية والداخلية بعد معركة العقاب ٦٠٩هـ/١٢١٢.. فإن أبا زكريا لم يتقدم إلا إلى ذكر اسمه فى الخطبة مع بيعته الثانية عام ٦٣٤هـ، ولم يفكر فى التلقب بلقب خليفة ولعله نظر إلى وجود خليفة فى المغرب ما زالت له قوة لايستهان بها وأنه نظر إلى وجود خليفة ثان فى بغداد له مكانة سامية فى نفوس أهل المشرق، وبهذه البيعة الثانية عام ٦٣٤هـ استقرت الدولة مع احتفاظ أبى زكريا بنمط التوسع العسكرى وتوسيع حدود إمارته فاتجه غرباً نحو الجزائر ففتح بلاد مغراوة، ومن بعدها تلمسان.

ومن ثم .. فقد بدأت وفود البلاد المجاورة تأتى إلى الدولة الحفصية مبايعة الأمير أبى زكريا وجاءت البيعة من الأندلس والمغرب فبايعت بالنسبة وغيرها من البلاد، وعلى الرغم من أن الدولة الحفصية قد أعلنت استقلالها عن الدولة الموحدية، وبذلك فإن الدولة الحفصية هى وارثة الموحدين الرسمية فى هذا الجزء من الدولة، وفى ذلك إضفاء الشريعة على الدولة الحفصية.

ولقد شهدت الدولة الحفصية أزهي عصورها ومجدها التليد فى عهد أبى زكريا الذى يعتبر واضع بناء الدولة القوية وموطدا أركانها فقد بلغت الدولة أقصى اتساعها وسمعتها فى عهد الأمير أبى زكريا هذا الذى عمل ما وسعه للعمل على توسيع حدود دولته مستخدما الأساليب العسكرية فقد كانت حدود الدولة عندما تولى الحكم عام ٦٢٧ هـ والتى استمرت فترة ولايته عشرين عاما حتى عام ٦٤٧ هـ تمتد من

طرابلس الى ماقبل قستنطينة ثم بدأ حكمه بفتح بجاية وقسنطينة من أملاك المغرب الأوسط عام ٦٢٨ هـ وقبض أبو زكريا على والى قسنطينة ووالى بجاية واستموت فتوحاته تجاه المغرب أيضا فارتحل الى الجزائر واستولى على شلف والبطحاء واطاعته بلاد مغراوة كما أطاعه بنو منديل وبعد أن حقق أبو زكريا فتح بلاد المغرب الأوسط قام بفتح تلمسان حاضره بلاد المغرب الأوسط ودار مملكة زنانة ومتوسطة قبائل البربر وكان أبو زكريا ينظر الى المغرب الأوسط جاعله الطريق الى الاستيلاء على عرش مراكش طامعا فى أن يكون الوارث الوحيد للدولة الموحدية .

وقدتحرك أبو زكريا عام ٦٣٩ هـ وضم اليه بعضا من قبائل العرب واستطاعت جيوش الحفصين أن تدخل تلمسان وبعد أن انتهت المعركة فكر فيمن يعينه واليا على هذا الاقليم الهام فى المغرب الأوسط ووقع اختياره على يغمراسن احد أبناء عبد المؤمن فولاه ولاية تلمسان وبعض أعمال أفريقية وكان لتحقيق الانتصارات فى الأقاليم الغربية وموقف المأمون من بناء كنيسة فى مراكش ليمارس النصارى شعائرهم فيها والاستعانة بقوات من الفرنجة واعلان امارة أفريقية مستقلة سببا فى ذيوع اسم وسمعة أبى زكريا فى مختلف أقطار المغرب والأندلس فقد سارعت المدن والأقاليم لاعلان البيعة له فلم يأت عام ٦٢٩ هـ بعد توليه بعامين فقط الا وتولت البيعة له من الشرق والغرب والأندلس فقد باسعت له مرسية عام ٦٢٩ هـ وأسقطت الدعاء للعباسيين وقد وردت بيعة مرسية فى وقت مبكر وذلك بعد اعلان البيعة الأولى بأربع سنوات ، غير أن البيعة عام ٦٣٧ هـ وبايعت بلنسية عام ٦٣٦ هـ لكن ابن أبى دنيار يذكر أن بلنسية بايعت تعام ٦٣٥ هـ لوجود بيعة ابن مردنيش لأنه كان فى مأزق والمدينة محاصرة من قبل الأسبان الفرنجة ولم يمد له يد المساعدة فلجأ الى الدولة الحفصية معطيا البيعة لها فى مقابل المدد والعون المادى والعسكرى .

الا أن أبا زكريا لم يتحرك التحرك الكافى بل اكتفى بارسال المدد من الطعام

والسلاح الى بلنسية المحاصرة ولم يهتم بارسال الجند كما ارسل الطعام والسلاح لكن تراخى أبو زكريا عن النصرة الحقيقية فى حين أن موقف بنى مرين كان ارسال الجيوش مرات تلو المرات الى الأندلس ولبوا صراخ الأندلسين فى حين أنه لم يرسل جيشا لفك الحصار عن المدينة ومحاربة الفرنجة عنها ، بل أن أسطول الحفصين لم يستطيع انقاذ المدينة المحاصرة وكان بالامكان ارسال الجند كما أرسل السلاح والطعام لكن تراخى أبى زكريا عن النصرة الحقيقية في حين أن موقف بنى مرين كان ارسال الجند وأنهم لبوا صراخ بنى الأحمر الا أن ابن مردنيش ظل متمسكا ببيعة الدولة الحفصية وبعد سقوط بلشية وكذلك كانت البلاد الأندلسية التى بايعت أبا زكريا مثل مدينة اشبلية والتى أرسلت وفدا الى تونس وطلب العقد من الأمير زكريا أن يعين عليهم واليا من أقربائه فرحل اليهم ابن عمه أبو فارس بن يونس ابن أبى حفص فقدم أشبلية وقام بأمرها خير قيام بل كان من الولاة الذين عملوا الكثير من أجل مصلحة المدينة وشعبها وكان ذلك عام ٦٤١ هـ ولكن أبن خلدون وأبن أبي دينار ذكرا أن ذلك كان عام ٦٤٣ هـ ، الا أن والى الحفصين رغم الأعمال التى قام بها قد طرد من أشبلية عام ٦٤٣ هـ الى سبتة بل أن الوالى الجديد ابن الجد اساء معاملة بعض الجند وكان رجوع الوالى الجديد الى تونس بداية الاستخفاف بالمدينة من قبل النصارى وبدأوا يهاجمونها بعد أن توقفوا عن أية أعمال عسكرية أثناء حكم الأمير الحفصى لكن عندما أحس أهل أشبلية بوطأة الهجوم المسيحى عليهم طلبوا تعين أبى فارس الحفصى واليا عليهم للمرة الثانية وأن يلبى الأمير أبو زكريا الحفصى طلبهم فى امدادهم بالعون العسكرى والجند وقام أبو زكريا بعدة محاولات لفك الحصار وأرسل لأهل أشبلية وجهز لهم أسطولا وطلب من سيتة تجهيز أسطول آخر .

وكذلك كانت المرية من المدن الأندلسية الشرقية التى بايعت الوالى أبا زكريا لبيعة الطاعة وأرسلوا بطاعتهم الى الأمير الحفصى أبى زكريا الذى كان قد قوى

باستيلائه على تلمسان فى المغرب الأوسط . بالإضافة الى مبايعة بعض الأنصار فى الأندلس ولكن مدة الوجود الحقيقى الحفصى فى المرية لم يدم طويلا اذ لم يستمر أكثر من ثلاث سنوات .

ومهما يكن من أمر بيعه هذه المدن الأندلسية للدولة الحفصية فى تونس ومبايعة الأمير أبى زكريا على هذا النطاق الواسع فان ذلك يعنى امتداد النفوذ الحفصى الى هذه الديار وازدياد سمعة الدولة الحفصية وقدرتها على مد يد العون لهذه المدن الأندلسية التى كانت تقاسى من حصار وتعدى القوى الفرنجية على بلادهم ومن هنا فقد وجدت هذه المدن سندا حقيقيا استطاع أن يقدم العون المادى والعسكرى وأن يحول دون سقوط هذه المدن فى أيدي القوة المعادية .

بل أن نفوذ بنى حفص اذا كان قد غطي نطاق البحر المتوسط وصولا الى الأندلس فانه استطاع أن يصل الى المغرب الأقصى مقر الدولة الموحدية بل أن هناك مدنا مغربية اعترفت بالسيادة الحفصية وبايع الأمير الحفصى أبا زكريا . وكانت بيعة المدن المغربية تعنى دلالة قوية على وصول النفوذ الحفصى الى قلب الدولة الموحدية ذلك لأن الحفصيين كانوا يطمعون فى كرسى الحكم بمراكش وكانوا يمدون أبصارهم الى المغرب الأقصى بعد أن سيطروا عن جزء من المغرب الأوسط بل أنهم كانوا يرغبون فى المزيد من الأراضى والمدن التى تخضع لنفوذهم وكان هدف الحفصين من ذلك حصار الدولة الموحدة ثم الاتجاه الى العاصمة مراكش والاستيلاء عليها .

ولقد كانت مدينة سبتة فى المغرب الأقصى من أولى مدن المغرب الأقصى التى بايعت الدولة الحفصية وخضعت لنفوذها وكذلك مدينة طنجة ومدينة قصر بن عبد الكريم . ويؤكد أبن خلدون أن بيعة سبتة كانت عام ٦٤٠ هـ وأنه فى هذه السنة بعث أهل أشبليه وسبتة بطاعتهما للأمير أبى زكريا صاحب أفريقية وترجع أهمية هذه المواقف السياسية لمدينة سبتة بأنها لم تكن خاصة بمدينة سبتة وحدها بل شاركتها

اعلان البيعة والطاعة للأمير الحفصى مدينة طنجه وإمارة قصر ابن عبد الكريم وعين الأمير الحفصى أبو زكريا الحفصى زكريا بن يحيى الشهيد من قبل بنى حفص واليا على هذه المدينة غير أن حكم الحفصين لم يدم طويلا فى مدينة سبتة فبمجرد وصول خبر وفاة أبى زكريا الى المدينة ثار أهلها ضد الوالى الحفصى وطردوه منها وانقطعت الدعوه الحفصية وحولت الى الخليفة الموحدى المرتضى وذلك خلال عام ٦٤٧ هـ فصارت مدينة سبتة تحت حكم الموحدين حوالى سبع سنوات ولما كانت طنجة تابعة لسبتة فقد تحولت هى الأخرى للدولةالموحدية غير أن هذه المدن الثلاث (سبتة ، طنجة ، قصر ابن عبد الكريم) قد عادت الى الدخول فى طاعة الدولة الحفصية وعلى الرغم من طول مدة طاعة سبتة للحفصين وبالرغم أيضا من معاودتها لطلب هذه البيعة الا أنها لم تكن قوية فقد تأرجحت هذه المدن بين البيعة وعدمها . ومهما يكن من أمر البيعة وطولها وبقاء الوالى الحفصى أو طرده وعودته مرة ثانية فإن ذلك خير دليل على قوة الوجود الحفصى وارتفاع مكانة الأمير الحفصى بين شعوب المغرب الأقصى والأندلس بل أن نفوذ الحفصين فى بلاد المغرب الأقصى لم يكتف بهذه المدن الساحلية بل تخطاها الى داخل البلاد ليكون على مقربة من مراكش قلب الخلافة الموحدية وهذا دليل آخر قوى على قوة النفوذ الحفصى فى بلاد الموحدين ومدى قوة نفوذ الأمير أبى زكريا الحفصى لا سيما بعد أفعال الخليفة المأمون التى أثارت حفيظة الناس ضده ومن ذلك نجد أن مدينة سجلماسة تتابع الخليفة الحفصى وتدخل فى طاعته عام ٦٤٠ هـ حيث ظلت هذه المدينة تخضع لسيادة الموحدين حتى هذا التاريخ فقد حدثت خلافات بين حاكم المدينة الذى يسمى الهزرجى وبين الموحدين فلم يكن أمام الحاكم الا أن يلجأ الى أمير قوى يبعث اليه بطاعته ويطلب منه حمايته من الخطر الموحدى وبعد أن استشار معاونيه ومستشاريه فانهم أشاروا عليه بإن يرسل الى الأمير الحفصى أبى زكريا الذى قوى نفوذه وذاع صيته بعد الاستيلاد على تلمسان وخاطبه

في الدخول فى طاعته وأرسل اليه بالبيعة فبعث أبو زكريا الى عبد الله الهزرجي بقبول ذلك وثبته واليا على سجلماسة ومده بالمال والعتاد والجنود حتى يستطيع حماية المدينة والوقوف ضد الزحف الموحدى عليها وتمت الخطبة والبيعة لأبى زكريا الحفصى . على منابر سجلماسة وانحائها وفوض اليه أمرها وكانت البيعة عام ٦٤٠ هـ لكن هذه البيعة لم تستمتر طويلا اذ سارع الخليفة السعيد الموحدى فى الزحف على سجلماسة وفر عبد الله الهزرجي الى تونس محتميا بالدولة الحفصية والعيش فى حاضرتها وهكذا انتهت بيعة الأندلس مثلما انتهت اليه بيعة المدن المغربية وكذلك مدن شرق الأندلس ولم تستطيع الدولة الحفصية أن تحافظ على مكانتها وسمعتها فى تلك الديار لا سيما وأنها كانت ترنو ببصرها تجاه بلاد المغرب الأقصى والأندلس لكى تكون الوريثة الشرعية لدولة الموحدين بعد أن أصابها الوهن وبدأ الضعف يدب فى أوصالها وترك الأمور تسير على غير ما يرغب سكان هذه الولايات والمدن واهمال أمر هذه الأقاليم رغم وجود صراع كبير فى هذه المدن بين قوى أخرى بدأت تحاول أن تكون وريثة للدولة الموحدية وتعمل على ازاحة النفوذ الحفصى نهائيا من تلك الديار .

* * * *

الخليفة المستنصر بالله بن أبى زكريا الحفصى
وبيعة مكة وأهل الحجاز له بالخلافات الإسلامية

وهو أبو عبد الله محمد بن زكريا الملقب المستنصر (٦٤٧ – ٧٦٥ هـ / ١٢٤٩– ١٢٧٦م) حكم ثمانية وعشرين عاما وهو الذى تصدت قواته للحملة الصليبية الثانية التى قادها لويس التاسع الى تونس ولقى حتفه فى العاشر من محرم ١٦٩ هـ / ١٢١ أغسطس ١٢٧٠ م فذاع صيته فى العالم الاسلامى واشتهر مرة حتى خطب له على منابر الحجاز ولكن القوى العسكرية للمستنصر كانت قليلة خاصة فى البحر مما اضطره الى مهادنة القوى الأوربية وربما دفع اتاوة لهم وكانت علاقاته طيبة مع الجمهوريات الايطالية ومملكة أرغون . وبعد وفاته انقسمت الدولة وكثرت الحروب بين المتنازعين على العرش واستعان بعضهم بملوك أرغون وايطاليا وفى عام ٦٥٧ هـ وصلت الى تونس بيعة مكة المكرمة وأهل الحجاز بانشاء عبد الحق ين السبعين وقرئت على الناس فبعد ذلك تسمى بأمير المؤمنين ولقب بالمستنصر بالله وكان قبل ذلك يدعى بالأمير فقط ومن هذا التاريخ تحولت الامارة الى خلافة وذلك لعدم اعترافه بالخلافة العباسية التى قامت فى القاهرة عام ٦٥٩ هـ بعد سقوط بغداد على يد التتار بثلاث سنوات وأنه تمسك ببيعة أهل مكة له والتى وردت الى تونس قبل قيام الخلافة العباسية بالقاهرة بسنتين وهذا يستند الخليفة الحفصى والبيت الحفصى من وراثة فى اعلان خلافتهم الجديدة الى الأسس الشرعية هذا الصدد كالأصل العربى والنسب النبوى الى جانب قرابتهم للموحدين فزعموا أنهم من سلالة الخليفة أبى حفص عمر بن الخطاب ولقد حرص الحفصيون على الاعتزاز بهذا الأصل واظهاره فى كل مناسبة ونجد ذلك واضحا فى أقوال كتابهم وشعرائهم التى أطلقت على دولتهم اسم العمرية والفاروقية .

ويروى أكثر المؤرخين أن الحفصين ينتسبون الى جدهم أبى حفص عمر بن الخطاب وقيل أنهم ينتسبون الى السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله

عنهما.

وبفضل انتساب الحفصين الى قريش وانتسابهم الى الرسول ﷺ وقرابتهم من الموحدين استطاعوا أن يكسبوا حكمهم صفة شرعية وأن يقيموا الخلافة وأن يقيموا الخلافة وأن ينصب عبد الله محمد بن أبى زكريا الحفصى نفسه خليفة وتلقب بلقب أمير المؤمنين المستنصر عام ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م وهو نفس العام الذى وردت فيه بيعة أهل مكة والحجاز وشريف مكة وقاضيها . وذلك بعد زوال الخلافة العباسية من بغداد وقتل الخليفة المعتصم بالله العباسى آخر خلفاء الدولة العباسية فى بغداد بسنة واحدة وعلى أثر مقتل آخر الخلفاء العباسيين وزوال الدولة العباسية وحاجة العالم الاسلامى الى خلافة فقد بايع شريف مكة وأهل الحجاز الخليفة الحفصى أبا عبد الله محمد باعتباره وارثا للخلافة العباسية ودعا له على منابر بلاده فى مكة وكل الحجاز ولقبه بأمير المؤمنين وبذلك اكتسبت الخلافة صفة شرعية .

وأقيمت الخطبة للخفيفة الحفصى على منابر المغرب واعترف بنو مرين عند تأسيسهم دولتهم بالخليفة الحفصى وفيما سبق القول أقيمت الخطبة للحفصيين على منابر الأندلس بعد أن حلت الهزيمة بالموحدين فى موقعة العقاب فى عام ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م وزوال سلطان الموحدين وسقطت هذه البلاد فى أيدى الأسبان ولم يبق فى أيدى المسلمين سوى منطقة جبلية فى جنوب شرق أسبانيا حيث قامت مملكة غرناطة الاسلامية على أيدى بني النضير أو بنى الأحمر الذين بايعوا الخليفة الحفص أقوى حكام المغرب فى ذلك الوقت وأقاموا الخطبة على منابرهم وذلك لحماية دولتهم الناشئة من غارات الأسبان .

وقد اختلفت مصادر التاريخ الحفصى فى بيعة أهل مكة والحجاز للخليفة المستنصر بالله فقد أوردت بعض المصادر أنها أوردت فى عام ٥٦٩ هـ ولكن رأى ابن أبى دينار أنها كانت عام ٥٦٧ هـ وقد صيغت هذه البيعة بيد عبد الحق السبعين فى

ليلة القدر من رمضان عام ٦٥٦ وقد كان هذا بعد موت المعتصم على يد التتار لفترة وجيزة عندما وصل خبر بقتله الى أهل مكة فانهم بايعوا على الفور الأمير الحفصى وانتقل بيت الملك والسلطان من بغداد فى شهر رمضان ودفع بالأمر للأمام أبى عبد الله محمد بن يحيى المستنصر بالله الحفصى .

وكانت البيعة بعد التأكد من أن الخليفة العباسى قد قتل وأن الخلافة العباسية قد انتهى أمرها وأنه لا خليفة الا المستنصر الحفصى وقد احتفل الخليفة احتفالا عظيما بهذه المناسبة وورود بيعة أهل مكة والحجاز وركز الخطباءعلى أهمية مكة المكرمة وبيعتها فمن فتح الله عليه فتح مكة فقد تمت له النعمة وان الخليفة الذى لا خليفة معه وأنه لا يوجد خليفة يستحق هذا الأسم الا الخليفة المستنصر وأن الخليفة المستنصر هو الخليفة المشار اليه فى الأحاديث النبوية .

وكانت بيعة مكة المكرمة لها فعل السحر لدى شعوب المغرب العربى وكذلك لدى الرأى العام فى أفريقية وأيضا لدى المستنصر اذ أحس بعد بيعة أهل مكة والحجاز له بأنه الخليفة الأوحد فى العالم الاسلامى بلا منازع كان وقد احتفل المستنصر بهذه البيعة واحتشد القوم لسماع البيعة ودخول الحجاز فى طاعة المستنصر وربما كان سر الاهتمام هذا ببيعة مكة ذلك لأن لها مكانة عظيمة فى قلوب المسلمين حيث مهبط الوحى ومسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبلة المسلمين ومن هنا لها مكانة خاصة فى قلوب المغاربة أشوقهم الى بيت الله الحرام ، وكان وصول هذه البيعة السبب الأساسى لعلو المكانة السياسية والدينية للدولة الحفصية بعد أن بايعتها مكة المكرمة وكيف كانت هذه البيعة هى السبب الأساسى فى احياء الخلافة العباسية فى القاهرة وكان أهل تونس قد احتفلوا برسالة الحجاز أحسن احتفال وقد دخلت فى طاعة الخليفة المستنصر بالله الحفصى ودعوته ، بل أن الخليفة الحفصى قد اعترفت به بلاد المغرب جميعا من طرابلس شرقا الى ساحل البحر المحيط غربا ومن ذلك بنو مرين فى

المغرب الأقصى (٦٣٣ – ٧٩٦ هـ / ١٢٣٥ – ١٣٩٣م) الذين كونوا دولتهم على أنقاض الدولة الموحدية قد اقتدوا بملوك (بنى النضير) ، (بني الأحمر) فى غرناطة فأقاموا الدعوة للخليفة الحفصى لكى يكسبوا حكمهم صفة شرعية فى نظر شعوبهم ، وقد ظلت الحال على ذلك اعترافا بالخلافة الحفصية فى بلاد بنى زيان وبنى مرين الى أن قام الأمير يعقوب المنصور الذهبى المرينى (٦٥٦ – ٦٨٥ هـ / ١٢٥٧ – ١٢٦٨ م الدعوة لنفسه بعد أن كان بنو مرين يدعون للخليفة الحفصى . وبذلك ظهرت فى المغرب الكبير خلافة قوية هى الخلافة الحفصية التى امتد سلطانها الروحى من بلاد الحجاز شرقا والمغرب والأندلس غربا وغدت حاضرتها تونس مركزا سياسيا وثقافيا هاما جذب اليها الشعراء والعلماء والصلحاء من كافة أرجاء العالم الاسلامى ويذكر السلاوى أنه رغم تأصل الدعوة الموحدية فى نفوس أهل المغرب فان بنى مرين قدروا أنهم فى أمس الحاجة لتأييد الحفصى لهم فأقاموا الدعوة لهم تأليفا لأهل المغرب واستجلايا لمرضاتهم واثباتا لهم من ناحية وهو انهم اذا كانت صفة الدولة الموحدية قد رسخت فى قلوبهم فلعل بنى مرين الذين ينتمون الى قبيلة زناتة قد خطبوا ود الحلفاء الحفصين المصامدة الذين أقاموا الدولة الموحدية فكانت مسألة ومبايعة المرنين لبنى حفص بالخلافة ما هى الا سياسة بعيدة النظر .

وهكذا كانت الخلافة الحفصية قد وصلت الى ذروة مجدها فى عصر المستنصر بالله مؤسس الخلافة والذى كانت الظروف السياسية بالمغرب مساعدة على التلقب بلقب خليفة كذلك الظروف فى المشرق أيضا وقد كان لقب خليفة يحمله فى المغرب الخليفة الموحدى وفى تونس كان والد المستنصر بالله أبو زكريا قد وطد أساس الدولة الحفصية وبايعت له الأقاليم وسارعت دول أخرى فى المغرب تعلن عن بيعتها للدولة الحفصية وأما فى المشرق حيث الخلافة العباسية وقوة مصر والشام فلم تكن الحال بأحسن مما عليه فى المغرب ، فقد بدأ ضعف الخلافة العباسية ، بل أن المستنصر بالله

الحفصى لم يكن يهاب أى رد فعل خارجى أما رد الفعل الداخلى فقد أعد المستنصر له عدته وقوى أمر الخلافة بوجود بيعة أهل مكة والحجاز واعلان الخليفة المستنصر بالله الخلافة فى الرابع والعشرين من ذى الحجة عام ٦٥٥ هـ وبذلك فقد وصل الحكم الحفصى فى شكله السياسى الى تطور آخر فاذا كان عبد الواحد قد أرسى قواعد الوجود الحفصى فى مرحلته الأولى فإن الحفيد المستنصر بالله ابن أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد قد جاء ليستكمل آخر تطور فى شكل الحكم الحفصى لأفريقية فيتحول هذا الحكم من امارة الى خلافة وهو التطور الثالث والأخير فى شكل بناء الدولة الحفصية وقد وصلته بيعة بنى مرين عام ٦٥٢ هـ من مدينة فاس ودعى له على منابرها.

ولقد كان تلقيب العديد من سلاطين و امراء البلاد الاسلامية بلقب خليفة قد أصبح شيئا عاديا اذ أننا نجد أن لقب خليفة قد أصبح مسموعا فى العديد من ديار الاسلام ومن ذلك فانه منذ عام ٦٥٦ هـ وهو العام الذى سقطت فيه الخلافة العباسية وانتهت من على مسرح الأحداث فى العالم الاسلامى وانتهت الخلافة بنظامها القديم واختل نظامها حتى أصبح فى استطاعة كل أمير نوى تغلب على بلد من البلاد الاسلامية أن يتلقب بلقب خليفة ولم ير ما يدعوه الى الالتجاء الى الخلفاء العباسين فى القاهرة أو غيرها من بلاد العالم الاسلامى التى يقيم بها خليفة للحصول على تفويض شرعى بالحكم .

ومن ذلك نرى المغول بعد أن اعتنقوا الاسلام لا يعبأون بالخلفاء العباسيين فى القاهرة - ففى فارس اعتنق غازان الاسلام ودعى له على المنابر بهذه الألقاب وهى السلطان الأعظم وسلطان الاسلام والمسلمين وتلقب السلطان رخ بلقب خليفة فانه لم تعد هناك هيبة للخلفاء وفقدوا نفوذهم الروحى والسياسى وكان تعين الخلفاء ليس الا لمجرد طبع الشرعية على الحكم فى البلاد واضفاء روح المهابة لدى الشعوب التى

تخضع لحكم هذا الخليفة وذلك سواء فى المشرق العربى أو فى المغرب .

وكان اعلان الخلافة الحفصية بداية مرحلة جديدة وفى عهد الخليفة المستنصر نجد أنه سار الى حد ما سيرة أبيه فى اسكات الوالى الأول للدولة أبى محمد عبد الواحد بإمداده بالأموال واسترضائه بها وقد امتنع عبد الواحد فترة عن مبايعة المستنصر «وذلك لصغر سن الخليفة وأغلب الظن أن هذا التوقف عن المبايعة ليس بالفترة الطويلة»

ونعود للحديث عن أبى محمد عبد الواحد الذى رحب أهل أفريقية بولايته واستبشروا به خيرا وقام عبد الواحد بدور كبير فى مقاومة ابن غانية وقام باصلاح الأمور وأحسن التدبير وأما عن السياسة المالية فقد نفذها خير تنفيذ واستطاع أن يضع الأمور فى نصابها فى كل أفريقية .

وكان أبو محمد عبد الواحد متدينا عادلا فى معاملة الناس فأحسن اليهم واختار عمالا عادلين ومشهودا لهم بالعدل وحسن التعامل مع الرعية ، وقد قصده الشعراء والعلماء ورجال الدين ومدحه الشعراء وشهد بعدله وحكمته رجال الدين وقد توفى الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص فى يوم الخميس أول المحرم عام ٦١٨ هـ بعد أن حكم أفريقية آربع عشرة سنة وثلاثة شهور ثم بعد وفاته تم عزل أبا زيد عبد الرحمن بن الواحد بن أبى جعفر عن ولاية أفريقية لكن الخلافة الموحدية كان لها رأى بعد وفاة عبد الواحد فقد عاد ابنه الى المغرب وحكم أفريقية من عام ٦١٨ هـ الى عام ٦٢٣ هـ حاكمان من قبل الموحدين أبناء عبد المؤمن وهم السيد أبو العلا ومن بعده ابنه المستنصر والذى مات بالعاصمة تونس عام ٦٢٣ هـ ويوصف المستنصر هذا بأنه كان مفسدا ، ثم عادت الولاية الى بنى حفص مرة ثانية بعد انقطاعها عنهم لفترة خمس سنوات فى عام ٦٢٣ هـ لنبدأ مرحلة جديدة من مراحل نشأة الدولة وهى مرحلة الولاية أو الوجود القانونى للحفصين .

اذ تولى السلطة فى أفريقية أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد بن أبى حفص المعروف بعبو ودخل معه تونس أخوه أبو زكريا فى يوم السبت ٢٧ ذى الحجة عام ٦٢٣ هـ وحدثت اضطرابات شديدة فى مراكش وقد استغل بنو حفص هذا الاضطراب استغلالا جيدا لصالحهم . وبعد تولى أبى محمد عبد الله ولاية أفريقية بدأ فى عقد الأعمال والمناصب لأخوته فعهد الى أخيه أبى زكريا على قابس كما عقد لأبى ابراهيم على توزو ويعتبر هذا العمل خطوة هامة جدا فى سبيل تثبيت مكانة الحكم الحفصى .

وساءت العلاقة بين أبى زكريا وهو فى قابس وأخيه بعيو والى أفريقية وحاول الأخيران بعزله لكن المأمون الخليفة الموحدى عزل أبا محمد بن عبد الله الحفصى وكان قد وقع فيها اختلاف فخرج المولى عبد الله الى قتال أخيه أبى زكريا فتحالف عليه الموحدون وأبوا قتال أخيه فرجع الى تونس واستقر بها ثم بعد ذلك تحرك أبو زكريا إلى تونس لتملكها . أما أبو محمد عبد الله فقد هرب الى مدينة أشبلية بالأندلس واستقر هناك وتولى أبو زكريا الامارة فى تونس فى يوم الأربعاء ٦٢٥ هـ . وبتوليه أبى زكريا بدأت حلقة قوية للوجود الحفصى وسعى أبو زكريا الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة الحفصية لبناء الدولة القوية .

وكان الخليفة الموحدى المأمون قد خرج عن تقاليد الموحدين وتحالف مع الدول المسيحية بسبب زوجته حباية الرومية واستعانته بخمسائة فارس من قشتالة . مقابل التنازل عن عشرة حصون بالأندلس لقشتالة واقامة كنيسة مسيحية بمراكش وهى أول كنيسة فى تارخ المغرب الاسلامى حتى يتمكن المسيحيون من ممارسة شعائرهم الدينية وقد أرجع البعض بتوليه هذه الى أن أمه كانت حفيدة لابن مرادنيش وكذلك الى زوجته حباية التى كانت فى الاصل جارية مسيحية .

فقد استغل أبو زكريا الحفصى الفرصة ووجدها سانحة لكى يؤكد استقلاله

بالبلاد اذ ان أبا زكريا هذا يعتبر من أقوى سلاطين الحفصين فهو أبو زكريا يحيى بن أبي محمد عبد الواحد بن بكر بن أبى حفص عمر الهنتاتي ولد بتونس بمراكش عام ٥٩٩ هـ وبويع بالقيروان عام ٦٢٥ هـ وكان عمره وقت مبايعته ستة وعشرين عندما جددت له البيعة بتونس فى الرابع والعشرين من المحرم حيث جددت له البيعة مرة ثانية عام ٦٣٤ هـ وذكر اسمه فى الخطبة باسم الأمير وليس أمير المؤمنين .

وعند اضطراب المغرب فى عصر الرشيد بن المأمون بن يعقوب المنصور الموحدى فان أبا زكريا استبد بأمر أفريقية وفى عام ٦٣٥ هـ بايعه صاحب أشبلية بالأندلس زيان بن مردنيش واعترف ببيعة أشبلية للامارة الحفصية فى تونس .

وفى عام ٦٣٩ هـ استولى على تلمسان وفتحها وفى عام ٦٤٠ هـ بايعته مدينة سبتة بالمغرب الأقصى وفى عام ٦٤٣ هـ بايعته للمرة الثانية مدينة أشبلية والمرية وغرناطة من بلاد الأندلس ودخلت وفود هذه البلاد الى تونس . وكان رحمه الله من الصالحين والعلماء العاملين . وهو الذى بنى الجامع بالقصبة بتونس وبنى صومعته العجيبة وكان بناؤها عام ٦٢٩ هـ . وكذلك بنى المدرسة التى بسوق الشماعين وبنى سوق العطارين ووفد على تونس فى عهده العلماء والشعراء وأهل الصلاح وجمع بعدله وحسن سياسته أموالا لا تحصى وكانت له مكتبة بها ستة وثلاثة ألف مجلد وقد توفى عام ٦٤٧ هـ ودفن بجامع مدينة بونه بغرب البلاد الحفصية وكانت فترة حكمه بعد البيعة الثانية اثنين وعشرين عاما وقد أعيد دفنه مرة ثانية فى مدينة قسنطينة وكانت وفاته آخر جمادى الأخيرة وهو ابن تسعة وأربعين عاما .

وقد ترك من الأولاد الذكور أربعة هم محمد المستنصر وأبو اسحاق وأبو بكر وأبو حفص عمر .

وبعد وفاته تولى امارة الدولة فى تونس أكبر أبنائه الأمير أبو عبد الله محمد وهو

ابن أبى زكريا بن أبى محمد عبد الواحد بن أبى بكر بن أبى حفص عمر بويع صبيحة الليلة التى توفى فيها أبوه يوم الجمعة ٢٧ من جمادى الآخرة عام ٦٤٧ هـ وعمره اثنان وعشرون عاما وقد تمت مبايعته عام ٦٥٢ هـ ووصلت بيعة بنى مرين من مدينة فاس ودعى له على منابرها وفى عام ٦٥٧ وصلت بيعة مكة وقرئت على الناس فعند ذلك تسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالمستنصر بالله وكان قبل ذلك يدعى بالأمير . وفى عام ٦٦٠ هـ تحرل الى قبائل رياح العربية وكان الخليفة المستنصر بالله قد تضايق من موقف قبائل الزواودة العدائى فزحف عام ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م وهاجم رياح حتى وصلت قواته الى المسيلة آخر أوطانهم ففر الزواودة الى الصحراء جنوبا وارسلوا فى طلب الصلح والعودة للمبايعة فأوعز المستنصر لولى بجاية الشيخ أبى هلال بن عياد بن محمد الهنتاتى بالتظاهر بقبول الصلح والغدر بهم وقبض على زعماء رياح وأرسلهم الى المستنصر فأمر بقتلهم وقد شملت حدول الدولة الحفصية على أراضٍ واسعة حيث كانت تشمل الأراضى التى تقابلها اليوم طرابس الغرب فى ليبيا وكل مساحة تونس الحالية والجزء الغربى من الجزائر حيث كانت تشمل ولاية قسنطينة وبجاية وولاية عنابه وتدلس وتسمى حاليا وليس فى الغرب وكذلك تمتد جنوب ورقلة فى الصحراء الجزائرية وبذلك أصبحت الخلافة الحفصية دولة ذات حدود سياسية ثابتة بل أنها كانت تتوسع على حساب الدولة المجاورة .

ولقد كانت هناك العديد من الأسباب والأسانيد التى دفعت بنى حفص الى اعلان خلافتهم الجديدة والتى كانت تستمد أطرها وأساسها من الشرعية فهم كانوا ينتمون الى الأصل العربى والنسب النبوى الشريف والى جانب قرابتهم للموحدين ادعوا أنهم من سلالة الخليفة أبى جعفر عمر بن الخطاب وعللوا ذلك بالكثير من الأسانيد بل أنهم حرصوا كل الحرص على الاعتزاز بهذا الأصل والنسب القريشى الشريف والمحاولة نشر هذا الادعاء بين الرعية بل أننا نجد ذلك أكثر وضوحا فى أقوال كتابهم وشعرائهم التى أطلقت على الدولة الحفصية اسم الدولة العمرية (نسبة الى

عمر بن الخطاب ، أو الدولة الفاروقية (نسبة أيضا الى الفاروق عمر بن الخطاب) وكان الخليفة أبو عبد الله المستنصر بالله الذى أعلن الخلافة من أقوى امراء بنى حفص اذ أن أقدامه على اعلان الخلافة وتلقبه بلقب أمير المؤمنين يقتضى شجاعة فائقة وقدرة على مجابهة الأحداث ، بل ان سمعته قد وصلت الى أنحاء العالم الاسلامى فنجد مسلمى الأندلس سيتجهون اليه ويطلبون منه العون فبعث بأسطوله الحفصى الى مدينة بلنسية وحاصرها ومن ثم فقد امتد النفوذ الحفصى الى الأندلس وأكثر من استقدام الأندلسيين الى بلاده لكى يستفيد بهم فى أعمال الدولة نظرا لمهارتهم وخبراتهم فى شتى الفنون وكذلك لكى يوازن بينهم وبين قوة البربر الذين كانوا عصب الدولة لا سيما بعد أن قام البربر ببناء الدولة .

وكانت سياسة الحفصين التقرب الى العرب فلجأ الحفصيون الى بنى سليم وأنزلوهم بالقيروان وبلاد قسنطينة فصاروا حلفاء لهم وتمكنوا بمساعدتهم من طرد أعداء الدولة من شرق أفريقية الى غربها . كذلك استعان الحفصيون بالعديد من القبائل العربية الذين أقطعوهم الكثير من البقاع وحرص الحفصيون على جذب مودتهم واستخدامهم فى الحروب . وليس أدل على سياسة التقرب الى القبائل العربية من أن السلطان أبا العباس أحمد تزوج من عرب المحاميد فى طرابلس وهم فرع من قبائل بنى سليم وهذا يفسر ازدياد سلطة العرب فى عهد ابنه أبى فارس عبد العزيز بحكم كونهم أخواله .

وقد اعتمدت الدولة الحفصية على بعض زعماء العرب فى ادارة بعض ممتلكاتها فأسندت الى بعض العرب النازحين من بنى هلال ولاية الزأب وكذلك ولاية بلاد قصطيلة وكانت الولاية فى هذه القبائل من قبل الموحدين فأبقى الحفصيون على ود هذه القبائل باستمرار حكمهم لهذه البلاد التى كانت تقطعها لهم الدولة الموحدية .

* * * *

الفصل الثالث

الخليفة المستنصر بالله والغزوة الصليبية

ليس هناك أدنى شك فى أن موقع الدولة الحفصية فى تونس وسيطرتها على الساحة المتميزة من ساحل البحر المتوسط الممتدة من طرابلس شرقا الى عنابة غربا قد هيأ لها اتصالات وثيقة مع الدول الأوربية المواجهة لها من حوض البحر المتوسط ولا سيما جزيرة صقلية وقصربة وايطاليا وساحل فرنسا الجنوبى ولقد كان لهذه الصلات أبعاد عديدة اذ اتخذت هذه الأبعاد اشكالا مختلفة طبقا لما كان يسود العلاقة من حرب أو سلم وطبقا للجو العام الذى يسود منطقة حوض البحر المتوسط .

وكانت سياسة الحفصين منذ الخليفة المستنصر بالله الحفصى تقوم على حسن الجوار واتباع سياسة التقرب مع كل الأطراف فنجد أنه أقام علاقات الود ، مع كل يد امتدت اليه بالصداقة فتقرب الى شارل انجو صاحب صقلية وكذلك أقام علاقات مع أسرة هنشاوقن فى المانيا لكن حدثت بعض الأحداث الداخلية فى صقلية مما استدعت من شارل أنجو ملك صقلية أن يطلب مساعدة من الخليفة الحفصى لكن الحفصى رفض مساعدته فما كان منه الا أن هرب من الجزيرة الى أخيه القديس لويس التاسع فى فرنسا يشجعه بالاغارة على الحفصين .

ورغم أن المصادر الأوربية والمعاصرة للحملة تغزو قيامها لعدة أسباب متعددة ومتنوعة والتى منها نجاح مصر فى صد الحملة الفرنسية على المنصورة والهزيمة النكراء للحملة عام ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م فكانت الحملة هذه التى ذهبت الى تونس قاصدة مصر لكنها تحولت الى تونس بتأثير وتوجيه شارل دى انجو ملك جزيرة صقلية وشقيق لويس الذى كان على خلاف شديد مع الخليفة المستنصر بالله الحفصى فطمع فى استغلال هذه الحملة لتحقيق أهداف شخصية ولتصفية حساب مع خليفة تونس وتدعيم

ملكة ومد نفوذه الى تونس مستغلا شارة الصليب التى كانت رمز الحروب الصليبية والتى كان الصليب منها براء بل أنها كانت لأهداف توسعية واطماع اقتصادية واستعمارية كما أن بعض المصادر يذكر أن سبب توجيه شارل دى أنجو للحملة الى تونس أن الخليفة المستنصر بالله الحفصى كان يأوى عنده بعض أعداء شارل أنجو وهم الذين قاموا بالثورة فى جزيرة صقلية واستطاعوا الهروب الى تونس مما أساء الى شارل ملكها .

كذلك تطلع شارل الى اضافة اقليم ذى موقع استراتيجى ومميز وهام على الساحل الافريقى وذلك خدمة للحركة الصليبية التى لا زالت تحلم فى السيطرة على العالم الاسلامى شرقه وغربه . اضافة الى أن شارل دى انجو استغل سماحة المستنصر بالله وحسن معاملته للمسيحين والفهم السئ بخلق الاسلام والمسلمين فى التعامل مع أهل الديانات الأخرى وليس كما أشار العديد من كتاب العصور الوسطى عن جهل وعدم فهم وتعصب بغيض بأن الخليفة المستنصر بالله كان لديه استعداد للتنصر والتحول الى المسيحية بعيدا عن الاسلام وتلك فرية كاذبة اذ كيف يفعل الخليفة الرجل الأول فى الدولة الحفصية معلن للخلافة ويعتز بالنسب النبوى القرشى بل يطلق على الدولة العمرية والفاروقية تيمنا بالخليفة عمر بن الخطاب ويكون عنده أدنى استعداد للتخلى عن عقيدة الاسلام السمحة كما اشار ذلك (ستيفن روتشن ، جو تقيل ، جون) لقد كان المستنصر بالله حسن العقيدة طيب الخلق عميق الايمان حافظا للقرآن الكريم دارسا لعلوم الدين الاسلامى بل كان حجة قوية ، وهكذا تصور شارل دى انجو خطأ فكرة أن اظهار قدر من القوة للخليفة كفيلة بأن تجعله يعلن اعتناقه للمسيحية (تصور كاذب وباطل ولا يتفق مع أدنى تعقل وفهم مبادئ الاسلام الخالدة لكن ابن أبى دينار فى كتابه المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس وهو من المصادر التونسية فانه يجعل السبب القوى لقيام هذه الحملة الى تونس أن الخليفة المستنصر بالله الحفصى تناول سيرة

الملك لويس التاسع باستهزاء لا سيما بعد أسره فى دار أبن لقمان فى المنصورة بمصر وسجنه وافتدائه وجمع التبرعات له من أوربا وكان ذلك السبب المباشر الذى أثار عقب الملك لويس فحول قواته الى تونس بدلا من مصر انتقاما لكرامته وهذا بكون على جانب من الصحة وليس كقول جونفيل مؤرخ حملة لويس التاسع بالضغط على المستنصر بالله لاعلانه اعتناق المسيحية . وقد تكون أهمية الموقع الاستراتيجى لتونس بالنسبة لصقلية والدول الأوربية وراء رغبة شارل دى انجو فى بناء دولة على الساحل الأفريقى .

ووصلت الحملة الى الشواطئ التونسية فى ١٨ يوليو ١٢٧٠ م وعلى رأسها لويس التاسع وأبناؤه الثلاثة وأخوه شارل انجو وخلفاؤه من ملوك وأمراء أوربا ، فحصن الخليفة المستنصر بالله موانئ تونس واستنجد بالعرب ونقل عاصمته الى القيروان وكان وصول الحملة فى النصف الثانى من يوليو وهو أشد أوقات الصيف فى أفريقية حرارة ونظرا لعدم قدرة الأوربين على تحمل الجو شديد الحرارة فقد تفشى المرض فى المعسكر الفرنسى فوقع الأمراء والفرسان والعساكر فريسة للمرض الشديد وكان ذلك من الأسباب القوية التى جعلت الحملة ترتد على أعقابها تاركة العديد من أفرادها يصارعون المرض الشديد وتفشى الحمى بين أفرادها ، بل أن الملك لويس التاسع أصيب بحمى شوكية شديدة مات على أثرها مباشرة فتولى أخوه شارل دى انجو قيادة الحملة من بعده والتى كانت تتكون من أكثر من أربعين ألف مقاتل منهم ستة آلاف فارس وأكثر من ثلاثين ألف من الرجالة واستولى على تونس ، لكنْ شارل أدرك فشل الحملة وعدم قدرتها على تنفيذ المخطط الذى قدمت من أجله فما كان منه الا أن طلب الصلح مع المستنصر وتوقيع معاهدة صداقة وكان استيلاء الحملة على تونس فى ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م فقامت القوات الحفصية بمساعدة ومساندة العرب وغيرهم من المسلمين بمقاومة شديدة وباسلة منزلين الرعب بالأعداء وحشد الخليفة المستنصر أكثر

من أربعين ألفا من الرماة فقط غير قوات الفرسان .

ورغم سيطرة القوات الفرنسية وحلفائها على تونس المغربية لمدة ثلاثة شهور ونصف وتفكير المستنصر بالله فى الانتقال الى قسنطينة وليس القيروان كما ذكرت المصادر الأوربية حيث أنه لم يكن قد غادر تونس بعد ، ولقد كان استمرار بقاء هذه الحملة لهذه الفترة تعود لدور شارل دى انجو فى المحافظة على القوات الباقية حتى الخريف وانقاذ الحملة من كارثة محققة ولقد كان طلب الصلح من جانب شارل دى انجو يعد بمثابة رفع الروح المعنوية لأهل تونس الذين تأكد لهم أن نهاية الحملة هذه لا تقل عن نهايتها فى مصر من حيث الهزيمة والفشل ففى مصر أسر لويس التاسع وعلى أرض تونس قتله مرض الحمى ولم تحقق الحملة أهدافا فى السيطرة على بيت المقدس حيث كانت آخركلمات تخرج من فم لويس التاسع وهو يموت بالحمى الشوكية بيت المقدس .

وعقد الصلح فى ربيع أول ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م وهكذا عادت الحملة الأوربية الى بلادها بعد أن توفى قائدها وفقد العديد من رجالاتها وهى تجر أذيال الخيبة بتلك النتيجة المادية الضئيلة التى أغضبت معظم الذين اشتركوا بها حيث أنه يمكن القول أن الحملة فى مجملها قد فشلت أشد الفشل وعمت الفرحة بلاد العالم الاسلامى فى مغربه ومشرقه ، ففى المشرق ازداد ارتياح المسلمين عند سماعهم بكارثة تونس ومقتل لويس . بينما ساد الصلبيين حزن عميق لوفاة لويس التاسع دون أن يحقق أى هدف من الحملة التى قضى عدة سنوات وهو يعد لها بعد هزيمة المنصورة عام ١٢٥٠ م .

ويذكر من هذه الحملة انها نزلت الشواطئ التونسية فى ذى القعدة عام ٦٦٨هـ وكان نزولهم تونس فى جموع وافرة فرسانا ورجالا وكانت بينهم وبين المسلمين حروب طويلة مات فيها خلق كثير من الفريقين ومدة اقامة الفرنسين أربعة أشهر وعشرة أيام وفى العاشر من محرم عام ٦٦٩ هـ مات طاغيتهم وقد قيل ان السلطان بعث اليه

بسيف مسموم وقيل مات حتف نفسه ولكن الأراء تتفق على أنه مات بالحمى الشوكية من أثر الحر الشديد وأرسل الله وباء على جيشه فمات عدد كثير من جيشه وطلبوا الصلح فصالحهم السلطان مع عدم التعرض لأية جهة من بلاد المسلمين وعقد هدنة خمسة عشر عاما ثم تم الصلح .

وكانت الدولة الحفصية قد بلغت ذروة مجدها فى عهدة ذلك لانه عاصر حملة لويس التاسع على تونس وتلقب بلقب خليفة المسلمين جميعا واعترف شريف مكة المكرمة له بهذا اللقب كما قيل حاكم مصر بيبرس الدعوة له فى مصر عام ١٢٦٠ م قبل أن يقدم الخليفة العباسى الى القاهرة فى العام التالى .

وليس هناك أدنى شك فى أن تمكنه من صد الحملة الصليبية هو الذى أكسب الدولة هذا النفوذ الأدبى ومن المعروف أن لويس التاسع كان مدفوعا فى حملاته الصليبية بالروح الدينية أصلا ولذا كانت خطته تنبنى على أساس تحرير الأماكن المقدسة من حكم المسلمين مما جعله ينحرف عن هذا الهدف ويقود حملته عام ١٢٧٠ م الى تونس .

ويقال أن تسامح المستنصر الحفصى مع المسيحين جعل لويس التاسع يأمل فى أن يحوله الى المسيحية ولكن التفسير الشائع لهذه الحملة هو أن شارل انجو حاكم صقلية وأخا لويس التاسع هو الذى أغرى ملك فرنسا بتحويل حملته الى تونس لتحقيق مصالح خاصة ، ذلك لان تونس اعتادت أن تدفع مبلغا سنويا لصقلية تجنبا للقراصنة الأوربين وهذا أمر شائع فى ذلك الوقت فى حوض المتوسط بل أن الدول الأوربية كانت تفعل نفس الشئ لتجنب قراصنة الجزائر وقد كف المستنصر عن دفع الجزية عندما علا شأنه مما أثار عليه سخط حاكم صقلية ويقال بأن شارل دى انجو كان مستعدا لغزو الشرق عن طريق القسطنطينية ولكن كان لتجار مرسيليا ديون فى تونس يريدون استبقاءها وهم الذين أغروا أخا الملك للتوسط لديه .

وسواء أصابت هذه الرواية أم تلك فهذا دليل عن أن أسباب الحملة كانت اقتصادية ومن المعروف أن الأوربين دائما عندما تحيق بهم الهزائم ويمنون بخسائر فادحة فى الأرواح والعناد يعزون ذلك الى أسباب طبيعية وهكذا فعلوا فى تفسير حملة ١٢٧٠م إذ ذكروا أن الطاعون هو الذى قضى على حياة الملك وقضى أيضا على الحملة وعلى كل فقد سارع انجو بعد وفاة أخيه الى عقد الصلح وقبل المستنصر دفع غرامة حربية . .

ولهذه المعاهدة التى مدتها خمسة عشر عاما أهمية خاصة لانها أدخلت الأنظمة الأولية للامتيازات فى تونس فنصت على حرية رعاية الطرفين فى ممارسة التجارة عند الطرف الآخر وكذلك حق اقامة المسيحين لشعائرهم والسماح بانشاء المؤسسات المسيحية فى تونس وكانت الدول الأوربية هى التى استفادت وحدها من هذا النظام وكثرت الفنادق والقنصليات فى تونس قبل غيرها من بلاد المغرب وعلاوة على ذلك عرض المستنصر دفع جزية خمس سنوات بما قيمته أكثر من خمسة ملايين فرنك وذلك لتشجيع الحملة على الجلاء بسرعة . ويذكر أن السبب الذى دفع الخليفة المستنصر لدفع هذا المال أن العلجة أم ملك الفرنجة أرسلت للخليفة المستنصر أن يبذل لها ما خسروه فى مئونة حركتهم وترجع بقوتها فاسعفها السلطان لما كان العرب قد عزموا على الرحيل الى مشاتيهم فقد بعث مشيخة الفقهاء لعقد الصلح فى ربيع الأول ٦٦٩ هـ وهكذا عادت الحملة تجر أذيال الخيبة بتلك النتيجة المادية الضئيلة التى أغضبت معظم الذين اشتركوا فيها .

وتوفى الخليفة المستنصر فى الحادى من ذى الحجة عام ٦٧٥ هـ وعمره خمسون عاما وكانت خلافته ثمانية وعشرين عاما وخمسة أشهر وأحد عشر يوما .

* * * *

الفصل الرابع

خلفاء بنى حفص بعد الغزوة الصليبية

الخليفة أبو زكريا يحيى الواثق

كان هذا الخليفة هو الرابع من خلفاء بنى حفص وكان قد خرج على طاعة الدولة واستحدث ملكا فى أقاليم بجاية وقسنطنية وما اليها من أقاليم وورثه بنوه وقسموا الدولة الى قسمين وكان قد استفحل أمره ثم بعد ذلك استطاع أن يستولى على كرسى الأسرة بتونس ثم انقسم الملك بين أعقابهم ثم عاد الاستيلاء على أقاليم الدولة بينهم وقد انتهى الانقسام الى أكثر من دولتين أو ثلاث وانقسمت الدولة الى عدة أقاليم وكما وقع فى دول الطوائف بالأندلس وفى ملك صنهاجة بأفريقية (بنى زيرى وبنى حماد) فقد كان لآخر دولتهم فى كل حصن من حصون أفريقية ثائر مستقل بأمره .

وتولى ادارة شئون البلاد بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله أمير المؤمنين أبو زكريا يحيى وهو ابن المستنصر بالله بن عبد الواحد بن أبى بكر بن عمر وبويع صبيحة اليوم الذى توفى فيه والده وقد أمر برفع المظالم والنظر فى بناء جامع الزيتونة وغيره من المساجد وأحسن الى الجند وكان غير معنى بأمور الخلافة وأعباء الملك وترك ادارة شئون البلاد لمن لا يحسن رعاية الأمة ولا يحسن شيئا من سياسة الملك والرعية فأدى ذلك الى فساد الملك والأمور فى البلاد مما أثار عليه أسرة بنى حفص فخرج عليه عمه أبو اسحق ابراهيم شقيق المستنصر وكان مقيما بالأندلس وكان قد فر اليها زمن خلافة أخيه المستنصر وأقام بها زمانا وكان الخليفة المستنصر على علاقة ودية مع حكام الأندلس لمنع أبى زكريا اسحق من الخروج من الأندلس ، فلما مات المستنصر وتولى ولده أبو زكريا يحيى ولم تكن له دراية واسعة بشئون الحكم وادارة دفة الأمور لها فإنه

قصد الى أفريقية وأتى الى تونس وخلع أبا زكريا وسلم السلطة لعمه أبى اسحق وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرين يوما ٦٧٧ هـ ومات عام ٦٧٩ هـ بعدما أعتقل ومات مسجونا .

وهكذا كان ذلك الحدث والخلاف بين أسرة بنى حفص بداية تفكك الدولة الحفصية بعد المستنصر وظهور التنافس بين أبناء الأسر على الحكم وهكذا بدأت الاضطرابات ذلك لأن الواثق بن المستنصر لم يكن فى كفاءة أبيه ومن هنا استحق العزل بعد سنتين .

خلافة الخليفة أمير المؤمنين أبى اسحق ابراهيم

وهو شقيق الخليفة المستنصر وهو ابن أبى زكريا بن عبد الواحد الذى أعلن استقلال الامارة الحفصيةعن الدولة المصمودية فى مراكش بويع فى تونس فى ربيع الآخرة عام ٦٧٨ هـ وكان ملكا شجاعا وفيه غلظة ودانت له كل أفريقية واستطاع أن يمسك بزمام الأمور وفى عام ٦٨٠ هـ أرسل ابنه عبد الواحد لمحاربة البلاد وحارب هوارة وبنى رياح . وفى عهده قام بالقيروان الفضل بن الواثق وأدعى أنه أحق بالخلافة خلفا لأبيه الذى عزله أبو اسحق وفى عام ٦٨١ هـ عظم أمر الواثق وملك قابس واحتوى أكثر البلاد فأخرج الخليفة اليه جيشا من تونس وأمر عليه ابنه أبا زكريا ونزل القيروان لكنه هُزم وأدى ذلك الى خروج الخليفة بنفسه بجيش عظيم لكنه لم يغن عنه شيئا وفر أكثر عساكره فرجع الى تونس ورحل الى المغرب ولما وصل الى بجاية كان ابنه فارس واليا عليها فتنازل عن الخلافة وخلعها لابنه أبى فارس وتلقب بالمعتمد.

وفى عهده ثار الأمير أبو بكر بن موسى الكومى أحد قواد الأمير أبى اسحق الحفصى بمدينة قسنطينة وكتب للنصارى فى أسبانيا يحرضهم على ملك قسنطنية واستعان أبو بكر بملك أرغون وتمكنت القوات المسيحية من احتلال قسنطينة لمدة

خمسة عشر شهرا لكن الأمير أبا فارس بن أبى اسحق زحف اليه بجيش من العرب عام ٦٨١ / ١٢٨٢ م وحاصرها وتمكن من الاستيلاء على المدينة وقتل أبا بكر وأخاه عمران بعد القبض عليهما وتم طرد الغزاه من المدينة .

وفى عهد الأمير أبى حفص عمر عام ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م ظهر نورمان صقلية بجزيرة جربة وسواحل طرابلس ونهبوها واستولوا على ثلاثين سفينة وأسروا نحو ثمانية آلاف من شباب المدينة وعندما استولى الجنوبيون على طرابلس ثم طردهم وكذلك عندما عاود الجنوبييون بالاشتراك مع الفرنسيين مهاجمة الساحل الأفريقى والاستيلاء على مدينة المهدية عام ٧٩٢ هـ / ١٣٩٠ م تمكن الأمير أبو فارس ومن معه من العرب من استردادها بعد شهرين ونصف .

كذلك ثار فى عهد ابى اسحق بن الوزير أحد قواده بمدينة قسنطينة وكتب الى النصارى يحرضهم على ملك قسنطية وغيرها لكن أهل المدينة كتبوا الى أبى اسحق فأعرض عنهم واستعان ابن الوزير بملك أرغون وتمكنت القوات المسيحية من احتلال المدينة لمدة خمسة عشر يوما فزحف اليها الأمير أبو فارس بن اسحق ابراهيم بجيش من العرب عام ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م وحاصرها وتمكن من الاستيلاء على المدينة وأمر أبو فارس بقتل ابن الوزير وأخيه بعد القبض عليهما .

وتجهز أبو فارس بن أبى اسحاق ابراهيم والذى تلقب بالخليفة المعتمد للقاء الفضل بن الواثق وترك والده فى بجاية والتقى الجمعان بقلعة سنيان لكن المعتمد قتل ولما سمع أبوه الخبر فر هاربا فأدركه أهل بجاية وأتوا به الى الفضل بن الوثاق فقتله فى عام ٦٨٢ هـ فكانت مدته ثلاثة أعوام وستة أشهر وعشرين يوما ولجأ ابنه الثانى أبو زكريا الى بلاد المغرب وسادت البلاد فترة من الاضطراب والقلق وسفك الدماء والفجور ونفر الناس من الدعى بعد أن تمادى فى جوره وكذبه ومقته الناس ، وجاء الدور على بنى حفص لكى يعود النظام الى البلاد فظهر أبو حفص بن أب زكريا وكان مختفيا

عند بني سليم فى البادية والتقى عليه الناس فجاء الى تونس وحاصر الدعى وانكشف سره وفر بنفسه الا أنه تم القبض عليه ثم طوف به على حمار ثم قطع رأسه فكانت مدة توليه بتونس سنة ونصف غير ثلاثة أيام وذلك آواخر عام ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م .

خلافة أمير المؤمين أبى حفص عمر

هو ابن زكريا بن يحيى بن عبد الواحد أبى بكر بن الشيخ أبى حفص عمر بويع عام ٦٨٣ هـ / ١٢٤٨ م وكان خليفة عاقلا كريما لم تحدث منه عقوبة لأحد وكان يعظم العلماء والصالحين ولم يزل على أكمل الحالات فى أواخر أيامه أيام عدل وهناء وكان بنو سليم من الأعراب قد نصروه وأقاموه على عرش البلاد وكان على أبى حفص أن يوفى الدين لبنى سليم فترك لهم خراج بعض المدن وأقطعهم الأرض بالمجان .

وكانت قبائل سليم قد ثارت بقيادة أبى الليل بن أحمد زعيم عرب الكعوب وبايعت الأمير أبا حفص عمر الثانى الذى تنازل أبوه أبو اسحق ابراهيم الأول له عن الحكم وجهزت القوات الحفصية بالآلات والخيول وغير ذلك مما ساعد على احراز النصر وهزيمة ابن مرزوق وأنصاره ودخلت سليم تونس عام ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م لتعيد الدولة الحفصية مرة أخرى .

وان من نتيجة ضعف الدولة الحفصية وانقسامها والصراع بين امرائها من ناحية وتهديد الممالك المجاورة لها من بنى عبد الواد فى تلمسان وبنى مرين فى قابس من ناحية أخرى ان اضطر الحفصيون أن يكون الاعتماد على بعض القبائل العربية يكاد يكون تاما حيث أنه لم يكن من السهل على أمراء الدولة الحفصية الحفاظ على بلادهم فى حالة تخلى هذه القبائل عنهم .

وكان من أثر عودة الخلافة الحفصية مرة ثانية والقضاء على الدعى الفاطمى الذى كان يهدف الى بعث الدولة الفاطمية أن منح الأمير أبو حفص الثانى أنصاره من

العرب الاقطاعات الواسعة وجباية القبائل المستقرة مكافأة لهم رغم أن سياسة الحفصين تجاه القبائل العربية بأفريقية تعارضت مع ذلك خوفا من ازدياد قوة هذه القبائل .

بل بعض القبائل العربية مثل رياح استغلت الصراع القائم فى البيت الحفصى حول السلطة فأيد زعماء هذه القبائل الأمير أبا زكريا يحيى التأثر على عمه الأمير أبى حفص عمر وعاونوه على الاستيلاء على مدينة بجاية وقسنطينة مما أدى الى انقسام الدولة الحفصية عام ٦٨٤ هـ / ١٢٨٤ م .

وكان الأمير لما أصابه المرض الذى توفى بسببه عهد بولاية الخلافة الى ولده عبد الله محمد الا أن رؤساء القبائل والمشايخ لم يرضوا عن هذا الترشيح لصغر سن عبد الله فاستشار ولى الله الشيخ المرجانى فأشار عليه بتولية أخيه أبى عبد الله محمد بن عصيدة فقبل اشارة الشيخ وانفذ بعهده وتوفى آواخر ذى الحجة عام ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م بعد أن حكم البلاد أحد عشر عاما وثمانية أشهر وله من العمر اثنان وخمسون عاما وقام بالأمر بعده أبو عصيدة .

خلافة أمير المؤمنين أبى عبد الله محمد بن أبى عصيدة

هو ابن أبى زكريا يحيى المستنصر بالله بن أبى زكريا بن عبد الواحد ابن أبى بكر بن الشيخ أبى حفص عمر بويع عام ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م وكانت أيامه هادئة وهدنة وعافية وسلم ولا حروب نشطت الحركة التجارية والزراعية والصناعية وكانت أيامه عدل ورخاء وكانت خلافته أربعة عشر عاما ومات عام ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م ولم يترك خلفه عقبا من الذكور فأوصى بالخلافة من بعده الى يحيى أبى بكر .

* * * *

خلافة أمير المؤمنين أبي يحيى أبي بكر الشهيد

هو ابن الأمير عبد الرحمن بن الأمير أبي بكر بن أبي زكريا يحيى ابن الخليفة المستنصر بالله بن أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص عمر بويع بالخلافة يوم وفاة أبي عصيدة وكانت مدة حكمه ستة عشر يوما حيث قتل وسمي بالشهيد وكان قد خرج جنده الى أبي البقاء خالد معترضا على خلافته بعد أن كان هذا يحكم مدينة قسنطينة وتقابل معه أبو بكر لكن جيشه انهزم ورجع هو هاربا وقبض عليه فقتل ولذلك سمي شهيدا .

خـلافة أبي البقاء خـالد

هو ابن زكريا يحيى بن أبي اسحق ابراهيم بن أبي زكريا يحيى بن المستنصر بالله بن أبي زكريا يحيى عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص عمر . كان عاملا على بلد العناب وقسنطنية بعد وفاة والده أبي زكريا وكان يضع تاج الملك على رأسه ويركب بغلة عالية وذلك في حالة قيام الخليفة أبي يحيى بن أبي بكر الشهير بالحكم ولقد كان من جراء ذلك أن ظهر أكثر من واحد يدعى العرش فذهب استقرار الدولة وقام أبو زكريا الثاني ينافس خليفة تونس ومد سلطته الى قسنطنية وظل ينافسه ثلاثة وعشرين عاما حتى اذا نجح قام أبو البقاء خالد في هذا ونجح في اقصاء وقتل الشهيد يحيى بن أبي بكر وكان لما دخل تونس العاصمة أنكب على ملذاته ولهوه وترك سياسة الملك وقام عليه أبو يحيى زكريا بن اللحياني وقدم من المشرق ودخل طرابلس ورأى اضطراب الأحوال وسوء حالة الرعية والأحوال في أفريقية فطلب الخلافة فبويع بها في طرابلس وانضم اليه العرب من أولاد أبي الليل ودخل تونس أول عام ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م فاجتمع القاضي ابن عبد الرفيع بالسلطان أبي البقاء خالد وحرضه على الدفاع عن سلطته لكنه اعتذر عن القتال ودخلت القبائل العربية المدينة وأخذت البيعة من الخليفة خالد ومن معه من الجند وقتل بعد ذلك وبويع بالخلافة لأمير المؤمنين أبي يحيى بن اللحياني وكانت ولايته عامين وستة أشهر .

خلافة الأمير أبى يحيى اللحيانى

هو الأمير ابن أبى العباس أحمد بن أبى عبد الله محمد اللحيانى بن عبد الواحد بن أبى بكر الشيخ أبى حفص وقد أخذ له البيعة شيخه المزدورى ثم أقبل هو بعد فملك العاصمة تونس فى ثانى رجب عام ٧١١ هـ . ونزل المحمدية وجددت له البيعة هناك . وقد كان خليفة واعيا مدركا لأمور الرعية بالإضافة الى أنه كانت له مشاركة فى العلم والأدب وعندما تولى عرش البلاد كان قد تقدم فى السن دق وساس الأمور بخبرة ودراية وروية . وهو تاسع أو عاشر ملوك الحفصين كما ذكر ابن خلدون بافريقية وكان قد خرج عنه الملك ولحق بمصر فرارا فى طلب صاحب الثغور العربية لما تجمع لغزو تونس فأستعجل اللحيانى الرحلة الى ثغر طرابلس وركب السفن من هناك وخلص الى الاسكندرية بعد أن حمل جميع ما وجده فى بيت المال من النفائس والذخيرة وباع كل ما كان بخزائنهم من المتاع والعقار والجواهر حتى الكتب وحمل ذلك كله الى مصر ونزل على الملك الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٧ هـ فأكرم نزله ورفع مجلسه ومات عام ٧٢٨ هـ ويذكر أبن أبى دينار ان الذى كان ثار عليه من الثغور العربية هو الأمير أبو يحيى أبو بكر فعلم الأمير اللحيانى أنه لا طاقة له بقتاله ولقائه واضطربت عليه البلاد فجمع الأموال والذخائر وباع كل ما فى القصور والكتب والتى جمعها أبو زكريا بيعت فى الوراقين وجمع نحو عشرين قنطارا من الذهب سوى الفضة والقصور وغير ذلك وخرج الى قابس ثم الى طرابلس من خلال الفترة حكم فيها كل من اللحيانى وابنه أبى خرية محمد الثالث التى استمرت حتى عام ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م ازدادت سلطة العرب وأصبحت سلطة الحفصين بتونس اسمية حتى فضل اللحيانى الانسحاب الى مخيمات عرب زباب من أبناء سليم بطرابلس تاركا الأمور لابنه أبى خرية الذى عمل على الحد من سلطة العرب الذين أرهقوه بمطالبهم من ناحية والوقوف فى وجه الأمير أبى يحيى أبى بكر منافسه على السلطة من ناحية أخرى

ولكنه فشل فى المهمتين مما اضطره الى اللحاق بأبيه تاركا القبائل العربية من سليم تدافع عن استقلالها الذاتى أمام زحف الأمير أبى بكر الذى أنزل بهم هزيمة منكرة وقتل الكثير من زعمائهم وشرد الباقى فى أنحاء البلاد وسيطر على أمور تونس فى الفترة من ٧١٨ – ٧٤٧ هـ / ١٣١٨ – ١٣٤٧ م الى أن بويع ابنه أبو خزية وحكم ستة أعوام وثلاثة شهور .

وتولى الأمير أبو عبد الله محمد بن اللحيانى الذى عرف بأبى خزية خلفا لأبيه الذى تنازل عن الملك بعد أن خرج عليه أبو يحيى بن أبى بكر وكان أبو خزية مسجونا عند القاضى فأطلق سراحه وتولى الخلافة خلفا لأبيه ودخل أبو خزية تونس عام ٧١٧ هـ فى منتصف شعبان وتلقب بالمستنصر ولكن فترة حكمه للبلاد لم تطل فقد عاد عليه الكرة كما فعل مع أبيه الأمير يحيى بن أبى بكر فهرب أبو خزية الى المهدية بها وبلغ خبرة أبيه الذى كان لا يزال يقيم فى طرابلس ولم يكن قد وصل الى مصر بعد فأرسل اليه السفن التى حملته الى طرابلس وحمل ما له وأهله وسافر مع أبيه الى مصر وكانت فترة ولاية أبى خزية ثمانية أشهر وثلاثة أيام واستطاع الأمير أبو يحيى أبو بكر أن يدخل العاصمة وينادى به خليفة للبلاد والذى ينظر الى ما يحدث بين الأمراء يدرك الى أى مدى بلغت الدولة من الضعف والأنقسام وعدم السيطرة على مقاليد الأمور فخليفة يتولى الحكم ثمانية عشر يوما ، وآخر ثمانية شهور وثالث عاما ونصف والأدهى فى الأمر أن العزل والاقصاء عن السلطة الشرعية يتم عن طريق أمراء من البيت الحفصى وبدون أدنى تدخل من قبل أية جهة أخرى اللهم الا المساعدة من بعض القبائل العربية لأمير على أمير وكل ذلك أدى الى انهيار الدولة وعدم قدرتها على مواجهة الأحداث الداخلية والخارجية وطمع الطامعين فى الخارج والداخل مما عجل بالقضاء على الدولة الحفصية التى لعبت دورا هاما فى الساحة المغربية الاسلامية والدولية فى عصر السلاطين الأقوياء الذين أقاموا علاقات وطيدة مع البلدان المجاورة .

خـلافة الأمير أبو يحـيى أبى بكر

هو ابن الأمير أبى زكريا بن أبى اسحاق ابراهيم بن أبى زكريا بن أبى عبد الله محمد المستنصر بن أبى زكريا بن عبد الواحد بن أبى بكر بن الشيخ عام ٧١٨ هـ . وكان شجاعا محبوبا عند العامة والخاصة وكان لا يولى القضاء لأحد الا بعد أن يشهد فيه العدل والحكمة وشهد القضاء فى عهده أعدل أيام الدولة الحفصية حتى طلب القصاص من ابنه الذى ارتكب جناية وطلب منه الا يترك حقا حتى لو كان على ولده وكان يحب الشرفاء ويكرمهم وكان جده أبو أبو اسحاق قد أثبتهم فى زمام الموحدين لكن عندما تولى الخليفة أبو يحيى هذا أجزل للعطاء للاشراف ، وأقطعهم الأراضى والضياع وملكهم أياها وقسموها بينهم ودخل فى صراع مع بنى عبد الواحد فى المغرب الأقصى ودخل فى قتال مع العرب وانتصر عليهم ودانت له البلاد وتلقب بالمتوكل عل الله وفى حكمه فتح قائده ابن الحكيم مدينة المهدية وكانت لا تزال فى طاعة اللحيانى وولده من بعده فتحت عام ٧٣٩ هـ . وفى عام ٧٤٣ هـ أغار العرب على تونس وأقاموا سبعة أيام ثم ارتحلوا وخرج السلطان فى أثرهم وهزمهم هزيمة بشعة . وكان قد عين ولده أبا العباس للخلافة وكان ببلاد الجريد وبقية أولاده فى الأعمال التى يقومون بها ولم يبق بين يديه الا ولده أبو حفص عمر للخلافة .

خلافة أبى حفص عمر

هو خليفة أبى يحيى أبى بكر بن أبى زكريا بن أبى اسحاق ابراهيم بن أبى زكريا بن أبى عبد الله محمد المستنصر بن أبى زكريا بن عبد الواحد بن أبى بكر الشيخ أبى حفص الهنتاتى بويع يوم موت والده ثانى رجب ولم يلتفت الى عهد أبيه لأخيه أبى العباس . لكن عندما بلغ خبر تولى أبى حفص عمر الخلافة فان أبا العباس التجأ الى العرب وزحف الى تونس وحاصرت العرب تونس وأخذ زعيم العرب أبو الليل وزيره المعز بن مطاع (المعن بن مطاعن) الى الأمير أبى العباس بن السلطان ووالى قفصة

لتحريضه على الثورة ضد أبيه والدعوة لنفسه فقبض أبو العباس على الرسول وقتله ولكنه عاد ورحب بمحالفة العرب بعد وفاة أبيه أبى بكر عام ٧٤٧ هـ / ١٣٤٧ م ونازعه على السلطة أخوه الأمير أبو حفص عمرفساعدته القبائل العربية حتى استولى على تونس ولكن أبا حفص عمر تمكن من اقتحام المدينة وقتل أخاه وأنصاره من زعماء العرب البالغ عددهم أكثر من ثمانين رجلا . فعاود العرب الوفود على أبى الحسن المرينى مطالبين بثأر شيوخهم فاستغل هذه الأحداث وزحف الى أفريقية وقام بنو حمزة بن عمر وعرب الكعوب بملاحقة الأمير أبى حفص عمر الهارب وأعوانه فأدركوه .

وقامت العامة على العرب فلم يفلت الا القليل وأقام المولى عمر الى أن تحرك عليه أبو الحسن المرينى فهرب أبو حفص فأدركه أبو الحسن المرينى بتونس فقتل هناك وكانت أيام حكمه بتونس عشرة أشهر وثلاثة عشر يوما ومات سنة ٧٤٨ هـ وانتقل الأمر الى بنى مرين .

* * * *

الفصل الخامس

سيطرة بني مرين على تونس

قتل أبو الحسن المرينى الخليفة التونسى الحفصى أبا حفص عمر بجوار قابس عام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م وأصبحت تونس خاضعة لسيطرة بنى مرين حتى عام ٧٥٠هـ / ١٣٥٠ م ولذلك فاننا نجد أنه منذ قوى أمراء بنى مرين فى المغرب الأقصى فانهم بدأ يتطلعون الى السيطرة على المغرب الأوسط والأدنى (أفريقية) فلما تمكنوا من السيطرة عل المغرب الأوسط نظروا الى أفريقية طامعين فى بناء حكم المغرب الكبير وتنوعت العلاقة بين بنى مرين والحفصيين واختلفت بين الطاعة والسيطرة والاستقلال حتى وصل الأمر الى حد استعانة الدولة الحفصية بالدولة المرينية وطلب العون والمساعدة العسكرية منها للقضاء على أطماع دولة بنى زيان (عبد الواد) فى تلمسان ، الا أن دولة بنى مرين سرعان ما أظهرت اطماعها فامتدت يدها للسيطرة على الدولة الحفصية وخضعت املاك الدولة الحفصية للسيطرة المرينية لفترتين من فترات السيطرة الحربية اذ تم الاحتلال الأول فى الفترة من ٧٤٨ – ٧٥٠ هـ . فى حين بدأ الاحتلال الثانى ٧٥٣ – ٧٥٨ هـ وسيطر بنو مرين على معظم أجزاء الدولة ففى الفترة كما سبق العرض سابقا من ٧٤٨ – ٧٥٠ هـ . تولى الخليفة أبو بكر الحكم عام ٧٤٧ هـ وكان قد جعل ولاية العهد لابنه أبى العباس أحمد والى وحاكم قفصه الا أن أخاه الأصغر أبا حفص عمر بن أبى بكر تمكن من الاستيلاء على الخلافة ودخل تونس وأخذ البيعة من العلماء والعامة وقاضى القضاة وتمت البيعة لأبى حفص عمر عام ٧٤٧ هـ وقد أدى هذا العمل الى حدوث انقسام فى الأسرة الحفصية والى نتائج سيئة لمستقبل الأسرة الحفصية جميعها . اذ أسرع ولى العهد الشرعى أبو العباس أحمد الى المطالبة بحقه فى الخلافة وجمع حوله الأعوان من العرب وساعده أخوه أبو فارس حاكم ولاية سوسة الا أن أبى حفص عمر استطاع

الهروب من العاصمة تونس الى الأقاليم الغربية وتمكن أبو العباس من دخول تونس الا أن أبا حفص عمر عاد بقوات كبيرة وحشود عسكرية كثيفة العدد وتمكن من دخول العاصمة تونس والسيطرة على مقر الخلافة وقتل أخاه أبا العباس أحمد كما قتل الأخوين الآخرين وقتل عددا كبيرا من العرب الذين ساعدوا وعاونوا أبا العباس فى السيطرة على تقاليد الأمور فى البلاد ولقد كانت هذه الحادثة وما آل اليه بقتل أبى العباس السبب المباشر لتدخل بنى مرين فى شئون الدولة الحفصية واحتلال البلاد عام ٧٤٨ هـ وكانت حجتهم فى التدخل ان الأمير أبا الحسن أمير بنى مرين كان أحد شهود عقد الولاية لأبى العباس أحمد فقد شهد هذا العقد عندما أرسل أبو بكر حاجبه أبا القاسم بن عيون فى سفاره الى بنى مرين وهكذا طمع أبو الحسن المرينى فى تملك بلاد أفريقية بعد ما أحس بضعفها وعدم قدرتها على الدفاع عن سيادتها من أثر الحروب الداخلية بين أبناء أبى بكر ومقتل الأخوة الثلاثة وبقاء أبى حفص عمر فى السلطة .

وبعد ما لجأت الدولة الحفصية اليه والى أبيه طالبة العون والمدد لحمايتها من عدوان بنى عبد الواد وبعد ما استطاع أبو الحسن نفسه أن يفرض سلطانه على المغرب الأوسط ومحاولة أبى الحسن أن يكون الوارث الوحيد لعرش الدولة الموحدية فى المغرب والاستيلاء على كل المغرب الكبير كان أبو الحسن يحدث نفسه بالسيطرة على تلمسان وأفريقية .

وكان أبو الحسن المرينى قد أعد عدته لاحتلال أفريقية واستعان بقوات من بنى عبد الواد وبقوات من بقية ولاة الدولة الحفصية فى الأقاليم الحفصية ومن بعض القبائل العربية وقدمت له العون الولايات التى دخلت تحت حكمه ومنها قابس ، وتورز، قنصة ، الزاب ، طرابلس ، قسنطينة وتمكن جيش أبى الحسن المرينى من القبض على الخليفة أبى حفص عمر وعلى قائده وتم قتلهما يوم ٢٧ جمادى الأولى

٧٨٤ هـ اذ كان بعيدا خارج العاصمة الا أن الأمير أبا حفص عمر فضل القتال وفى نهاية الأمر استشهد وبهدا استولى أبو الحسن المرينى على أملاك الدولة الحفصية ودخل الأمير المرينى أبو الحسن مدينة تونس فى ٨ جمادى الآخرة عام ٧٤٨ هـ لتكون جميع أجزاء المغرب قد خضعت لسيطرته من المحيط غربا الى طرابلس شرقا . وكان السبب في سيطرته على أفريقية كما ذكر ذلك ابن أبى دنيار أن ابن تافراجين ، لما فر الى المغرب وقد أعلم أبا الحسن المريني واستحثه على تملك أفريقية فتحرك من المغرب واجتمعت عليه الأعراب وأخذ بجايه وقسنطينة وعين عماله عليها وسيطر على أفريقية وأملاك الموحدين ودخل تونس بجيوش لا تحصى وشرع فى بناء مدينة فوق سيكوم اسمها المنصورة لسكنى جيشه . وقد بايعه بتونس خمسون سلطانا فى يوم واحد من بنى عبد الواحد (أبناء حفص) والأندلس وغيرها .

ولما تملك البلاد منع العرب من أعطيتهم ومنعهم الاقطاعات فانقلبوا عليه وشنوا الغارات فى جميع البلاد وقد تزعم ثورة العرب أبو بن حمزة ضد المرنين . فخرج اليهم والتقى معهم قرب القيروان فتحصن بمعسكره وفر بمن بقى معه الى القيروان هاربا . وكان السبب فى طرده من تونس ثورة القبائل العربية اذ أنها أول من قاومت الاحتلال وكانت قد ساعدت أبا الحسن المرينى من قبل وبدءا لبعض العمليات العسكرية وكان أبا الحسن المرينى قد قبض على أربعة من شيوخهم مما زاد فى أمر الخلاف بينهما وكان أبو الحسن المرينى قد اتهم هؤلاء الشيوخ بالاتصال بعبد الواحد اللحيانى الحفصى وتحريضه على الثورة ووعدوه بمساعدته مما زاد فى أمر الخلاف بينها، لكن هذه القبائل العربية استطاعت فى ٢ محرم ٧٤٩ هـ هزيمة أبى الحسن المرينى قرب القروان وكان السبب المباشر لانهزامه انفصال قوات بنى زيان (عبد الواد) عن قوات أبى الحسن المرينى وتركها منفردة تواجه الهزيمة فأدى ذلك الانسحاب المفاجئ للقوات الزيانية الى الهزيمة وضعف موقف أبى الحسن المرينى وحاصر العرب القيروان

وذلك عام ٧٤٩ هـ فطلب السلطان المرينى الصلح وتوجه بعض الأمراء ومعهم عدد من لعرب الى تونس وحاصروا قصبتها ورموا عليها بالمجانيق وفى أثناء المعارك توسط بعض العرب من أولاد مهلهل لدى السلطان المرينى ورواً رفع الحصار عنه وأن يفرجوا عنه على مال اشترطوا عليه فوفى لهم به وساروا به الى سوسة وركب منها البحر وقدم الى تونس فلما رحل السلطان فقده أصحابه تشتت جميعهم ورحلوا عن تونس .

وفى أثناء ذلك قاد حركة المقاومة أحد الأمراء الحفصين الذين أعادهم الأمير أبو عثمان المرينى بن الحسن الذى طمع فى ملك أبيه وكان السلطان أبو الحسن المرينى قد بلغه ان ابنه عثمان استقل بملك المغرب وانه سمع بوفاة والده وقت حصار القيروان وشهد له بذلك جماعة من العلماء والعامة فأقام نفسه سلطانا على المغرب وكان الذى دفع الأمير أبا عثمان أبا الحسن المرينى أنه كان طامعا فى العرش وأن يكون هؤلاء الأمراء الحفصين الذين أفرج عنهم سدا حائلا فى الأقاليم الغربية من أفريقية بين أبيه والمغرب الأقصى والأوسط لكى يحكم هذه الأجزاء بسبب الاستيلاء على الحكم عند غياب أبيه فى تونس وقد استغل هؤلاء الفرصة وتعاهدوا مع العرب على الموت وعملوا على استقدام السلطان أبى العباس بن الفضل من مدينة بونة لطلب حقه واسترجاع ملك أبائه وانقضت أفريقة على السلطان أبى الحسن المرينى مما اضطره الى العودة الى المغرب بعد أن اشتد الغلاء وكثر الوباء فى تونس وكانت عودته أوائل عام ٧٥٠ هـ . تاركا ابنه واليا على أفريقية الا أن أبا العباس الفضل تمكن من استعادة أفريقية من أبى الحسن المرينى ودخل دار الخلافة وتمت له البيعة وانتهت فترة الاحتلال المرينى . وكان أبو عثمان بن أبى الحسن المرينى لما سمع بأن أباه لا زال حيا بعث لجميع عماله أن يصدوا أباه عن التوجه الى المغرب لكن أبا الحسن خرج من تونس وركب البحر وتوجه الى المغرب واستطاع أبو العباسى الفضل الحقيقى أن يسيطر على الموقف وأن ينهى فترة الاحتلال المرينى التى استمرت عامين وستة أشهر وخمسة عشر يوما

والتى انتهت فى ذى القعدة عام ٥٧٢ هـ . ورجع ملك أفريقية الى بنى حفص بعد أن تم القضاء على أبى الحسن المرينى .

الأسرة الحفصية بعد الجلاء الأول لبنى مرين

كانت فترة سيطرة بنى مرين على تقاليد الأمور فى تونس عامين وستة أشهر وخمسة عشر يوما حيث أشار الى ذلك ابن أبى دينار وكان للثورة التى قادتها القبائل العربية أثرها الكبير فى طرد الغزاة من بنى مرين من البلاد ، بعد أن أجمع أمراء الأسرة الحفصية على طردهم من البلاد باعتبارهم غزاة وليس ساعين لوحدة المغرب كما فعل من قبلهم المرابطون والموحدون .

آلت أمور البلاد الى أبى العباس الفضل بن يحيى أبى بكر بن أبى زكريا ابراهيم ابن أبى زكريا بن يحيى بن محمد المستنصر بن أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى بكر بن الشيخ أبى حفص عمر الهنتاتى وقد بويع بالخلافة ثانى يوم تم فيه طرد الأمير المرينى من البلاد وتمت البيعة فى أول ذى الحجة عام ٧٥٠ هـ ولما تولى حكم البلاد وكان قد تم طرد الغزاة منها فانه لم يقم بأدنى مجهود عسكرى لتأمين حدود الدولة بل ركن للراحة وشاركه العرب فى الديوان .

وكانت القبائل العربية قد ثارت على بنى مرين حينما علموا على الحد من سلطتهم وفكروا فى تقليم أظافرهم وقبض يدهم عن جباية القبائل المستقرة التى احترفت الزراعة سواء من العرب أم البربر فانقلبت أفريقية بالثورة مما اضطر أبو الحسن المرينى للانسحاب منها وقد حفظ بنو حفص الجميل للعرب . وزوج أبو العباس الفضل أخته لأبى الليل بن حمزة وذلك لكى يدعم هذا الزوج الحكم الحفصى ويفرض سيطرته على القبائل العربية .

وكان كبير قبائل أولاد أبى الليل عمر بن حمزة بالحج بمكة ومعه الشيخ أبو

محمد عبد الله بن تافراجين وبعد عودتهما من الحج اتفقوا جميعا على خلع الأمير أبى العباس الفضل بن يحيى الحفصى وكانوا قد بعثوا اليه فخرج مع جماعة له فقبضوا عليه وعلى أصحابه الذين معه وجردوهم من أسلحتهم وحددت اقامتهم بين مخيمات عرب أولاد أبي الليل ، ودخل ابن تافراجين زعيم عرب أولاد أبو الليل الى تونس وأخرج الأمير أبا اسحاق ابراهيم وأقاموه فى الخلافة وأولوه منصبا شكليا وأجلس بمجلس الخلافة وقتل الخليفة أبو العباس بعد أن دامت فترة حكمه خمسة أشهر .

ومن هنا نرى أن العرب الذين كانوا السبب فى طرد بنى مرين من البلاد أصبحوا هم أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد وأن الخلفاء كانوا يخضعوا لأوامرهم وما حدث من القبض على أبى العباس وقتله وتوليه والٍ آخر فى الدولة الحفصية بدلا منه خير دليل على ذلك .

الا ان تدخل بعض القبائل العربية فى شئون الحكم مباشرة أدى الى تذمر بعض الفصائل الأخرى فتخربت البطون ونشأ صراع فأدى الى أغتيال كبير أولاد أبى الليل والذى كان السبب فى مقتل أبى العباس الفضل فنصب العرب الأمير أبا اسحق ابراهيم المستنصر خليفة للبلاد وحيث جلس مجلس الخلافة بعد أخيه أبى العباس الفضل وزاد نفوذ العرب وخاصة ابن تافراجين الذى قام بتدبير شئون الدولة وعنت همته الى أن سلم عليه سلام الملوك وجعل كل البلاد فى يده بدلا من العرب واستبد بالشئون الداخلية وجعل القيروان وباجة وسوسة والأربس قرطاجنة تحت حكم خاصته وفى معظم بقية القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) كانت الدولة الحفصية مقسمة الى ثلاثة أقسام تونس وبجاية وقسنطينة وكان الأمير الحفصى السادس عشر أبو العباس أحمد الملقب بالمستنصر هو الذى استطاع التغلب على منافسيه وأعاد وحدة البلاد ، وفى أثناء حكم أبى اسحق بن ابراهيم بدأ الخطر المرينى يزحف على البلاد للمرة الثانية .

سيطرة بنى مرين الثانية على تونس (أفريقية)

لم يدم خروج المرينن من البلاد فى المرة أولى أكثر من خمس سنوات تولى فيها اثنان من الولاة الحفصين هما أبو العباس الفضل وأخوه إبراهيم بن أبى اسحق، وقد عانت البلاد الكثير من المشاكل فى أعقاب فترة السيطرة المرينية الأولى وعانت البلاد حياة فيها شيء غير قليل من القلق والاضطراب بسبب كثرة الحروب وحركة المقاومة وكانت تونس محط أنظار العرب، كما أن الأقاليم الغربية المجاورة لبنى عبد الواد وبنى مرين كانت مضطربة، كما أن كثرة الحروب أدت إلى انتشار الأمراض وإلى اضطراب الأحوال الاجتماعية والاقتصادية أثناء الاحتلال واضطربت كذلك الأحوال السياسية، وقد أدى ذلك الاضطراب السياسى إلى قتل الخليفة السابق أبى العباس الفضل.

ولقد تحسنت العلاقات لفترة قصيرة بين الدولة الحفصية ودولة بنى مرين عقب انتهاء مدة الاحتلال السابقة فتبودلت الهدايا بين الخايفة الحفصى والأمير المرينى، لكن أطماع الأمير المرينى أبى عنان فى ملك أفريقية أفسدت ود هذه العلاقة ذلك لأن الأمير المرينى كان يفكر جدياً فى جعل أفريقية تحت سيطرته وأنه يريد أن يحقق ما لم يستطيع أن يحققه أبوه.

فبدأ أبو عنان عام ٧٥٣هـ فى إفساد العلاقة بالخليفة الحفصى وتوطيد علاقته مع والى بجاية الحفصى الأمير أبى عبد الله بن محمد ونجاحه بعد أن تمكن من إعادة سيطرته على المغرب وقد استغل أبو عنان فرصة وجود والى بجاية الحفصى فى المغرب فأرهبه حتى جعله يتنازل عن ولاية بجاية دون إراقة دماء، وأنه لم يأت عام ٧٥٥هـ إلا وكان السلطان أبو عنان المرينى قد أخضع بجاية واستولى عليها من أيدى الحفصيين وواته الفرصة بعد أن كان طامعاً فى امتلاكها.

بعد أن انضم إلى سلطانه كل من والى قابس وطرابلس، فقد عين أبو عنان

المرينى حاكمين عليهما من قبله، وهكذا بعد أن استولى أبو عنان على كل من بجاية.. فإنه فرض سلطانه على قابس ونظر أو بدا النظر إلى قسنطية لأنها قاعدة قوية، والذى يستولى عليها يتمكن من الاستيلاء على تونس. لذا .. فإننا نجد القوات المرينية تقوم بالزحف عام ٧٥٣هـ على قسنطينة فضطر بنى مرين إلى رفع الحصار عنها، وكذلك انتهى أمر بجاية بعد أن زحف عليها عرب الزواودة وغيرهم فاضطر بنو مرين إلى فك الحصار عن بجاية.

وشهد عام ٧٥٥هـ المحاولة الجريئة الثانية لأخذ مدينة قسنطينة من أيدى الحفصيين إذ عادت جيوش بنى مرين لحصار المدينة لكن أبا عنان اضطر لفك الحصار مقابل تسليم الأمير المرينى بن عمر تاشفين الذى كان يقيم بالمدينة لاجئاً إليها وعادت قوات بنى مرين إلى بجاية وعادت محاولة ثالثة عام ٧٥٦هـ لكنها فشلت فعادت للمرة الرابعة عام ٧٥٧هـ إلا أن المدينة قاومت وصمدت وتأتى المحاولة الخامسة لأخذ قسنطينة بحجة ما فعله والى قسنطينة أبو العباس الحفصى من هجومه على جند بنى مرين فأعد أبو عنان عدته وأخذ يزحف تجاه قسنطينة عام ٧٥٨هـ ونزلت قوات بنى مرين إلى المدنية قبل وصول الحفصيين إلى ساحة قسنطينة واستطاعت أن تستولى عليها بعد حصار استمر أكثر من أربعين يوماً ويعين أبا عنان المرينى والياً عليها من قبله ويزيد حدود ما يملكه الأمير المرينى أبو عنان من تمكنه من ضم بونة إليه وفر عامل الدولة الحفصية.

ثم كان على أبو عنان أن اتجه إلى العاصمة تونس؛ فقد أعد عدته وحشد جنده وبدأ يستعد الاستيلاء على تونس، وأرسل جيشين أحدهما بحرى والآخر برى ووصلت الأساطيل أولاً وبدأت هجومها إلا أن والى المدينة ابن تافراجين استطاع أن يهزم الأسطول ويطرده من مياه المدينة ثم وصلت الأخبار بأن القوات البرية فى طريقها للوصول ففر ابن تافراجين إلى المهدية بعد أن كانت القوات البرية تطبق الحصار على

العاصمة تونس، وتمكن الجيش والأسطول من دخول تونس فى رمضان ٧٥٨هـ، وملكوا تونس، وتمت البيعة لأبى عنان فى أغلب أجزاء أفريقية، وكان أبو عنان على رأس الجيش البرى، ولم تبايع له مدن المهدية وسوسة وتوزر؛ حيث كانت تلك المدن فى يد الخليفة الحفصى وظلت المهدية فى طاعة الدولة الحقصية.

وكما بدأت مقاومة الاحتلال الأول بنشاط القبائل العربية بدأت مقاومة الاحتلال الثانى بمقاومة العرب، ولم تتمكن المقاومة العربية المشكلة من أولاد أبى الليل وأولاد مهلهل من الدفاع عن أفريقية باسم الحفصيين من وقف زحف المرينين بقيادة أبى عنان فتحولوا لمبايعتهم فكافأهم أبو عنان ومنحهم الأراضى كاقطاعيات وأثبت ذلك فى السجلات والصكوك وأخذ أبناءهم رهينة مقابل طاعتهم، وحينما أراد أبو عنان المرينى أن يقوم بتنظيم تونس وأفريقية ويقضى على الفوضى الضاربة فى البلاد كما سبق أن حاول أبوه أبو الحسن أحس العرب بالخطر على استقلالهم الذاتى وبادروا إلى الثورة وأحس عرب الزواودة بخطورة أبى عنان عليهم فمنع الاعطيات عنهم فجاهر العرب بالخلاف والعداوة واضطر أبو عنان للخروج من تونس ومطاردة زعيم العرب لكنه لم يلحق به واضطر إلى الذهاب إلى قسنطينه، لكنه عندما أراد العودة تحركت عناصر عربية أخرى للمقاومة واعترضت طريقه شمال غرب فقصه وحدث انشقاق فى الجيش المرينى وانصرف كثير منهم إلى المغرب؛ فما كان من أبى عنان إلا أن تراجع إلى المغرب وخشيت القبائل المرينية أن يكون مصيرها مصير قوات أبى الحسن من الهزيمة المخجلة فتسللوا من جيش السلطان، حتى أدرك أنه لا جدوى من بقائه فانسحب إل المغرب بعد أن لجأت قوات الأسطول المرينى إلى سفنها وتركوا ما كان معهم من العدة والعتاد وأبحروا من تونس.

ولما سمع ابن تافراجين بذلك قصد تونس وأسرع أهل تونس بالثورة على من تبقى من جيش بنى مرين ودخلوا المدينة فعادت المدينة إلى ملك الحفصيين، لكن

الجهة الغربية بجاية وقسنطينة ظلت تحت سيطرة بنى مرين وحرص أبو عنان على بقاء هذه الأقاليم تحت سيطرته ومات أبو عنان عام ٧٥٩هـ بعد عودة الجيش الى المغرب فتولى أخوه أبو سالم المرينى حكم البلاد وثار أهل بجاية ضد الوالى المرينى وكاتبوا الخليفة فأسرع الى المدينة وتمكن من استعادتها عام ٧٥٩ هـ وأصبحت قسنطينة آخر المدن التى بقيت تحت سيطرة بنى مرين بعد أن نجح المرينيون فى استعادة بجاية ولم ترجع بجاية فى اطار الدولة الحفصية حتى رمضان ٧٦١ هـ . عندما تنازل عنها الخليفة المرينى أبو سالم للخليفة الحفصى حفظا للجميل للأمير الحفصى أبى العباس الذى ساعده فى تولى الحكم فى المغرب الأقصى .

وبعودة قسنطينة الى الدولة الحفصية ينتهى الاحتلال المرينى الثانى للبلاد الذى بدأ عام ٧٥٣ وانتهى عام ٧٦١ هـ والذى دام ثمانية أعوام وكان الاحتلال الأول من عام ٧٤٨ هـ - ٧٥٠ هـ وقد دام عامين ونصف العام .

وهكذا نرى أن محاولة بنى مرين السيطرة على الدولة الحفصية قد باءت بالفشل رغم تكرار المحاولة أكثر من مرة ورغم سيطرتها على مقاليد الأمور لأكثر من عشر سنوات الا أن قوة وصلابة الجبهة الداخلية بقيادة امراء بنى حفص ومساعدة القوات العربية ودورها فى صد الهجوم المرينى قد جعلت تلك السيطرة تفشل فى فرض نفوذها على الديار الحفصية .

واذا كانت سيطرة بنى مرين على بعض الأقاليم الغربية قد امتدت هذه الفترة الا أن الخليفة الحفصى استطاع أن يدخل عاصمة بلاده تونس عام ٧٥٨ هـ ولم تدم القيادة المرينينة فى العاصمة الا شهورا قليلة ومن ثم يكون العدوان المرينى على الديار الحفصية ما هو الا غزوة طارئة حيث أنه لم يستطع أن يسيطر على جميع البلاد فيما عدا البلاد الغربية وان بقاءه فى العاصمة لم يدم طويلا وذلك يعود لدور القبائل العربية. وهكذا عاد الخليفة أبو اسحق ابراهيم الثانى الى تونس وآلت رياسة عرب أولاد

أبى الليل الى منصور بن حمزة الذى تمكن من فرض سيطرته على أبى اسحق وابنه خالد من بعده .

* * * *

الفصل السادس

الدولة الحفصية بعد طرد بنى مرين

تولى أبو اسحق ابراهيم ادارة البلاد بعد طرد بنى مرين ورحيل أبى عنان المرينى عن البلاد وتحرير الأراضى والمدن العربية وقد توفى عام ٧٧٠ هـ وأنه ظل يحكم البلاد تسعة أعوام كاملة دون أدنى منازع داخل حدود دولته اللهم الا سيطرة العرب على جميع مقاليد الأمور وتوفى فى الثانى عشر من رجب وكانت مدة حكمه ثمانية عشر عاما وأحد عشر شهرا وخمسة عشر يوما ونصب خلفا له ولده أبا البقاء خالد وقد كان صبيا وهو اين أبى اسحق ابراهيم المستنصر وقد تولى الحكم بعد موت أبيه وتولى الحجابة أحمد البالغى فلم يترك للأمير شيئا فنهب الأموال من الناس وأهان العلماء وقتل الأفراد وكانت أمور البلاد فى يد زعيم عرب أبو الليل منصور بن حمزة الذى أرغم الدولة على اقطاعة ضواحى البلاد بل وقاسم بنى حفص جبايات الأمصار ريفا وصحراء وبادية وعندما أظهر الأمير خالد استياءه من هذا النشاط العربى والاستبداء استبدله منصور أبو الليل بالأمير أبى العباس أحمد الأول الحفصى وكان حمزة قد حث أبا العباس على تملك السلطنة الحفصية بعد أن كان واليا على قسنطينة فنهض الى تونس وأعلن وجهاء القوم الطاعة له وحاصر العاصمة عدة أيام وفر الخليفة وأتباعه من الجند وانطلقت قوات العرب وأبو العباس خلفهم فقبض على الأمير خالد واعتقل وقذف به وبأخيه فى البحر فعصفت بهما الريح فغرقا وكانت مدته بتونس سنة وتسعة أشهر.

* * * *

خلافة الأمير أبى العباس أحمد الأول المستنصر والقضاء على نفوذ العرب

٧٢٢ – ٧٩٦ هـ / ١٣٧١ – ١٣٩٥ م

عين الأمير العربى منصور بن حمزة الأمير الحفصى أبا العباس خليفة للبلاد بعد القبض على الأمير خالد وهو أبن الأمير أبى عبد الله محمد بن أبى يحيى بكر بويع بالخلافة فى تونس فى الثانى عشر من ربيع الآخر عام ٧٧٢ هـ ويعتبر الأمير أبو العباس أحمد مجدد شباب الدولة الحفصية حيث كان النزاع الداخلى بين أمراء الأسرة الحفصية وتكررت محاولات الاستيلاء على السلطة واحتلال تونس بنفسها من قبل أفراد البيت الحفصى واستطاع الخليفة أبو العباس أحمد بصعوبة بالغة أن يعيد الوحدة والأمن والهدوء والاستقرار الداخلى للبلاد فى أواخر حكمه الذى استمر أربعة وعشرين عاما (١٣٨١ – ١٣٩٥ هـ) وأن يعيد الى الأذهان صورة أقرب ما تكون الى حالة القوة التى كانت عليها الدولة فى عهد أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن يحيى بن بكر بن أبى حفص عمر .

وكان الخليفة الجديد رجلا شجاعا عاقلا صفوحا وقد عمل على مداهمة العرب واستئلافهم الى أن أغتيل منصور بن حمزة زعيم عرب أولاد أبى الليل فحلت الجفوة بين أبى العباس أحمد الأول وعرب أولاد أبى الليل بسبب أبى العباس أحمد الأول بالقضاء على الاستقلال الذاتى لمدينة سوسة بعد محالفته لأولاد مهلهل مما دفع حوله ابن خالد بن حمزة للفرار بأعوانه الى الصحراء واسترد أبو العباس الاقطاعات التى منحها أسلافه للعرب وسحق ثوراتهم وعمل على القضاء على نفوذهم .

وأقام علاقات طيبة مع السلطان أبى سالم المرينى ورفع أنواع الفساد وكبح جماح العرب وانتزع ما بأيديهم من الأمصار ولم يزل يحاول أمر العرب الى أن قطع

دابرهم وفتح بلدة قفصة وأخذ شيوخها من بنى العابد الذين كانوا يزعمون أنهم ينتسبون الى قبيلة بلى العربية وأنهم أحلاف العرب الشريد من بطون سليم وكان بنو العابدى قد أحسوا بازدياد سلطة الدولة الحفصية وتصميمها على السيطرة على الموقف وعلى انهاء وجودهم وأخذ أملاكهم فانهم تحالفوا مع غيرهم من أمراء ومدن الجريد وسربوا أموالهم الى عرب الكعوب بزعامة أولاد أبى الليل ولكن السلطان أبا العباس أحمد بادر بالقضاء على عرب الكعوب أولا ثم حاصر قفصة فقام أهلها بتسليم زعيمهم الذى تظاهر بالترف والتشبه بأمراء الدولة الحفصية وفرض الضرائب والمكوس على الرعية ودخل أبوالعباس المدينة واستولى على ديار بنى العابد بما فيها من أموال وقضى على ولايتهم لقفصة فى عام ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م .

وهكذا اذا كنا نرى الأمير أبا العباس أحمد الأول (٧٧٢ - ٧٩٦ هـ / ١٣٧١ - ١٣٩٥ م) ومن بعده أبنه أبو فارس عبد العزيز ٧٩٦ - ٨٣٧ هـ بقومان بالقضاء على نفوذ القبائل العربية وفرض سيطرتهما الكاملة على كل الأقاليم العربية التى كانت تتمتع بالحكم الذاتى فاننا نجد أن الدولة الحفصية فى قيامها اعتمدت على قبائل رياح ثم على قبائل بنى سليم وكرمه عرب الأتيج بعد تمرد رياح عليهم . وقد أدى أنقسام أفريقية بين عرب رياح وسليم الى انقسام الدولة الحفصية فى عام ٦٣٤ هـ / ١٢٨٥ م الى قسمين قسم شرقى عاصمة تونس ينعم بمحالفة عرب سليم المستقرين فى المنطقة الممتدة من قابس الى بونة وقسم غربى عاصمته بجاية يحظى بمحالفة عرب رياح المستقرين بالجانب الغربى بضواحى قسنطينة وبجاية وأدى الصراع بينهما الى ثورات العرب المتعددة وقيام الأسر العربية القوية بتأسيس امارات تنعم بالحكم الذاتى بنقل المعتزل واعترفت بالاسم لا بالفعل بسلطان الدولة الحفصية فكانت هذه الامارات بمثابة سلطنات صغيرة تحكم بمجال من الأعيان العرب أو يلى أمرها أسر عربية .

ولقد حاربت هذه الامارات العربية المستقلة الحفصيين طوال القرن الثامن الهجرى تعاونها القبائل العربية المستقرة حولها . ونتيجة لانتشار القبائل العربية بالمغرب وتعدد مواطنها واستقرارها فى جميع أنحاء البلاد امتزجت بقبائل البربر وصاهرتها مما أدى الى تطور مفهوم القبيلة بالمغرب ولقد ساهمت القبائل العربية بدور ايجابى فى تأسيس الدولة الحفصية التى كانت فى نهاية المطاف تقضى على نفوذ بنى حفص بعد أن قدموا يد المساعدة ضد الغزو المرينى القادم من أقصى المغرب والغزو الزيانى القادم من المغرب الأوسط . فتبين دورهم فى حسم الصراع بين الأتراك العثمانيين المسلمين وبين القوى المسيحية وبذلك قد كلل جهودهم بالنجاح وحفظ لهم تاريخا اسلاميا عربيا صان لتونس عروبتها واسلامها ولولا الوقفة العربية لتغير وجه الاسلام والعروبة على أرض تونس التى تدرس حلقة من حلقات تاريخها الاسلامى وهى فترة الدولة الحفصية .

كذلك فان السلطان أبو العباس أحمد شهد اخضاع مدن الجريد والقضاء على استقلال امارتها ومدتها عام ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م فانتقل شيوخها الى بسكرة حيث اتفقوا على مبايعة بنى عبد الواد بتلمسان فزحف اليهم أبو العباس بأنصاره من عرب سليم فتحالفت رياح ولاثيج على الموت دون بسكرة ونسيا الخصومة الأزلية بين رياح وسليم دفاعا عن أوطان رياح ومراعيها وكذلك عن امارة الزاب العربية الملجأ الحصين لكل عربى غضبت عليه الدولة الحفصية مما اضطر أبو العباس لمهادنة بنى مرين واذا كانت امارة بسكرة قد تمكنت من المحافظة على استقلالها الذاتى سواء عن طريق المصانعة لأمراء الدولة الحفصية أو عن طريق تقديم الهدايا للحاشية أو عن طريق القوة المسلحة لأعوانها من عرب رياح ولاثيج فى بداية القرن التاسع الهجرى الا أن السلطان أبا فارس عبد العزيز ابن أبى العباس الحفصى قد تمكن من القضاء على الاستقلال فى عام ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م وحمل أميرها أحمد بن يوسف وبنى مرين الى العاصمة

تونس بعد أن حكموا بسكرة والزاب طوال قرن ونصف وكانت بلاد الجريد التى استقلت بحكمها العربى أكثر من قرن ونصف القرن قد أفلحت فى الاحتفاظ باستقلالها الذاتى بفضل موقعها المنعزل واعترفت بالاسم لا بالفعل بسلطان الدولة الحفصية فكانت بمثابة جمهوريات صغيرة تحكمها مجالس عربية من الأعيان أو يلى أمرها أسر من ذوى النفوذ الوثيق فحاربت الحفصيين طوال القرن الثامن الهجرى بزعامة أسرها القوية النفوذ تعاونها فى ذلك القبائل العربية المستقرة حولها ويحالفها بنو مرين أمراء بسكرة والزاب .

وكذلك استولى الخليفة أبو العباس أحمد على ولاية توزر وفتحها واستولى على ذعائر شيخها ابن يملول وكانت ولاية توزر من أشهر امارات الجريد العربية ويعتبر بنو يملول زعماء لباقى بلاد الجريد العربية لسيطرتهم على توزر وأكبر مدنها واتساع نواحيها فتوزر تعتبر عاصمة البلاد الجريدية مع غيرهم من العرب الأفارقة ولعبوا دورهم السياسى فى الاشتراك فى مجالس الشورى بامارات الجريد واتصلوا بالدولة الحفصية .

وتطلع جدهم أحمد بن محمد بن بملول الى رياسة المدينة منذ بداية الدولة الحفصية فى أفريقية فمنعه الحفصيون من ماله وصادروه مما اضطره الى الانتقال الى تونس بطرق أبواب الوزراء والخاصة حتى اسند اليه ادارة ديوان البحر فازدادت سلطته وقد استغل الظروف التى مرت بالدولة الحفصية وتقلص نفوذها وتمكن من الوصول الى مشيخة توزر حتى وفاته عام ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م وظل الحكم سنوات فيها . بل أدى اتساع الامارة الى تشبة بنى يملول فى الاشارة والحجاب والآلة والمجالس بالملوك وكذلك فرض الضرائب على الرعية وصادر أموال البيوتات القوية بالمدينة حتى قضى على نفوذهم السلطان أبو العباس أحمد الأول الذى عمل ما وسعه للعمل على اتمام السيطرة على كل البلاد الأفريقية ولم يترك قرية ولا مدينة الا أخضعها لنفوذ الدولة الحفصية وبسط لواء الحفصية على كل البلاد وقضى على نفوذ العرب قضاءا نهائيا

ولم يسمع صوت فى البلاد يعارض فى سياسته أو يخرج على طاعته أو يتحدى سلطة ونفوذ الدولة وأدار البلاد أحسن ادارة وفى حقيقة الأمر أن طول فترة حكمه التى استمرت أربعة وعشرين عاما أو يزيد جعلته يعمل على اقامة الدولة القوية .

فانه للحقيقة التاريخية يمكن القول انه اذا كان عبد الواحد قد قبل حكم افريقية وجاء بعده ابنه أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد ليعلن استقلال الامارة عن الموحدين وجاء بعده ابنه ابراهيم محمد ليعلن الخلافة الحفصية فان أبا العباس أحمد الأول استطاع أن يعيد للأذهان صورة هؤلاء الأوائل الذين أقاموا الدولة فجاء هو ليدعم وجودها ونشر نفوذها ويجعلها وطيدة الأركان قوية الجانب مرهوبة من كل الأعداء .

وبعد أن وطد أبو العباس أحمد الأول أمور البلاد فان القوى الأوربية جاءت منها قوات فرنسية وجنوية فى ثمانى قطع ونزلوا الى مدينة المهدية وأقاموا بها بعد أن نهبوا المدينة شهرا وبعث اليهما أبو العباسى جيشا وكانت بينهم معارك حتى اضطروا الى الرحيل عن المدينة .

وتوفى رحمه الله ثالث شعبان ٧٩٦ هـ وسنة سبعة وستون عاما ومدة ولايته بتونس أربع وعشرون سنة وأربعة أشهر . ثم تولى بعده أبنه أبو فارس عبد العزيز وبويع رابع شعبان بعد وفاة والده وأقام بالأمر خير قيام وأصلح الأحوال وقمع أهل الفساد وساد الأمن ارجاء البلاد وأعطى الأموال لكل العباد . وكان شجاعا حازما تقيا موقرا للعلماء كثير الصدقات فطنا زكيا محبا للخير ، كان يرسل الصدقات لأهل الحرمين ووفد اليه علماء الشرق صحبة الركب الحجازى وقدم المساعدات لأهل الأندلس اعانة لهم على مقاومة العدو . كذلك اهتم بالكتب وأنشأ خزانة كبيرة للكتب وأوقفها على طلبة العلم ينتفعون بها وأقام العدل بين جميع رعاياه بالكتاب والسنة وانصف المظلوم من الظالم . وجاءت الوفود من المشرق والمغرب وقام بغزو صقلية وغنم منها غنائم كثيرة . وبسط نفوذ الدولة على طرابلس وقابس وقفصة وتوزر ونفطه وبسكرة وقسنطينة

وبجاية والحامه والصحراء . وأخضع جميع القبائل العربية فى بلاده والزمهم دفع الزكاة والعشر .

وعقد هدنة مودة مع ملوك بنى مرين وأرسل هدية الى يعقوب المرينى بفاس ، كما أن سلطان المماليك بمصر الناصر بن قلاوون بعث لأبى فارس بهدية قيمة . ذلك لعظم ذكره فى ذلك الوقت وحسن سمعته وارتفاع مكانته بين سلاطين العالم الاسلامى من جراء الأفعال والأعمال التى قام بها لا سيما غزوة صقلية وأفتتح مدينة فاس وأخذها من بنى زيان ووصلت قواته غربا الى قرب مدينة فاس عاصمة بنى مرين وقد أقر البيع القاى أبوعبد الله محمد الشماع البيعة بجامع تلسمان . وذكرت بعض المصادر أنه غزا مدينة فاس عاصمة بنى مرين عندما شكا له أهلها ظلم أحمد المرينى فخرجت له أخت أحمد المرينى فعفا عن أخيها واعاده الى بلده وأمر بالعدل .

وفى عام ٨٣٥ هـ نزلت قوات الفرنجة بجزيرة جربه وكان السلطان يخضع بلاد الجريد فتحرك الى المدينة واستطاع أن يجبر هذه القوات على الخروج من الجزيرة . وتوفى عام ٨٣٧ هـ وكانت مدة خلافته واحدا وأربعين عاما وأربعة أشهر وسبعة أيام .

وكان أبو فارس عبد العزيز درة الخلافة الحفصية وواسطها وأنه اذا ذكرت خلافة الحفصين بدونه ظهر بها النقص .

وكان أبو فارس عبد العزيز آخر السلاطين العظماء من بنى حفص واستمرت الدولة على القوة فى عهده وقد حكم تسعة وثلاثين عاما ولكن الدولة بعد وفاة أبى فارس عادت الى الانقسام بعد ذلك واتسع نفوذ الأوربين واستعان بهم المنافسون على العرش بعضهم على بعض ونشطت أعمال غزاة البحر وأصبحت مغانم الغزاه موردا هاما من موارد الدولة وحفلت موانى أفريقية والجزائر وبجاية وتونس بالأسرى والسبايا الذين كثروا فى البلاد وعاد الاضطراب للدولة وانقضى قرن كامل استردت فيه القبائل العربية

سيادتها وضعف الحفصيون وكان فى تونس ثلاثة أمراء حفصين يخضع كل خليفة جزءا من البلاد لسيادته فى تونس والمهدية وقسنطينة . وكانت الحروب تدور سجالا بين الأطراف مما كان يضطر الخليفة الى أن يترك العاصمة ولم تكن الوحدة الحفصية الا سرابا فاذا كان أبو العباس أحمد ومن بعده ابنه أبو فارس عبد العزيز قد نجحا فى توحيد الدولة الحفصية ، فقد اضطربت الأمور من جديد .

وهكذا تفككت الدولة الحفصية وظهر التنافس بين أبناء الأسرة على الحكم وتدخل الأوربيون فى هذا الصراع وانقسام الدولة الحفصية الى قسمين ونتج عن ذلك أن سقطت بعض أجزاء الدولة فى أيدى الأوربين حتى تجددت قوة الدولة فاستردت تلك الأقاليم ، ذلك أن الدولة الحفصية شهدت تقلبات مختلفة .

ففى بداية القرن الرابع عشر نلاحظ تجدد أردهارها واعادة توحيد فرعى الدولة فى تونس وشرق الجزائر . لكنه حدث أن تفوقت دولة بنى مرين فى عهد أبى الحسن الذى أوشك أن يخضع المغرب كله تحت حكمه فتمكن عام ١٣٤٨ م من احتلال تونس واخراج الحفصين منها بمساعدة رؤساء القبائل البادية . وفى عام ١٣٥٠ م اضطروا الى الإنسحاب منها واستطاع أبو العباس أن يعيد عظمة الدولة الحفصية فترة من الزمن وفى عهده ساهمت تونس للمرة الأولى فى حركة الجهاد فى البحر المتوسط مما عرض سواحلها للانتقام فقام الفرنسيون بالاغارة على المهدية وشهد القرن الثانى عشر تدهور دولة بنى عبد الواد فى المغرب الأوسط وبنى مرين فى المغرب الأقصى فنعمت تونس بحكم شخصين من أعظم الشخصيات وأطولهم عصرا وهما أبى فارس (١٣٩٤ – ٢٣٤٥ م) الذى عرضنا فى تلك الصفحات لسيرته الجليلة.

تولى بعد أبى فارس عبد العزيز ابنه أبى عبد الله المستنصر ٨٣٨هـ، ولم يحكم إلا سنة واحدة وشهرين واحد عشر يوماً، وتوفى فى صفر ٨٣٩هـ. ثم جاء بعده أخوه أبو عمر عثمان بن أبى فارس عبد العزيز الذى تولى الحكم صبيحة اليوم الذى توفى

فيه أخوه، وكان أبو عمر عثمان من أجل سلاطين الخلافة الحفصية وهو خاتمهم حكم ثلاثة وخمسين عاماً وكانت أيامه خيراً على العلم والعلماء ورجال الدين فأكثر من بناء المدارس ومكاتب تحفيظ القرآن الكريم وأوقف الأوقاف عليها وكذلك الاهتمام بخزانات الكتب وأكرم الشرفاء من أهل البيت النبوى وأحسن إليهم وقمع ثورات الأعراب، وذلك لأنه اشتد الصراع بين أمراء البيت الحفصى وكثر تدخل العرب وثوراتهم بقيادة أولاد أبى الليل لكن بعد نجاح الأمير أبى عمر عثمان ٨٣٢هـ / ٨٩٣هـ/ ١٤٣٥م–١٤٨٨م. فى الاستيلاء على الحكم بتونس قام أولاد أبى الليل ببجاية منافسة على العرش الأمير أبى عبد الله محمد بن أحمد وأنزلوه بمخيماتهم منافسة على العرش ولكنه وعدوا وأعيد أبو عمرو عثمان أرهب أولاد أبو الليل فأسلوه لاجئهم وأنصاره فقتلهم فى نفس العام.

ويبدو أنه لم يوف بوعده إذ هاجم أولاد أبى الليل مدن أفريقية وحاصروا مدينة تونس فأطلق أبو عمر عثمان أولاد مهلهل عليهم واشتبكوا معاً بالقرب من تونس وانسحب أولاد أبى الليل منهزمين ليعودوا مرة أخرى لحصار تونس بمعاونة الأمير أبى الحسن وإلى بجاية ويلتقى الفريقان فى عام ٨٤٠هـ/١٤٣٦م وينتصر أبو عمر عثمان وحلفاؤه من أولاد مهلهل ويقبض على زعماء أولاد أبى الليل. وليس معنى استعانة أبى عمر عثمان بأولاد مهلهل أنهم كانوا أنصار حلفاء للدولة بصفة مستمرة فقليلاً ما ثاروا على الدولة لسبب أو لآخر ففى عام ٨٦٧هـ/١٤٦٣م عندما خفض أبو عمر عثمان مرتباتهم ثار أولاد مهلهل وفر زعماؤهم إلى الصحراء فاستبدلهم أبو عمر عثمان وعين بدلاً من الشيوخ الثائرين عليه رجالاً منهم وأخذ أولادهم رهناً لديه لضمان طاعتهم وأرسلهم إلى العاصمة؛ حيث نزلوا بقصر خاص لتثقيفهم تربيتهم على الولاء للدولة والإخلاص لها.

وقد طالت أيام الخليفة أبى عمر عثمان فقد كانت ثلاثة وخمسين عاماً وفى

عهد أبو عمر عثمان فرضت السيادة الحفصية نفسها على المغرب الأقصى فبعد أن كانت تونس تعترف أحياناً لبنى مرين بالسيادة انقلبت الآية فى عهده ومن سلفه أبى فارس عبد العزيز فأصبح بنو وطاس فى فاس يعترفون بالتبعية للحفصين وكان لزاماً على هذه الدولة أن تساهم فى دفع الخطر البرتغالى عن مراكش فى القرن الخامس عشر؛ بل أن الحفصين قدموا المساعدات إلى غرناطة آخر الدويلات الإسلامية فى الأندلس.

وبدأ اتصال الحفصين فى عهد السلطان أبى عمر عثمان (١٤٣٥-١٤٨٨م) فى ذلك الوقت بالدولة العثمانية الناشئة فأرسلوا سفارة لتهنئة محمد الفاتح بمناسبة فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م، وزاد التبادل التجارى بين تونس وأربا فى هذه الحقبة.

والواقع أن الدولة الحفصية منذ قيامها أولت العلاقات التجارية بالخارج عناية خاصة .. فهى التى تابعت دون غيرها من دول المغرب سياسة الموحدين فى عقد المعاهدات التجارية مع دويلات إيطاليا وتوسعت فيها، ولذلك انتشرت الفنادق والقنصليات فى مدينة تونس ويبدو أن تونس أصبحت حلقة اتصال بين تجارة أفريقيا الاستوائية وأوربا لأن الحفصين أقاموا علاقات طيبة مع الإمارات الإسلامية مثل كانم وبورتو. ونظراً لطول فترة الدراسة .. فإننا ننتهى عند القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى؛ حيث سلاطين الدولة الحفصية قد استمروا يحكمون حتى قرب نهاية القرن العاشر الهجرى، وذلك عندما سقط حكم الدولة عام ٩٨١هـ/١٥٥٨م مع قرب نهاية القرن السادس الميلادى وخضوع البلاد للحكم العثمانى بعد أن حكموا البلاد ثلاثمائة وثمانية وسبعين عاماً وآلت الأمور للسيادة العثمانية وانتهت دولة بنى حفص التى أقام قواعدها محمد بن عبد الواحد بن عمر بن أبى حفص الهنتاتى عام ٦٠٣هـ.

* * * *

الفصل السابع

سلاطين بنى حفص فى ظل الخلافة العثمانية حتى سقوط الدولة

بعد وفاة أبى عمر عثمان عام ٨٩٣هـ تولى حفيده أبو زكريا بن عبد الله محمد المسعود بن أبى عمر عثمان الذى بويع يوم وفاة جده، ولكن الأعراب قتلوه وتولى بعده ابن عمه أبو محمد عبد المؤمن بن أبى إبراهيم اسحق بن عمرو بن عثمان، ولكن الأعراب قتلوه أيضاً، ودخل السلطان أبو زكريا العاصمة وفر الأمير محمد عبد المؤمن الذى عينه الأعراب، وتم قتل عبد المؤمن وبويع أبو زكريا يحيى بيعة ثانية وجاءته بيعة العناب وقابس وحسا وقفصة ودانت له البلاد، وكانت مدة حكمه ست سنوات؛ ثم تولى الخلافة أبو عبد الله محمد بن الحسن بن عبد الله محمد المسعود ابن عمر وعثمان، وتوفى عام ٩٣٢هـ، وفى عهده هبط النصارى واستولوا على طرابلس لكنه طردهم منها، وهو الذى ملك الجزائر للتركى عروج وأخيه خبر الدين وحدثت فى عهده حوادث كثيرة منها سيرة العرب على القيروان. وقد خرجت بلاد كثيرة من حكمه وتدخل الأوربيون فى شئون البلاد حتى استدعى تدخل الأميرين التركين خروج وأخيه خير الدين. وقد حدثت مراسلات بينه وبين السلطان الغورى سلطان مصر.

وقد تولى الحكم بعده ابنه الحسن بن المسعود بن أبى عمرو عثمان، وبويع عام ٩٣٢هـ، وفى عهده ظهر النفوذ العثمانى وقد ساءت سيرته بين الناس، وخرجت عن طاعته مدينة سوسه والقيروان وبايع الناس رجلا جاء من المغرب ادعى أنه حفصى واسمه يحيى.

وخضعت قسنطينة لحكم الأتراك فى عهده وكذلك جاءت قوات بحرية تركية أرسلها إبراهيم باشا وزير السلطان سليمان بن سليم الأول. وفى عهده استولى خير الدين على تونس وفر عنها الحسن ودخل خير الدين تونس واستقل بها وأنهى حكمه عام ٩٤٠هـ، وقيل عام ٩٣٦هـ. وفى عهد الحسن اشتد الصراع بين القوى المسيحية الأوربية بقيادة امبراطور ألمانيا، والأتراك العثمانيين، ودارت على أرض أفريقية (تونس) معارك طاحنة اضطرت القوى المسيحية للانسحاب من البلاد بعد ارسال الأساطيل التركية.

وفى حوالى عام ١٥٤٠م أخذ شارل الخامس بعد العدة للاستيلاء على موانئ المغرب بمعاونة طلاب العرش المتنازعين، ولم يحل عام ١٥٥٨م حتى كانت تلك الموانئ قد احتلت وتصدى الأتراك العثمانيون للأسبان وابتداء من عام ١٥٦٠ كانت تونس مقسمة بين الأسبان والأتراك. كل جانب منها يؤيده أمير حفصى، وكان هذا هو التمهيد الذى أدى فى النهاية إلى احتلال الأتراك العثمانيين للجزائر، وتونس، وطرابلس، وتحويلها إلى أيالات عثمانية عام ١٥٨٧م، ولم يعد الأمراء الحفصيون مستقلين بل ممثلين للسلطان العثمانى ويحملون لقب الداى.

وبعد فرار خير الدين دخل الخليفة الحسن تونس؛ ثم جمع قواته والقبائل العربية، وقصد إلى القيروان ودخل المدينة بعد أن بايعه أهلها، وكان الخبر قد وصل الناس فهرعوا إليه وبايعوه، لكن تعاونه مع أعداء الدين جعل ابنه أحمد لايقر فعلة أبيه الحسن ودخل تونس خفية وتولى الخلافة خلفاً لأبيه لكنه استعان بالفرنجة الأوربين من الأسبان وتقابلت قوات الطرفين، وتم القبض عليه وسجن ثم سملت عيناه جزاء تعاونه مع أعداء الإسلام.

بعد خلافة الأمير الحسن قام عليه ابنه أبا العباس أحمد بن محمد الحسن بن عبد الله المسعود بن عمرو بن عثمان تولى الحكم فى عهد أبيه نظراً لأن أباه استعان بأعداء الإسلام وشاركوه فى الحكم. لكن الأمير أحمد راسل ملوك الأتراك فى

طرابلس والجزائر ثم أرسل بعثة إلى القسطنطينة وحارب أولاد سعيد من عرب أفريقية وكان السلطان أحمد مقيماً للعدل وإقامة الشرع واستعان السلطان أحمد بالأتراك وكانت قواته تضم أربعمائة من الأتراك. لكن الأسبان الذين كان نفوذهم أقوى فى البلاد عزلوا السلطان أحمد وعينوا بدلاً منه أخاه محمدا وأما السلطان أحمد ففر إلى جزيرة صقلية وسكن مدينة بالرمو إلى أن مات بها ودفن فى تونس.

وهكذا .. نرى رغم الوجود التركى إلا أن القوات الأسبانية كان لها السيطرة على مقاليد الأمور فى البلاد، ومن ذلك عزلها السلطان أحمد وتولية أخيه محمد الذى كان آخر سلاطين بنى حفص.

السلطان محمد بن الحسن بن المسعود بن عمرو بن عثمان الحفصى ونهاية دولة بنى حفص

هو السلطان محمد بن الحسن شقيق السلطان أحمد الخليفة السابق الذى تولى الحكم بعد أن طرد إياه الحسن لتعاونه مع أعداء الإسلام، وهو خاتمة بنى حفص وبانقراضه انقرضت الدولة الحفصية، وكان تعيينه عن طريق القوات المسيحية ، ومن ثم هرب أهل تونس عندما علموا بمجيئه وتركوا البلاد خاوية من الناس. وهرب أكثر أهل تونس وخلت المدينة من الأهالى وأعداء الإسلام وخربت النواحى فى المدينة وساكن الأعداء ديار الإسلام. وشاركت النصارى المسلمين فى مساكنهم ومعاملتهم وأقاموا معهم. لكن التدخل التركى ساعد على تقهقر قوة النصارى وأخرجوهم من القيروان، والتحق الأتراك بالقيروان وكان بها الباشا حيدر. وكاتب أهل القيروان اخوانهم بطرابلس والجزائر فتحرك الأتراك للجهاد ووصلوا تونس وأرسل السلطان سليم قوات بحرية بقيادة

القبطان على باشا وسنان باشا ويذكر أن هذه القوات التركية كانت مرسلة لمساعدة أهل غرناطة فى كفاحهم؛ بينما وصل خبر سقوط غرناطة فى أيدى الأعداء ١٤٥٢هـ بعث بها إلى تونس بدلاً من الأندلس، وكان عدد السفن البحرية ألف وخمسمائة سفينة تمكنت من الاستيلاء على تونس، وتم طرد القوات الأجنبية من البلاد وكان ذلك عام ٩٨١هـ.

وفى أواخر الدولة الحفصية عندما اشتد الصراع بين الدولة العثمانية، ومسيحى أسبانيا وأوربا حول السيطرة على بلاد المغرب قامت القبائل العربية بدور تاريخى فى هذا الصراع فنجد القبائل العربية انحازت إلى العثمانيين وقدمت نحو سبعة آلاف فارس بخلاف الرجالة للقوات العثمانية مما عجل بحسم الصراع الدائر فى المغرب فاستولت القوات العثمانية على تونس عام ٩٧٧هـ/١٥٦٩، وطردت القوات المسيحية منها وسقطت الخلافة الحفصية فى ٩٨١هـ/١٥٧٤م. وقد كان ما دفع القبائل العربية لدورها هذا أن الأمير أبا محمد الحفصى قد منح حصن خلق الوادى لأعوانه من مسيحى أسبانيا ووعده لهم بإباحة مدينة تونس بعد استردادها، وذلك انتقاماً للعرب الثائرين عليه وترحيبه لأعوانه من القوات المسيحية، وكانت بعض من القبائل العربية قد ثارت على الحفصين، وتم استيلاؤها على القيروان وأواسط سلطته تونس، والدعوة بين جميع القبائل العربية للاشتراك فى هذا الصراع الدائر بين الأتراك العثمانيين المسلمين ومقاومة الغزو المسيحى لسلطنة تونس ومنعهم من السيطرة على البلاد بعد أن شاهدوا الأسبان، وقد استباحوا تونس لفترة ثلاثة أيام فكان وقوف القبائل العربية بجانب القوات العثمانية مساعداً لها فى تحقيق النصر وتصحيح خطأ ارتكبوه عندما وقفوا ضد خير الدين باشا أثناء انسحابه من تونس عام ٩٤١هـ/١٥٥٤م، وهكذا كان للعرب دور فى إعلان نصر الإسلام.

وهكذا .. انتهت صفحة فى تاريخ بلاد أفريقية (تونس) التى طال عمرها ما يقرب من ثلاثة قرون استطاعت فيها الدولة الحفصية، التى كانت فرعاً فى الدولة الموحدية أن تحافظ على وجودها وسط العواصف التى كانت تعصف بالعالم الإسلام من جراء موقعة العقاب وانهيار الوجود الإسلامى بالأندلس وتقلص الإمارات الإسلامية بها، وكذلك انقسام الدولة الموحدية إلى ثلاثة أقسام كانت الدولة الحفصية إحدى هذه الأقسام؛ بالإضافة إلى الصراع الدائر بين القوى الثلاث بنى حفص وبنى زين فى المغرب الأوسط، وبنى مرين فى المغرب الأقصى، وهكذا نرى كذلك فى الفصول القادمة كيف أن هذه الدول الثلاث بدلاً من أن تتعاون جميعها فيما بينها من أجل خير الإسلام والمسلمين نرى الصراع والقتال يدور بينهما من أجل المصالح الشخصية، وليس من أجل قضايا إسلامية؛ بل كان النظام القبلى هو الذى يحكم الصراع بين المصامدة فرع (هنتاتة) الحفصين، وبنى زيان البربر الصنهاجة، وكان كل فرع يحاول السيطرة على حساب الآخر، ومن هنا .. أدى القتال والتطاحن إلى طمع الأعداء بعد سقوط غرناطة آخر المعاقل الإسلامية فى الأندلس فبدأت البرتغال وأسبانيا تتجه للسيطرة على السواحل المغربية لمحاربة الإسلام والمسلمين وتحقيقاً لأحلام تراودهم فى نشر المسيحية من جديد بين هذه الأقطار، ومن ثم كان الوجود التركى حماية للإسلام فى هذه الديار.

وهكذا .. نرى أن الدولة العثمانية لم تبسط نفوذها فى تونس بالغزو العسكرى أو تدخل مباشرة من قبل حكومة الاستآنة كما حدث فى مصر؛ بل جاء تدخل الدولة بنتيجة لاشتداد الصراع بين الإسلام والمسيحية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط أوائل القرن السادس عشر، وقد اجتذب هذا الصراع عددا كبيرا من البحارة المغامرين المجاهدين الذين نشأوا فى خدمة أسطول العثمانيين ثم راحوا يقودون أساطيل صغيرة

تعمل لحسابهم الخاص، وضد أعداء الدين، ولهذا .. كان هؤلاء المجاهدون يعتبرون فى نظر المسلمين أبطالاً وطنيين مثل عروج وخير الدين بربر وسبه فى إنقاذ المغرب العربى من الوقوع فى يد الأسبان.

* * * *

الفصل الثامن

علاقة الدولة الحفصية بالدول المجاورة

ارتبطت الدولة الحفصية منذ قيامها فى عهد عبد الواحد يحيى بن عمر الحفصى حتى سقوطها تحت سيطرة الأتراك بعلاقات مع العديد من البلدان المجاورة سواء منها الإسلامية أو الأوربية وكانت هذه العلاقات تتذبذب حسب الأحوال السياسية بين الود والمهادنة وحسن الجوار وبين الاضطراب والتضامن والحسم العسكرى والقتال.

لكن الدولة الحفصية ارتبطت على طوال الخط بعلاقات طيبة مع مصر منذ ظهور الخلافة العباسية فى مصر عام ٦٥٩هـ/١٢٥٣م والخلافة الحفصية فى تونس عام ٦٥٦هـ/١٢٥٠م، على الرغم من وجود خلافتين أو أكثر من خلافة فى العالم الإسلامى إلا أن ذلك لم يقطع ود العلاقات بين مصر وتونس فطوال تاريخ الدولة الحفصية الذى امتد إلى ثلاثمائة وثمانية وسبعين عاماً لم يحدث أدنى تدخل فى شئون أى دولة من الدولتين، كما أن أياً من الدولتين لم يقم بحشد قوات عسكرية ضد الطرف الآخر؛ بل إننا نجد أن مصر كانت ملاذا أو موطناً للقادمين من الغرب.

كذلك .. فإن مصر بثقلها السياسى والعسكرى والثقافى والاقتصادى كان عليها بعد إعلان الخلافة التى كانت تهدف إلى مد نفوذها إلى سوريا والحجاز، تلك السياسة التى كانت تتعارض مع السياسة التقليدية التى كانت مصر تنتهجها منذ عهد الطولونيين (٢٥٤-٢٩٢هـ) فحرصت مصر على مد نفوذها على الحجاز والسيطرة

على تجارة البحر الأحمر وعمل السلطان بيبرس أحد سلاطين المماليك الذى يرجع إليه الفضل فى صد غارات المغول وإلحاق الهزيمة بزعيمهم هولاكو فى موقعة عين جالوت يرمى المشهور بالصلبين على أحياء الخلافة العباسية فى مصر بعد أن زالت من بغداد ٦٥٦هـ/١٢٥٥م، وكان بيبرس يرمى من وراء ذلك تقوية عرشه وجعل حكمه شرعياً للبلاد كما يرمى إلى مد سلطانه على الحجاز والبحر الأحمر إلى إضعاف نفوذ الحفصيين الأدبى فى الشرق؛ فكان إعلان الخلافة العباسية فى مصر، ومن هنا عاد الضعف إلى الخلافة الحفصية.

ورغم ذلك فقد حرص سلاطين الدولة الحفصية وولاة الأسور بها وحكام الدول المستقلة على أن تظل العلاقات الحسنة تربطهم بمصر لأنها كانت طريقهم إلى الأراضى المقدسة بالحجاز فوجدوا عند سلاطين مصر الاستعداد الحسن مما دفعهم إلى أن يكتبوا إليهم الكتب المختلفة شاكرين إياهم هذا الاستعداد فى حسن استقبالهم لحجاج بيت الله الحرام وإكرامهم عند عودتهم.

وقد قدم إلى مصر الأمير أبو يحيى زكريا الحفصى من أمراء الدولة الحفصية فى تونس عام ٧١١هـ مستنجداً بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون فأنجده السلطان المصرى بالقوات اللازمة، ونجحت الحملة المصرية فى مهمتها وتم إعادة أبو حيى بفضل القوات المصرية إلى العرش وخطب للسلطان الناصر على منابر تونس (أفريقية) فكونت هذه الأجزاء من أفريقيا جزءا من السلطنة المصرية المملوكية للمرة الأولى فى تاريخ العصور الوسطى؛ إلا أن حكم ذلك السلطان الحفصى لم يدم طويلا.

وقد آشار ابن خلدون إلى أنه جاء إلى مصر عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م على ظهر سفينة مصرية كانت فى تونس، ومن المعروف أن وصول ابن خلدون إلى مصر كان من العوامل التى ساعدت على استمرار العلاقات بينه وسلاطين الدولة الحفصية؛ فقد عملوا على توثيق الروابط بين بلادهم وبين السلطان الظاهر برقوق، وتجلت هذه الروابط

حين طلب ابن خلدون من السلطان الظاهر برقوق أن يشفع له لدى السلطان الحفصى أبى العباس أحمد بن عبد الله صاحب تونس لكى يرسل له أسرته (أهله وولده)، ومن ثم .. فقد استجاب السلطان برقوق لرغبة ابن خلدون وأرسل إلى السلطان الحفصى فى ١٥ صفر ٨٧٦هـ/١٣٨٤م خطاباً يرجو فيه من السلطان الحفصى أن يرسل أسرة ابن خلدون إلى مصر وسرعان ما لبى سلطان تونس طلب السلطان برقوق، وبعث بسفينة محملة بالهدايا وعليها أسرة ابن خلدون.

وعندما علم السلطان الحفصى أبى العباس أحمد بخلع السلطان برقوق فى جمادى الأولى ٩٧١هـ/١٣٨٩م استاء لذلك وظل يراقب الموقف فى مصر حتى وصلته الأنباء بعودة السلطان برقوق مرة أخرى إلى العرش عام ٧٩٢هـ/١٣٩٠م. وسارع السلطان الحفصى بإرسال بعثة إلى القاهرة محملة بالهدايا، ومعها كتاب إلى السلطان برقوق يهنئه بالعودة إلى عرش السلطة مرة أخرى، وقد أشار إلى ذلك المقريزى.

وقد أورد القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى فى صناعة الأنشا فحوى الرسال التى أرسلها السلطان الحفصى ابن عبد الله إلى السلطان برقوق كما أن سلاطين تونس كانوا دائماً على اتصال بالخليفة العباسى المقيم فى القاهرة منذ عام ٦٥٩هـ، إذ أرسل أبو عبد الله بن يحيى بن أبى بكر الحفصى سلطان تونس عام ٧٩٢هـ كتاباً إلى الخليفة العباسى المتوكل على الله الذى كان يقيم بالقاهرة مع هدية قيمة. كذلك إن السلطان برقوق كان دائم الاتصال والكتابة إلى سلاطين الدولة الحفصية فنجد أنه كتب عام ٧٩٩هـ/١٣٩٧م كتاباً إلى أبى العباس أحمد بن يحيى بن أبى بكر الحفصى سلطان تونس.

كذلك فإن مصر كانت الوطن الثانى لأبناء تونس من السلاطين والعامة من ذلك عندما حاول السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمد اللحيانى تاسع أو عاشر سلاطين الحفصين بأفريقية الخروج من عرش البلاد والتخلى عنه .. فإنه طلب اللحاق والوصول

إلى مصر فراراً من حاكم الأقاليم الغربية من البلاد؛ فإنه لما سمع بغزو تونس استعجل أبو حفص الليحياتى الرحلة إلى ثغور طرابلس، وركب السفن هناك إلى الأسكندرية ووصل إلى مصر ونزل على السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٧هـ فأكرم نزله ورفع مجلسه إلى أن مات عام ٧٢٨هـ كذلك إنه عندما تعرضت تونس للغزو المرينى؛ فإن السلطان ورئيس الوزراء وابن تافراجين ركبا البحر وفرا إلى الأسكندرية عام ٧٤٩هـ.

كذلك .. فإن السلطان الحفصى أبو خربة قد لاذ بمصر أثر الشقاق والنزاع الداخلى مع الخليفة المستنصر الذى خرج عليه أبو بكر فهرب أبو خربة إلى المهدية وتحصن بها ثم إلى طرابلس وسافر إلى مصر وذلك أيام الملك محمد بن قلاوون.

كذلك .. فإن آخر سلاطين بنى حفص السلطان محمد بن الحسن أرسل رسولاً إلى سلطان مصر السلطان الغورى، وذلك أول دولة السلطان محمد وأرسل إلى السلطان الغورى هدية قيمة فيها زرافة. وقد وقع ابن أبى زينار فى خطأ عندما ظن أن الذى أرسل الزرافة هو السلطان الغورى فى حين أن الذى أرسل الزرافة هو سلطان كانم وبرنو وليس سلطان مصر لأن مصر لا تشتهر بهذا النوع من الحيوانات.

كذلك قامت بين مصر وبلاد الحفصيين علاقات اقتصادية وتجارية كان أساسها التعامل الاقتصادى والتعاون الأخوى والسوق العربية الإسلامية؛ حيث كانت مصر تصدر مالا تحتاج إليه إلى بلاد تونس والمغرب وتستورد ما تحتاج إليه واشتهر التجار المغاربة فى الأسواق المصرية؛ حيث كانت فئة التجار المغاربة يشكلون أكثر الفئات اتصالاً بمصر.

ومن هنا ترك الأثر الاقتصادى المصرى أثره الواضح والبارز فى البيئة المصرية؛ حيث شهد بذلك التأثير الثقافى الذى تركه هؤلاء التجار فى إثراء الحركة الثقافية

والفكرية والعلمية المصرية فى بلاد تونس، وكذلك رحيل علماء المغرب إلى مصر طلباً للعلم فى الأزهر (ابن خلدون جاء إلى مصر فى عصر الدولة الحفصية وتولى القضاء فى مصر كذلك فإن الأزهر أفرد رواقاً للمغاربة من بين الأروقة الكثيرة، وكان طلاب من تونس فى عصر الدولة الحفصية يحضرون إلى الأزهر لدراسة الفقه المالكى والعودة إلى تونس، ومن هنا .. كانت مصر على صلة قوية بالسلطنة الحفصية طوال تاريخها الطويل.

وكذلك أقامت تونس الحفصية علاقات قوية مع أفريقية الاستوائية؛ فقد كانت أقوى العلاقات من كانم والدولة الحفصية فى تونس منذ إنشائها، وكانت علاقات منتظمة وكان سلطان كانم قد أرسل فى عام ٦٥٧هـ/١٢٥٧م وكالة ومعها الهدايا إلى الخليفة المستنصر مؤسس الخلافة الحفصية ضمت زرافة اثارت الحيرة والتعجب وابتهج بها العامة واستمرت العلاقات قوية مع تبادل الهدايا واتصال الود بين ملوك كانم برنو وسلاطين بنى حفص، وكانت الهدية الأولى استهلالاً لمستقبل العلاقات مما انعكس أثره فى ازدياد التجارة.

وكانت علاقة كانم بالدولة الحفصية قوية وواضحة تمثلت فى التعاون والتنسيق فى ميادين عديدة. وهكذا .. ترى أن الدولة الحفصية ارتبطت بعلاقات ودية مع العديد من الأقطار. أما علاقتها بالبلاد الأوربية فقد عرضنا لها فى صلب الدراسة وأشرنا إلى الغزوة الصليبية بقيادة لويس التاسع عام ١٢٧٠م، وكذلك هجوم جنوده على طرابلس وغيرها من الاعتداءات العدوانية التى كانت تتكرر كثيراً على السواحل التونسية. وموضوع العلاقات موضوع متسع لا تتسع له هذه الصفحات إنما تحتاج إلى دراسة مستقلة لاسيما أن طوال فترة حكم الأسرة الحفصية يجعل لمن يبحث فى موضوع العلاقات مع الدول الأوربية يجد مادة كافية لتلك الدراسة.

أما موضوع العلاقات الحفصية مع دولة بنى زيان فى المغرب الأوسط ودولة الموحدين فى المغرب الأقصى ومن بعدها دولة بنى مرين، فسوف نعرضها فى تلك الدراسة بعد إلقاء الضوء على دولة بنى زيان ودولة بنى مرين ثم يكون موضوع العلاقات التونسية الزيانية المرينية فى فصل مستقل.

* * * *

الفصل التاسع

مآثر الخلافة الحفصية فى مختلف الميادين

إن أثر الخلافة الحفصية فى مختلف ميادين الحكم والسياسة والحضارة والثقافة والاقتصاد وغيرها من الميادين الأخرى طوال فترة حكمها التى امتدت الى ما يقرب من ثلاثة قرون موضوع متسع ويحتاج إلى دراسة منفصلة قد تكون عدة كتب لأن الحضارة الحفصية تركت بصماتها فى مختلف الميادين، ولكن تكتفى هنا نظراً لضيق الحيز المكانى لتأليف تلك الموسوعة بقدر ضئيل؛ بحيث تأخذ من كل جانب شذرة أو نقطة تعالج بها هذا الموضوع.

ومن ذلك نجد أن الحفصيين حافظوا على كثير من نظم الموحدين الإدارية؛ بل إن مؤسس الدولة ابن تومرت ظل يذكر فى خطبة الجمعة حتى القرن الرابع عشر واستمر وجود الدعاة الذين يعرفون بمشايخ الموحدين، والذين لعبوا دوراً كبيراً فى قيادة البلاد الاجتماعية والسياسية وانقسمت البلاد إدارياً إلى ثلاثة أنواع؛ فكانت القبائل البادية تتميز بنظام إدارى خاص يتضح فى دور رئيس القبيلة وهو نائب الحكومة، وكان البدو يمثلون مشكلة معقدة بالنسبة للدولة الحفصية وخاصة أثناء الصراع العائلى على السلطة لأن كل رئيس قبيلة بدوية كان ينضم إلى أحد الأمراء المتنافسين وانتهى الأمر بأن تمنح القبائل العربية اقطاعيات لتستقر عليها أراضيهم حول صفانس فى عهد الحفصيين وأغلب العرب على السهول التونسية فتحولت إلى النظام الرعوى؛ بينما انتقلت المراكز العمرانية إلى الساحل.

وقد عرفت الدولة الحفصية نظاماً سياسياً دقيقاً ظهرت فيه معظم المناصب الرئيسية المعروفة فى أشكال الحكم عرف الحاكم أميراً وخليفة، وقد حرصت الدولة

الحفصية منذ أن استقل بها حاكمها الأول أبو زكريا أن تظهر بصورة الدولة المتفرعة عن الدولة الموحدية، وعمل مؤرخو الدول الحفصية على إظهار أبناء عبد المؤمن من خلفاء الموحدين على أنهم فرع من الدولة، ويظهر ذلك فى احتفاظ الحفصيين بكثير من تقاليد الدولة الموحدية فى الحكم؛ بل احتفاظهم بلقب الموحدين، مثل شيخ الموحدين ورئيس الموحدين وظلت هذه الألقاب حتى نهاية الدولة.

وينحصر نظام الحكم فى تقسيم الدولة إلى ولايات بعهديهاإلى حكام هم أبناء السلطان أو أخوته أو من سلالة بنى حفص مع منحهم سلطات مطلقة، وكان السلطان يحكم بواسطة لجنة العشرة كما الحال فى دولة الموحدين وعرفت الدولة نظام الخلافة فى أوائل عهد أميرها الثانى المستنصر بالله أبى زكريا، وذلك عام ٦٥٠هـ، أو ٦٥٦هـ، أو ٦٥٧هـ، وقد اهتمت الدولة الحفصية منذ عهد عميدها الشيخ أبى حفص بأن تنسب إلى قريش والى عمر بن الخطاب، وحرص مؤرخوها على نعت الدولة بالعمرية أو الفاروقية.

وقد أوجد الخليفة المستنصر نظام الخلافة فى الدولة، وكان النظام فى أن يتولى ولى العهد هذا المنصب أو يتولى أهل الرأى والمشورة، وأهل الحل والعقد فى تونس اختيار الخليفة فى حالة موت الخليفة دون أن يعين ولياً للعهد مثلما تدخل أهل الرأى فى اختيار الأمير أبى البقاء خالد الثانى عام ٧٧٠هـ-٧٧٢هـ؛ ليكون خليفة للبلاد بعد وفاة أبى إبراهيم بن أبى بكر (٧٧٠هـ)، دون أن يولى عهده لأحد واختلف الخلفاء الحفصيون من حيث سيطرتهم على الدولة وقيامهم بأمورها والمسئوليات الملقاة على عاتقهم، ومن حيث قدرتهم وقوتهم فقد حافظ المستنصر على تولى الحكم الذى وصل إليه أبوه، وقد أدى ضعف الخلفاء واستبداد حجابهم ورجالهم بالحكم إلى أضرار كثيرة، وظل الأمر على ذلك إلى أن جاء الخليفة أبو العباس أحمد فبدأ فترة من عودة القوة إلى الخلافة والدولة.

وكان ولى العهد هو خليفة الغد، وعرفته الدولة الحفصية واعتبرته وسيلة سياسية لتولى الحكم والذى يدرس تاريخ الأسرة الحفصية وتسلسل الحكام والسلاطين الذين تولوا السلطة يجد أن نظام ولاية العهد إنما يكون غالباً لأحد أبناء الخلفاء السابقين أو أخوته أو أحفاده إن لم يكن له أبناء، وإن مشكلة ولاية العهد التى كان يعهد فيها الخليفة إلى من يراه وريثاً للحكم من بعده قد أدت إلى مشاكل كثيرة، ومنها خروج بعض الحفصيين على ولاية العهد؛ بل البيعة واستيلائه على الحكم من حفصى آخر مثلما فعل أبو العباس أحمد ضد أبى البقاء خالد الثانى (٧٧٠هـ-٧٧٢هـ)، وكذلك عزل الابن لأبيه بعد عهده إليه بالولاية.

وقد اعتمد نظام الحكم الحفصى الخليفى فى البلد ادارته لزمام الأمور على هيئة مستشارين وعلى مناصب عدة، وكان الخليفة يستشير كثيراً من المعاونين، ومنهم أشياخ البساط، وهم مجموعة من المقربين للخليفة الحفصى كما أن الخليفة يعتمد على شيخ الدولة، وكبير الدولة، وقد وصلت وظيفة ومكانة شيخ الموحدين إلى مرتبة عالية ولأهمية هذه الوظيفة أولاها الخليفة مزيداً من الاهتمام والعناية وحسن اختيار من يتولاها فنجد أنه كان دائماً يحرص كل الحرص على اختيار أصلح العناصر الحفصية الممتازة، وقد تولى مثلاً رياسة الدولة فى عهد أبى زكريا أخوه أبو عبد الله اللبحانى، وكان يخلفه فى الحكم عندما يكون خارج تونس أو فى حملات عسكرية.

وكان وظيفة الحاجب وظيفة خاصة إذ كان يشرف على قصر الخليفة ويلعب دور الوسيط بينه وبين الحكومة. وهناك موظفون يباشرون وظائف القصر أكبرهم المحتسب وهو الذى يراقب الأسواق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وتلقب خلفاء آل حفص بلقب أمير المؤمنين واستأثروا به عمن سواهم، وكانت الرياسة فى دولتهم بأفريقية والتقدم لوزير الرأى والمشورة، وكان يخص باسم شيخ الموحدين، وكان له النظر فى الولايات والعزل وتولية قواد العسكر والحروب والديوان

واختص الحسبان والديوان برتبة أخرى، ويسمى متوليها بصاحب الأشغال، وكان الحاجب واسطة بين الناس وأهل الرتب فيهم وحجب السلطان نفسه عن الناس وعرفت الدولة الحفصية الوزارة وكان الوزراء فى العادة ثلاثة اختص أحدهم بالجيش واختص الثانى بالناحية المالية واختص الثالث بالإشراف على الدواوين وتيسير الأمور بها ومعها الإشراف على الأمن، ولذا .. كان منصب الوزير مطعماً لكثيرين ودبروا المؤامرات للحصول عليه، وكانت مكانته أقل من رياسة الدولة والحجابة وقد نقل ابن فضل الله عن الدولة الحفصية أن وزراء الدولة ثلاثة أنواع وزير الجند والجيش ووزير المالية ووزير القصر وكان وزير القصر يختص بشئون الكتابة والعلامة كما أن وظيفة وزير ليست مساوية لأشياخ السباط وأغلب الظن أن وظيفة وزير أقرب لوظيفة أمين السر كذلك وظيفة الكاتب وهى من الوظائف المعاونة للحكم وقد اهتمت الدولة بوظيفة كاتب الإنشاء وكاتب العلامة ويبدو أنها كانت أعلى علامة.

وكان للاستقبال فى القصر مراسم مختلفة تشدد الخلفاء فى رسمها؛ فقد كان لهم حرس خاص يحيط بهم إذا خرجوا كما كانت لهم أعلام كبيرة مصنوعة من الحرير المطرز بالذهب الخالص والفضة.

وقد امتلأ تاريخ الحفصيين الذى يقرب من ثلاثة قرون بالفتن والحروب فلم نجد عهد خليفة يخلو من ثورة يقوم بها أحد أبنائه أو اخوته أو أعمامه وكان الانقسام ظاهرة واضحة فى تاريخ الدولة الحفصية، وهذه الظاهرة كانت شائعة فى كل دويلات المغرب العربى المعاصرة واللاحقة والسابقة لدولة بنى حفص.

والواقع أن الدولة الحفصية منذ قيامها أولت العلاقات التجارية بالخارج عناية خاصة؛ فهى التى تابعت دون غيرها من دول المغرب سياسة الموحدين فى عقد المعاهدات التجارية مع دويلات ايطاليا وتوسعت فيها، ولذا .. انتشرت الفنادق والقنصليات فى مدينة تونس ويبدو أن تونس كانت حلقة اتصال، وأهم ما يميز

الحفصين عن غيرهم هو علاقتهم بالمسيحيين؛ فقد حاربوا الأمراء المسيحيين فى أوائل دولتهم حين استنجد بهم أمراء المسلمون، ولكن الأمر انقلب إلى صداقة فألفوا مع المسلمين والمسيحيين فى الأندلس حلفا وقف فى وجه الموحدين حتى قضوا عليهم، ولذا .. قدم المسيحيون إلى تونس وسكنوها وتمتعوا بحريتهم وأقام الحفصيون نظاماً عسكرياً حشدوا له جيشاً من مختلف الجنسيات المحلية والوافدة فيهم العرب والبربر كما ظهر آنذاك الأندلسيون والأسرى الأوربيون الذين اعتنقوا الإسلام فى صفوف الجيش الحفصى وإذا كان الحفصيون قد حافظوا على مركز التعامل مع الأوربين؛ من حيث القوة البحرية إلا أن الدفة أخذت تتحول لصالح الأوربين من حيث القوة البحرية والدليل على ذلك أن التجار الأوربين هم الذين كانوا يأتون إلى تونس ويقيمون فيها الفنادق والقنصليات.

وقد كان لزاماً على الدولة الحفصية أن تسهم فى دفع الخطر البرتغالى عن مراكش فى القرن الخامس عشر؛ بل أنها قدمت المساعدات إلى آخر الدويلات الإسلامية فى الأندلس (دولة غرناطة).

حضارة الحفصين :

اهتم سلاطين الدولة الحفصية بإقامة المنشات، وتشهد مدن تونس جميعها بعلو باعهم فى مختلف الفنون كالمدارس والقناطر والقباب والقصور ودار الحكمة ودار الكتب وقصور الخلفاء التى أقامها فنانو الأندلس الذين قدموا تونس وعاشوا فيها وشيد أبو زكريا الكثير من القصور وغرس الحدائق وأقام أبو زكريا فى مدينة تونس جامع القصبة وكانت منارته المربعة على مثال مغارة جامع القصبة فى تونس وكان بناء الجامع عام ٦٢٩هـ، ويقال له جامع السلطان وبنى مدرسة بسوق الشماعين وجعل مكتبة بها ٣٦ ألف مجلد.

وأقام الخليفة أبو حفص عمر مسجداً سمى مسجد الهواء بشبه فى طرازه الفخم جامع القيروان وشيد المستنصر قصر فخماً أكثر ابن خلدون فى الإشادة به، وكان فى وسطه بحيرة كبيرة المساحة، وشيد الحفصيون كثيراً من خزانات المياه وكانت فى أيام أبى زكريا ثلاث مدارس ظلت واحدة منها حتى نهاية القرن الثالث عشر.

وأصبحت الدولة الحفصية باعتبار أن نسبها يمتد إلى قريش والى عمر بن الخطاب اهتماماً كبيراً بالناحية الدينية فعملت على نشر مكاتب لتحفيظ القرآن الكريم وتخصيص جوائز لمن يتم حفظه والاهتمام بجامع الزينونة وكذلك تعلم الأحاديث النبوية والعلوم الدينية الأخرى، وكان مذهب الدولة هو المذهب المالكى المنتشر فى جميع أنحاء الدولة على اتباع سياسة اللين والتسامح على أصحاب المذاهب الأخرى، وكما اهتمت الدولة بالدين الإسلامى؛ فقد اهتمت بالوظائف المتعلقة به واهتمت الدولة بوظيفة القضاء وتعيين قاضى القضاة، وذلك للفصل بين الناس فى الخصومات، وكان هناك نظام قضائى دقيق وفى الدولة الحفصية أولى الخلفاء بأنفسهم اهتماماً بالغاً بالقضاء لإحساسهم بخطورة المنصب ودوره فى الدولة لاتصاله بأمور الشريعة والدين وتحقيق العدل بين الرعية؛ فكان الخليفة يقوم باختيار القضاء بنفسه، وقد اتبعت الدولة نظاماً صارماً ودقيقاً لكى تحفظ للقضاء نزاهته وعدالته؛ فكانت تختار القاضى من بين من يشهد لهم بالعدل وحسن السيرة والسمعة والتمكن من علوم الدين مع النزاهة والصرامة والقدوة الحسنة، وكان يعين القاضى لفترة لاتزيد عن عامين وكانت المدة تنقص لتكون عاماً واحداً وبضعة أشهر، وكان تحديد هذه الفترة القصيرة لكى يكون له نفوذ قوى، وحتى لايكون له أعوان وأنصار وربما طول المدة يجعله يحيد عن جادة الحكم وقد يتعارض بقاؤه مع نظام الحكم الحفصى. وكان الخلفاء الحفصيون يهتمون بالإسراع فى تعيين القضاة، وذلك لحرصهم على عدم التأخر فى النظر فى المحاكم

واتخاذ قرار البت فى شكاوى العامة والصلح بين طرفى التنازع وتمسكاً بالحق ونشر العدل فى أرجاء البلاد. وكان العدل من أهم سمات الحكم الحفصى.

وكما اهتم الحفصيون بالتجارة وزاد النشاط العمرانى فى مختلف أنحاء البلاد وخاصة المدن الكبرى فى الموانئ؛ حيث الفنادق ووكالات التجار والخانات والأسواق تخصصها فى بيع سلعة معينة.

وكذلك اهتم الحفصيون بالثقافية الإسلامية فأنشأوا المكتبات واهتموا بمجالس العلم والعلماء وشجعوا البحث والدراسة والتأليف وإرسال البعثات التعليمية إلى الأزهر بمصر وشجع الخلفاء والأمراء وكبار الموظفين. هذا الاتجاه وأنشأوا المكتبات الضخمة ولقيت بمجالس العلم العلماء عناية الدولة واهتم بها الخلفاء وكان بعض الخلفاء الأمراء ميالاً لحضور مجالس العلم وحريصاً على الاستفادة منها واهتمت الدولة بمجالس الوعظ وقراءة القرآن الكريم والأوراد.

وكان العلماء فى الدولة مهتمين بإبداء النصح للخلفاء، وكان نصحهم يلقى قبولاً لديهم واهتمت الدولة بالآداب وفنون العمارة الإسلامية وأكثروا من إنشاء المساجد وتمكنت تقاليد مذهب الإمام مالك فى نفوس أهل أفريقية وفى مدارس القيروان ووقفت للمذاهب الأخرى بالمرصاد وانتصر المذهب المالكى وهو المذهب الرسمى للدولة وأصبح فقهاء الملكية فى نظر شعب المغرب الزعماء الذين يدافعون عن الضعفاء ويعارضون الحكام وفى تاريخ الدولة الحفصية أمثلة كثيرة على تدخل رجال الدين للصلح بنى المنافسين على العرش. وكان نصحهم ودورهم يلقى قبولاً من الرعية والحكام.

ونبغ كثير من أبناء تونس فى الأدب والشعر والفقه وأولت الدولة الحفصية مزيداً من العناية والتعليم وإنشاء المدارس حتى أننا لا نجد خليفة طال حكمه إلا وأقام العديد من المدارس وعين المدرسين لها.

وكل هذه الأمور التى شهدتها البلاد استدعت من الدولة اهتماماً شديداً بالناحية الاقتصادية لأن الاقتصاد هو عماد بناء الدولة وكانت الدولة تعتمد على عدة مصادر لتمويل مشاريعها وإدارة شئونها ومن هذه المصادر الضرائب والزكاة والجزية والمصادرات والعشور وضرائب الأرض وضرائب الحرفين ولقد حافظت الدولة على تحصيل الضرائب وكذلك أموال الزكاة.

ولقد كان الاقتصاد القوى للدولة سبباً فى تقدم النشاط الثقافى والحضارى وكذلك النواحى الاجتماعية وبناء الزوايا والسبل والأربطة وكل هذه النشاطات، ما كان لها أن تتحقق وتزدهر إلا فى ظل نظام اقتصادى دقيق ومنضبط يحقق أهداف الدولة فى تقدمها ورقيها؛ حيث ازدهرت الثقافة الإسلامية فى عهد الدولة الحفصية.

وتلك هى صورة موجزة ومختصرة على الدولة الحفصية باعتبارها أقدم دول منطقة المغرب العربى فى الظهور ككيان مستقل رغم وجود الدويلات المستقلة التى حاربت من أجل إضعاف دولة الموحدين لكى تقوم على انقاضها هذه الدول الثلاث.

* * * *

حكام الأسرة الحفصية فى تونس

١ - حكام تابعـون للخلافة الموحدية

١ - أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص

(٦٠٣هـ-٦٢١هـ/١٢٠٦م-١١٢٤م)

٢ - أبو عبد الله محمد عبد الواحد

(٦٢٣هـ-٦٢٥هـ/١٢٢٦م-١٢٢٨م)

٢ - الإمارة المستقلة

٣ - أبو زكريا بن محمد عبد الواحد

(٦٢٦هـ-٦٤٧هـ/١٢٢٩م-١٢٤٩م)

٣ - الخلافة الحفصية

٤ - أبو عبد الله محمد الأول المستنصر

(٦٤٧هـ/١٢٤٩م)

٥ - أبو زكريا يحيى الثانى الواثق

(٦٧٥هـ/١٢٧٦م)

٦ - أبو اسحق إبراهيم الأول

(٦٧٨هـ/١٢٧٩م)

* ثورة الدعى أحمد بن مرزوق أبى عميرة (٦٨١هـ/١٢٨٢م)

٤ - الأسرة الحفصية وانقسام الدولة

٨ - أبو حفص عمر الأول (يحكم فى تونس)

(٦٨٣هـ/١٢٨٤م)

٩ - أبو زكريا يحيى (يحكم فى بجاية)

(٦٨٣هـ-٦٩٨/١٢٨٤-١٢٩٨م)

١٠ - أبو عبد الله (أبو عصيدة) محمد الثانى المستنصر بن يحيى الثانى
(يحكم فى تونس) (٦٩٤هـ/١٢٩٤م)

١١ - أبو البقاء خالد الناصر الأول : يحكم فى بجاية ثم انفرد بالحكم بعد ذلك
(٦٩٩هـ/١٢٩٩م)

١٢ - أبو بكر الأول الشهيد يحيى الأول، يحكم فى بجاية ثم انفرد بالحكم بعد ذلك
(٧٠٩هـ/١٢٠٩م)

١٣ - أبو البقاء خالد الأول الناصر فى تونس

(٧٠٩هـ/١٣٠٩م)

١٤ - أبو بكر الثانى المتوكل بقسنطينة وبجاية

(٧١١هـ/١٣١١م)

١٥ - أبو يحيى زكريا اللحيانى بن أحمد (تونس)

(٧١١هـ/١٣١١م)

١٦ - أبو خربة محمد الثالث المستنصر (تونس)

(٧١٧هـ/١٣١٧م)

١٧ - أبو يحيى أبو بكر الثانى المتوكل (يحكم فى وجدة)
(٧١٨هـ/١٣١٨م)

١٨ - أبو حفص عمر الثانى
(٧٣٧هـ/١٣٤٦م)

الاحتلال المرينى ٧٤٧هـ - ١٣٤٦م

١٩ - أبو العباس أحمد الأول الفضل (يحكم فى قسنطينة) (٧٤٩هـ/١٣٤٨م)

٢٠ - أبو زيد عبد الرحمن بن أبى بكر الثانى (يحكم فى قسنطينة)
(٧٤٩هـ/١٣٤٨م)

٢١ - أبو عبد الله محمد المنصور بن أبى بكر الثانى (يحكم فى بجاية)
(٧٤٩هـ/١٣٤٨م)

٢٢ - أبو العباس أحمد الأول الفضل المتوكل (يحكم منفرداً)
(٧٥٠هـ/١٣٤٩م)

٢٣ - أبو اسحق إبراهيم الثانى المستنصر (يحكم فى تونس)
(٧٥٠هـ-٧٧٠هـ)

٢٤ - استيلاء بنى مرين على بجاية (٧٥٤هـ/١٣٥٣م)

٢٥ - احتلال بنى مرين لأفريقية للمرة الثانية (٧٥٨هـ/١٣٥٩م)

٢٦ - أبو اسحق إبراهيم الثانى المنتصر (يحكم فى تونس) (٧٥٨هـ/١٣٥٦م)

٢٧ - أبو اسحق إبراهيم الثانى المستنصر (يحكم فى تونس) (٧٥٨هـ/١٣٥٦م)

٢٨ - أبو اسحق إبراهيم الثانى المستنصر (يحكم فى تونس)

(٧٦١هـ/١٣٥٩م)

٢٩ - أبو البقاء خالد الثانى بن إبراهيم الثانى

(٧٧٠هـ/١٣٦٨م)

عودة الخلافة للقوة وخلفاء أقوياء

٣٠ - أبو العباس أحمد الثانى المستنصر (انتزع الحكم بمفرده)

(٧٧٢هـ/١٣٧٠م)

٣١ - أبو فارس عبد العزيز المتوكل بن أحمد الثانى

(٧٩٦هـ/١٣٩٣م)

٣٢ - أبو عبد الله محمد الرابع المنتصر بن محمد

(٨٣٨هـ/١٤٨٧م)

٣٣ - أبو عمر عثمان بن محمد الرابع

(٨٩٣هـ/١٤٨٧م)

٥ - الأسرة الحفصية فى ظل الأتراك

٣٤ - أبو زكريا يحيى بن عبد الله محمد المنصور

(٧٩٣هـ/١٤٨٧م)

٣٥ - أبو عبد الله محمد بن أبى محمد الحسن

(٨٩٩هـ/١٤٩٣م)

٣٦ - أبو محمد الحسن بن محمد بن الحسن بن المسعود

(٩٣٢هـ/١٢٥٦م)

٣٧ - محمد بن الحسن بن محمد الحسن (فترة اضطرابات بين الأتراك والأسبان) وظل يحكم تونس فى عام (٩٨١هـ/١٥٧٤م)

وانفرد الأتراك بحكم تونس وتحويلها إلى أيالة عام ١٥٨٧م.

* * * *

الباب الثانى

بنى زيان على مسرح الأحداث فى المغرب

الدولة فى دور التكوين

شهد القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى مولد دويلات فى بلاد المغرب صارعت كل منها الأخرى فى سبيل تحقيق ذاتها وقد تحقق لها ذلك فنعمت بكياناتها المستقلة وأصبحت كل منها دولة قوية.

فإذا كان الجزء الشرقى من الدولة الموحدية قد استطاع أن يحافظ على كيانه تحت حكم الحفصيين؛ فإن الجزء الأوسط كان أقل حظا؛ حيث أصبحت المدن ميداناً لكثير من الهجمات المتوالية التى أشاعت الخراب فيه؛ فقد انتهزت قبيلة زنانة فرصة ضياع سلطة صنهاجة لتعود إلى قواتها، وهكذا .. استطاعت زنانة أن تقسم دولة الموحدية لزنانة بنى مرين فى المغرب الأقصى وزنانة بن عبد الواد (زيان) فى المغرب الأوسط وتنتمى دولة بنى عبد الواد إلى قبائل زنانة التى كانت ترتاد جبال وصحراء المغرب الأوسط ولما فتح الموحدون هذه البلاد كان بنو عبد الواد عونا لهم فنالوا ثقة الموحدين وحصلوا منهم على اقطاعات وفيرة وهى أقليم تنمسان فاستقروا فيها منذ ذلك الوقت، وكان الموحدون يسيطرون على كل بلاد المغرب قاطبة ولما أخذت دولتهم تضعف شيئاً فشيئاً .. قام على أثر ذلك عدة دول، والدولة الزيانية التى تعرض لها والتى تقف مكتوفة الأيدى أمام تمزق الدولة الموحدية قد أصبحت من هذه الدويلات.

ذلك لأنه على أثر الفتح الإسلامى فى بداية القرن السابع الميلادى كانت القبائل المستقرة فى منطقة تلمسان تحت سلطة فرع من بنى أيفرن وهى إحدى القبائل

الرئيسية من زنانة وهم من رعاة البدو وكفان فرع من مغراوة وهم أهم أقوام زنانة بشغل المنطقة الواقعة إلى الشرق من ذلك. وفي ذلك الوقت كان بنو عبد الواد وهم فرع من بني واسين وهؤلاء قبيلة أخرى من زنانة، كانوا فى حالة بداوة يتجولون فى الزاب وفى جبال الأوراس. وقد شكل بنو عبد الواد فرقة فى جيش عقبة بن نافع النهرى الذين قادهم فى مسيرته نحو الغرب عام ٦٨٢م وأبلوا معه بلاءاً حسنا وقد انهارت قوة بنى يفرن أثر الفتح الفاطمى فى القرن العاشر الميلادى أمام مغراوة الذين لم يفقدوا سلطتهم فى تلمسان إلا على أثر فتح المدينة على أيدى المرابطين عام ١٠٧٩م، وفى هذا العصر تمت إزاحة بنى عبد الواد من الزاب فى منطقة قسنطينة على يد العرب الهلالين وجاءوا ليستقروا فى جنوب منطقة وهران الحالية، ولم يظهروا على مسرح الأحداث فى منطقة تلمسان إلا فى أواسط القرن الثانى عشر الميلادى كخصوم أولاً ثم كخلفاء الفاتح الموحدى عبد المؤمن. وفى عام ١٢٣٦م أخذ أميرهم يغمراسن بن زيان وكان محارباً قديراً فيه كل صفات الزعامة الملكية تحت رئاسة الخليفة الموحدى فى مراكش. وكان هذا رد فعل ضد بنى مرين وهم من زنانة بنى واسين.

وقامت الدولة الزيانية فى منطقة أطلق المؤرخون عليها المغرب الأوسط وتسمى أيضاً الدولة العبد الوادية نسباً إلى عبد الواد كبير القبيلة. وينقسم بنو عبد الواد إلى بطون وشعوب منها بنو درهطف وبنو ولدا وبنو لومرت وبنو قاسم وغيرهم، ويزعم بنو قاسم أنهم من أولاد القاسم بن أدريس وعمل بنو عبد الواد على تأكيد هذا النسب.

وبنو زيان ينتسبون إلى زيان بن ثابت واد يغمراسن مؤسس هذه الدولة وأنهم استطاعوا بقيادة يغمراسن بن زيان أن يقيموا دولة بالمغرب الأوسط.

وبذلك .. تكون الدولة الزيانية هى الثانية التى ورثت الموحدين فى شرق المغرب الأوسط وبنو عبد الواد الذين أنشأوا هذه الدولة كانوا من أشد حلفاء الموحدين، وقد

توغلوا في المغرب الأوسط ونازعوا بنى هلال الذين كانوا مسيطرين هناك، وكان العرب الهلالية قد دفعوا الزيانية أمامهم من مواطنهم الأولى فى بلاد الزاب جنوبى قسنطينة فهاجروا غرباً واستقروا حول تلمسان بموافقة الموحدين.

وهكذا .. نجد أنفسنا أمام وضع سياسى ثانٍ جديد يقوم على أنقاض الدولة الموحدية إذ أنه فى نفس الوقت الذى نشأت فيه أسرة حاكمة فى تونس أقام يغمراسن ابن زيان أسرة جديدة في تلمسان، وهو ينتمى إلى فرع عبد الودية أو عبد الواد من قبيلة زناتة الكبيرة، ولذا .. تعرف أحياناً أسرة تلمسان بأسرة عبد الواد؛ بل أن تلقبها بالأسرة الزيانية لم يشع إلا بعد القرن الرابع عشر.

وقد بدا نجم أسرة بنى الواد فى السطوع فى منطقة غرب الجزائر. وبالذات بالقرب من تلمسان عندما وزع الموحدون الاقطاعيات على العائلات والقبائل الكبيرة، التى أدت خدمات جليلة للدولة؛ فكان نصيب بنى عبد الواد بالقرب من تلمسان.

وكانت عودة السلطة إلى زناتة تعنى قيام أسرتين فى منطقتى المغرب الأوسط والغربى، وقد ارتبطتا برابطة الدم والقرابة إلا أن العداوات قامت بينهما، وهما أسرتا عبد الواد فى تلمسان وبنى مرين فى فاس.

وكان يغمراسن بن زيان هذا هو سليل إحدى الأسر التى زحفت نحو الغرب أمام الهلاليين، وبعد قرن كامل وحدت بطونها وقويت شوكتها وبدأت تتجه نحو الشرق حتى استقرت بالقرب من وهران تابعة للموحدين حتى إذا حققت هذه الدولة الأخيرة وجودها انتهز رجالها الفرصة وأقاموا لهم دولة مستقلة استمرت ثلاثة قرون.

والمغرب الأوسط الذى قامت به دولة بنى زيان يقصد به الجزائر وأنه فى هذه البقعة كما اتفق العديد من المؤرخين هو وادى ملوية ولكنهم اختلفوا فى تحديد الحد

الشرقى؛ فمنهم من يرى أنها مدينة قسنطينة ومنهم من يرى أنها داخل أفريقية وأن بجاية تعنى الحد الشرقى.

وكانت حدود هذه الدولة غير ثابتة إذ أنها كانت تضيق وتتسع؛ حيث قوة جيرانها وضعفهم وهم فى الشرق بنو حفص وفى الغرب بنو مرين إلا أنه يمكن القول بأن حدودها كانت تمتد طولاً من البحر المتوسط شمالاً إلى صحراء الجزائر جنوباً وعرضاً من جبال سعيدة ووادى ميتة شرقًا إلى وادى ملوية ومدينة وجدة غربًا.

ومن التكوين الطبيعى لمنطقة المغرب الأوسط؛ فإنه نتج عنه تكوين قبلى يتلائم مع مكونات البيئة الجبلية الصحراوية؛ حيث السفوح والسهول والوديان؛ فكانت القبائل تشكل نظاماً يختلف عن المغرب الأدنى ولقد استوطنت بالمغرب عناصر سكانية متعددة، وكانت الغالبية العظمى العرب والبربر، ولقد استوطنت القبائل العربية فى المغرب الأوسط فى مناطق مختلفة، ومنها القبائل الهلالية التى وفدت إلى المغرب فى المسيرة الهلالية ثم استوطنت أفريقية والبربر فى المغرب الأوسط انتشروا أيضاً فيه وخاصة قبيلة زناتة وأن المغرب الأوسط ينتسب إليها ويعرف بها فيقال وطنى زناتة، ومن قبائل زناتة قبيلة عبد الواد السابق الإشارة التى يندرج تحتها بنو زيان.

نسب بنو زيان :

قيل أنهم من البربر ومن أبناء زناتة فمن ولد زناتة بنو عبد الواد، وبنو مرين، ومفراوة، وغيرهم، ولكن منهم من قسمهم إلى اتخاذ أولهما إلى البربر ونسب وينسب ثانيها إلى إدريس بن عبد الله بن محمد بن أبى الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم، وقد افتخر يغمراسن بن زيان عندما رفع نسبه إلى ادريس. وقد عمل بنو عبد الواد على تأكيد هذا النسب خصوصاً فى عهد موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن

يحيى بن يغمراسن بن زيان الذى يعتبره عصره من أزهى عصور الدولة؛ بل أنه أكثر من ذلك .. فإن بنى عبد الواد لم يكتفوا بتأكيد نسبهم إلى آل ادريس؛ بل تقربوا إلى العلويين؛ حيث كانت لهم قرية من أعمال تلمسان تعرف بقرية العلويين، وقد عمل بنو زيان على تأكيد الصلة فتزوجوا وزوجوا بناتهم إلى أبناء الشريف ويعرف بالعلوى.

كذلك تأكيداً للنسب العلوى العربى يخالف بنو عبد الواد القبائل العربية، التى استقرت فى المغرب الأوسط خصوصاً بطون عرب زغبة الذين جمعتهم وزنانة عصبية الحلف وذوى عبد الله من عرب المعقل المجاورين لبنى عامر بن زغبة المستقرين بجوار تلمسان. وازدادت مكانة شيوخ هذه القبائل حتى أسند يغمراسن بن زيان فى بعض الأحيان إلى شيخ عرب سويد بن مالك ولاية تلمسان، وما يتبعها شرقاً عند خروجه لقتال أعدائه.

ظروف ظهور بنى زيان :

عاش بنو عبد الواد بداية أمرهم فى الصحراء شرق المغرب الأوسط، وانقسمت الدولة الموحدية إلى أقسام بين الحفصيين وبنى مرين ولكن وسط هذا الانقسام ما هو الموقف فى المغرب الأوسط، لقد كانت قبيلة بنى عبد الواد التى تعيش فى ضواحى تلمسان أقوى هذه القبائل جميعاً ونظروا فى الوضع الراهن وحالات التردى التى وصلت إليها البلاد، فوجدوا بلاد المغرب وقد شاعت وظهرت على السطح ظاهرة استقلال الأقاليم وتفكك الدولة؛ فكان عليهم وهم أقوى القبائل وبما لهم من زعامة وقوة وتمركز بالقرب من تلمسان أن يحققوا ذاتهم وأن يكون لهم كيان سياسى ومكان فى الصراع الدائر بين القوى المختلفة.

فاستطاع يغمراسن دخول تلمسان واتخاذها قاعدة لهم وتلمسان مدينة قديمة

إلى شرق وادى ملوية وكانت تعرف أيام الرومان باسم بوماريا واسمها بلغة البربر (تاجرارت)، ولكنها عرفت منذ أيام المرابطين، وفى عهد يوسف بن تاشفين بالذات باسم تلمسان، وقد عمرها يوسف وأنشأ مسجدها الجامع وأحاطها بسور وجعلها من مراكز العلم والحضارة فى المغرب الأوسط، وفى ذلك يقول أبو عبيد الله البكرى أن تلمسان كانت دائماً مركز تجارة نافعة وعلم وعلماء، وقد نعمت تلمسان بالازدهار الحضارى؛ حيث أصبحت صورة من غرناطة وبدخول يغمراسن تمكن بنو عبد الواد من تأسيس ملكهم بتلمسان، وهكذا .. اتخذ هذا الفرع الزياتى من مدينة تلمسان مقراً للحكومة الجديدة التى أنشأها وساعدت الظروف الطبيعية على اختيار هذا المكان.

فإن تلمسان تقع فوق هضبة مرتفعة بين مصب نهر التفنة وبين المدن الداخلية، واستمرت الأسرة الزيانية فى اتخاذ تلمسان مركزاً لحكم الدولة، وكان بها حيان أحدهما للعسكريين والآخر للمدنيين، وقد احتفظ بنو زيان بامارتها ثلاثمائة عام وظلت فى حكم أحفاد يغمراسن بن زيان، وقد بدل هؤلاء السلاطين اسم الأسرة من بنى عبد الواد وأصبحوا يدعون بنى زيان أى أبناء زيان الذى كان والد يغمراش.

وتمتد مملكة تلمسان فى عهد بنى زيان كما ذكر ذلك الحسن الوزان (ليو الأفريقى) على مساحة خمسمائة وثلاثين ميلاً من الشرق إلى الغرب، ولكنها ضيقة جداً من الشمال إلى الجنوب بين البحر المتوسط، وبين تخوم الصحراء لاتوجد إلا بعض النقاط المدن القليلة سوى مساحة لاتزيد عن خمسة وعشرين ميلاً، وهذا هو السبب الذى جعل هذه السلطنة معرضة باستمرار لسوء المعاملة وللإذلال الخطير على أيدى العرب الذين يسكنون الجزء المجاور للصحراء، وكان ملوك تلمسان مضطرين دائماً لكسب مودتهم بدفع أتاوات ضخمة وتقديم الهدايا لهم والقسم الأعظم من مملكة تلمسان عبارة عن مقاطعة جافة عقيمة ولاسيما فى قسمها الجنوبى ولكن السهول

القريبة من السواحل منتجة جداً؛ بسبب خصوبتها وكل النطاق المجاور لتلمسان يقع فى السهل مع وجود بعض الصحارى المأمون الموحدى الذى كتب له عهداً على تلمسان (٦٢٧هـ/١٢٢٩م) على المسرح السياسى فى المغرب الأوسط، وبدأ كيان الزياتية بأخذ أولى ويبدو أن الموحدين نظروا فلم يجدوا سوى بنى عبد الواد أهلاً لحمل ولايوجد إلا القليل من المدن والقصور فى هذه المملكة غير أن هذه البلدان تكون مزدهرة فى المنطقة الخصبة.

وكان على بنى عبد الواد أن يفكروا فى الأمر باتزان بعد دخولهم تلمسان وكان زعيمهم (جابر بن يوسف) الذى على المدينة قد أرسل بالبيعة للخليفة اسمهم فى هذه المنطقة خاصة وأن أفريقية قد ضاعت منهم بعد استقلالها فى عهد أبى زكريا الحفصى، ومن هنا .. بدأ بنو عبد الواد يضعون أقدامهم الخطوات للظهور على مسرح الأحداث فى المغرب.

وهكذا .. صادف قيام الدولة الزبانية نجاحاً نظراً لأن بنى عبد الواد كانوا يعيشون بالقرب من تلمسان، وبذلك استطاعوا ضرب قوى بنى غانية فى المدينة وأرسلوا بتبعيتهم إلى الموحدين ونتيجة لضعف الموحدين فى ذلك الوقت كتبوا العهد لبنى عبد الواد فى تلمسان.

ولقد كانت ظروف المغرب تفرض على بنى عبد الواد أن يحتاطوا للأمور، وأن يعطوه عظيم اهتمامهم؛ خاصة وأنهم يتتابعون ويعلمون أن دولة الموحدين على وشك السقوط والانحدار النهائى، ومن هذه القوى الشابة التى استقلت عن الموحدين فى الشرق والمغرب لابد أن تهاجم المغرب الأوسط، وكان موقع هذه الدولة الناشئة بين الحفصين فى الشرق وبنى مرين فى الغرب هو الذى جعل لها أهمية سياسية فاعتبرها كل فريق جزءاً من دولته فتبادلاها أكثر من مرة.

وقد ظلت الأسرة الزبانية أقل الدول التى خلفت الموحدين شأناً؛ فهى لم تسيطر على المغرب الأوسط الذى يقابل الجزائر فى وقتنا الحاضر؛ بل اقتصر حكمها فى معظم الأحيان على الجزء الغربى من الجزائر وتعرضت ممتلكاتها للعدوان. ولقد مرت الدولة بعدة مراحل حتى أصبحت دولة فتيه لها كيانها ورهبتها فى المغرب العربى.

وكان على بنى زيان أن يعملوا على المحافظة على كيانهم وسط العواصف التى تحاول أن تجتاحها فكانت الخطة فى المحافظة على بقاء الأمور فى أيديهم حتى أننا نجد شيخهم جابر بن يوسف بعد أن استولى على تلمسان ٦٢٧هـ/١٢٢٩م) كان أكثر كياسة وفطنة فى استمرار علاقته الحسنة بالموحدين فظل الخليفة المأمون الموحدى يذكر على منابر تلمسان ويدعو له فى الخطبة لأن الدولة لاتزال فى المهد فقام بالأمر ستة شهور يدعو للموحدين، لكن بعد وفاة جابر بايع القوم الحسن بن جابر؛ إلا أنه نظراً لصغر سنه تنازل لعمه عثمان بن يوسف أخى جابر ٦٣٠هـ/١٢٣٣م. لكن بنى عبد الواد أجمعوا أمرهم على أن تكون زعامة الدولة لأميرهم زكراز بن زيان الشهير بابن غرة وبايعوه على (٦٣١هـ/١٢٣٣). ومع دخول بنى زيان إلى تلمسان إلى أنهم فى ذلك التاريخ لم يأخذوا شكل الدولة المستقلة، وبذلك .. فإن فترة السنوات الخمس هذه تعتبر فترة الوجود الزياتى فى المدينة على اعتبار أن بنى زيان مازالوا يضعون أقدامهم على بداية الطريق محاولين خلق دولة، واستطاعوا بطريق السلم والحرب أن يكونوا قوة لايستهان بها، واتخذوا تلمسان عاصمة لهم وفرضوا أنفسهم على القوى المناوئة لهم وبدأ فى تأسيس دولة وكيان سياسى لهم.

* * * *

الفصل الأول

ظهور الدولة ككيان سياسى

تدين دولة بنى زيان بكل شىء لشيخها ومؤسسها أبى يحيى بن يغمراسن بن زيان الذى عرف كيف يثبت أقدام بيته الزيانى ويحكم فى تلمسان وما حولها. وكذلك عمل على كسب ود الموحدين، وقد حكم هذا الرجل قرابة خمسين سنة هجرية (٦٣٣هـ-٦٨١/١٢٣٦-١٢٨٢م)، وأبدى خلال الفترة الطويلة من الذكاء والمناورة والجرأة ما جعل دولته من أقوى دول المغرب ولكنها كانت بداية ونهاية دولة قبيلة غير مستقرة وقد أعطى لها شكل الكيان السياسى المستقل وأصبحت دولة بمفهوم عصرها فقد لبس شارة الملك والسلطان وقطع دعوة بنى عبد المؤمن من تلمسان وقطرها ولم يشأ أى يستقل استقلالاً كاملاً بالدولة؛ بل تظاهر بتأييد وطاعة الموحدين حتى يأمن شرهم ومكرهم به ونظر إلى المغرب الأوسط فوجده يخضع حتى ذلك الوقت للسيادة الموحدية بقيادة بنى عبد المؤمن وذلك فيما عدا مدن قسنطينة وبجاية التى كانت تخضع فى ذلك الحين للقيادة الحفصية بعد أن أخضعها لنفوذه أبو زكريا الحفصى (٦٢٨هـ/١٢٣٠م).

وفى سنوات حكمه الطويل تحولت تلمسان إلى سوق من أكبر أسواق المغرب العربى لأن مركزها الجغرافى وسياسة أميرها يغمراسن جعل منها سوقا لتجارة أفريقية المدارية الاستوائية مع المغرب وإليها كان يفد تجار العاج والأبنوس والجلود والرقيق والتوابل وما إلى ذلك ولقد كان هذا الثراء الذى وصلت إليه تلمسان يجعل أميرها قادراً على تغير معالم الدولة وصورتها الخاصة حضارية ومتمدنة بدلاً من حياة البداوة التى كان يحياها بنو زيان قبل السيطرة على المدينة.

ولقد كان يغمراسن بن زيان لكى يضمن بناء الدولة ويحفظ وجودها وتوازنها وسط تيارات الصراع السياسى والعسكرى فى المغرب بعد ضعف النفوذ الموحدى فكان عليه أن يحارب بنى حفص أو يهادنهم وكذلك الموحدين لأجلائهم عن المغرب الأوسط، ولقد كان موقع الدولة الزيانية بين قوتين تتطلعان كلها إلى السيطرة على بلاد المغرب الأوسط توطئة لبناء الدولة الواحدة فى المغرب. فإذا حاول بنو حفص بأفريقية فرض السيطرة الحفصية على بلاد المغرب اصطدموا بالدولة الزيانية بتلمسان فتقع بينهما الحروب، وهذا ما كان يحدث بالنسبة للموحدين ثم بنى مرين من بعدهم بالمغرب الأقصى.

وعلى هذا .. فقد اتفقت جميع المصادر بل والمؤرخون على أن يغمراسن بن زيان هذا أول من جعل لبنى عبد الواد وجوداً سياسياً مستقلاً لفترة الخمسين عاما دون أن يعتريها أدنى اضطراب بل أنه هو الذى قاوم الحفصيين للاستيلاء على تلمسان عام ٦٤٤هـ. كما صد بعد قبائل زنانة التى كانت تنافس بنى زيان (قبائل توجين) كما صد القبائل العربية القادمة من الغرب وقد قاد يغمراسن أكثر من اثنين وسبعين حملة وغزوة للدفاع عن كيان الدولة الشابة النامية التى تحاول أن تحافظ على كيانها وسط مهبات العواصف من كل الاتجاهات وبمساعدة القبائل العربية بعد أن صادقها وعقد معها الاتفاقيات وقدم لها الهبات والعطايا واقطعها الاقطاعيات. وصد بنى مرين الذين قدموا لحربه مرتين اضطر فيها لترك عاصمته والإغارة على حدود بنى مرين فى المغرب الأقصى لرفع الحصار عن تلمسان وكانت خطته دائماً تنجح ثم يعود إلى تلمسان بعد أن يشعر العدو بخطر زحفه إلى بلاد المغرب وبهذا الوجود السياسى فإن قبيلة زيان استطاعت أن تظهر منتصرة على الموحدين وتقضى على نفوذهم فى المغرب الأوسط.

وهذا الموقع الجغرافى لبنى زيان فى المغرب الأوسط بين كتلتين سياسيتين

متحاربين الحفصيين والموحدين، والحفصيين وبنى مرين فيما بعد؛ قد جعلهم دائماً فى حروب مستمرة مع الدولتين المجاورتين ومع باقى القبائل وسكان المغرب الأوسط، وقد كان ذلك من الأسباب القوية التى حالت دون سطوع نجم الدولة الزبانية على مستوى الأحداث العالمية فلم تستطيع أن تكون قوة كبرى فى مجال الجهاد الإسلامى والصراع الدائر على أرض الأندلس ومياه البحر المتوسط؛ فهى لم تزد عن قوة قبلية عشائرية ذات كيان سياسى محدود ومحصورة بين قوتين كتب على الكيان الزياتى أن يكون فى تقال وصراع مستمر فالذى ينظر إلى الحروب والغزوات (٧٢ غزوة)؛ قام بها يغمراسن يدرك مدى الأخطار التى كانت تحدق بهذا الكيان والتى تحاول وأآه بل قتله منذ ولادته فقد حارب بنى حفص عام (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) وحارب الموحدين عام (٦٤٦هـ/١٢٤٨)، فنجد أنه لم تمض إلا سنوات قليلة على ظهور يغمراسن كقائد حرب ورئيس دولة حتى تهاجمه الدولة الحفصية وتحاصر تلمسان وتخضعها للنفوذ الحفصى. وكان يغمراسن من الذكاء والكياسة والحكمة بل فطنا مناوراً استغل الظروف المحيطة به أحسن استغلال، فأعلن طاعته وخضوعه للنفوذ الحفصى خالعاً البيعة للموحدين ومنادياً للأمير أبى زكريا الحفصى ومقيماً له الدعوة تلمسان ومتحدياً شعور الموحدين ولكن فعلته هذه أغضبت أولياء الأمر فى المغرب الأوسط فما كان من الوحدين الذين أغضبتهم مبايعة بنى حفص وإلغاء تبعيتهم حجة ليجمعوا قواتهم وجموعهم محاولين اخضاع بنى زيان.

ولكن يغمراسن أخذ للأمر عدته فنجد أنه بعد استيلائه على تلمسان بفترة وانتقال زنانة إلى التلول والأرياف استولت قبائل المعقل العربية على مواطن زناتة. القديمة بالصحراء، فنقل يغمراسن قبائل بنى عامر العربية من أوطانها إلى جواره بصحراء تلمسان وكثرت أعداد بنى عامر وكانوا هم خط الدفاع عن المدينة ومشاركين

في الغزو والدفاع وكان لبني عامر دور هام في حماية الدولة وصد العدوان والغزو في توسيع رقعتها ولقد كانت السياسة التي اتبعها بنو زيان في حروبهم مع أعدائهم من بني حفص والموحدين لابد أن تتسم بالمهادئة والذكاء العسكري ودراسة الأحوال العسكرية وعدم الدخول في قتال ضارٍ مع قوى تفوقه عدداً وعدة فكان أن أعلن الخضوع والولاء لأبي زكريا الحفصي.

ونظر أبو زكريا الحفصي بعد إخضاع تلمسان لنفوذه فيمن يعين والياً عليها ويضمن ولاءه فلم يجد أكفأ من يغمراسن زعيم زناتة لتولي هذه المهمة بعد أن خلع بيعة الموحدين. وهذا الأسلوب من المهادئة والخضوع والميول السلمية وضح أكثر من الموحدين في الفترة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) عندما أيقنوا أنه لا قبل لهم بحشود الموحدين وقواتهم العسكرية الهائلة؛ فكان أن أصدر أوامره بالانسحاب من العاصمة تلمسان وتركها خاوية على عروشها وفتح أبوابها للقوات الغازية واعتصم بالجبال ودارت حرب العصابات بين أودية الجبال الضيقة والتي كانت تجيدها القبائل الزيانية خير إجادة فانتصر بنو زيان، وبهذا الأسلوب المحنك، الذي تمتاز به القبائل البدوية استطاع أن يحفظ دولته الفتية وأن يتقي شر بني حفص بالبيعة الأسمية ويتقي شر الموحدين بالانتصار العسكري على قواتهم.

وإذا كان يغمراسن قد حصن عاصمته بدرع قوي من العرب حين أقدم بعدة حملات تأديبية وغارات سريعة على القبائل والمدن والقرى والأودية داخل المغرب الأوسط نفسه وأقطعوا القبائل القاطنة هذه الأماكن التي يسكنوها بعد إعلان الولاء والتبعية للسلطان يغمراسن.

وإذا كان يغمراسن قد حصن عاصمته بدرع قوي من العرب حين أقدم بنو عامر من الصحراء وأقطعهم نواحي وهران وتلمسان فكانت خير سابقة وأحسن خطة لحماية

العاصمة إلا أنه لم يكتف بذلك؛ بل أسكن فريقاً من القبائل العربية الأخرى كقبيلة عكرمة؛ حيث اسكنها جبل كركرة وكان هذا نوع من التكتيك الحربي وخلق حلف سياسي مع قبائل الدولة العربية واتخاذها كخط دفاع وصد وهجوم وحماية للظهر بل استعمل سلاح الزواج السياسي والمصاهرة لأهداف مستقبلية فخطب بنت السلطان أبي اسحق الحفصي وهو الخليفة الأول، خطب ابنته لابنه وولي عهده عثمان بن يغمراسن.

وقد كانت شخصية يغمراسن بن زيان شخصية مرهوبة الجانب ولها وزنها العسكري وثقلها السياسي في منطقة المغرب وكان يخشى بأسها، نظراً لأنه مد نفوذه إلى المغرب الأقصى؛ حيث سجلماسة جنوباً، ومن هنا نجد أن أبا يوسف يعقوب بن عبد المؤمن مؤسس دولة بني مرين ينظر إلى يغمراسن نظرة شك وريب ويقدر خطورته على الدولة المرينية الناشئة، ومن هنا كان لابد من محاربته ووقف نشاطه التوسعي فعندما عمل أبو يوسف على ضرب الخليفة المرتضى آخر خلفاء الموحدين فإنه عمل على السيطرة على أقاليم الدولة والعمل على تأمينها ضد أي خطر خارجي، وكان هذا الخطر يتمثل في يغمراسن بن زيان الذي كان يراقب عن كسب بني مرين نفوذهم الفعلي على أقليم سجلماسة، هذا الأقليم من الناحية السياسية كان تابعاً قبل ذلك لنفوذ بني مرين.

ومن ثم .. عمل أبو يوسف على توجيه ضربة لخصمة العتيد يغمراسن بن زيان الذي يقف حجر عثره أيام تثبيت أركان الدولة المرينية ويهدد شرق الدولة المرينية دائماً

ويتربص بها الدوائر، وكل ذلك كان بدافع من الانتقام لأن يغمراسن كان قد وقف موقف المساعد والمساند لأبى ديوس الذى سقطت الدولة الموحدية فى عهده وأرسل يغمراسن بيعة لأبى ديوس فى رسالة خاطب بها أبا ديوس قائلاً : إياك أن تطمع بنى مرين فيما لديك فأنا أكفيك شرهم وأنا وأنت يد واحدة فى حربهم وبعد تلك الرسالة شعر أبو ديوس أنه يستطيع مواجهة بنى مرين. وخرج أبو يوسف لحصار مراكش وضيق الحصار على المدينة مما جعله يستنجد بيغمراسن بن زيان أمير تلمسان، وعلى الفور قام يغمراسن بن زياد بشن غارات مكثفة فى أطراف المغرب وخاصة ملوية، ففر أبو يوسف وأرجأ فتح العاصمة والسيطرة مؤقتاً ورفع الحصار عنها وعاد إلى فاس وفى منتصف ربيع الأول ٦١٦هـ/١٢٦٧م. سار أبو يوسف إلى وادى ملوية وكان اللقاء بوادى تلاغ وعبأ كل منهم جهده وعتاده وقواته ودارت معركة طاحنة وحمى وطيس القتال وقتل فيها أبو حفص عمر أكبر أبناء يغمراسن وفر يغمراسن حتى بعد أن لحقت به الهزيمة هو وقومه من بنى عبد الواد وعاد أبو يوسف إلى فاس.

لكن يغمراسن بن زيان كان يتربص بالدولة الفتيه الدوائر ويعمل على إضعافها أو الحد من نفوذها وعلى الجانب الآخر كان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى يرى أنه لابد من كسر شوكة يغمراسن وتقليم أظافره لأن معركة تلاغ لم تكن كافية بالنسبة له وأنها لم تشف غليله ولم تطفئ نار الانتقام من عدو عنيف وشرس فأجمع أمره على غزوهم فى ديارهم، ولكن نظراً لظروف الأندلس؛ فإن أبا يوسف رأى أن يبدأ بيغمراسن ثم يعود لقبيلة طلب بنى الأحمر ولاة غرناطة، لأن يغمراسن يقف مهدداً أمن الدولة المرينية فبعث إليه أبو يوسف يشرح له حقيقة الأمر والصراع الدائر على أرض الأندلس والمخاطر التى تهدد المسلمين فى غرناطة وطلب منه عقد صلح بينهما وأن يتعاونا معاً على إنقاذ وتدعيم الجبهة الإسلامية بالأندلس ولكن يغمراسن بن زيان

رفض هذا العرض بشدة وأقسم ألا يصالحه أبداً حتى يأخذ الثأر منه أو يموت دون ذلك.

وكان ذلك الرد العنيف من يغمراسن يمثل تقصيرا فى خدمة الإسلام والمسلمين فى الأندلس من جانبه لأنه لم يفهم على بداوته طبيعة الأحداث السياسية التى تمر بها المنطقة بل أنه قصوراً فى الفكر الإسلامى وعدم فهم لحركة الجهاد الإسلامى التى تنوى بنو مرين القيام بها فى الأندلس ذلك لأن الأندلس يواجه موقفاً حرجاً على اعتبار أنها آخر المعاقل الإسلامية.

لذا .. أعلن أبو يوسف التعبئة العامة فى أنحاء البلاد وحشد قوات جرارة وعتادا يفوق الوصف وسار يحفزه شعور بالإهانة وجرح الكبرياء من قبل يغمراسن وعدم تقدير للمواقف فى الأندلس فكان لابد من تصفية الحساب وعند وادى ابتسيلى بالقرب من وجدة عام (٦٧هـ/١٢٧١م) دارت المعركة التى انهزم فيها يغمراسن وشفى أبو يوسف يعقوب ظمأه من معركة تلاغ بل أنه لم يكتف بالانتصار هذا بل أراد أن يستثمره بأسرع ما يمكن فتعقب القوات المنهزمة إلى تلمسان.

وتقدم لمحاصرة يغمراسن فى عقر داره فحاصر عاصمته واشتركت معه فى هذا الحصار للعاصمة قبائل يوجين ومغرواه وكانت قبائل يوجين بقيادة زعيمها محمد عبد القوى التسجينى وكانت هذه القبائل قد جاءت لتحارب يغمراسن ولتأخذ بثأرها منه وشدد الرينيون فى حصار المدينة فقطعوا كل صلة لها بمخارج الأسوار وأفسدوا كل شيء حتى أنه لم يبق بتلك الأنحاء قوت يوم، لكنه أكتفى بذلك وقرر رفع الحصار، لكنه لم يفك الحصار للمدينة إلا بعد أن تحركت قبائل يوجين إلى مواقعها ومواطنها الداخلية ووصلت فى تحركها إلى ونشريس وبلغت مأمنها فقد كان أبو يوسف يخاف أن يتبعها يغمراسن أثناء انسحابها وقد أعطى أبو يوسف هذه القبائل كثيراً من مغانم

الحرب وعاد إلى فاس عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م. بعد أن اتخذ بعض الخطوات الدفاعية بإعادة تأمين الحدود الشرقية للبلاد وحصن مدينة تأدنت وبنى بها حصناً منيعاً وذلك لقربها من بنى زبان وشحنه بالمؤن والعتاد والأقواس ليقف مركزاً متقدما لمراقبة يغمراسن بن زيان وتحركاته، وكان قبل ذلك قد أمر بهدم مدينة وجدة وتحطيمها حتى لا يحتمى بها يغمراسن مرة أخرى.

لكن خطر يغمراسن لم ينته؛ فقد تعرض بنو مرين لهجوم من جانب بنى زيان فقد ظن يغمراسن بن زيان أن يضم المغرب من فاس ومكناسة وأن البلاد قد تمزقت وأن العداء والصراع الدائر بين أفراد الأسرة المرينية قد يعطيه الفرصة لتحقيق أهدافه وأن هذه الفرصة قد تمكنه من القضاء عليهم فجمع يغمراسن جيشاً كبيراً من قومه وضم إليه قبائل توجين ومغرواه وبنى عامر العرب ووصلت أنباء هذه الهجمات إلى أبى يعقوب بن عبد الحق فخرج بجيش من بنى مرين والتقى بيغمراسن عند بلدة (كلدبان) فهزم المرنيون بن عبد الواد وانسحب يغمراسن.

وفى هذا الأثناء كان يعقوب بن عبد الحق يراقب أحوال يعمراسن بن زيان فبادر بتجميع قواته وتوجيهها إلى سلا ثم فتحها عنوة، لكن على الجانب الآخر بعد هذا الصراع وجد الأمير يعقوب أنه لابد من عقد صلح مع يغمراسن فالتقى به عند مدينة (هوجريان) وأسفر هذا اللقاء عن عقد صلح آخر بين بنى مرين ويغمراسن زعيم بنى زيان كان أساسه المحافظة على السلم بين الطرفين ووضع أوزار الحرب بينهما جانباً ومعاهدة الصلح هذه التى تمت بين سائر القوى السياسية المتصارعة فى المغرب الأوسط والأقصى أشبه ما يكون بتوزيع لمناطق النفوذ بين القوى المتصارعة.

وفى مجال الصراع بين القوى عبد الوادية والمرينية نجد أن بنى عبد الواد كان قد تم لهم الاستيلاء على مدينة سجلماسة فى جنوب غرب المغرب وخضعت لهم منذ

عام ٦٥٣هـ/١٢٠٥م، لكن بنى مرين كانوا قد تحركوا للاستيلاء عليها ولم يكن الاستيلاء عليها بالقتال بل عن طريق الانقلاب ضد حاكم المدينة وكان يغمراسن قد تحرك للاستيلاء عليها؛ حيث راسله بعض أهلها ولكن يغمراسن فوجئ بوصول الأسير يحيى إليها ودارت بينهما معركة انسحب بعدها يغمراسن بعد أن تأكد من صلابة بنى مرين فى سجلماسة لكن ذلك لم يمنع من سيطرة بنى زيان عليها إذ نجد بعد عشر سنوات يتجدد الصراع ٦٧٣هـ/١٢٧٤م. فنجد بنى مرين يريدون السيطرة على سجلماسة التى لم يبق خارج سيطرتهم إلا تلك المدينة التى كانت هى القاعدة الجنوبية لدولتهم والمفتاح الجنوبى للمغرب الأقصى، وكان الاستيلاء عليها بالنسبة للمرين يعد أمرًا حيويًا خاصة وأن يغمراسن بن زيان سيطر عليها وحلفاؤه من عرب المنبات وكان يبعث كل سنة ولدًا من أولاده لضبطها وجباية خراجها من عرب المنبات. وتدم أبو يوسف يعقوب نحو سجلماسة بحشود ضخمة وهاجم المدينة واستخدم البارود لأول مرة فى حروبه وظل بنو مرين سنة كاملة يحاصرون المدينة حتى سقطت فى صفر ٦٧٣هـ/١٢٧٤م، وبسقوط سجلماسة أكمل المرنين السيادة الكاملة على بلاد المغرب الأقصى والذى ينظر إلى حال الدولة الزبانية ولم يمض على إعلانها أكثر من عشر سنوات يدرك مدى الأخطار التى تعرضت لها ومدى ما أصابها من مخاطر فى بداية أمرها والظروف الصعبة التى دفعتها دفعًا إلى السلم والمهادنة والمبايعة والاعتراف والتبعية وإلى الحرب ومع أن يغمراسن بن زيان ظل فترة يدعو للموحدين على منابر تلمسان ثم للحفصين من بعدهم إلا أنه استطاع أن يقود دولته فى مهدها وأن يقود سفينة البلاد وسط الأمواج العاتية وأن يصل بها إلى بر الأمان وأن ينجو من الظروف المحيطة وبذلك استطاع أن يطمئن ولو لفترة قصيرة بأن أمن شر ومكر من يحيطون بها شرقًا وغربًا أما شمالاً فكان البحر المتوسط وجنوبًا الصحراء. وهكذا استطاعت الدولة

الزبانية في عصر يغمراسن أن تقف قوية مطمئنة إلى أن كيانها السياسى قد بات معترفًا به وأنه حقق أهدافه فى البقاء.

« الكيان السياسى بين التوسع والانكماش »

فى حقيقة الأمر فإن قيام الدولة الزبانية فى المغرب الأوسط ووقوعها بين فكى كماشة حفصية وموحدية ثم بنى مرينية قد ألقى عليها تبعات ثقالا وجعلها تكون دائماً على أهبة الاستعداد العسكرى معلنة حالة الطوارئ والاستعداد للقاء العدو فى أية لحظة فالأخطار كانت تحدق بها من كل جانب بالإضافة إلى الخطر الداخلى المحتمل من القبائل البدوية؛ حيث طبيعة المغرب الأوسط.

لكن رغم أدراك قادة الدولة بأنهم بواجهون قوى متعددة فإنهم كانوا يحسبون لكل شيء حسابه ويعدون لكل أمر عدته سواء سلماً أو حرباً كما مر سابقاً ولكنها عملت على كسر الطوق الذى يحاصرها فكان عليها أن تحاول أن تمد حدودها وأن توسع منطقة نفوذها وتحقق كيانا أكبر بأسلوبها الذى تراه فاتسعت الدولة لكن هذا الاتساع لم يكن ثابتاً فبنو زيان بالذات لم تكن لهم حدود ثابتة طوال حكمهم للظروف السابق الإشارة إليها فلم تكن معالم الحدود شرقاً أو غرباً ثابتة، ومعترفاً بها طوال فترات سلطة بنى زيان ، وكانت الحدود بين التوسع والانكماش ولقد كان العامل القبلى من أهم العوامل التى أثرت فى كيان الدولة مما جعلها لا تستقر فى نفوذها علن المنطقة؛ حيث كان المغرب الأوسط يضم مجموعة من القبائل البربرية والعربية وتخضع كل قبيلة من هذه القبائل المتعددة وغير المتجانسة لنظام القبيلة التى لاتستطيع الخروج عليه فكانت كل قبيلة تتعصب لنفسها وتأبى الخضوع لغير سلطان

القبيلة، وفى هذا الإطار والمفهوم القبلى والعشائرى والكيانات الصغيرة قامت الدولة الزبانية.

بل كانت هذة الجماعات البدوية لا تنتظم تحت سلطة حكومية واحدة وأنها عبارة عن قوة من البدو تهدد أمن المجتمعات الحضرية الامنة وكان على بنى زيان العمل على نشر مفهوم الدولة بين هذة القبائل المتعددة وأن تقضى الدولة على التجمعات القبلية المتنافسة وأن تجعلها لا تتصارع داخليا بل يكون صراعها شرقا وغربا لأجل حفظ الكيان السياسى .

وفى هذا الاطار القبلى قامت الدولة الزبانية فقد وجد بنو عبد الواد أنفسهم أكثر قوة من غيرهم ففرضوا سيطرتهم على بقية القبائل ولقد كانت القوة هى المحرك الاساسى لاقامة دولة بنى زبان فلم يحاول بنو زبان عقد تحالف أو تفاهم مع بقية القبائل الاخرى بل انفردوا بالسيطرة على تلمسان وضربوا عرض الحائط ببقية القبائل البربرية والعربية االأخرى لأنهم لمسوا فى أنفسهم أنهم أكبر قوة فى المغرب الاوسط . ومن هنا فقد حاولت القبائل الاخرى الوقوف بالمرصاد لهم ومحاولة ضرب كيانهم السياسى وهذا هو الخطر الداخلى الذى كانت تحاول الدولة كسرة بأبة وسيلة . لكن كانت هناك قوى أخرى من القبائل البربرية العربية حاولت ضرب الدولة الزبانية من الداخل فقد وفد زعماء قبائل مغراوة وبنى بوجيين الى أبى زكريا الحفص طالبين منة الاستيلاء على تلمسان مقدمين لة أنفسهم وقبائلهم للوقوف بجانبة فى حالة مقاومة بنى زيان . وكان للعداء التقليدى بين هذة القبائل وزبان التى أحست أنها قد ظلمت من سيطرة بنى زبان على مقاليد الحكم منفردة فى حروب مستمرة مع قبائل المغرب الاوسط لاخضاعها والسيطرة عليها .

اتجهت سياسة بنى زبان منذ الوهلة الاولى الى اقامة دولة قوية ومن هنا كان

يغمر اسن بن زيان المؤسسى الفعلى للدولة وأن يعمل على اتخاذ كافة السبل لاتساع الدولة وسارت سياسة بنى زيان فى خطين متقابلين توصلان فى النهاية الى الهدف المنشود من بناء وتوسيع كيان الدولة وبقائها قوية وكان الخط السياسى الاول هو الاتجاه السلمى ويتمثل هذا الاتجاه فى قيام علاقات حسنة طيبة مع الدولة الأم التى كانت تنشر نفوذها على كل أجزاء المغرب الكبير وهى دولة الموحدين التى كانت لاتزال قوية تحكم من مراكش رغم هزيمة العقاب ٦٠٩هـ ثم بعد ذلك عندما انتزعت بنو مرين السلطة فى المغرب الاقصى من الموحدين واتخاذها فاس عاصمة سياسة لهم وكان على بنى زيان مسالمة هذه القوى الجديدة بل ان سياسة المسالمة مع بنى مرين كانت تمثل عنصرا جوهريا بل اساسيا فى تفكير مخططى السياسة الزيانية ، حيث نجد أن أسلوب المسالمة وللمهادنة سار علية كل من تولى امور الدولة وذلك لأن العاصمة تلمسان كانت تقع على مقربة من خط الحدود مع المغرب الأقصى موطن بنى مرين وفى نفس الوقت تبعد عن أفريقية موطن بنى حفص . ومن هنا كان الخطر من بنى مرين أكثر من بنى حفص . لذلك كانت خشيتهم من الاحتكاك مع بنى مرين هى الدافع الأساسى و القوى وراء مسالمتهم حتى يضمنوا سلامة حدودهم الغربية).

اما جيرانهم فى الشرق وهم بنو حفص فان بعد المسافة كان يمثل عاملا من عوامل الامان وكان الزواج السياسى أو المصاهرة السلطانية عاملا من عوامل توطيد أواصر الصداقة والمودة ومن ذلك زواج عثمان بن يغمراسن من ابنه الخليفة أبى اسحق الحفصى مما كان له بعد أساسى بعيد المدى فى حسن العلاقة والجوار على المدى البعيد .

وكان الخط السياسى لدى مخططى الكيان الزبانى هو الأسلوب العسكرى بحيث يتوازى مع خط المسالمة وكان وضع بنى زيان الحرج بين القوتين قد جعل الاتجاه

العسكرى أسلوبا من أساليب الحكم والبقاء بل أنه كان سمة بارزة لمد النفوذ والمحافظة على كيان الدولة داخل حدود المغرب الأوسط ومن هنا كان اصطدامهم مع بنى حفص شرقا وبنى مرين غربا فى محاولة كل منهم للسيطرة على المغرب مباشرة و محاولة بنى زبان توسيع دولتهم و تأمين حدودها .

ومن هنا برزت السمة العسكرية فى النشاط التوسعى للدولة وكانت خطة يغمر اسن ومن جاء بعده العمل على توسيع رقعة الدولة وامتدادها ودخولهم فى صراع مع قبائل المغرب الأوسط ومع بنى حفص وبنى مرين حتى تحقق للدولة فى عهد أبي ناشقين الأول الاتساع المرجو من قبل بنى زبان فى أفريقية واستولوا على تونس الا أنه كان امتدادا وقتيا ما لبث أن انكمش وتلاشى أمام ا لهجوم المرينى على تلمسان كما تحقق للدولةاتساعهافى عهد أبى مالك عبد ا لواحد الذى تولى الحكم (٨١٤هـ/١٤١١م) واستطاع أن يوسع رقعة ا لدولة فبسط نفوذها ، على كل المدن والأراضى التى كانت تخضع لنفوذ بنى حفص فى المغرب الأوسط وتوسع غربا حتى استولى على فاس عاصمة بنى مرين .

وهكذا يتضح سياسة الدولة التوسيعية التى اعتمدت على الناحية ا لعسكرية والمحاولات السلمية لاحتواء الأزمات مع جيرانها . وقد نجحت فى المحافظة على وجودها وسط قوى عاتية شرقا وغربا . وهكذا نجح مخططو سياسة بنى زبان فى تنفيذ ما نصحهم به يغمراسن بن زبان فى أمن القوى المعادية سلما و حربا . وسوف ترى فى الصفحات القادمة كيف أدار بنو زبان صراعهم مع بنى حفص وبنى مرين من منطلق السلم والحرب وتحقق لهم المحافظة على كيانهم السياسى من عام ٦٣٣هـ-١٢٣٥م حتى عام ٩٥٧هـ- ١٥٥٠م أى أكثر من ثلاثة قرون وكبح جماحها حتى لا تثور ضد سيادة بنى زبان وكان على يغمر سن أن يحارب مغراوه وبنى يوجين كبرى

القبائل فى المغرب الأوسط حتى استقاموا للأمر وجنحوا للسلم .

وبوفاة يغمر اسن بن زيان . خلفة ابنة أبو عثمان ٦٥٣-٧٠٣هـ ١٨٨٢-١٣٠٤م) فأمضى كل هذه الفترة التى تزيد عن عشرين عاما محاربا للدفاع عن كيان دولتة الذى بدأ يضعف بخروج القبائل عن طاعة بنى زيان بعد وفاة والده وضعف نظام الدولة فما كان من أبى سعيد عثمان الاأن يبذل الجهد الكثير وأن ينبرى لاضعافهم بالقوة .

وكان على أبى سعيد عثمان أن يأخذ حيطتة فى الدفاع عن البلاد ضد غارات بنى مرين وارثه عرش الموحدين فى المغرب الأقصى حيث قاد حملة عام ٦٨٧هـ - ١٢٨٧م بلغ بها أسوار مدينة برجية الواقعة غربا وذلك لصد هجوم أبى يعقوب المرينى لكن نفوذ الدولة كان قد انحسر نتيجة لاحتلال بنى مرين للمغرب الأوسط وحصارهم تلمسان عاصمة الدولة عام ٦٩٨هـ- ١٢٩٨م . لكن يغمراسن كان قد أكمل استعداداتة العسكرية للدفاع عن المدينة حيث كان أعظم ما أنشأه سور تلمسان العظيم الذى يعد أشد أسوار المدن المغربية تحصينا والتاريخ يشهد أن بقية حكم عبد الواد بعد وفاة يغمراسن كانت صراعا متصلا مع بنى مرين خاصة فنجد أنه أيام الخليفة أبى سعيد عثمان الأول بن يغمراسن بن زيان (ذى الحجة ٦٥١ - ذى القعدة ٧٠٣هـ /مارس ١٢٨٢ - يونيو ١٣٠٤م)حاصر بنو مرين تلمسان وهاجم أبو يعقوب يوسف بن يعقوب الناصر المرينى تلمسان ثلاث مرات وعجز عن الاستيلاء عليها بل أن بعض المصادر تذكر أنه حاصرها أربع مرات وفشل فى الاستيلاء عليها لدفاع بنى زيان بسورها العظيم .

وكان سكان المغرب الأوسط ينتهزون دائما الفرص للخروج على سلطة الدولة اذا انشغلت الدولة بمواجهة تمرد خارجى وكان العامل القبلى هو المحرك للدفاع عن

كيان القبيلة والتمرد على السلطة المركزية حيث بلغت الدولة من القوة ما جعل بنى زيان يزحفون فى الاتجاه الشرقى حيث دولة بنى حفص وينتصرون عليهم بعد قتال ضارٍ ويستولون على عاصمة البلادتونس عام ٧٣٠هـ /١٣٢٩م . وتحولت الدولة من الدفاع والتحصن الى الهجوم والتوسع وفرض السيطرة والنفوذ عن الطاعة والبيعة لبنى حفص .

* * * *

الفصل الثانى

الصراع مع بنى مرين

لقد وقفت القبائل فى المغرب الأوسط ضد بنى زيان عند هجوم بنى مرين على تلمسان وحصارهم لها فكانت تضم كل مرةالى جانبهم فوقفت بنو يوجين ومفراق الى جانب بنى مرين أثناء منازلتهم تلمسان ٦٧٠هـ / ٦٨٠ هـ ووقفت مغراوة الى جانبهم أيضا ٦٨٩هـ - ١٢٩٠م . ودانت قبائل المغرب الأوسط لطاعة بنى مرين خالعة طاعة بنى زبان ولم نجد هذه القبائل لذلك سبيلا سوى الانضمام لبنى حفص تارة ولبنى زبان تارة أخرى

وكان التباغض والتناغر والغيرة وراء موقف بنى يوجين من اخوانهم بنى زبان اذ رأو أنهم قد وصلوا الى درجة عالية من التفوق العسكرى ومن هنا .. فإن مناهضتهم ستعود عليهم بالخسران فوقفوا إلى جانبهم أثناء حصار بنى مرين لهم عام ٧٣٥هـ/١٣٣٤م.

بل إننا لا نجد بنى يوجين تقف بمفردها. لكننا نجد أثناء هذا الغزو المرينى للمغرب الأوسط فإن قبائل بنى عامر العربية تقوم بدور إيجابى فى مقاومة الغزو واسترداد أملاك بنى عبد الواد وإعادة دولتهم فبعد استيلاء أبى الحسن المرينى على تلمسان عام ٧٣٧هـ/١٣٣٧م. لم يكن موقف بنى يوحين أقل من القبائل العربية؛ حيث أن بى يوحين وبنى عبد الواد وبنى مرين كلهم من أصل واحد ولذلك نجد العصبية تسيطر على بنى يوجين فينحازون إلى جانب بنى زيان وبذلك كانوا أكثر القبائل حظوة عند بنى زيان.

وفقد بنو زيان استقلالهم وسيطرتهم على المغرب الأوسط (٧٣٧هـ-١٣٣٦م)، ومكثوا اثنى عشر عاما والدولة تخضع للاحتلال المرينى ٧٤٩هـ-١٣٤٨م.

وكان بنو مرين في هذه المرة قد أقبلوا على تلمسان بكل قواهم وبلغ من تصميمهم على الاستيلاء عليها أن بنوا بجوار تلمسان مدينة سميت (محلة المنصورة) أو المنصورة وكانت مدينة كاملة بميادينها وأسواقها ومساجدها وحماماتها ومتوفرا لها كل المرافق التى تجعلها مدينة مستقلة تعتمد على نفسها وأقام بها قصرا لدار الحكم ومسجداً بل أقام الفنادق والحمامات وأطلق عليها بعض المؤرخين تلمسان الجديدة وكان بنو مرين قد حاصروا تلمسان القديمة ثمانى سنوات تصميماً على فتحها وتعبيراً عن تصميم أبي يعقوب على الاستيلاء عليها واستمر الحصار حتى مات أبو يعقوب وكان مقتل أبي يعقوب بواسطة أحد رجاله يمثل بداية انقشاع الغمة لأهل المدينة الذين قاسوا الكثير خلال فترة الحصار الطويل حتى أنهم من قسوة الجوع أكلوا الكلاب والثعابين وفك الحصار وعقد الصلح بين الطرفين.

واستطاع بنو زيان إعادة النفوذ للدولة على المغرب الأوسط عام ٧٤٩هـ بقيادة أبى سعيد وأبى ثابت الملقب بالزعيم وهما ولدا عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان، ويذكر هنا الفضل الكبير لقبيلة مغراوة التى كان لها دور كبير فى المساعدة والعمل على استعادة النفوذ الزيانى وكانت بعض القبائل قد وقفت ضد الدولة أثناء الحصار الطويل فقام بعدة حملات تأديبية لهذه القبائل واستطاع بنو زيان هزيمتها.

وكانت القبائل العربية لا تقل عصبية عن القبائل البربرية كما لا يقل دورها خطورة وتأثيراً فى اتساع الدولة وامتدادها وانكماشها فقد وقف بنو عامر ضد بنى مرين عندما سيطروا على المغرب الأوسط وظهرت العصبية عندما حاول بنو مرين الاستيلاء على أفريقية.

فنجد بنى عامر قد انتقموا لأنفسهم عندما شرعوا فى تخليص المغرب الأوسط من يد قوات أبى عنان المرينى ووصلت الأخبار بوفاة أبى عنان فاجتمع عرب المغرب الأوسط على مبايعة أبى حمود وحلفائه من عرب بنى عامر ووعدوه المعاونة، فاشتبك بنو عامر مع بنى مرين خارج تلمسان وهزموهم وقتل أميرهم وعاد بنو زيان إلى تلمسان عام ٧٦٠هـ/١٤٥٩م.

غير أن الأوضاع السياسية بدأت تواجه تطوراً هاماً فى سياسة الدولة الزيانية فقد بدأت بعد خروجها من الصراع الدامى مع بنى مرين وهزائمها وانتصاراتها تخطو خطوات نحو تثبيت ملكها إذ أن المحن والشدائد كانت تجد الوسائل للتغلب عليها وكانت سياسة اتباع الهدايا وبذل الأموال والاغراء المادى والسخاء فى البذل وأكياس الذهب والفضة وأقطاع الاقطاعيات من الأساليب التى اتبعتها الدولة الزيانية لكى تفرج عن نفسها شدة الحصار وتكسب ود القبائل فى داخل حدودها السياسية وكان أسلوب المال من أحسن الأساليب للسيطرة على القبائل.

لكن كما سبق القول فإن دولة بنى زيان كان كيانها على أساس قبلى والقبيلة تشكل عصب الكيان ومن هنا يمكن القول أن المواقف المتناقضة بين السلب والإيجاب والمساندة والمساعدة والغدر والطعن من الظهر التى وقفتها قبائل المغرب الأوسط عربا كانوا أم بربرا ليس لها ما يبررها إلا العصبية فكل قبيلة كانت تجد فى نفسها القوة كانت تحاول بكل الوسائل فرض سيطرتها على القبائل الأخرى وهذا ما حدث بالنسبة للدولة الزيانية وأثر على امتداد الدولة واتساعها فى الرقعة المساحية وبسط نفوذها فى المنطقة فعاشت الدولة حياة مضطربة وتسببت الحروب المستمرة داخلياً بينها ومن القبائل ذات العصبية القبلية فى فقد نفوذها أكثر من مرة ولم تكن هذه القبائل سنداً وعدة لتوسيع نطاق الحدود المتعارف عليها بل كانت عامل انحسار وليس انتشارا.

وكذلك لعب الصراع الداخلى بين أفراد الأسرة الزيانية الواحدة من أجل توليه عرش الحكم أثره الكبير على قوة الدولة وفقدت نفوذها على البلاد وخاصة المنطقة الشرقية التى دب فيها الخلاف بين أمراء الأسرة الزيانية فنادرا ما كان الوفاق يسود بين الأمراء أثر وفاة حاكم وعند تعين خلف له فالصراع ممتد والذى يدرس تاريخ تولية الأمراء يجد الانقسام والقتل وتقسيم الدولة بين عدة أمراء وبدلاً من التوحد كان التشرذم والتقوقع داخل مساحات ضيقة واستعانة بالخصم للانتصار على أفراد العائلة وتولية مقاليد الأمور والاستعانة بقوى خارجية.

ومن ثم .. فإن الدولة الزيانية كانت تعيش فيما يشبه الحرب الأهلية بين أبنائها وأبناء أبى حمود على وجه الخصوص وأصبحت الدولة تعيش حالة من الفوضى. فنجد مثلا أثناء الصراع الذى دار بين أبى زيان وأبى حمو حول السلطة تدخلت القبائل العربية وثار عرب بنى زيد وناصروا أبا زيان فأسرع أبو حمو بارسال قواته التى قامت بتدمير وطنهم وأصاب أبو حمو مقتلا بعمله هذا مما جعل القبائل العربية من بنى زيد تعلن طاعتها وتخلع تأييد أبى زيان.

الخطر المرينى يتجدد

كان الخطر المرينى من أهم العقبات التى وقفت فى طريق تقدم الدولة الزيانية واتساعها وتحقيق أهدافها فى التقدم والتحضر والزدهار وبناء دولة مستقرة وثابتة الأوطاد. فالذى يتابع أحداث الغزو المرينى على تلمسان العاصمة والمغرب الأوسط نجد أنه عدوان متكرر ومستمر ولم ينقطع ألا ليعود أشد قوة وأشد ضراوة وأكثر تصميماً على السيطرة والتدمير واثبات الوجود وبناء المدن والتوسع على حساب الدولة الزيانية.

فنجد أن الدولة دخلت فى صراع جديد مع بنى مرين إلا أن السلطان أبا حمو الثانى استطاع إعادة نفوذ بنى زيان من جديد (٧٦٠هـ/١٣٥٨م) وطرد بنى مرين من تلمسان وعندما هاجم أبو سالم المرينى تلمسان عام ٧٦١هـ/١٣٥٩م خرج منها أبو حمو وقام بالاعتداء على حدود المغرب الأقصى مما اضطر أبا سالم إلى رفع الحصار عن المدينة ونصب أبا زيان على المدينة خلفاً لأبى حمو الثانى ولكن أبا حمو قاوم هذا التعيين من قبل المرينيين مما اضطرهما للدخول فى قتال استطاع فيه أبو زيان أن ينتصر على أبى حمو عام ٧٦٨هـ/١٣٣٦م. وبذلك استطاع أبو زيان بالصراع العسكرى الداخلى والقتال أن يضعف قوة الدولة الزبانية فى المنطقة الشرقية بل جاء الاستيلاء على تلمسان. وعلى كل .. فإن أبا زيان الملقب بالقبى استطاع انهاك قوة الدولة الزبانية وكانت حروبه عائقاً دون اتساع الدولة وقد حكم أبو زيان سعيد أربع سنوات أعاد فيها النظام إلى الدولة وخلفه أبو حمو موسى الأول الذى أكمل إصلاح تلمسان واتخذ سياسة التوسع شرقاً نحو حوض شليف حتى وصل قسنطينة وبجاية ولكن ولدة أبا تاشفين قتله عام ٧٤٨-٧٦٨هـ/١٣١٨-١٣٣٧م والذى كان يستعجل الحكم فى البلاد.

وكذلك زحف بنو مرين على تلمسان والمغرب الأوسط عام ٧٩١هـ/١٣٨٨م بقيادة أبى فارس بن السلطان أبى العباس لكن سلطان بنى زيان أبا حمو اضطر لترك العاصمة والتحصين بالجبال للدفاع عن كيان الدولة إلا أنه قتل فى المعارك على الرغم من مساعدة قبائل بنى عامر العربية له.

وعلى هذا .. فإن المعارك بين دول المغرب الأربع بنى زيان، بنى حفص، الموحدين ثم بنى مرين لم يتوقف طوال القرن الثامن الهجرى، الرابع عشر الميلادى وهى حروب عظيمة وطويلة المدى ومتكررة ولم تنته؛ بل كانت غارات كروفرو

متواصلة، وهى حرب عقيمة لا قيمة ولا فائدة ترجى من ورائها سوى حب السيطرة والنفوذ وكانت نهاية هذه الحروب أضعاف هذه الدول جميعاً وخصوصاً بنى عبد الواد الذين توقفت تجارة بلدهم وانهكتها الحروب وانتهت بأن احتلتهم بنو مرين عام ٧٣٨هـ/١٣٣٧م وخربوا تلمسان ولما اعتلى أبو تاشفين عرش الدولة الزبانية أقام الدعوة والبيعة لأبى عباس المرينى صاحب المغرب الأقصى وخطب له على منابر المغرب الأوسط وظل أبو تاشفين تابعاً فى إدارته لبنى مرين حتى وفاته ٧٩٥هـ/١٣٩٢م، وقام أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز بن السلطان أبو سالم بن أبى الحسن من ملوك بنى مرين قام بمهاجمة تلمسان واستولى عليها وأقام دعوة أبيه أبى العباس المرينى وحققت الدولة الزبانية خضوعاً تاماً لبنى مرين إدارة وسياسة إلى أن توفى السلطان أبو العباس المرينى فاستدعى بنو مرين أبا فارس من تلمسان ليحل محل أبيه فى العرش المرينى وأرسلوا أبا زيان بن حمو ليتولى أمر البلاد تحت طاعة بنى مرين (٧٩٦هـ/١٣٩٣م) وتولى أمر تلمسان.

الصراع مع بنى حفص

ولقد كان أبو تاشفين الذى أعلن خضوعه لبنى مرين يرى أنه لا أمل فى التوسع غرباً؛ حيث القوة المرينية التى يهابها فما كان عليه إلا أن يتوسع شرقاً فحاول إخضاع قسنطينة وبجاية لنفوذ دولته وحدث صراع بين القوتين الحفصية الزبانية وبين بنى زيان ودخلوا تونس واستولوا عليها.

ولما رأى بنو حفص ازدياد قوة بنى زيان بحيث أصبحت تشكل خطراً فعلياً على وجودهم بأفريقية وتهدد أمن المغرب الأدنى فإنه لم يكن أمامهم إلا طريق واحد وهو

الاستعانة ببنى مرين لوقف هذا الهجوم ومحاولة درء الخطر الزيانى الذى بات يهدد كيان بني مرين أيضاً لأن ضم الأراضى الحفصية والاستيلاء على تونس يجعل من بنى زيان قوة كبرى تستطيع أن تقف وتهدد طموحات بنى مرين وهذا ما كان يخشاه المرينيون، فلبوا نجدة بني حفص لضرب القوة الزيانية والوقوف أمام اتباع المد القادم من المغرب الأوسط وكسر نفوذ بنى زيان ونتج عن ذلك حصار تلمسان من قبل بنى مرين (٧٣٥هـ-٧٣٧هـ/١٣٣٤-١٣٣٦م). وكان معنى هجوم بنى مرين من الغرب وبنى حفص من الشرق على بن زيان فإنهم وجدوا أنفسهم لا يستطيعون الحرب فى جبهتين فسقطت تلمسان فى أيدى بنى مرين وفرض النفوذ المرينى على سكانها.

وفي حقيقة الأمر فإن تبادل الحروب بين القوى الثلاث قد استنفد قواها وجعلها في حروب متواصلة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

لكن الظروف التاريخية كانت تفرض نفسها فأعداء الأمس صاروا أصدقاء، فإن الدور الحفصى لم يقف فى طريق التوسع الزيانى دائماً، ذلك أنهم فى بعض الفترات التاريخية ساعدوا بطريق غير مباشر على إعادة نفوذ بنى زيان عندما وقفوا إلى جانب أبي حمو الثانى فساعدوه لطرد بنى مرين المسيطرين على المغب الوسط والذين كانوا يتطلعون لبسط نفوذهم السياسى والعسكرى والقيادى على أفريقية والمغرب كله وإزاحة بنى حفص كما أزاحوا بنى زيان للانفراد بالسلطة الفعلية فى المغرب الكبير.

واستطاع أبو حمو الزيانى عن طريق دعمه بجيش تم تسليحه بواسطة بنى حفص أن يتمكن من استعادة تلمسان مرة أخرى ولكن عندما عاد بنو زيان لتوسيع دائرة النفوذ الزيانى بالعدوان على قسنطينة وبجاية فى عهد أبى حمو الثانى وقف لهم بنو حفص بالمرصاد لأن بنى حفص كانوا دائماً يحاولون ضرب نفوذ أية قوة من المغرب الأوسط يشتم منها رائحة تهديد نفوذهم فى أفريقية وكانت لهم سياسة مزدوجة أو

اللعب على كل الأطراف واحتواء عدو الأمس وعداوة صديق الأمس، فساعدوا بنى مرين للاستيلاد على تلمسان، ثم ساعدوا أبا حمو الثانى فى القضاء على النفوذ المرينى بالمغرب الأوسط، ثم ضربوا بنى زيان بعضهم بالبعض أثناد الصراع من أجل السلطة، فنجد بنو حفص يساعدون أبا زيان بن السلطان أبى سعيد فى مزاحمة أبى حمو الثانى فى توليه عرش تلمسان.

والذى يتمعن فى مواقف بنى حفص من دولة بنى زيان يدرك أن محاولاتهم هذه تتجلى فى الوقوف بكل الوسائل والسبل ضد اتساع الدولة سلباً أو إيجاباً.

فقد انتصر بنو حفص على جيش أبى حمو فى بجاية؛ حيث أن هذا الانتصار قلل من شأن الدولة بين عرب المغرب الأوسط وأضعف جانبها أمام قوة أبى زيان الذى أصبح لأول مرة يمتلك قوة لا يستهان بها فى المغرب الأوسط، واستعان بالقبائل العربية فى حصار قسنطينة وبجاية، ولكن أبا بكر سلطان بنى زيان استعان ببنى مرين يهاجموه من الغرب وحاصروا عاصمته وكان بنو حفص يمدونهم بالعون والعتاد العسكرى والقوات المشاركة فانهزمت جيوشه ودخلت جيوش بنى مرين بمساعدة بنى حفص عاصمته بل أصبحت دولته جزءاً من دولتهم قرابة نصف قرن حتى استعادها بنو زيان ولقد كافأ أبو زيان أنصاره وحلفاءه من العرب العامرية والمعتلية حينما وفدوا لتهنئته بالانتصار فكساهم جميعاً رغم كثرتهم.

محاولات بنى زيان للإخلال بميزان القوى فى المغرب

درج بنو زيان منذ عهد مؤسسها الأول أبى يحيى يغمراسن بن زيان (٦٣٣-٦٨١هـ/١٢٣٥-١٢٨٢م) على التوسع فى الأقاليم الشرقية المجاورة لكيانهم

في المغرب الأوسط والتى تخضع لنفوذ وسيطرة الأسرة الحفصية الحاكمة فى تونس. وقد أتيحت لهم فرصة إلحاق هزيمة فادحة بالدولة الحفصية وذلك لأنه فى عام ٧٢٩هـ/١٣٢٨م تمكنت قوات بني زيان والتى كانت قائمة أساساً على القوى العسكرية من إلحاق هزيمة كبرى بالسلطان الحفصى أبى يحيى بن أبى زكريا واستولوا على الأراضى الواقعة شرق حدودهم حتى دخلوا العاصمة تونس وسيطروا عليها وسقطت عاصمة الدولة فى أيدى قوات بنى زيان.

وقام بنو عبد الواد فور دخولهم عاصمة الخلافة الحفصية بتنصيب أحد عملائهم وهو محمد بن أبى عمران حاكماً لتونس بدلاً من سلطان الحفصيين، إلا أنه أثناء اقتحام بنى زيان العاصمة تونس فإن الخليفة أبا يحيى بن أبى زكريا الحفصى استطاع الهروب وحاشيته من العاصمة والالتجاء إلى بجاية ومن هناك أرسل وفدا يرأسه ولده الأمير أبو زكريا ومعه وزيره أبو محمد بن أفراكين للاستنجاد بالسلطان المرينى أبى سعيد ضد اكتساح القوات الزبانية لدولته وقد أحدث وصول هذا الوفد أثراً كبيراً لدى السلطان المرينى والدوائر الحاكمة فى العاصمة فاس مما كان له صدى عميق فى نفس السلطان خاصة وولى عهده الأمير أبو الحسن.

ومما لا شك فيه أن وصول هذه الأنباء المتعلقة بسبب الغزو الزبانى قد جعلت خليفة بنى مرين وهو الذى كان يراقب بنى زيان مراقبة دقيقة جعلته يشعر بالخطر فى ازدياد القوة الزبانية واستيلاء أبى زيان على تونس. وضم هذه الديار للمغرب الأوسط وتوحيد المغرب الأدنى والأوسط تحت قيادة واحدة يشكل تهديداً لقوة بنى مرين وإخلالاً بموازين القوى فى المغرب، ذلك لأن وجود بنى حفص فى أفريقية (المغرب الأدنى) والحفاظ على دولتهم من شأنه أن يكبح جماح بنى زيان.

ومن ثم .. كانت هذه الحادثة تمثل نقطة تحول خطيرة فى سياسة بين مرين

قبل المغرب الأوسط والأدنى إذ بدأ المرينيون يخططون سياستهم على أساس التوسع للقضاء على أى خطر يهدد دولتهم من اتجاه الشرق حيث دولة بنى زيان.

ومن هنا .. أخذت الاستعدادات العسكرية تتم على قدم وساق والتجهيزات العسكرية والحشود تتأهب للانطلاق شرقًا بقيادة ولى العهد أبى الحسن بن أبى سعيد الذى كان على الميمنة، والسلطان أبى سعيد على رأس القوات جميعها من المتطوعين العرب، وبنى مرين وتحركوا عام (٧٣٠هـ/١٣٢٩م) ووصلوا فى تحركهم حتى وصلوا بالقرب من منطقة وادى ملوية وتمركزوا حتى جاءت الأنباء من المشرق بأن السلطان أبا يحيى بن زكريا الحفصى استطاع استعادة عاصمة بلاده وطرد الغزاة -بنى زيان- من أفريقية ومطاردتهم حتى حدود بلادهم. وقام السلطان أبو سعيد المرينى باستدعاء الأمير أبى زكريا ووزيره أبى محمد بن تاقركين وأمرهم بالعودة إل يتونس بعد أن حملهم بالهدايا التى تليق بعظمة خليفة تونس وبهم وأرسل معهم القاضى المرينى وابن العزفى لخطبة ابنة السلطان الحفصى لولده الأمير أبى الحسن، وقد نجح الرسولان فى مهمتهما ووصلت العروس إلى فاس عام ٧٣١هـ/١٣٣٠م.

ومن ذلك .. فإن دولة بنى زيان لم تترك فرصة حتى تتحينها لتوسيع دائرة نفوذها وتوسيع مجال سيادتها وتحقيق حكم مؤسسها يغمراسن بن زيان بأن تكون دولتهم القوة الوحيدة فى المغرب وكان عددهم ثمانية آلاف ووهب رؤوساهم الخيل الأصيلة والأسلحة؛ بجانب ما منحهم من المال.

ومنذ بداية النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى خصوصاً خلال فترة حكم السلطان أبى حمو ازدادت قوة عرب بنى عامر وحلفائهم من القبائل العربية بالمغرب الأوسط وضعف قبائل زبانة فتملكت رغبة سائر البلاد بالاقطاع من الساحل طوعاً أو كرهًا حتى طردوا زنانة إلى سيف البحر (الساحل)، وفى الواقع فإن دفاع هذه القبائل

عن المغرب الأوسط هو في الواقع دفاع عن مصالحها من الضياع، وهذا يفسر لنا استماتة هذه القبائل في حروبهم ضد بني مرين التي أرسلها الوزير الحسن بن عمر لاسترداد تلمسان والحاقهم الهزيمة بها حتى اضطروهم إلى الانسحاب وهم عراة حتى حدود الدولة المرينية في عام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م، وبعد أن حققت القوات العربية انتصارها عام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م .. فإنهم ثاروا على السلطان زيان وعزلوه ووضعوا مكانه أبا حمو موسى الثاني (٧٦٢- ٧٩١هـ/١٣٦١-١٣٨٩م)، الذى كان لا يميل إلى الحرب، ولذا .. أمضى أيامه في سجن الثائرين ضده ومصارعة وقتال كل من ادعى المطالبة بالعرش على الرغم من تأييد ومساندة بني مرين له وكان من بين المتآمرين عليه ابنه، وكانت الحروب طويلة وشاقة اضطر السلطان خلالها أن يهرب من عاصمته ليحاول بين مرة وأخرى أن يعيد الانتعاش إلى دولته؛ بل عاصمته التي خربها الثائرون وأخيراً نجح ابنه أبو تاشفين الثاني في قتله، وقد مات والسيف في يده يدافع عن نفسه.

* * * *

الفصل الثالث

الدولة الزبانية فى أوج مجدها

شهدت الدولة الزبانية أمجد فتراتها التاريخية فى عهد السلطان أبى مالك عبد الواحد بن السلطان السعيد أبى حمو موسى الثانى (٨١٤ - ٨٢٧هـ/ ١٤١١-١٤٢٤م) إذ نلاحظ أنه عندما تسلم مقاليد الأمور خلفاً لوالده أنه وضع كل همه فى بناء جيش قوى جهزه بأحدث أسلحة العصر ودربه على أحدث الطرق القتالية؛ لأنه منذ نعومة أظفاره، وهو يسمع قصص وحكايات تدمير بلاده من قبل القوى الغربية بنى مرين والقوى الشرقية بنى حفص، وكان عليه أن يكسر شوكتهما معا وأن يجعل السيادة له على تلك الدول، ومن خلال هذا المنظور العسكرى والسياسى استطاع أن يعيد للدولة كيانها وسمعتها حتى عهد جده يغمراسن بن زيان فاسترجع كل الأقاليم التى كانت تحت سيطرة بنى حفص قسنطينة وبجاية وغيرها من المدن القريبة عام (٨١٤هـ/١٤٢٢م)؛ بل انه لم يكتف بذلك ويقف عن هذا !! فقد كان يرى ضرورة كبح جماح القوى المرينية التى استولت على عاصمته وعاصمة أجداده مرات عديدة فلابد من الدخول معها فى صراع ضارٍ بعد أن أعد للأمر عدته وحشد كل طاقاته فتحركت قواته غرباً إلى الحدود المرينية ولكن إلى العاصمة فاس التى استطاع أن يستولى عليها وأن يدمر قوة بنى مرين وأن يعين عليها أميراً من قبله لكن ازاء هذا الانتصار الواسع على الجبهتين كان على بنى حفص أن يأخذوا للأمر عدته وأن يستعينوا بكل القبائل العربية فى بلادهم فوقفوا بالمرصاد للتوسع الزيانى كما كانوا يفعلون سابقاً وشنوا حملة على الدولة الزبانية انتصروا فيها انتصاراً سريعاً باتباع أسلوب الغدر والخيانة والدس والخديعة واستطاعوا دخول تلمسان عام (٨٢٧هـ/١٤٢٣م)

وعينوا عليها أميرا من قبلهم لكنه كان من بين أفراد الأسرة الزبانية المنشقين على أبى مالك عبد الواحد وهو الأمير أبو عبد الله محمد المعروف بابن الحمرة (٨٢٧هـ/١٤٢٣م) ابن السلطان تاشفين الثانى وخضع بنو زيان لسلطة الدولة الحفصية وأخذ بنو حفص من ذلك الحين يلعبون دوراً هاماً فى أمور الدولة الزبانية فهم الذين يولون أمير البلاد، وهم يعزلون من لا ترضى عنه السياسة الحفصية ولا يحقق أهدافها فى الحكم.

وكانت بنو حفص كلما رأوا اتساع نفوذ بن زيان .. عملوا على انحسار ذلك النفوذ دائماً.

الصراع المرينى -الزبانى خلال القرن الثامنى الهجرى- الرابع عشر الميلادى

وقفت بنو مرين كما وقف بنو حفص للدولة الزبانية بالمرصاد وطال أمد الصراع حتى أن الباحث فى تاريخ المغرب الإسلامى خلال تلك الحقبة التاريخية يجد أن هذه الدول الثلاث كان بينها من العدوان والصراع ما جعل الصراع يستمر خلال ثلاثة قرون وأن هذا الصراع لم يكن فى صالح القوى الإسلامية بقدر ما كان سبباً فى المطامع الأوربية التى رأت أن انهاك هذه القوى الثلاث فى صالحها فكان أن وضعت عدتها للاستيلاء على هذه الديار وبالذات المدن الساحلية لقطع مواردها الاقتصادية واضعافها أكثر مما هى فيه من ضعف، ولو أن هذه القوى الثلاث وحدت قواها أو على الأقل تعاونت لصالح الإسلام والمسلمين لكان ذلك من الأسباب القوية التى كانت تعيد للإسلام قوته فى الأندلس لقد كان قيام هذه القوى الثلاث وبالاً على دولة

الموحدين، ومن ثم وبالاً على المغرب العربى والأندلس بصفة خاصة. أن الباحث المتعمق لا يستطيع أن يفهم الأسباب الحقيقية وراء هذا الصراع أن زناتة (بنى عد الواد) وزناتة (بنى مرين) كان الأمثل أن يكون بينهما تعاون ووحدة وتضامن وليس تطاحن وتصارع دون أن يحقق أدنى هدف سوى مصلحة أعداء الإسلام فى الأندلس وعودة لترصد بنى مرين وبنى زيان طوال القرن الثانى الهجرى. ندرك أن بنى مرين لعبوا دوراً هاماً فى كبح جماح بنى زيان وتقليم أظافرهم والوقوف بالمرصاد لهم حتى تكون لهم دولة قوية تستطيع أن تلعب دوراً على مسرح الأحداث العالمية ولكن جعلها دولة محلية أو تابعة وليست من الكيانات الكبرى التى تلعب دوراً له تأثير فى مجريات أحداث حوض البحر المتوسط الغربى؛ بل عمل بنو مرين على انحسار الدولة وانكماشها بل انكسارها، لتتقوقع داخل حدود ضيقة، ولقد عمل بنو مرين على احتواء بنى زيان واخضاعهم فى هذه الحالة كان يسمح لهم بالتوسع المحدود وليس فى الحدود القريبة ولكن شرقاً حيث بنى حفص فالتوسع والانحسار كان يرتبط برغبة بنى مرين وكان ذلك مرتبطاً بعلاقة بنى زيان وبنى مرين فتأخذ الدولة فى الاتساع كلما حسنوا علاقتهم مع بنى مرين، ثم فى الانحسار إذا ساءت العلاقة ومن هنا أخذت الدولة فى مسالمة بنى مرين واستطاع بنو زيان أن يوسعوا دائرة نفوذهم فى المغرب الوسط عندما تكون الأمور على خير ما يرام مع بنى مرين وعندما يكون هناك ود وصفاء أو الهدايا أو المساعدات العسكرية والعتاد ففى هذه الحالة استطاع بنو زيان أن يستولوا على كثير من أراضى المغرب الأوسط وضمها إلى نفوذهم.

وانحسر نفوذ الدولة وضاقت رقعتها وتقلصت أقاليمها وكيانها نتيجة للاحتلال المرينى للمغرب الأوسط وحصارهم تلمسان (٦٩٨هـ/١٢٩٨م) ثم عادت الدولة الزبانية إلى محاولة بسط نفوذها على المغرب الأوسط على المغرب الأوسط فى عهد ابن

تاشتين الأول؛ حيث استطاع بنو زيان اخضاع المغرب الأوسط كله لنفوذهم واستطاعوا السيطرة على تونس. ويتقرر دور بني مرين في انحسار قوة الدولة عندما استنجد بهم بنو حفص وأرسلوا إلى بني مرين، إلا أن أبا الحسن المريني تحرك إلى تلمسان ورسم مع بني حفص خطة الهجوم وحاصروا تلمسان سوياً في عام ٧٣٥هـ/١٣٣٤م، وفي عام ٧٣٧هـ/١٣٣٦م استولى بنو مرين على جميع أراضي المغرب الأوسط وأنهوا حكم بني زيان لهذه المنطقة. وهكذا أساء بنو زيان لأنفسهم وتسببوا في هذا الهجوم الحفصي المريني المشترك عندما ردوا شفاعة بني مرين في بني حفص.

ولم يقف بنو مرين عند هذا الحد؛ بل كرروا هجومهم على تلمسان في عهد أبي سالم المريني وأوغل صوب تلمسان عام ٧٦١هـ/١٣٦٩م وما فعله أبو حمو في المرة الأولى فعله في المرة الثانية؛ فقام بقواته متقدماً نحو حدود المغرب الأقصى فأجبر بني مرين على ترك تلمسان وعاد أبو حمو إلى تلمسان عازماً على بسط نفوذه على سائر بلاد المغرب الأوسط فاشتبك مع حمايات بني مرين وزحف بنو مرين إلى تلمسان واستطاعوا دخول العاصمة عام (٧٧٢هـ/١٣٧٠م)، واستقر السلطان أبو فارس المريني بتلمسان وجعلها مقراً له إلى أن مات بها عام ٧٧٤هـ/١٣٧٢م؛ فاضطرب بتأثر ذلك أحوال العرش المريني وعاد بنو مرين إلى فاس تاركين على تلمسان أحد أمراء بني عبد الواد وهو السلطان إبراهيم بن السلطان أبي ناشفين الأولى وقام بطرد السلطان أبي حمو ودخل تلمسان، لكن بني مرين يعودون للهجوم على تلمسان مرة أخرى ٧٨٦هـ/١٣٨٤م. ثم يتركون السلطان إبراهيم ويعودوا للمغرب الأقصى بعد أن قاموا بهدم المدينة فعاد أبو حمو إلى عاصمته فعمرها بعد أن خربها بنو مرين. وعمر مسجد تلمسان الجامع وكان آية في الجمال في عهد حكم بني زيان الذين عمروا البلاد، وعادت البلاد إلى سابق عهدها ومجدها ومدت سلطانها حتى بجاية من بلاد الحفصين بمساعدة عرب بني هلال من الزواودة وبني معقل من عبد الله بن بني رياح.

وكان للعرب موقف مشرف فى غزوة عام ٧٦١هـ/١٣٦٠م ذلك لأنه عندما زحف أبو سالم المرينى لغزو تلمسان فإن قبائل زغبة بزعامة بنى عامر تمكنت من ارغامه على الانسحاب من تلمسان أيضاً وذلك بمهاجمتهم مدن الحدود المرينية مثل مطاط، بلاد ملوية وكر سيف مما أجبرهم على الانسحاب.

ولم يقف دور بنى مرين عند هذا الحد؛ بل تعداه إلى مساعدة بعض أمراء الأسرة الزبانية المنشقين عليها، ومن هنا يمكن القول أن بنى مرين قد أثروا فى اتساع الدولة الزبانية واستطاع بنو مرين إيقاف نشاط الدولة التوسعى؛ بل كثيراً ما خضعت بلاد المغرب الأوسط لطاعتهم وكان ذلك يقتضى بذل الجهد من جانب بنى زيان لاستعادة نفوذهم على تلك البلاد.

وعملت الدولة على إخضاع المنطقة الشرقية للبلاد الواقعة بجانب الحدود الحفصية، ففى عام ٧٦٠هـ/١٣٥٨م. قاد أبو يعقوب والد أبى حمو جيشاً اتجه به صوب المناطق الشرقية لإجلاء بنى مرين عنها واستطاع هزيمة بنى مرين وقام أبو حمو عام ٧٦١هـ/١٣٥٩م بحملة ضد قبائل مغراوة ومشايخها الذين ساعدوا بنى مرين ضد الدولة وأخضعهم للنفوذ السياسى للدولة.

وبعد أن تم الصلح بين أبى حمو الزيانى وأبى سالم تنازل بنو مرين عن مدينة تدلس، وهران والجزائر لبنى زيان وحققت الدولة أزهى عصورها فى عهد أبى حمو الثانى، إلا أن الحروب مع القبائل القاطنة بالمغرب الأوسط ومع بنى مرين أضعفت من قوة الدولة وجعل همها الأول وشغلها الشاغل هو الحفاظ على بقائها وحماية حدودها وكبح جماح القبائل الثائرة بالداخل واستمر الحال حتى احتل بنو مرين تلمسان عام ٧٩٥هـ/١٣٩٢م.

* * * *

الفصل الرابع

القبائل العربية ودورها فى بناء الدولة

لعبت القبائل العربية دوراً هاماً وبالغاً فى مساعدة الدولة الزيانية منذ عهد مؤسسها الأول يغمراسن بن زيان (٧٥٣-٧٩١هـ/١٣٥٢-١٣٨٩م). وكان لها دور لا ينكر منذ الوهلة الأولى لقيام الدولة لاسيما مساعدة قبائل بنى عامر للدولة فى مهدها واتخاذ يغمراسن لها كحائط بشرى وسد منيع للدفاع عن تلمسان العاصمة وسكناهم بأطرافها وبجوارها ليكونوا عوناً لها عند ساعة الخطر وذلك لبسط ونشر اللسان والثقافة العربية بين جموع السكان.

وعلى الرغم من أن القبائل العربية فى المغرب الأوسط فى دولة بنى زيان لم يكن لهم كيان سياسى مستقل أو كيانات شبه مستقلة كما كان لاخوانهم الذين يعيشون داخل حدود الدولة الحفصية إلا أن تجمعات قبائلهم كانت تلعب دوراً بين السلب والإيجاب بين مساعدة ومساندة الدولة وبين الانقلاب عليها ومساندة بنى مرين تارة وبنى حفص تارة أخرى وبين تأييد أمير ضد أمير وبين الثورة على الدولة والخروج على الشرعية وبين الهجرة خارج الحدود والاحتماء بالدولة والخروج على الشرعية وبين الهجرة خارج الحدود والاحتماء بالدولة الشرقية بنى حفص والدولة الغربية بنى مرين؛ إلا أنه رغم كل هذا كان لهم دور مشهود وخالد فى صفحات تاريخ هذه الدولة.

ولقد أحسن بنو زيان منذ الوهلة الأولى لقيام دولتهم وسيطرتهم على العاصمة تلمسان؛ أنه لابد من محالفة القبائل العربية التى استقرعت بالمغرب الأوسط خصوصاً عرب زعبة الذين جمعهم وزيان عصبية الحلف ومن هنا .. كان استقرار بنى عامر

بجوار تلمسان. ولقد زادت مكانة شيوخ هذه القبائل لدى مؤسس الدولة يغمراسن بن زيان وزادت ثقته فى بعضهم لدرجة أنه كان يتولى أحد مشايخ العرب أمر العاصمة أثناء خروجه بحملات خارج البلاد.

ولقد حالف بنو زيان عرب المعقل، وبالذات فرع عبد الله فقد كان سبب مجاورتهم للدولة مع الناحية الغربية على الرغم من أنهم كانوا يسكنون صحراء المغرب الأقصى لكن اشتراك الحدود؛ حيث أن موطنهم كان بين تلمسان ووجده. وبعد أن تمكن بنو زيان من تأسيس دولتهم جعلوا عرب المنيات تحت خدمتهم وأولوهم حكم سجلماسة والسيطرة على مقاليد الأمور بها وذلك لثقتهم بهذه القبائل وكذلك لعمق التحالف؛ حيث أن موطنهم كان بالمغرب الأقصى ما بين ملوية ودرعه.

وهنا نلاحظ كيف أن القبائل العربية من عرب المعقل كان لهم دور فى نشر نفوذ بنى زيان وفرض سيادة الدولة على مدينة سجلماسة ومساعدة عرب المنيات لهم فى جباية الخراج والضرائب.

وفى عهد الأمير أبى حمو فإن نفوذه امتد إلى درعه مما جعل واليها وأحلافه من عرب المعقل يلجأون إلى بنى عبد الواد فقام والى درعه (عبد الله بن مسلم) بنقل معظم عرب المنيات والعمارنة إلا ضواحى تلمسان وجعلهم فى منطقة سكنى مع بنى عامر.

ولما كثرت ثورات أمراء بنى عبد الواد بسبب الصراع حول السلطة واحقية أى من الأمراء فى هذا الأمر فإن بعض بطون القبائل العربية مثل زغبة الذين كان بنو الواد قد طردوهم إلى الصحراء فى أثناء قوة الدولة فإنهم فى فترة الصيف عادوا إلى التلول حيث خصوبة الأرض ووفرة المعيشة واعترفت الدولة لهم بذلك واقطعهم السهول

والأمصار مقابل المخالفة والمساندة والطاعة وعدم التمرد على الدولة حتى يمكن الأمراء من مقاومة الغزو الخارجي القادم من الشرق والغرب والاستحواذ على السلطة فى البلاد والقضاء على منافسيهم المتطلعين للحكم من العاصمة تلمسان.

ولما كانت المنطقة الشرقية من البلاد هى منطقة احتكاك وصراع بين بنى زيد وبنى حفص فإن بنى زيان بعد أن بسطوا سلطانهم على المغرب الأوسط اقطعوا بنو زيد من بطون زغبة منطقة بجاية فاستقروا فيها وقاموا بحماية بجاية من غارات البربر الصنهاجية وكافأتهم الدولة بالاقطاعات الواسعة بجوار مدينة بجاية وصارت من أملاكهم وتمكن بنو زيد من الاستقلال بأوطانهم وتوزيع جبايتها وخراجها على بطونهم أثناء ضعف الدولة وانقسام الأمراء والحكام على أنفسهم.

وأثناء الصراع الذى دار حول تولى السلطة بنى أميرين من أمراء الدولة الزبانية هما أبى حمو وأبى زيان فإن القبائل العربية انقسمت على نفسها بين مؤيد لهذا ومعارض له ولكن بعد انتصار أبى حمو فإنه انتقم من القبائل التى وقفت ضده وساندت أبو زيان.

وكانت فكرة يغمراسن من نقل بنى عامر وبنى زيد إلى جواره بصحراد تلمسان من أجل الأفكار التى صانت للدولة بقاءها واستمرارها أكثر من ثلاثة قرون إذ أنهم أثناء الغزو المرينى للمغرب الأوسط كانوا هم الدرع الواقى للدولة وهم الذين كانوا يقومون بدور كبير فى مقاومة الغزو واسترداد أملاك بنى عبد الواد وإعادتهم لدولتهم واستمرارهم فى الحكم بل أنهم كانوا يردون الصاع صاعين لبنى مرين؛ فقد انتقم بنو عامر لأنفسهم عندما شرعوا فى انقاذ المغرب الأوسط من يد قوات أبى عنان المرينى وقد وصلت أخبار بوفاته فاجتمع عرب المغرب الأوسط جميعاً على مبايعة أبى حمو ومحالفيه من عرب بنى عامر ووعوده بالمساندة والمعاونة فى التصدى لخصومه، فاشتبكوا

مع عرب مؤيد حلفاء بنى مرين خارج تلمسان وهزموهم شر هزيمة وقتل أميرهم وعاد أبو حمو للعاصمة فى ٧٦٠هـ/١٣٥٩م وإزاء هذا الهجوم لم يجد ابن السلطان أبى عنان المرينى وكان واليا على المدينة سبلاً الا القرار. وقد قدرت القيادة الزيانية دور بنى عامر فى إعادة الدولة اليغمراسية ونددوا بهزيمة الأعداء وكافأ أبو حمو أنصاره من بنى عامر. وهذا يفسر لنا استماتة هذه القبائل فى حروبهم ضد قوات بنى مرين التى أرسلت لاستعادة تلمسان وإلحاقهم الهزيمة بهم.

ولقد كانت القبائل العربية هى التى تقف بالمرصاد لكل زحف مرينى يريد النيل من استقلال الدولة والسيطرة على تلمسان ومن ذلك نجد أنه فى عام ٧٦١هـ/١٢٣٦٠م عندما زحف أبو سالم المرينى لغزو تلمسان فإن قبائل بنى عامر العربية تمكنت من إرغامه على انسحاب من تلمسان بل أنها ظلت تطارد قواته المنسحبة وقامت بالهجوم على مدن الحدود المرينية.

ومن هنا يتضح مدى اعتماد الدولة اليغمراسية على القوات العربية من بنى عامر واحلافهم وارتباط ذلك باستمرار بقوة الدولة ذلك عندما حدث خلاف بين أبى حمو وزعيم القبائل العامرية فإن هذا القبائل تحالفت مع أبى زيان العدو اللدود لأبى حمو ومع قوات من بنى مرين وقادت هذه التحالف قبائل بنى عامر وقامت بمهاجمة بلاد منداس من المغرب الأوسط وزحفت إليهم قوات الدولة ولكنها هزمت هزيمة نكراء عام ٧٦٥هـ/١٣٦٤م.

ومن هذه الواقعة أدرك أبو حمو أهمية القبائل العربية من بنى عامر وغيرهم من العرب فهادنهم وبذل لهم الأموال الكثيرة واقطعهم ما طلبوه من البلاد إلا أن ازدياد نفوذ أبى زيان خارج العاصمة دفع أبا حمو للاستقرار فى العاصمة تلمسان.

ولما خذل عرب المغرب الأوسط أبا حمو وساندوا أبا زيان اضطر لطلب النجدة والمساندة من عرب رياح بأفريقية بزعامة الزواودة فلبوا طلبه وانتصر على الثائرين عليه عام ٧٦٣هـ/١٣٦٧م وقتل الكثير من أعدائه ولكن ما أن انسحبت رباح إلى أفريقية حتى وقعت الهزيمة بأبى حمو وكاد أن يقتل لولا مساندة عرب أولاد عسكر بن معروف العامرى الذين دافعوا عنه حتى عاد للعاصمة واضطر للجوء إلى بنى عامر وزحف بهم عام ٧٧٠هـ/١٣٨٦م لمهاجمة أبى زيان وانتصر عليه وعاد إلى تلمسان.

وفى عام ٧٧٤هـ/١٣٧٢م بعد انحسار الغزو المرينى عن المغرب الأوسط عاد أبو حمو الثانى والى تلمسان مع أنصاره من العرب وتغيرت سياسة بنى زيان تجاه عرب أولاد عريف بعد أن قام زعيمهم بدور رئيسى فى عقد معاهدة صداقة بين أبى حمو وبنى مرين، وكذلك قام زعيم عرب عريف باقناع أبى زيان بن عم السلطان حمو ومنافسة على السلطة بالمغرب الأوسط بالاستقرار بأفريقية والإقامة بأوطان عرب رباح مقابل مبلغ من المال يدفع له بصفة دورية.

ومن هنا .. نرى كيف أن القبائل العربية كانت تتدخل بما لديها من نفوذ بين الأطراف الدولية المتصارعة مثلما حدث بين بنى زيان وبنى مرين ومساندة السلطان حمو وكذلك فى حل المشاكل الأسرية بين الأمراء المتصارعين وإيجاد السبل للمصالحة وحتى يعود الهدوء وتسود الحياة المستقرة بالمغرب الأوسط. ومن هنا كان للمغرب الدور الفعال فى استقرار الدولة.

لكن تحالف الدولة اليغمراسية مع قبائل عريف أثار ثارة أولاد عامر فحدثت بينهم معارك وبين القبائل العربية فى المغرب الأوسط انتهت بترك بنى عامر لسكناها بجوار تلمسان والهروب إلى الصحراء. لكن قبل نهاية دولة بنى زيان وحتى استيلاء الأتراك على الدولة وسيطرتهم على المغرب الأوسط فقد استمر عرب بنى عامر كحلفاء

مع عرب مؤيد حلفاء بنى مرين خارج تلمسان وهزموهم شر هزيمة وقتل أميرهم وعاد أبو حمو للعاصمة فى ٧٦٠هـ/١٣٥٩م وإزاء هذا الهجوم لم يجد ابن السلطان أبى عنان المرينى وكان واليا على المدينة سبلاً الا القرار. وقد قدرت القيادة الزيانية دور بنى عامر فى إعادة الدولة اليغمراسية ونددوا بهزيمة الأعداء وكافأ أبو حمو أنصاره من بنى عامر. وهذا يفسر لنا استماتة هذه القبائل فى حروبهم ضد قوات بنى مرين التى أرسلت لاستعادة تلمسان وإلحاقهم الهزيمة بهم.

ولقد كانت القبائل العربية هى التى تقف بالمرصاد لكل زحف مرينى يريد النيل من استقلال الدولة والسيطرة على تلمسان ومن ذلك نجد أنه فى عام ٧٦١هـ/١٢٣٦٠م عندما زحف أبو سالم المرينى لغزو تلمسان فإن قبائل بنى عامر العربية تمكنت من إرغامه على انسحاب من تلمسان بل أنها ظلت تطارد قواته المنسحبة وقامت بالهجوم على مدن الحدود المرينية.

ومن هنا يتضح مدى اعتماد الدولة اليغمراسية على القوات العربية من بنى عامر واحلافهم وارتباط ذلك باستمرار بقوة الدولة ذلك عندما حدث خلاف بين أبى حمو وزعيم القبائل العامرية فإن هذا القبائل تحالفت مع أبى زيان العدو اللدود لأبى حمو ومع قوات من بنى مرين وقادت هذه التحالف قبائل بنى عامر وقامت بمهاجمة بلاد منداس من المغرب الأوسط وزحفت إليهم قوات الدولة ولكنها هزمت هزيمة نكراء عام ٧٦٥هـ/١٣٦٤م.

ومن هذه الواقعة أدرك أبو حمو أهمية القبائل العربية من بنى عامر وغيرهم من العرب فهادنهم وبذل لهم الأموال الكثيرة واقطعهم ما طلبوه من البلاد إلا أن ازدياد نفوذ أبى زيان خارج العاصمة دفع أبا حمو للاستقرار فى العاصمة تلمسان.

ولما خذل عرب المغرب الأوسط أبا حمو وساندوا أبا زيان اضطر لطلب النجدة والمساندة من عرب رياح بأفريقية بزعامة الزواودة فلبوا طلبه وانتصر على الثائرين عليه عام ٧٦٣هـ/١٣٦٧م وقتل الكثير من أعدائه ولكن ما أن انسحبت رباح إلى أفريقية حتى وقعت الهزيمة بأبى حمو وكاد أن يقتل لولا مساندة عرب أولاد عسكر بن معروف العامرى الذين دافعوا عنه حتى عاد للعاصمة واضطر للجوء إلى بنى عامر وزحف بهم عام ٧٧٠هـ/١٣٨٦م لمهاجمة أبى زيان وانتصر عليه وعاد إلى تلمسان.

وفى عام ٧٧٤هـ/١٣٧٢م بعد انحسار الغزو المرينى عن المغرب الأوسط عاد أبو حمو الثانى والى تلمسان مع أنصاره من العرب وتغيرت سياسة بنى زيان تجاه عرب أولاد عريف بعد أن قام زعيمهم بدور رئيسى فى عقد معاهدة صداقة بين أبى حمو وبنى مرين، وكذلك قام زعيم عرب عريف باقناع أبى زيان بن عم السلطان حمو ومنافسة على السلطة بالمغرب الأوسط بالاستقرار بأفريقية والإقامة بأوطان عرب رباح مقابل مبلغ من المال يدفع له بصفة دورية.

ومن هنا .. نرى كيف أن القبائل العربية كانت تتدخل بما لديها من نفوذ بين الأطراف الدولية المتصارعة مثلما حدث بين بنى زيان وبنى مرين ومساندة السلطان حمو وكذلك فى حل المشاكل الأسرية بين الأمراء المتصارعين وإيجاد السبل للمصالحة وحتى يعود الهدوء وتسود الحياة المستقرة بالمغرب الأوسط. ومن هنا كان للمغرب الدور الفعال فى استقرار الدولة.

لكن تحالف الدولة اليغمراسية مع قبائل عريف أثار ثارة أولاد عامر فحدثت بينهم معارك وبين القبائل العربية فى المغرب الأوسط انتهت بترك بنى عامر لسكناها بجوار تلمسان والهروب إلى الصحراء. لكن قبل نهاية دولة بنى زيان وحتى استيلاء الأتراك على الدولة وسيطرتهم على المغرب الأوسط فقد استمر عرب بنى عامر كحلفاء

مخلصين للدولة اليغمراسية يساهمون بقواتهم فى جيش سلطان تلمسان لطرد الغزاة الأسبان من البلاد.

ومن هنا .. لم يكن العرب دعاة فرقة بقدر ما كانوا دعاة توحيد وتضامن. ولم يكونوا ثائرين بقدر ما كانوا يأبون الظلم والتعسف والاضطهاد كانوا عدة دولة بنى حفص وبنى زيان وكان دورهم فى الدفاع ضد العدو لاينكر ولا يجحد وكان دورهم فى التحضير والرقى والتعمير والتشييد والبناء الزراعة واستصلاح الأراضى وتعميرها وإدخال محاصيل جديدة هم بناة؛ فلم يتعالوا على إخوانهم أبناء المغرب بل خضعوا للقيادة البربرية فى أفريقية والمغرب الأوسط. والحكم يطلق هنا على الأغلبية وذلك لأن أغلبية القبائل العربية خضعت لنفوذ الدولة وساهمت بدور فعال لا ينكر فى كل إدارات الدولة لكنه ليس معنى ذلك أنه لا توجد أعداد قليلة من القبائل العربية كانت دائماً تخرج على القانون والدولة شأن غيرها من القبائل العربية فى ذلك الوقت؛ بل إن العرب الثعالبة مثلا شاركوا بجنودهم وقواتهم إلى جانب بربر بنى توجين رغم العداء بينهم وبين بنى زيان، ورغم فقد الثعالبة لمكانتهم فى دولة بنى زيان، ومن هنا كان عداؤهم للدولة ومناصرة أعدائها من بنى توجين أو بنى مرين وأيضاً الدولة الحفصية لكن قوات أبى حمو الأول (٧١٢هـ/١٣١٢م) قامت بمهاجمة الثعالبة فى سهل منتيجة واخضاعهم لنفوذ الدولة وكذلك حاصرت قواتهم مدينة الجزائر وضمتها إلى أملاك الدولة (٧٧٠هـ/١٣٦٨م)، وظهر موقف الثعالبة العدائى للدولة عندما ثار أبى زيان ضد أبى حمو فانضم الثعالبة لأبى زيان ودعوا له بين أهل الجزائر ومليانه حتى اجتمع جميع عرب المغرب على دعوته ومبايعته وتمكن العرب من الاستيلاء على مدن تنس ومستغانم ووهران وفـرغوان، مما دفع أبى حمو لاستمالة العرب لكى ينقضوا عن أبى زيـان وتأييـده.

كذلك فإن عرب ذوى عبيدة كانوا من الخارجين على بنى يزان نظراً لقرب مواطنهم من حدود الدولة المرينية فقد انحازوا إليهم فى غزوهم للمغرب الأوسط؛ بل اعتمد المرينيون عليهم كجنود وفرسان ضمن قواتهم، فأثناء غزو أبى الحسن المرينى لتلمسان حالفوه وعاونوه وأسند إليهم غزو قصور الصحراء جنوب مدينة وجدة كذلك فإن عرب حصين بن زغبة كانوا دائماً يرحبون بكل غازٍ للمغرب الأوسط على مواطن استقرارها وجاورها بعد انحسار الغزو المرينى عن تلمسان استقر عرب حصين بن زغبة بجبل تيطرى وبايعوا أبا زيان أثناء الفتنة مع ادراك أبى حمو ضعف موقفه فخرج إلى الجزائر ليستعين بقبائل حصين والثعالبة ضده لكن ابنه أبى تاشفين تمكن من عزله واعتقاله بوهران ٧٨٨هـ/١٣٨٧م. وهرب أخوته المستنصر وأبو زيان وعمر أبناء أبى حمو إلى عرب حصين واستقروا بينهم.

كذلك فإن قبائل سويد ناصبت بنى زيان العداء واشتركوا مع قوات بنى مرين وكسبوا طاعة القبائل العربية بالمغرب الأوسط لحساب حلفائهم من بنى مرين مما جعلهم فى وضع متميز فى الدولة المرينية خصوصاً.

وهكذا .. نرى أن عدم خضوع بعض القبائل العربية للدولة والثورة عليها إنما يكون راجعاً إلى وقوع ظلم عليها أو بسبب تحالف الدولة مع قبائل عربية تناصب الأخرى العداء. لكن على كل الأحوال فإن القبائل العربية قد أدت دورها كاملاً فى الدولة.

وهكذا نرى أن القبائل العربية لعبت دوراً كبيراً فى استقرار دولة بنى عبد الواد فى علاقتها مع جيرانها فى الحرب والسلام. وقد يؤيد ذلك أن معظم السفارات التى تبودلت بينها وبين جيرانها الحفصيين والمرينيين كانوا من زعماء القبائل العربية فى أفريقية والمغرب كما فى عام ٧٦٣هـ/١٣٦١م؛ فقد كانوا دائماً حمامة سلام ورسول

محبة وتصالح ولم يكونوا أبدا دعاة حرب وإثارة واضطراب كما حاول أن يصور ذلك أعداء العروبة والإسلام من كتاب الغرب المتعصبين فقد كان رسول أبى زيان إلى ابن عمه أبى حمو طالباً للصلح زعيم قبائل رياح، كما كان رسول بنى مرين لطلب الصلح إلى بنى زيان هو زعيم قبائل عريف وكانوا دائماً مصدر خير ومحبة فى التوفيق بين المتشفين فى الأسرة المرينية.

لقد اصطنعت قبائل البرب انساباً عربية حتى تتساوى مع القبائل العربية؛ بل حتى يتم اخضاع العرب لهم. وكذلك عمدت بعض الدولة المغربية ذات الأصل البربرى (بنى حفص، بنى عبد الواد، بنى مرين) إلى الاستناد للأصل العربى والنسب النبوى وكذلك مصاهرة القبائل العربية المقدمة بالمغرب فتزوجوا النساء العربيات واستخدموافى الحجابة والكتابة رجالا من العرب. ولعل هذا الانقسام نتيجة لقيام ثلاث دول متنازعة على انقاض دولة الموحدين حتى اضطرت كل دولة من هذه الدول إلى الاعتماد على بعض هذه القبائل المستقرة ببلادها اعتمادا يكاد يكون تاما؛ بحيث صار من الصعب على سلاطين وخلفاء هذه الدول الحفاظ على بلادهم فى حالة تخلى هذه القبائل عنهم. فاعتمدت الدولة الحفصية على قبائل رياح ثم على قبائل بنى سليم وكرفه من عرب الأشبج بعد أن تمردت رياح عليهم، كذلك حالف بنو زيان قبائل زغبة التى استقرت بالمغرب الاوسط وعرب ذوى عبيد الله وذوى منصور المنبات وأولاد حسين والعمارنة من المعقل أما الدولة المرينية؛ فقد اعتمدت على القبائل العربية المستقرة ببلادها بقيادة عرب سويد لاستعادة أملاك الدولة الموحدية فى المغرب الأوسط وأفريقية التى استولى عليها بنو حفص وبنو زيان. ونتيجة لانتشار القبائل العربية بالمغرب وتعدد مواطن استقرارها فى جميع أنحاء البلاد امتزجت بقبائل البربر وصاهرتها مما أدى إلى تطور مفاهيم القبيلة العربية بالمغرب وقد شاركت القبائل العربية هذه دولة بنى زيان

في النواحي الإدارية العسكرية والتعليمية والقضائية فاقطعتهم الأراضي وأضافت إليهم مزيداً من الاقطاعات واضطرت لإقرارهم على ما بأيديهم بمقتضى مرسوم صادر من السلطان بالتقليد والخلع واسندت إليهم الوظائف الإدارية مثل الجباية ووظائف القضاء والفتيا إلى العلماء من هذه القبائل خصوصاً في المدن التي تسيطر القبائل العربية على نواصيها وازدادات شيوخ القبائل العربية لدى حكام بني زيان بحيث عين منهم الوزراء والكتاب وكان منهم من ينيب عن السلطان في حالة خروجه للحرب وتصدروا المجالس السلطانية وأصبحوا ضمن أهل الشورى للسلطان وانضم بعضهم إلى مجلس منادمته في خلوته كما اختار السلاطين منهم بعض وزرائهم وسفرائهم إلى جيرانهم من الملوك.

ولقد أثرت هذه القبائل العربية في الحياة الاقتصادية لدولة بني زيان تأثيراً ملحوظاً فنقلوا إلى المغرب الأوسط وغيره خبراتهم الطويلة في تنمية الثروة الحيوانية وتأثرت بعض القبائل الزيانية بخبرة القبائل العربية في هذا المضمار فأخذوا عنهم تربية الخيول وتحسين أنسابها كما أسندت إليهم الدولة الزيانية إدارة مراعيهم وتربية أنعامهم فقام العرب من سويد بإداراتها كما سيطرت القبائل العربية على طرق التجارة الداخلية فلا يجتازها غيرهم إلا بخفارة أحدهم ووسعوا نطاق هذه التجارة بين التل والصحراء واحتكروا تموين بعض المدن الأفريقية مقابل توزيعهم لمنتجاتهم ولقد كان لعرب بني عامر الدور الرئيسي في مساعدة بني عبد الواد في قيام دولتهم المستقلة في المغرب الأوسط والحفاظ عليها من هجمات أعدائها بني حفص في الشرق وبني مرين في المغرب.

لقد تجلت حضارة العرب في معاملتهم مع سكان البلاد؛ فقد كانوا دائماً يجيرون من يلجأ إليهم ومن ذلك فإنهم قاموا بمساعدة أمير سجلماسة الأمير محمد بن عبد الحليم؛ حيث قامت طائفة من عرب الأخلاف بحراسته حيث هرب لاجئاً بجوار بني مرين.

ذلك فإنه فى أحلك الظروف السياسية التى مرت بدولة بنى زيان؛ فقد كانوا هم السند والعزة فبعد أن ضعفت دولتهم كان العرب من أولاد عريف وعرب سويد سنداً لها وتمكيناً لوجودها فى الاستمرار فى حكم بلاد المغرب الأوسط.

وفى تاريخ العرب فى المغرب الأوسط عامة أمثلة كثيرة على حسن الجوار ومسئولية الجوار وقدسية الجوار فقد آثرت القبائل العربية قتل أبنائها على تسليم من أجير بها أو الغدر به حتى لو أدى الأمر إلى القتل على جميعهم، فعندما كانت تشتد الأمور فى حصار تلمسان ويهرب الأمير أو السلطان إلى العرب يطلب الاستجارة بهم فإنهم كانوا يجيرونه ويرفضون تسليمه للسلطان كذلك أجار عرب الزواودة بأفريقية المغضوب عليهم من الدولة الحفصية أو الهاربين خوفاً من بطش حكامها أو اللاجئين طلباً للحماية مما جعل القبائل العربية فى صراع دائم مع الدولة.

وهكذا .. نرى كيف كانت القبائل العربية دائماً السند والقوة والمساندة والمساعدة للدولة؛ بل كانت هى الحصن الذى يحمى دفاعات الدولة وقت الشدة، ومن هنا كانت نظرة يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة الزيانية بعيدة جداً حين استعان بقبائل بنى عامر العربية لكى تكون الدرع الواقى لحماية العاصمة تلمسان والدرع الذى يصد هجمات الأعداء من الداخل والخارج، وعلى هذا .. كان الدور العربى فعالاً ومؤثراً فى بناء الدولة الزيانية وحفظ تواجدها طوال هذه القرون الثلاثة التى كان الوجود العربى فيها هو المؤثر الفعال لهذا الكيان السياسى فى المغرب الأوسط.

* * * *

الفصل الخامس

علاقات الدولة بالدول المجاورة

كان موقع الدولة الزيانية الجغرافى وسط المغرب أو فى المغرب الأوسط له دور كبير فى التطور السياسى لبلاد المغرب كما أن الموقع المتوسط كان له أثر العلاقات مع جيران الدولة بالشرق والغرب ولما كانت تلك الدراسة تتناول الدول الثلاث بنى حفص فى المغرب الأدنى (أفريقية) وبنى زيان فى المغرب الأوسط (الجزائر) وبنى مرين فى المغرب الأقصى .. فإن العلاقات فيما بينهما سوف تكون فى فصل خاص نظراً لارتباط عناصر الدراسة مع بعضها البعض ونظراً لأن الدراسة تقع فى جزء واحد فإذن ليس هناك من الدواعى أن تكرر فصل العلاقات عند الحديث عن كل دولة من هذه الدول الثلاث.

ولقد حاولت الدول الثلاث ضرب نفوذ الآخر. وهذا التنافس بين القوى الثلاث قد جعل بنى زيان دائماً فى شغل شاغل فقد اهتموا بتأمين دولتهم الشابة والتى يريدون لها البقاء وسط هذا الصراع، وفى ظل هذه الظروف الصعبة والحروب المتصلة والقتال المستمر، عاشت دولة بنى زيان، ولذا .. فإنه يمكن القول بأن علاقة الدولة الزبانية قد غلبت عليها الناحية العسكرية.

وقد ارتبطت دولة بنى زيان بعلاقات مع الأندلس ومصر وبلاد السودان وكذلك مع الدولة الشرقية المجاورة لها وهى بنى حفص والدولة الغربية بنى مرين وكانت دولة الموحدين من الدول التى أقامت بينها وبين عبد الواد علاقات وسقطت هذه الدولة تحت ضربات الجيش المرينى وحتى لايتكرر حديث العلاقات فسوف نلقى هنا حديثاً عن الموحدين وعلاقاتهم ببنى زيان.

علاقات بنى زيان مع الموحدين

الذى ينظر إلى أحداث المغرب يجد أن علاقة بنى زيان بالموحدين كانت فى أول أمرها علاقة فيها نوع من التبعية نظراً لإعلان بنى زيان البيعة للخليفة المرتضى بالله، وذكر اسمه على منابر تلمسان والخطبة له. ثم تطورت إلى صراع مسلح ثم إلى تعاون عسكرى بينهما؛ بل إن الناحية العسكرية كانت السمة البارزة فى علاقة بنى عبد الواد مع الموحدين. وكان بنو عبد الواد يسكنون ضواحى مدينة تلمسان ويتخذونها عاصمة لهم ويبسطون نفوذهم على القبائل التى تقع سكانها فى المغرب الأوسط، فكان طبيعياً أن يجتكوا بأية قوة تحاول اخضاع هذه المنطقة التى تقع تحت نفوذهم. وهذه المحاولة كانت تمنع محاولة الموحدين السيطرة على المغرب الأوسط وقد وقفت بنى عبد الواد ضد الموحدين ودخلوا فى صراع مسلح انتصر فيه الموحدون وأخذت العلاقة شكل التبعية والمبايعة بالخلافة الموحدية.

ووقف بنو عبد الواد مع الموحدين ضد بنى مرين وهذا الموقف وضعهم فى مقدمة الدول التابعة للموحدين خاصة أنهم أوقعوا بتعاونهم مع الموحدين هزيمة فادحة بقوات بنى مرين وهى فى التطور لمحاولة تكوين دولة على حساب الموحدين، وفى الوقت الذى ضعف فيه مركز الموحدين السياسى والدينى فى بلاد المغرب بدأ بنو زيان دخول تلمسان وتبعيتهم للموحدين وعلى الرغم من عدم خشية الدولة الزيانية بل كان الموحدون يخطبون ود يغمراسن (٦٤٠هـ-١٢٤٢م) مؤسس دولة بنى زيان قدم للخليفة الموحدى المرتضى هدية بالغة وراسله بشأن التعاون والوقوف عسكرياً ضد بنى مرين.

وفى بعض الفترات التاريخية استطاعت الدولة الزيانية أن تصل إلى درجة الدخول فى صراع مسلح وعسكرى مع الموحدين ولم يجد الموحدون بداً من الاتصال بأبناء

عمومتهم بنى حفص حكام أفريقية (المغرب الأدنى) لتقديم العون العسكرى والدعم لهم ومعاونتهم فى حرب بنى زيان وكسر شوكتهم والوقوف ضد قوتهم النامية والتى تتطلع لتلعب دوراً أساسيا فى بلاد المغرب وواورثة تركة الموحدين قبل ظهور قوة بنى مرين، ولكى ينفذ بنو زيان إلى رضاء بنى حفص على حساب الموحدين وكسر التعاون بينهما والذى كان سيقضى على قوتهم فى المهد .. فإنهم خرجوا من هذا المأزق السياسى بأن خلعوا الدعوة على منابر تلمسان للموحدين واستبدلوا بدلاً منهم بنى حفص.

وبعد هذه البيعة خضع المغرب الأوسط تحت طاعة بنى حفص بدلاً من الموحدين الذين عقدوا العزم على ضرب النفوذ الحفصى بالمغرب الأوسط وأفريقية ومنع محاولاتهم للسيطرة على بنى زيان واستطاع السعيد الموحدى أن يجهز جيشاً كبيرا حاصر به تلمسان عاصمة بنى زيان (٦٤٦هـ-١٢٤٨م) وعندما علم يغمراسن بن زيان بهذه الحشود الموحدية الضخمة ترك تلمسان وتحول إلى حرب عصابات وكروفر واصطياد قوات الموحدين بين الوديان والشعاب مما أثر فى هزيمة الموحدين وقتل قائده السعيد الموحدى، وبهذا الانتصار السريع والخاطف على قوات الموحدين استطاعت الدولة الزيانية النامية أن تشد انتباه سكان المغرب الأوسط والقوى المعاصرة فى الأندلس وأفريقية ومصر والدول النصرانية فى حوض البحر المتوسط الغربى.

لكن العداوة تحولت إلى علاقة تعاون وصداقة؛ فقد تعاون الطرفان عسكرياً ضد بنى مرين عندما استطاعوا إلحاق الهزيمة ببنى مرين وقتل بنو زيان شيخ بنى مرين فى ذلك الوقت وأرسلوا رأسه إلى عبد المؤمن بن على، وفى الوقت الذى كان فيه بنو زيان على درجة من الندية مع الموحدين كان بنو حفص وبنو مرين بالمغرب الأقصى يبذلون جهداً لضرب الموحدين وإسقاط دولتهم وكان عليهم فى نفس الوقت إرضاء بنى زيان

للوقوف فى وجه بنى حفص والاستعانة بهم ضد بنى مرين.

وتم توقيع معاهدة صداقة وتعاون بين بنى زيان والموحدين وكان فحوها أن يلبى يغمراسن نداء الموحدين فى حربهم ضد بنى مرين، ولكن التعاون العسكرى بين بنى زيان والموحدين لم يكتمل ويتخذ خطوات فعلية للتنفيذ وخوض معارك مشتركة فنظراً لأن بنى مرين أدخلوا الخوف فى قلوب بنى زيان للابتعاد عن الموحدين، وإذ كان التعاون العسكرى بين بنى زيان والموحدين لم يكتمل فى عهد الخليفة السعيد إلا أنه اكتمل فى عهد الخليفة الموحدى المرتضى وأبى دبوس.

ويلاحظ أن مرحلة التعاون هذه فإن الموحدين فى عهد المرتضى وأبى دبوس تركوا بنى زيان يحاربون بنى مرين وحدهم، وكان يراود نفس يغمراسن بن زياد أنه كان يريد أن يجعل نفسه الوريث الوحيد للدولة الموحدية حتى يتمكن من تحطيم القوة المنافسة له وهى بنى مرين. لكن امكانيات الدولة الزبانية والمشاكل التى تقف فى طريقه حتى توحيد قبائل المغرب الأوسط وتأمين الجبهة الشرقية ضد عداوات بنى حفص وقلة قواته وانقسام القبائل الزبانية فى المغرب الأوسط ومنها بنو توحين ومغراوة كل هذه العوامل وقفت حجر عثرة فى طريق الوصول إلى الهدف المنشود؛ حيث استطاع بنو مرين أن يرثوا عرش الموحدين وأن تكون لهم السيادة فى المغرب والأندلس وأن يعلنوا الخلافة المرينية ويتخذوا لقب أمير المؤمنين.

وبهذا .. فإن تعاون وعلاقات بنى زيان الطيبة مع الموحدين فى معظم فترات تاريخهم لم تأخذ البعد الذى كان يطمع فيه يغمراسن بن زيان، لكن هذه العلاقة ساعدت على احتفاظ يغمراسن بعرش بلاده والعمل على حفظ التوازن فى العلاقات بين القوى المتصارعة لاسيما أن الحفصيين كانوا يتطلعون إلى المغرب الأقصى وعلى العكس كان بنو مرين يتطلعون إلى المغرب الأدنى والسيطرة على أفريقية بعض الفترات

التاريخية. وفى كل هذه الأحوال كانت هذه القوى عندما تتعرض للهجوم تخطب ود بنى زيان. فكم من مرة عقدت معاهدات صادقة مع الموحدين ومع بنى زيان ومعاهدات صداقة وتعاون مع بنى زيان وبنى حفص ومعاهدات صداقة وحسن جوار مع بنى مرين. ومن هنا استغل يغمراسن علاقته مع الموحدين فى بناء الدولة وتنظيم هيكلها الداخلى وبناء قوة عسكرية عملت لها كل الأطراف المتصارعة الحساب وطلب نجدتها عند الشدة والدخول فى صراع معها عندما تحس بضعف الدولة الزيانية.

علاقات بنى زيان مع مصر

لقد كان دور مصر الواضح فى العلاقات السياسية مع بلاد المغرب ومع بنى زيان فى تلمسان، وقد تنوعت العلاقات بينها وبنى مصر فى العصر المملوكى، والذى ظهر على أشده بعد انتصارات مصر على المغول، والتتار، والصليبيين؛ فقد كانت رابطة الإسلام والتبادل الثقافى ودور الأزهر؛ ثم رابطة الحج باعتبار مصر مجاز الحجاج المغاربة إلى الأراضى الحجازية المقدسة.

وقد أورد ديوان الإنشاء المصرى فى العصر المملوكى صور رسائل متبادلة بين سلاطين المماليك وسلاطين بنى حفص وبنى مرين، وكذلك سلاطين تلمسان من بنى زيان؛ فقد كتب السلطان برقوق الذى كان دائم الاتصال والكتابة إلى سلاطين بلاد المغرب فنجد أنه كتب عام ٧٩٩هـ-١٣٩٧م كتابا إلى كل من أبى العباس أحمد بن محمد بن أبى بكر الحفصى سلطان تونس، وكذلك كتابا آخر فى نفس السنة إلى سلطان تلمسان بن بنى عبد الواد، وكتابا ثالثا إلى السلطان فاس وأنه حمل إلى سلطان تلمسان هدية فاخرة عبارة عن القماش والطيب والقسى، وحمل السلطان أبو زيان بنى

أبى حمو هدية عظيمة عاد بها الرسول المملوكى إلى القاهرة.

ومن هنا فإن العلاقات والصلات المصرية مع أمراء بنى زيان فى تلمسان (الجزائر) قد اتسمت بالمودة والأخوة؛ حيث كما ذكرنا تبادل سلطانها أبو زيان بن أبى حمو الهدايا مع السلطان المملوكى؛ بل أنه حين رغب السلطان برقوق عام ٧٩٩هـ-١٣٩٧م فى شراء الخيول الأصيلة العربية من المغرب بعث برسائل وهدايا إلى صاحب تلمسان أبى زيان بن أبى حمو يطلب ما يحتاج إليه من الخيول وعادت رسل السلطان برقوق محملة بالهدايا ومعها الخيل العتاق المنتقاة، وهكذا .. تعددت العلاقات وازدادت الروابط بين مصر فى عهد السلطان برقوق وابنه فرج وبين سلاطين تلمسان مما يعتبر من أقوى الأدلة والشواهد على وحدة التاريخ العربى الإسلامى.

ويبدو أن عرب ذباب المستقرين فى المنطقة الممتدة من برقة إلى قابس كانوا متخصصين بتجارة الخيول ونقلها من بلاد المغرب الأوسط وأفريقية إلى الدولة المملوكة بالقاهرة؛ حيث يقول ابن سعيد فى كتابة بسط الأرض فى الطول والعرض أن مجالات ذياب من حد قابس إلى برقة ولهم غرام بحمل الخيل إلى الاسكندرية، ويجد منهم الحجاج معونة فى ذلك الطريق الشاق.

وكانت هدايا دولة بنى زيان إلى الدولة المملوكية بمصر الخيول، وذلك عند مرور ركب الحج المغربى بالقاهرة فى طريقه إلى الأراضى المقدسة.

وحرص سلاطين المماليك بمصر على الاستزادة من خيول بلاد المغرب الأوسط وأفريقية لما تمتاز به من الشدة والصبر على المتاعب والسرعة الفائقة؛ فقد كلف السلطان الظاهر برقوق ابن خلدون بالكتابة إلى أبى زيان سلطان تامسان بأن يرسل له الخيل العتاق فأرسل ثلاثين من الجياد العربية الأصيلة، وقد وصلت هدية صاحب تلمسان مع الملوك فطولب المكلف بتربية الخيول.

كذلك ارتبطت مصر تجارياً واقتصادياً مع المغرب الأوسط؛ حيث كانت البلاد والموانئ الساحلية الممتدة من الاسكندرية شرقًا إلى طنجة غرباً كلها مرتبطة بعلاقات تجارية واسعة، ومنها تلمسان وبونة وبجاية والجزائر وشرشال وتنيس ووهران، وقد لعبت هذه الموانئ دوراً فى الترابط الاقتصادى بين مصر وبين دول المغرب وخاصة الواقعة تحت النفوذ الزيانى، وقد أشار المقريزى فى مناسبات كثيرة إلى العلاقات التجارية، التى كانت تربط التجار المغاربة وتجار الأسكندرية، ونظراً لشدة حاجة سلاطين مصر إلى الخيول العربية الأصيلة؛ فقد كانت تصل من المغرب صحبة التجار والرسل الذين يرسلهم السلاطين للمماليك. كذلك كان التجار المصريون يذهبون بمنتجات بلادهم إلى هذه البلاد لبيعها فى بلاد المغرب.

ولعل أكبر دليل على الترابط الاقتصادى بين مصر وبلاد المغرب ذلك العدد الكبير من التجار المصريين والمغاربة الذين كانوا يرحلون سنوياً فى قوافل كبيرة العدد إلى بلاد وسط وغرب القارة الأفريقية لكى يقوموا بعملية التبادل التجارى مع تلك البلاد. ولقد امتاز العصر المملوكى فى مصر بذلك النشاط الاقتصادى الواسع النطاق، ولقد كان سلاطين المماليك قبل سقوط دولتهم عام ١٥١٧م لا يدخرون وسعاً فى تقوية الروابط الاقتصادية بينهم وبين بلاد المغرب.

ولقد كانت الصادرات والواردات تمثل محاولة المجتمع المغربى لسد حاجاته بتصدير الفائض من حاجته واستيراد ما يتطلبه؛ فإن النظرة فى حركة التصدير والاستيراد بين مصر وبلاد المغرب ما هى إلا جزء من حلقة التكامل الاقتصادى بين دول العالم الإسلامى.

ولما كانت مصر طريقاً للحجاج الوافدين من بلاد المغرب فطالما انتهز هؤلاء الحجاج فرصة الحج ليحطوا الرحال بمصر والأزهر فترة طويلة أو قصيرة يغترفون خلالها

أبى حمو هدية عظيمة عاد بها الرسول المملوكى إلى القاهرة.

ومن هنا فإن العلاقات والصلات المصرية مع أمراء بنى زيان فى تلمسان (الجزائر) قد اتسمت بالمودة والأخوة؛ حيث كما ذكرنا تبادل سلطانها أبو زيان بن أبى حمو الهدايا مع السلطان المملوكى؛ بل أنه حين رغب السلطان برقوق عام ٧٩٩هـ-١٣٩٧م فى شراء الخيول الأصيلة العربية من المغرب بعث برسائل وهدايا إلى صاحب تلمسان أبى زيان بن أبى حمو يطلب ما يحتاج إليه من الخيول وعادت رسل السلطان برقوق محملة بالهدايا ومعها الخيل العتاق المنتقاة، وهكذا .. تعددت العلاقات وازدادت الروابط بين مصر فى عهد السلطان برقوق وابنه فرج وبين سلاطين تلمسان مما يعتبر من أقوى الأدلة والشواهد على وحدة التاريخ العربى الإسلامى.

ويبدو أن عرب ذباب المستقرين فى المنطقة الممتدة من برقة إلى قابس كانوا متخصصين بتجارة الخيول ونقلها من بلاد المغرب الأوسط وأفريقية إلى الدولة المملوكة بالقاهرة؛ حيث يقول ابن سعيد فى كتابة بسط الأرض فى الطول والعرض أن مجالات ذباب من حد قابس إلى برقة ولهم غرام بحمل الخيل إلى الاسكندرية، ويجد منهم الحجاج معونة فى ذلك الطريق الشاق.

وكانت هدايا دولة بنى زيان إلى الدولة المملوكية بمصر الخيول، وذلك عند مرور ركب الحج المغربى بالقاهرة فى طريقه إلى الأراضى المقدسة.

وحرص سلاطين المماليك بمصر على الاستزادة من خيول بلاد المغرب الأوسط وأفريقية لما تمتاز به من الشدة والصبر على المتاعب والسرعة الفائقة؛ فقد كلف السلطان الظاهر برقوق ابن خلدون بالكتابة إلى أبى زيان سلطان تامسان بأن يرسل له الخيل العتاق فأرسل ثلاثين من الجياد العربية الأصيلة، وقد وصلت هدية صاحب تلمسان مع الملوك فطولب المكلف بتربية الخيول.

كذلك ارتبطت مصر تجارياً واقتصادياً مع المغرب الأوسط؛ حيث كانت البلاد والموانئ الساحلية الممتدة من الاسكندرية شرقاً إلى طنجة غرباً كلها مرتبطة بعلاقات تجارية واسعة، ومنها تلمسان وبونة وبجاية والجزائر وشرشال وتنيس ووهران، وقد لعبت هذه الموانئ دوراً فى الترابط الاقتصادى بين مصر وبين دول المغرب وخاصة الواقعة تحت النفوذ الزيانى، وقد أشار المقريزى فى مناسبات كثيرة إلى العلاقات التجارية، التى كانت تربط التجار المغاربة وتجار الأسكندرية، ونظراً لشدة حاجة سلاطين مصر إلى الخيول العربية الأصيلة؛ فقد كانت تصل من المغرب صحبة التجار والرسل الذين يرسلهم السلاطين للمماليك. كذلك كان التجار المصريون يذهبون بمنتجات بلادهم إلى هذه البلاد لبيعها فى بلاد المغرب.

ولعل أكبر دليل على الترابط الاقتصادى بين مصر وبلاد المغرب ذلك العدد الكبير من التجار المصريين والمغاربة الذين كانوا يرحلون سنوياً فى قوافل كبيرة العدد إلى بلاد وسط وغرب القارة الأفريقية لكى يقوموا بعملية التبادل التجارى مع تلك البلاد. ولقد امتاز العصر المملوكى فى مصر بذلك النشاط الاقتصادى الواسع النطاق، ولقد كان سلاطين المماليك قبل سقوط دولتهم عام ١٥١٧م لا يدخرون وسعاً فى تقوية الروابط الاقتصادية بينهم وبين بلاد المغرب.

ولقد كانت الصادرات والواردات تمثل محاولة المجتمع المغربى لسد حاجاته بتصدير الفائض من حاجته واستيراد ما يتطلبه؛ فإن النظرة فى حركة التصدير والاستيراد بين مصر وبلاد المغرب ما هى إلا جزء من حلقة التكامل الاقتصادى بين دول العالم الإسلامى.

ولما كانت مصر طريقاً للحجاج الوافدين من بلاد المغرب فطالما انتهز هؤلاء الحجاج فرصة الحج ليحطوا الرحال بمصر والأزهر فترة طويلة أو قصيرة يغترفون خلالها

العلم والمعرفة من الأزهر ويتعرفون على الحضارة الإسلامية التى كانت مزدهرة بالقاهرة، وهكذا .. كان دور مصر ودور الأزهر واسعاً فى المغرب.

ولقد كان رواق المغاربة من بين الأروقة المشهورة الكبيرة فى الأزهر الشريف؛ حيث كان يتخرج فى هذه الأروقة العلماء الذين كانوا يرحلون إلى المغرب، وبعض منهم يفضلون البقاء للتدريس فى الأزهر. وقد وصل العديد من علماء بلاد المغرب إلى تولى منصب مشيخة الأزهر، وأخذ هؤلاء العلماء المغاربة يتعاونون مع رفقائهم المصريين فى حمل رسالة العلم فى الأزهر.

وعلى الجانب الآخر؛ فقد لعبت مدينة تلمسان عاصمة دولة بنى زيان بمدارسها ومعاهدها المختلفة التى أنشأها سلاطين بنى زيان دوراً كبيراً فى إثراء حركة الثقافة المغربية وفى جميع الحياة الثقافية على أرض المغرب ذلك لأن تلمسان منارة أخرى من منارات الفكر الإسلامى كما أنها لعبت دوراً ثقافياً مؤثراً فى المغرب الأوسط؛ بل دوراً مماثلاً فى خدمة الإسلام جنوب الصحراء الكبرى، إنها شاركت القيروان وفاس والمدارس الإسلامية الأخرى على أرض المغرب فى بسط الثقافة العربية الإسلامية، كما أن كثيراً من علماء تلمسان ساهموا فى بناء حركة الفكر والثقافة العربية الإسلامية فى البلاد العربية المجاورة، ومن ذلك رحيل الشيخ التلمسانى المغربى إلى السودان؛ حيث نزل على الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب، وكان له باع طويل فى العقائد فجذب إليه المريدين من أنحاء مملكة الفونج.

وهكذا .. يكون الدور الذى لعبته مصر فى إثراء الحركة الثقافية هو الدور الواضح. وأن كل المؤشرات الإسلامية وإن كانت قدمت من الجزيرة العربية إلا أنها طبعت بالطابع المصرى فى كثير من الأمور، ومن هنا شد أبناء المغرب الرحال إلى القاهرة؛ حيث كان الجامع الأزهر أكثر قدرة على العطاء لاسيما فى المذهب المالكى

الذى كان مذهب أهل المغرب جميعاً فسواء فى المغرب الأدنى والأوسط والأقصى. وهكذا .. ظهر مذهب مالك بصورة قوية ومن ثم بدأ يتغلب على المذاهب الأخرى واشتد سلطان الفقهاء والمغاربة المالكين فى الحياة الثقافية، وهكذا كان لمصر دور خاص فى تغذية فقه مالك عن طريق الفقهاء المغاربة الذين درسوا المذهب المالكى بالقاهرة فى العصر المملوكى.

وهكذا .. كان لمصر أثر بعيد فى إثراء الحركة العلمية الثقافية والدينية فى بلاد المغرب وامتداد من حدود مصر الغربية مروراً بكل أقطار المغرب وصولاً على طنجة على شاطئ المحيط الأطلسى، وهكذا .. أعطت مصر فأجادت العطاء، ومنحت فكرها وثقافتها فآتت ثمارها طيبة وظلالاً وارفة فى أرض المغرب؛ حيث كان لمصر ثقلها السياسى والحضارى والثقافى.

لكن صلات مصر ببلاد بنى زيان الاقتصادية والثقافية والعلمية كانت أوثق منها سياسية؛ حيث رحيل أبناء تلمسان والمدن الأخرى طلباً للعلم والتجارية والتبادل الثقافى والاقتصادى بين مصر والدولة الزيانية خلال العصر المملوكى وحتى سقوط حكمهم تحت ضربات العثمانيين عام ١٥١٧م.

* * * *

علاقات بنى زيان مع الأندلس

لم يتخذ سلاطين بنى زيان منذ قيام دولتهم حتى سقوطها مبدأ الجهاد الإسلامى فى الأندلس للدفاع عن حقوق المسلمين فى هذه الديار وطردهم منها هدفًا أساسيًا أو جانبًا من سياستهم، إذ أنه خلال تاريخهم الطويل لم تشارك الدولة اليغراسينية بقوات عسكرية أو حشود مجاهدة من المتطوعين للدفاع عن كيان الأندلس؛ بينما ان دولة بنى مرين فى الغرب كان سلاطينها قد وضعوا فلسفة الجهاد الإسلامى نصب أعينهم منذ اللحظة الأولى لتكوين دولتهم، وبهذه السياسة الجهادية فى الأندلس .. فإن بنى مرين يتميزون عن غيرهم من الحفصيين وبنى زيان الذين لم تكن لديهم هذه السياسة للعمل والجهاد فى سبيل الله فى الميدان الأندلسى.

بل إن يغمراسن رفض أن يتعاون مع أبى يوسف بن يعقوب بن عبد الحق فى إنقاذ الجبهة الإسلامية فى الأندلس بعد أن شرح له ابن عبد الحق حقيقة الأمر بالأندلس وأن يغمراسن بن زيان لم يفهم طبيعة الأحداث السياسية التى تمر بها الأندلس، لكن الذى يدرس هذا الفصل فى العلاقات بين الأندلس وبنى زيان يدرك أن ابن زيان كان يأخذ سياسة مخالفة لبنى مرين فى الأندلس فقد لعبت الدولة الزيانية دورًا فى الأندلس وتعاونت مع بنى الأحمر فى غرناطة وشاركت فى حركة الجهاد بإرسال المؤن والغذاء والعدد والخيول وكل ما يطلب منها فيما عدا القوات العسكرية لأنه كان يخشى بنى حفص وبنى مرين فى وقت واحد. ومن هنا كان حذره فى المشاركة فى حركة الجهاد فى الأندلس.

ولقد تأثرت علاقات بنى زيان بالأندلس بالأوضاع السياسية التى سادت منطقة العالم الإسلامى أثر انهيار الدولة الموحدية فى المغرب وما ترتب على انهيارها من فوضى فى المغرب والأندلس مما أعطى أعداء الإسلام الفرصة المواتية للقضاء على الوجود

الإسلامى بعد معركة العقاب ٦٠٩هـ؛ حيث بدأت المعاقل الإسلامية الأندلسية تتساقط تباعاً تحت ضربات القوى النصرانية التى لم تجد جبهة إسلامية موحدة تستطيع الوقوف أمام الهجوم المسيحى القادم من الشمال. وقاسى الأندلسيون أنواعا عديدة من الاضطهادات. لكن بقيت أجزاء فى جنوب الأندلس تكونت منها مملكة غرناطة والتى أسسها بنو الأحمر واتخذ ملوك غرناطة مواقف متناقضة مع النصارى فتارة يتحالفون مع بنى مرين وتارة يتحالفون مع بنى زيان ضد بنى مرين وتارة أخرى يتحالفون مع النصارى ضد الوجود المرينى. وهذه الخلافات خلقت علاقات ذات هدف مشترك بين بنى زيان وبنى الأحمر.

ولقد كان بنو الأحمو وبنو اشقيليولة اصهاراً وحلفاء وعندما استنجد بنو الأحمر ببنى مرين فى حروبهم ضد نصارى الأندلس وقف بنو أشفيولة إلى جانبهم فى جهادهم فكان أن توثقت علاقاتهم ببنى الأحمر لكن ازدياد النفوذ المرينى فى الأندلس واستيلاءهم على ممتلكات بنى اشقيلولة وتوسيع نطاق الجهاد فى الجبهة الأندلسية وخشية بنى الأحمر على عرشهم وكيانهم لا على الوجود الإسلامى فى الأندلس، ومن هنا بدأ الخلاف يأخذ طابعا شخصيا وليس تفضيل المصلحة الإسلامية العليا، فتحالف بنو الأحمر مع النصارى عام ٦٧٧هـ/١٢٧٨م ضد بنى مرين؛ فإنهم عملوا على الاتصال ببنى زيان فى المغرب لمعرفتهم بالعداوة التقليدية بين الطرفين وجذور الصراع العميق بين الطرفين وتعدد المعارك بين يغمراسن بن زيان وأبى يوسف يعقوب بن عبد الحق؛ حيث كانت مطالب بنى الأحمد من بنى زيان تتمثل فى ضرورة تعاون بنى زيان معهم لضرب القوة المرينية بالمغرب وتبادل معهم الهدايا واتفق الطرفان على أن يقوم يغمراسن بن زيان بمهاجمة حدود الدولة المرينية الشرقية حتى يصرف أبا يوسف عن العبور إلى الأندلس، ولقد رأى أبو يوسف المرينى أن يتجه إلى يغمراسن بن زيان

علاقات بني زيان مع الأندلس

لم يتخذ سلاطين بنى زيان منذ قيام دولتهم حتى سقوطها مبدأ الجهاد الإسلامى فى الأندلس للدفاع عن حقوق المسلمين فى هذه الديار وطردهم منها هدفاً أساسياً أو جانباً من سياستهم، إذ أنه خلال تاريخهم الطويل لم تشارك الدولة اليغراسينية بقوات عسكرية أو حشود مجاهدة من المتطوعين للدفاع عن كيان الأندلس؛ بينما ان دولة بنى مرين فى الغرب كان سلاطينها قد وضعوا فلسفة الجهاد الإسلامى نصب أعينهم منذ اللحظة الأولى لتكوين دولتهم، وبهذه السياسة الجهادية فى الأندلس .. فإن بنى مرين يتميزون عن غيرهم من الحفصيين وبنى زيان الذين لم تكن لديهم هذه السياسة للعمل والجهاد فى سبيل الله فى الميدان الأندلسى.

بل إن يغمراسن رفض أن يتعاون مع أبى يوسف بن يعقوب بن عبد الحق فى إنقاذ الجبهة الإسلامية فى الأندلس بعد أن شرح له ابن عبد الحق حقيقة الأمر بالأندلس وأن يغمراسن بن زيان لم يفهم طبيعة الأحداث السياسية التى تمر بها الأندلس، لكن الذى يدرس هذا الفصل فى العلاقات بين الأندلس وبنى زيان يدرك أن ابن زيان كان يأخذ سياسة مخالفة لبنى مرين فى الأندلس فقد لعبت الدولة الزيانية دوراً فى الأندلس وتعاونت مع بنى الأحمر فى غرناطة وشاركت فى حركة الجهاد بإرسال المؤن والغذاء والعدد والخيول وكل ما يطلب منها فيما عدا القوات العسكرية لأنه كان يخشى بنى حفص وبنى مرين فى وقت واحد. ومن هنا كان حذره فى المشاركة فى حركة الجهاد فى الأندلس.

ولقد تأثرت علاقات بنى زيان بالأندلس بالأوضاع السياسية التى سادت منطقة العالم الإسلامى أثر انهيار الدولة الموحدية فى المغرب وما ترتب على انهيارها من فوضى فى المغرب والأندلس مما أعطى أعداء الإسلام الفرصة المواتية للقضاء على الوجود

الإسلامى بعد معركة العقاب ٦٠٩هـ؛ حيث بدأت المعاقل الإسلامية الأندلسية تتساقط تباعًا تحت ضربات القوى النصرانية التى لم تجد جبهة إسلامية موحدة تستطيع الوقوف أمام الهجوم المسيحى القادم من الشمال. وقاسى الأندلسيون أنواعا عديدة من الاضطهادات. لكن بقيت أجزاء فى جنوب الأندلس تكونت منها مملكة غرناطة والتى أسسها بنو الأحمر واتخذ ملوك غرناطة مواقف متناقضة مع النصارى فتارة يتحالفون مع بنى مرين وتارة يتحالفون مع بنى زيان ضد بنى مرين وتارة أخرى يتحالفون مع النصارى ضد الوجود المرينى. وهذه الخلافات خلقت علاقات ذات هدف مشترك بين بنى زيان وبنى الأحمر.

ولقد كان بنو الأحمو وبنو اشقيليولة اصهارًا وحلفاء وعندما استنجد بنو الأحمر ببنى مرين فى حروبهم ضد نصارى الأندلس وقف بنو أشفيولة إلى جانبهم فى جهادهم فكان أن توثقت علاقاتهم ببنى الأحمر لكن ازدياد النفوذ المرينى فى الأندلس واستيلاءهم على ممتلكات بنى اشقيلولة وتوسيع نطاق الجهاد فى الجبهة الأندلسية وخشية بنى الأحمر على عرشهم وكيانهم لا على الوجود الإسلامى فى الأندلس، ومن هنا بدأ الخلاف يأخذ طابعا شخصيا وليس تفضيل المصلحة الإسلامية العليا، فتحالف بنو الأحمر مع النصارى عام ٦٧٧هـ/١٢٧٨م ضد بنى مرين؛ فإنهم عملوا على الاتصال ببنى زيان فى المغرب لمعرفتهم بالعداوة التقليدية بين الطرفين وجذور الصراع العميق بين الطرفين وتعدد المعارك بين يغمراسن بن زيان وأبى يوسف يعقوب بن عبد الحق؛ حيث كانت مطالب بنى الأحمد من بنى زيان تتمثل فى ضرورة تعاون بنى زيان معهم لضرب القوة المرينية بالمغرب وتبادل معهم الهدايا واتفق الطرفان على أن يقوم يغمراسن بن زيان بمهاجمة حدود الدولة المرينية الشرقية حتى يصرف أبا يوسف عن العبور إلى الأندلس، ولقد رأى أبو يوسف المرينى أن يتجه إلى يغمراسن بن زيان

حليف بنى الأحمر والفشتالين النصارى الذين أرسلوا سفنهم للجزيرة الخضراء وحطمها أسطول بنى مرين، فقاد حملة تأديبية ضده وتمكنت هذه الحملة من هزيمة يغمراسن ولاحقته وقضت على مقاومته قرب تلمسان وكان سبب هذه الحملة التأديبية أن يغمراسن قام بالعدوان على حدود المغرب الأقصى وخربت هذه الغارات بعض المدن والضواحي وذلك لانشغال بنى مرين فى حركة الجهاد ومحاولة إبعادهم عن دورهم التاريخى فى الجهاد الإسلامى فى الأندلس.

وأكثر من ذلك فإن يغمراسن بن زيان أرسل إلى بنى الأحمر عدداً من الخيول العتاق قدرتها المصادر بأكثر من ثلاثمائة فرس مع الملابس الصوفية واستمر فى غاراته على أطراف المغرب الأقصى.

وإذ كان بنو الأحمر حكام غرناطة هم الذين بدأوا علاقاتهم ومراسلتهم ببنى زيان واستنجدوا بهم ضد بنى مرين .. فإن المواقف تقتضى التعاون والمساندة، ومن ذلك فإن بنى زيان عندما أحسوا بقوة الخطر المرينى واستعدادات ابن عبد الحق المرينى القوية وحشده الجيوش الجرارة وحرصه على التدمير والزحف إلى تلمسان؛ فإن يغمراسن استنجد ببنى الأحمر وكان لبنى الأحمر نفوذ كبير على الدولة المرينية أو على الأقل تعاون ومصالح مشتركة على أرض الأندلس. فحث ابن الأحمر أبا العباس المرينى عن كف يده عن حرب ابن زيان، لكن السلطان المرينى أصر على الزحف على تلمسان واستولى عليها.

وعندما حدث الخلاف فى البيت المرينى بن العباس وموسى بن عنان، جهز بنو الأحمر جيشاً لمؤازرة أبى عنان ونزل الجيش الغرناطى سبتة عام (٧٥٦هـ/١٣٨٤م)، وتوجه إلى فاس واستولى عليها، وقد كان لدخول الجيش الغرناطى أثره فى مساعدة أبى حمو الثانى الزيانى فى العودة إلى عرش بلاده من جديد؛ حيث رفع بنو مرين الحصار

عن تلمسان فور سماعهم أنباء الجيش الغرناطى وسقوط فاس.

والذى يتابع خطوات التعاون بين بنى زيان وبنى الأحمر فى الأندلس يتبين له أن هذا التعاون لم يحدث إلا فى فترة حكم سلطانين فقط من سلاطين بنى الأحمر، هما أبو عبد الله محمد الملقب بالفقيه والثانى هو محمد بن السلطان بن الحجاج يوسف الملقب بالغنى بالله.

وان التعاون بين بنى زيان وبنى الأحمر لم يكن لأجل المصلحة الإسلامية وحركة الجهاد وضد العدو الذى عاث فى أرض الأندلس فساداً وقتلاً وحرقاً وتدميراً وإكراهاً على العدول عن دين الإسلام الخالد، ولم يكن هذا التعاون إلا لضرب قوة بنى مرين القوة الوحيدة التى وقع عليها عبء الجهاد فى الأندلس فى تلك الفترة من فترات تاريخ الإسلام فى الأندلس ولو وجدت هذه الحركة المؤازرة الكامنة من قبيل بنى الأحمر وبنى زيان، وبنى حفص، والقوى الإسلامية الأخرى .. لتغير وجه الإسلام فى الأندلس.

ولكن مهما يكن فقد نشأت العلاقات بين بنى زيان وبنى الأحمر فإنها لم تتعد إمدادات مالية ومواد غذائية من بنى زيان دون الإمدادات العسكرية بالرجال والسلاح، ويبدوا أن بنى زيان كانوا يخشون على أنفسهم الجهاد والمشاركة فى كفاح أهل الأندلس تاركين بلادهم التى يطمع فيها بنو حفص فى أفريقية وبنو مرين بالمغرب الأقصى على السواء، كما يمكن أن يكون بعد المسافة عاملاً آخر من عوامل الحيلولة دون إرسال إمدادات عسكرية وقوات حربية.

إضافة إلى أن دولة بنى زيان لم تكن دولة بحرية، ولم يكن لها الأسطول الذى يعتد به ويملك القدرة على الاشتراك فى قتال بحرى، ونقل إمدادات وقوات حربية أو

متطوعين؛ بل كانت دولة برية ولم يشر أحد من المؤرخين إلى وجود أسطول بحرى زيانى. لكن الظروف المحيطة كانت أقوى من فكر الدولة فى الاشتراك فى الجهاد.

ولقد كان الأحرى ببنى الأحمر فى غرناطة أن يطلبوا من بنى زيان المشاركة فى حركة الجهاد والتعاون مع اخوانهم بنى مرين بدلاً من طلب الاعتداء على حدود بنى مرين واشغالهم عن التحرك للجبهة الأندلسية لكن هكذا تضيع أرض الإسلام ويخسر الإسلام أرضاً نتيجة جهل حكام المسلمين بالمسئولية التاريخية الملقاة عليهم وتبعية الشعوب المضطهدة ورعايتها. وهكذا .. كانت صفحة العلاقات الزيانية وبنى الأحمر ضد الإسلام وليس لصالح قضايا المسلمين فى الأندلس.

علاقة بنى زيان مع بلاد جنوب الصحراء الكبرى

كانت تلمسان مركز هذه الدولة. وكانت مدينة كبيرة تقع على شاطئ البحر المتوسط ويربطها طريق صحراوى ينتهى إليها، ومن هنا تأتيها تجارة السودان من العاج والرقيق والذهب يتبادلها التجار مع صوف تلمسان وسلاحها ومخطوطاتها وأنها كانت محطة للتجارة الأوربية مع أفريقيا السوداء.

لقد لعبت تجارة هذه البلاد عنصراً هاماً فى التجارة التلمسانية (دولة بنى زيان)، إذ كان تجار بلاد السودان الأوسط يأتون من السودان وهم حاملين معهم كميات كبيرة من الذهب، وذلك إلى جانب أن تجارة السودان حققت لهم الوفير من الربح مما ساعد على بقاء دولتهم ككيان سياسى أطول فترة ممكنة.

ولقد كان موقع تلمسان الفريد على ساحل البحر المتوسط مما جعلها فى نظر سكان بلاد المغرب تكون البلاد الواقعة فى حوض السنغال والنيجر. وقد تأكدت هذه

الصلات عن طريق التجارة الصحراوية ونشاط القوافل التى كانت تجوب هذه الصحارى حاملة معها المنسوجات وغيرها من منتجات بلاد المغرب.

ولقد كان موقع تلمسان الفريد على ساحل البحر المتوسط ما جعلها مركزاً لتجميع البضائع القادمة من جنوب أوربا وكذلك البضائع القادمة من بلاد السودان.

وكان هناك طريق يتجه من تلمسان جنوباً عبر الصحراء إلى واحة قوات ثم إلى مدينة تمبكتو ويتفرع بعد ذلك فى الاتجاه الجنوبى الشرقى فى سلطنة البرتو كانم، وإلى مالى غرباً ثم يتجه جنوباً حيث مدينة جنى وجاو عاصمة سلاطين سنغاى، ولقد كانت ثروة البلاد كما قال عنها سلطان بنى زيان أثناء زيارة الحسن الوزان ١٥٤٠م تأتى من التجارة مع بلاد السودان وما حققته من ثراء هى سبب ثروة مملكته.

وقد لعبت تلمسان دوراً كبيراً فى ربط الطرق المتجهة إلى الجنوب عبر توات إلى تمبكتو؛ حيث كانت مهمة التجار المقيمين بها استقبال السلع الأوربية القادمة من جنوب أوربا والمدن الإيطالية وتصدير هذه السلع إلى بلاد السودان لتسويقها فى بلاد السودان؛ ثم بعد ذلك تتجه البضاعة إلى سكان الغابات فى الجنوب ونظراً لأهية تلمسان فقد تمكن التجار البنادقة والجنوبوين من إقامة فنادق لهم بها وكذلك مستودعات لبضائعهم وكان يتردد عليها جمع كبير من تجارهم وقناصلهم.

ولقد كانت المناطق القريبة من المغرب منطقة مرور للتجارة عبر الصحراء إما إلى موانئ البحر المتوسط أو إلى الجنوب وكانت الطرق الجبلية بصفة عامة تتمركز فى ثلاثة مراكز تجارية فى اغمات وفاس وتلمسان ثم تنطلق الطرق الجبلية إلى السودان.

ولقد ارتبط سلاطين بنى زيان بعلاقات ودية مع سلاطين كانم وبرتو وسنغاى ومالى، ويتبادلوا معهم الهدايا والرسائل وكانت العلاقات متصلة عبر الطرق الصحراوية وكان طلاب من هذه البلاد يفدون إلى تلمسان لتلقى العلم فى مدارسها ومعاهدها

الدينية التى بذل لها سلاطين بنى زيان الكثير من الرعاية وحسن اختيار الأساتذة والعاملين بها.

كما أن ركب حجيج بلاد السودان الغربى كان يجد فى طريقه إلى الحج كل مساعدة وعون له عند المرور بمدينة تلمسان، وكان بعض أبناء هذه الأقطار بفضل الإقامة النهائية بالمدينة وعدم العودة تكسباً للعمل أو للدراسة فى مسجدها الجامع الكبير الذى أقامه يغمراسن بن زيان أو لتلقى علوم الطب الذى فاقت فيه المدينة كل المدن المغربية حتى أن بعض المصريين قدموا من القاهرة لتلقى علوم الطب على أيدى أساتذة تلمسان، وقد نبغ كثير من الأساتذة التلمسانيين الذين ذاع صيتهم فى بلاد العالم الإسلامى وهما العلم والحضارة فى المغرب خلال العصور الوسطى، ومهما يكن من ضعف أسرة بنى زيان فإنها جعلت من تلمسان حضارة رئيسية ومركزاً لبلاد مالى وبرنو كانم وسنغاى، الرحال إلى تلمسان طلباً للعلم وتلقياً لعلومه التى ازدهرت فيها الثقافة الإسلامية وانتشر المذهب الملكى مذهب بلاد السودان وتأسست فيها كثير من الطرق الصوفية الشهيرة التى انتشرت بدورها فى بلاد السودان.

وكانت بلاد بنى زيان بها الموانئ المشهورة ميناء وهران، والمرسى الكبير، وكان يقصد هذين الميناءين عادة الكثير من التجار الجنوبيين والبنادقة الذين كانوا يزاولون فيها التجارة الكبرى عن طريق المقايضة، وقد أدى ذلك إلى حدوث حركة كبيرة فى تجارة السلع فى المملكة، وذلك لأنها كانت تؤلف محطة على الطرق المؤدية لبلاد السودان.

ولقد كانت تلمسان محطة وصول طلاب السودان؛ حيث كان يوجد فى المدينة القضاة والمحامون والعديد من كتاب العدل الذين يتدخلون فى الدعاوى، ونرى فيها أيضاً

الكثير من الطلبة والأساتذة فى مختلف المواد، سواء فى الشرع أو العلوم الطبيعية، وكانت بها خمس مدارس تشبه جامعات العصر الحديث، أو الكليات المتخصصة، وهى تكفل أمر معيشتهم بانتظام.

وطوال تاريخ بنى زيان الطويل الذى امتد أكثر من ثلاثة قرون تواصل دورها الحضارى والثقافى والاقتصادى مع بلاد جنوب الصحراء الكبرى ووفد إليها التجار والطلاب ورجال الإدارة لكى يتعلموا فى مدارس ومعاهد تلمسان، التى كانت توفر سبل المعيشة لطلاب الدراسة وانتشر نظام دراسة المذهب المالكى على نطاق واسع فى عصر بنى زيان الذين أولوا العلم والثقافة دوراً هاماً حتى أننا نجد أن بعض سلاطينهم وهو السلطان أبا حمو بن زيان العبد الوادى يقوم بتأليف كتاب واسطة السلوك فى سياسة الملوك. ويحرص على حضور مجالس العلم والفقه والدين، ويشهد مناظرة الشعر والشعراء، ووصلة الشعراء من كل جانب.

وقد كان عصر موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بنى يحيى يغمراسن بن زيان (٧٥٣-٧٩١هـ/١٤٥٢-١٣٨٩م) أزهى عصور الدولة (أبو حمو بن زيان)، وكان له أثر كبير فى ذلك الازدهار الحضارى الذى نعمت به تلمسان حتى صارت صورة متحضرة وراقية، ويبدو من تاريخ هذا السلطان أنه كان قبل كل شىء أديباً وفيلسوفاً وشاعراً وفناناً فى نفس الوقت، وقد أحاطت به طبقة من الكتاب والشعراء، ومنهم الكاتب يحيى بن خلدون (٧٨٠هـ/١٣٧٨م)، وهو مؤلف كتاب بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد، أن هذه النهضة العلمية الأدبية والفكرية والإسلامية شدت انتباه أبناء السودان الأوسط والغربى فشدوا الرحال إلى تلمسان نهلاً من فكرها وعطائها العلمى الفياض الذى تخصص له جهابذة الفكر المالكى والعلمى.

ومن هنا .. ارتبطت تلمسان عاصمة بنى زيان برباط سياسى واقتصادى وثقافى وحضارى وعلمى مع بلاد السودان جنوب الصحراء الكبرى وأدت دورها على أتم أداء؛ فى نشر حضارة الإسلام وثقافته بين شعوب هذه الأنحاء من القارة الأفريقية.

* * * *

الفصل السادس

النشاط الحضارى والثقافى والاقتصادى للدولة

شهد بنو زيان فى ظل دولتهم نظاماً سياسياً دقيقاً تمثل فى عدة مناصب؛ حيث عرفوا الحاكم الذى اتخذ لقب أمير المؤمنين، ثم لقب السلطان، ثم لقب الخليفة، وأمير المسلمين، وكان السلطان يتولى الحكم عن طريق عهد من سابقيه.

وكان السلطان يعيش وفق مراسم دقيقة؛ فهو لايظهر إلا بالنسبة للكبار ولشخصيات بلاطه الرئيسية ولا يستقبل أحدا سواهم وهم الذين يصرفون الأمور حسب النظام السائد وفى هذا البلاط مناصب ودواوين عديدة والشخصية الأولى فى البلاد السلطانى هو القائد الذى يحدد رواتب كل واحد قدر كفاءته وهو الذى يقود الجيش ويكون أحيانًا على رأس الجيوش بجانب السلطان نفسه، والشخصية الثانية هو الكاتب الأول الذى يكتب ويجيب باسم الملك (ديوان الإنشاء) والخازن الذى يتسلم أموال السلطان ويحتفظ بها والعائدات السلطانية. ثم قائد الباب ومهمته حراسة القصر والذات السلطانية فى حالة الاستقبال وهناك وظائف أقل أهمية كوظيفة رئيس الاسطبلات أو قائد الحرس ورئيس التشريعات، ولا يظهر لهذا الأخير عمل إلا فى حالة استقبال السلطان لزواره.

إضافة إلى الوزير، الحاجب، القضاه العمال، شيوخ المدن، الحاميات الشرفية، وكانت تلمسان تعيش بها الشخصيات ذات المناصب الكبيرة وكانت السلطة ترجع إلى فرد من بنى زيان.

وتلمسان مدينة كبيرة وعاصمة السلطة وفى عهد حكم أسرة بنى زيان توسعت

تلمسان، وقد كانت تحوى ست عشرة ألف أسرة فى عهد السلطان أبى تاشفين عبد الرحمن الأول (٧١٨-٧٣٧هـ/١٣١٨-١٣٥٢م)، وبلغت درجة سامية من الازدهار وتكاثر عدد سكانها، وتوزع فيها كل المهن وأصناف التجارة بين مختلف الأحياء ويوجد بها بضعة جوامع ومساجد جميلة معتنى بها بصورة حسنة، ولها أئمة وخطباء، كما تحوى أيضاً خمس مدارس بديعة حسنة البنيان وقد شيد بعضها سلاطين تلمسان والبعض الآخر سلاطين فاس وتوجد بها بضع حمامات كبيرة من كل المستويات وتوجد بها بضعة فنادق حسب الطراز العربى الإسلامى، ومن بينها اثنان لسكنى التجار البنادقة والجنوبين. ويوجد فى المدينة موارد عديدة للماء وأسوارها عالية وبها خمسة أبواب شديدة الاتساع وفى جوف هذه الأبواب حجرات صغيرة يقيم فيها الموظفون والحراس ويقع القصر السلطانى وسط العاصمة وتحيط به أسوار مرتفعة على غرار القلاع وهو يحوى قصورا أخرى ولكنها متقنة البناء جداً مع هندسة رائعة (طراز أندلسى)، وتوجد خارج تلمسان عدة كور بديعة بها منازل غاية فى الأناقة.

وينقسم سكان تلمسان إلى أربع طبقات صناع وتجار وطلبة وجنود، وتجارها رجال شرفاء ومخلصون وشرفاء فى معاملتهم ويعملون جاهدين لجعل مدينتهم جيدة التموين وسفرهم الرئيسى نحو بلاد السودان وهم أغنياء جداً وعساكر السلطان رجال مختارون ويتقاضون أجوراً مرتفعة، والطلاب هم أفقر سكان المدينة لأنهم يعيشون فى مدارسهم بصورة بائسة وبعد أن يحصل أحدهم على الشهادة النهائية يعين أستاذاً أو كاتب عدل أو إماماً، وتجار تلمسان وأهلها ذوو هندام جيد ويكتسى الطلاب حسب حالتهم المادية وسارت الدولة على نظام ولاية العهد واعتمد بعض الأمراء على القوة فى الوصول إلى السلطة كما حدث فى عهد أبى سعيد وأبى ثابت وادى عبد الرحمن بن يغمراسن.

وكانت الوزارة تأخذ شكلاً وراثياً والسلطة القضائية يتولاها قاضى القضاة والسلطة العسكرية قائد الجيش، وكان حاكم الدولة هو الذى يقود الجيوش بنفسه، وهناك وظائف أخرى فى كل مدينة أو محافظة كالمحافظ وهو الوالى المحتسب، والحاجب وكان معروفاً فى الدولة الزيانية منذ نشأتها الأولى وكان الجيش بعد عمود الدولة الزيانية ووسيلة الدفاع عنها واتساع رقعتها وتمتد سلطنة تلمسان على مسافة خمسمائة وثلاثين ميلا من الشرق إلى الغرب ولكنها ضيقة جداً من الشمال إلى الجنوب؛ فبين البحر المتوسط وبين تخوم صحراء نومديا لايوجد إلا بعض النقاط سوى مسافة لاتزيد عن خمسة وعشرين ميلاً بين نهر الملوية ووادى الصمام، وهذا هو السبب الذى جعل هذه السلطنة معرضة للهجوم من جانب العرب الذين يسكنون الجزء المجاور من الصحراء ولا يوجد بها سوى القليل من المدن والقصور غير أن هذه المدن تكون مزدهرة.

وقد اعتمدت الدولة الزيانية فى اقتصادها على الزراعة والصناعة والتجارة والثروة الحيوانية؛ بالإضافة إلى موارد أخرى واهتمت الدولة بهذه الأمور وأولتها عناية خاصة وإنتاج السلطنة قليل، وبالتالى .. فهى قليلة السكان، ولكن نظراً لأنها محطة بين أوربا وأفريقيا جنوب الصحراء فإن السلطان يحصل على دخل كبير من جراء حركة التصدير والاستيراد وظلت السلطنة فترة طويلة من السنين تحقق دخلاً كبيراً، وقد اهتمت الدولة بصناعة الصفن والمنسوجات والتطريز والبحث عن الثروة المعدنية، وكان لموقع الدولة الزيانية فى المغرب الأوسط أثر كبير فى ازدهار الحركة التجارية؛ بحيث يعتبر المغرب الأوسط حلقة اتصال بين شرقى وغرب المغرب.

وشهد المغرب الأوسط فى عهد الدولة الزيانية نشاطًا عمرانياً ملحوظًا تنوعت فيه الاتجاهات العمرانية فشملت الضواحى وزادت المبانى الدينية والثقافية والعسكرية. وقد

اهتم أمراء الدولة بالناحية الدينية فى نشاطهم العمرانى؛ ففى عهد يغمراسن بن زيان بنيت صومعتان، إضافة إلى الجامعين الأعظمين بمدينة تلمسان ذات الزخارف التى من صنع أندلسى ومحراب المسجد كمحراب مسجد قرطبة وذلك من أثر اتصال حضارة المغرب بالأندلس.

واهتمت الدولة فى عهد أبى سعيد عثمان بن يغمراسن ببناء مسجد أبى الحسن (٦٩٦هـ/١٢٩٦م)، واجتمع على أن عهد أبى تاشفين الأول يعتبر عصر ازدهار العمران، وفى عهد أبى حمو الثانى أنشئ مسجد الولى إبراهيم وكما اهتم بنو زيان بالناحية العمرانية اهتموا بالناحية العسكرية.

وكان الاتجاه الدفاعى والهجومى هما خطأ السياسة العسكرية، التى سارت عليها الدولة طوال تاريخها ضد العدو المهاجم والهجوم خلف الخصم عند الانسحاب، ومن هنا حصنوا تلمسان بالأسوار العالية والأبراج المنيعة المتينة وأبواب المدينة ذات مصاريع مصفحة بالحديد والأسوار غاية فى الارتفاع على غرار القلاع وهى رائعة الهندسة متقنة البناء.

وقصر السلطان له بيان الأول يفتح على البادية فى مواجهة الجبل والثانى نحو داخل المدينة؛ حيث يقيم قائد الحرس.

وقد كان بنو زيان على دراية ببناء المدن والأسوار والقلاع والحصون ووسائل الدفاع كما أنهم كانوا على دراية بالتكنيك الحربى. ومن الناحية الهجومية استطاع ابن تاشفين الأول بناء حصن بكر على مقربة من بجاية ليكون خط دفاع أول ونقطة هجوم ضد بنى حفص كذلك اهتموا بوسائل الدفاع عن البلاد القريبة المجاورة لبنى مرين.

وقام سلاطين بنى زيان بإنشاء دار لسك العملة، وكانوا يتعاملون بالدينار الذهبى كما كانوا يسكون عملة فضة، وكذلك عملة نحاسية ذات قيمة، وأنواع مختلفة، وكان يتم التعامل بهذه العملة بين طوائف الشعب المختلفة.

وكان لهم جيش دائم وفرسان لكن فى حالة الحرب أى عندما تكون البلاد فى حالة قتال مع أعدائها .. فإنها تعلن حالة الاستعداد العسكرى ويجتمع لدى السلطان الجنود من الأعراب وسكان المدن والمتطوعة ويتجول فى أنحاء السلطنة لحشد قوات كثيرة. وكان يوجد عدد كبير من الجنود فى حراسة السلطان وأكثر من ألف فارس لحراسة القصر (شهد بذلك الحسن الوزان ليو الأفريقى، وصف أفريقية).

وفى عصر الأسرة الزيانية عاد المذهب المالكى يمثل مكانته الرفيعة من جديد فى المغرب الأوسط بعد أن فقدها فى عهد الموحدين ومع تسليمنا بأن مدرسة تلمسان لن تبلغ مبلغ القيروان وفاس فى ذيوع الصيت فى مجال الثقافة والعلوم، إلا أن عهد بنى زيان شهد أهم تطور ثقافى عربى شهدته البلاد وهو انتشار مذهب الإمام مالك وانتشاره فى القسم الغربى من العالم الإسلامى.

ويبدو أن ما سمعه أهل تلمسان على علماء المغرب من علمائهم القادمين من مصر فإنهم أخذوا يطلبون فقيه المزيد مما دفع فقيه المغرب سحنون ابن سعيد إلى الرحيل إلى مصر.

وقد صحب انتصار المالكية فى بلاد المغرب الأوسط توطن الثقافة العربية فى مختلف المجالات بانتشار اللغة العربية وتغلغل الثقافة الإسلامية فى نفوس الناس، وظهر جيل من مثقفى سكان المغرب يطبعون الثقافة العربية بطباعهم المغربى.

وكان عصر بنى زيان قد شهد الانتصار النهائى لهذا المذهب وسرعة انتشاره فى

البلاد بعد أن كانت مكانته قد ضعفت فى عهد الموحدين وبدأ هذا المذهب يتغلب على مذهب أبى حنيفة مسيطراً على قلوب الناس ومدارس الفقه حتى انتصر نهائياً وبدأ المالكية يغلبون على الحياة الثقافية فى بلاد المغرب كلها، واشتد سلطان الفقهاء المغاربة المالكية فى الحياة الثقافية والدينية؛ بل لقد أصبح فقهاء المالكية فى نظر المغاربة الزعماء الذين يدافعون عن الضعفاء ويعارضون الحكام ويستشهدون فى سبيل العقيدة.

وشهد عصر بنى زيان انتشار الفقهاء المالكية والذين كانت أسماؤهم تتبع بالتلمسانى فى العديد من الأقطار المجاورة؛ حيث لقى هذا المذهب قبولاً من الفقهاء المغاربة لاعتماده أساساً على نصوص القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف دون تأويل أو لجوء إلى الرأى معرضين عن المذاهب الأخرى، التى تعتمد على الرأى والتأويل؛ بل إن العلوم التى كانت تدرس فى مدارس المغرب الأوسط كانت تدور حول فقه الإمام مالك والعلوم الإسلامية الأخرى؛ بحيث أصبح المذهب المالكى هو الحصن الذى اعتصم به أهل المغرب.

كما أن بنى زيان قد اهتموا بالناحية الثقافية اهتماماً بالغاً فشجعوا دراسة العلوم وأنشأوا المدارس، وقد كان فى تلمسان وحدها خمس مدارس بديعة حسنة البناء، ومزدانة بالبلاط الملون وسواه من الأعمال الفنية، وقد شهد بعضها ملوك تلمسان، كما أن مدينة عباد كان بها مدرسة بديعة جداً وفندق لسكنى الأغراب وقد حملت بعض المدارس أسماء مؤسسيها فنجد مدرسة حمو الأول وكان أبو تاشفين الأول قد أقام مدرسة عرفت باسمه وكثر بناء المدارس والزوايا، وكان كل السلاطين يبدون اهتماماً بالعلوم الإسلامية كما أنهم اهتموا ببناء خزانات الكتب التى توضع بها المخطوطات ونشطت حركة نقل العلوم والمخطوطات وراجت تجارة الكتب، وحسن الاهتمام ببناء القصور والدور وشهد عهدهم نشاطاً عمرانياً مكثفاً شهد به الحسن الوزان الذى زار

تلمسان وقضى بها فترة من الزمن فى ضيافة السلطان أبى عبد الله محمد السابع ٩٠٢هـ/١٤٩٦م.

وكانت المدن الجديدة بها كل مستلزمات الحياة من تجارة وصناعة ومساجد وغيرها، وبلغت هذه العناية مداها فى عهد أبى تاشفين الأول، فقد شيد المصانع.

وكان فى دولة أبى زيان العديد من المدن الهامة، والتى منها تلمسان العاصمة ومدينة وجدة وكانت وجدة دائماً فى جانب سلاطين تلمسان ضد بنى مرين، وقد كانت أسوارها قوية وعالية كما أن بيوتها حسنة جيدة البناء وسكانها أغنياء ومهذبين وذوى مروءة وشجاعة، وقد تجددت مساكنها كثيراً. وأصبحت جميلة الطراز، والذى غلب عليه الطابع الأندلسى وأهلها يتكلمون اللغة العربية، وكذلك من المدن الهامة مدينة عباد، وهى على مسافة ميل من تلمسان فى اتجاه الجنوب وهى مأهولة بالسكان وتضم العديد من الصناع وبها مدرسة وفندق، وهى مدينة تضم العديد من صباغى الملابس.

ومن المدن الهامة أيضاً مدينة وهران وهى على ساحل البحر المتوسط على مسافة مائة وأربعين ميلاً من تلمسان وهى مدينة كبيرة بها العمارات والمؤسسات التى تعتبر مدينة حضرية بها (المشافى) الكبيرة، (الجوامع) المساجد، والمدارس، والحمامات، والفنادق، والبالمارستانات، وهى محاطة بأسوار عالية وأكثر سكانها من الصناع والتجار ، والسكان ينتخبون رئيس مجلس يهتم بشئون المدينة، وكان بها خازن مال، ومكاس لتحصيل عوائد البناء.

ثم مدينة المرسى الكبير وأسسها سلاطين تلمسان على شاطئ البحر المتوسط على مسافة بضعة أميال من وهران وكانت تستطيع أن ترسو عليها مائة سفينة ومركب، فى

وقت واحد ولا يوجد له مثيل فى العالم، قاطبة فى عصر بنى زيان وكانت من عادة سفن البنادقة أن تلجأ إليه فى حالة هياج البحر، وترسل بضائعها إلى وهران.

وكذلك .. مدينة مستغانم وهى تقع على البحر المتوسط وتقع على مسافة ثلاثة أميال شرقى مدينة مازاغران وشهدت تحضرا عظيماً وكثرة من السكان فى عصر سلاطين بنى زيان وبها جامع جميل جداً وفيها العديد من الصناع الذين ينسجون أقمشة الكتان وبيوتها جميلة كما تكثر بها موارد المياه والأراضى التى تحيط بها خصبة وصالحة للزراعة ولها ميناء صغير تقصده السفن الأوربية وعندما ضعفت هيبة الدولة تعرضت لمضايقات بدو الصحراء.

ومدينة شرشال على ساحل البحر المتوسط ولها سور شديد الارتفاع ويظهر فيها بجوار البحر جامع كبير عال جدا لاتزال محاربه قائمة وقت زيارة الحسن والوزان. وصف أفريقيا وكانت مأهولة بالسكان ولكنها هجرت فى أعقاب الحروب بين سلاطين تلمسان وسلاطين بنى مرين وظلت قليلة السكان حتى عمرها كثير من الغرناطين بعد سقوط دولتهم ١٤٥٢م، وأعادوا بناء قسم كبير من منازلها وكذلك قلعتها وزرعوا أرضها ثم بنوا الكثير من سفن الملاحة واشتغلوا بصناعة الحرير وسكانها أكثر من ألف ومائتين نفسا.

ثم مدينة ملبائة وتقع هذه المدينة فوق قمة جبل وتبعد عن شرشال بأربعين ميلا وبيوتها متقنة ويكاد سكانها جميعاً أن يكونوا من الصناع ومن الخراطين ويعمل بعض منهم فى الزراعة.

ثم مدينة تنيس وهى على مسافة خطوات من البحر المتوسط وبها الكثير من السكان وكانت دائماً تابعة لسلاطين تلمسان وعندما أدرك المغرب السلطان أبو عبد الله

محمد المتوفى ١٥٠٥م، وهو جد الملك أبي عبد الله محمد الذى كان يحكم ١٥٢٨م وكان قد خلف ثلاثة أبناء أكبرهم كان يدعى عبد الله والثانى أبو زيان والثالث يحيى آل الحكيم إلى عبد الله وظهر الانقسام بين الأخوة الثلاثة، إلا أن يحيى عاد إلى تنيس ونودى به سلطاناً وظل يحكم البلاد بضعة أعوام منها ونتج أرضها الكثير من الفحم.

ومدينة مازونة، وهى مدينة داخلية على بعد أربعين ميلاً من البحر وتمتد على مساحة كبيرة وبيوتها كثيرة وأسوارها عالية منيعة وهى مدينة متحضرة وقد تعرضت للتدمير من العرب والعصاة وبنى زيان وذلك لقربها من حدود سلاطين فاس وربما لتأييدها لهم وأرضها الزراعية طيبة ومنتجة ومن المدن الهامة أيضاً فى سلطنة بنى زيان مدينة الجزائر وقد خضعت الجزائر لسلطة سلاطين تلمسان لكن عند حدوث الشقاق بين أبناء الأسرة خضعت لحاكم بجاية ووقعت تحت سلطته لأنها كانت أقرب إلى بجاية من تلمسان وهى مدينة كبيرة جداً وأسوارها رائعة وقوية للغاية وبها أسواق جيدة كما أن بها عددا كبيرا من الفنادق والحمامات وبها جامع كبير جداً يقع على حافة البحر. وكان خضوع سكان الجزائر لسلطان بجاية لأن سلطان تلمسان لايستطيع أن ينجدهم وأنهم يتعرضون لأذى ملك بجاية فقدموا الولاء له وتحول بعض سكانها إلى أعمال القرصنة وكانوا يغيرون على السواحل الأسبانية وجزر يابسة ومتروقة وما يورقه وبيزاً وغيرها من المدن الإيطالية وخضعت لحكم خير الدين بربروس وأخيه عروج وضرب السكة باسمه ووعد كل سكان المناطق المجاورة بالطاعة وأرسلوا له الجزية وقد تعرضت لغزو ماوك أسبانيا.

ومدينة تقدمت وغيرها من المدن الأخرى مثل مدينة دليس، تاميد فوست، برشك، مازاغران ومدينة البطحة؛ ثم ولاية بنى راشد وكانت إمارة تحكم بيد العرب الذين يقدمون المحاربين للسلطان من الفرسان والمشاة إضافة إلى مبلغ من المال يدفع سنوياً

مبلغ خمسة وعشرين ألف دينار، ومدينة تسالة، نفرة، ومدينة رشتون، ومدينة حنين، ومدينة ندرومة، ومدينة تيحريت، ومدينة قصر ايسلى، قصر تيمز يزدغت.

هذه المدن الكثيرة العديدة والكبيرة والموانى الكثيرة خضعت لسيطرة سلاطين بنى زيان طوال حكمهم الطويل والذى يطالع الحديث المطول عن هذه المدن التى ذكرها الحسن الوزان فى كتابه وصف أفريقيا وأشار إليها بعض المؤرخين الذين جاءوا من بعده يدرك أن هذه الدولة كانت على مستوى عالٍ من الرقى والتقدم والازدهار الحضارى والثقافى وأن كل مدينة من هذه المدن الكبرى لعبت دوراً بارزاً فى إثراء الحركة الثقافية والعلمية والحضارية والاقتصادية وساعدت على تطور وتقدم المغرب الأوسط ولو أن هذه السلطنة كانت من الضعف والانهيار لما استطاعت أن تصمد أمام قوتين فى المغرب الأدنى والأقصى كل منها يريد السيطرة عليها لكنها قاومت كل تيارات الاحتواء والسيطرة والزوال من مسرح الأحداث طوال ثلاثة قرون.

لكن القوة الاقتصادية والعسكرية وثراء الدولة وقوة سلاطينها ساعدت فى بناء الأسرة الحاكمة طوال هذه الفترة وكانت الظروف الخارجية والقوى العالية الخارجية كالأتراك والأسبان والبرتغال الصراغ فى حوض غرب البحر المتوسط من العوامل التى عجلت بانتهاء أسرة بنى زيان وزوال سلطتها.

وفى فترة سقوط بنى زيان البصرة لحكم بنى زيان مرين والتى سوف نتحدث عنها فى باب العلاقات بين الدول الثلاث (بنى حفص، بنى زيان، تواجدهم القصير فى بلاد المغرب الأوسط والتى شملت النواحى العسكرية والمدينة فأسسوا مدينة المنصورة فى عهد أبى يعقوب يوسف بن عبد الحق المرينى وأحاطوها بالأسوار وبنى فيها قصراً وكذلك اهتم بنو مرين بالناحية الدينية لكسب الشعور الشعبى وتأييد السكان لهم؛ فقاموا ببناء المساجد ففى عهد أبى الحسن تم بناء مسجد المنصورة الأعظم كما قاموا

ببناء مسجد بقرية العباد كما قاموا ببناء مسجد حول ضريح أبى عبد الله الملوى، واهتم بنو مرين ببناء المدارس وأولوا العناية بالثقافة والعلوم الإسلامية وأعطوها عناية فائقة ففى عهد أبى الحسن المرينى بنيت مدرسة فى قرية العباد وفى تلمسان العاصمة كما بنيت وشيدت فى عهد أبى عنان مدرسة أخرى.

لكن مجمل القول أن الفترة التى عاشتها دولة بنى زيان شهدت اهتماماً بعلوم اللغة العربية كالنحو، والأدب، والبلاغة، والتاريخ، والجغرافيا، ولهذا اشتهر فى عهد الدولة الزيانية كثير من العلماء والمؤلفين والمؤلفات المخطوطة، واهتمت الدولة بتدريس العلوم الطبيعية كالرياضة والطب والكيمياء المخطوطة واهتمت الدولة بتدريس العلوم الطبيعية كالرياضة والطب والكيمياء وعلوم الفلك والتنجيم وكل ما يتصل بمظاهر الحياة كعلوم الحيوان والزراعة وغيرها من علوم العصر؛ حيث ساهم فيها علماء تلمسان بدور رائع.

ومن هنا .. فإن الفترة التى عاشتها الدولة الزيانية فى المغرب الأوسط تعتبر حركة نمو وإشعاع فكرى وعلمى نشطت فيه العلوم ونبغ فيها عدد وافر من العلماء فى مختلف الميادين وقد نجح هؤلاء العلماء فى أن يجعلوا من تلمسان عاصمة دولتهم مركز إشعاع ومهبط طلاب ومقصد علماء وداراً تستقطب طلاباً من أعماق شتى وتهوى إليها أفئدة طلاب العلم؛ بل مدينة ثقافية بالمعنى المعاصر، وقد ذكر ابن خلدون عبد الرحمن ويحيى بن خلدون أنهما عاشا زمناً طويلاً ينعقد فيها أسواق العلوم والصنائع وكثر فيها العلماء وضاهت عاصمتها أمصار الدول الإسلامية كغرناطة وقرطبة والقيروان وفاس والقاهرة، وكانت مكانتها لاتقل عن مكانة المراكز الخلافية فى العالم الإسلامى.

وبلغت الحياة الثقافية ذروة نشاطها فى عهد أبى حمو الثانى الذى اهتم بالعلم

والعلماء، وغدت تلمسان فى عهده مركزاً ثقافياً هاماً يضاهى أهم مراكز المغرب الثقافية، كما شهد المغرب الأوسط انتشار التعليم ومدارسه فى شتى المدن الكبيرة التى أشرنا إليها فى الصفحات السابقة؛ بل ان المدارس وكتاب تحفيظ القرآن الكريم ودراسة علومه انتشرت فى المدن والقرى وفى الزوايا والبوادى وبين سكان الجبال والسهول. ودرست العلوم الإسلامية فى المساجد والمدارس وأولت الدولة اهتماماً كبيراً بتحفيظ القرآن الكريم وتشجيع التلاميذ على حفظه وهم فى سن صغير، وكذلك دراسة علوم الدنيا والدين.

وقد ساهم أمراء بنى مرين فى فترة وجودهم بالمغرب الأوسط فى العمل على انتشار التعليم فأمروا ببناء المدارس والزوايا وساهموا فى هذا الميدان بدور لا يقل عن دور بنى زيان وكانوا يعينون للتدريس فى هذه المدارس أشهر العلماء وكان التعليم بالمجان؛ بل كان يصرف الطعام والكساء والكتب المخطوطة للطلاب. وازدادات منزلة العلماء عند أمراء الدولة. وهكذا .. كانت تلمسان حلقة علمية اجتمع فيها من رجال الدين والأدب الكثيرون فغدت مركزاً علمياً يشد إليه الرحال طلباً للعلم فى شتى أقطار العالم الإسلامى. فها هو العالم المصرى عبد الباسط خليل المصرى من علماء القرن التاسع الهجرى يهاجر إلى تلمسان من القاهرة فى رحلة طويلة طلباً لاستكمال بعض المعلومات الطبية التى كان يلح فى معرفتها فدرس على يد الشيخ محمد بن على بن بلمارستانات تشونى أحد أطباء بمارستانات تلمسان المشهورة.

ومن هنا كان لبنى زيان فى فترة قوة دولتهم دور بارز فى مجال العلوم الإسلامية وتدريسها وأثمرت الأنشطة التى قاموا بها فى مجال الحضارة الثقافية والاقتصادية بدور بارز استطاعت الدولة رغم أنها لم تصل إلى مصاف الدول المحيطة إلا أنها لعبت دوراً لايقل عما لعبته القيروان فى عصر بنى حفص وماس فى عصر بنى مرين فكانت

تلمسان لاتقل دوراً عن أدوار هذه المدن على مختلف الأصعدة التى شاركت فيها فى أذكاء أنوار الحضارة الإسلامية التى كانت الصراعات الأسرية بين الأمراء المطالبين بالعرش وبين القوى المتصارعة على أرض المغرب الأدنى والأوسط والأقصى، وفى غرناطة كل هذه الانقسامات كانت من الأسباب القوية التى لم تساعد على السير على نهج التطور العلمى والحضارى الذى برز فيه الذين درسوا فى جامعات قرطبة وطليطلة وبالرمو وفاس والقيروان وتلمسان لتصبح لهم قيادة فى المجال العلمى للبشرية حتى وقتنا الحالى.

* * * *

الفصل السابع

نهاية الأسرة اليغمراسنية الزيانية

قامت دولة بنى زيان على أساس القوة القبلية ذلك لأنه كما سبق القول عندما أحست قبيلة بنى عبد الواد بقوتها فإنها استطاعت أن تدخل العاصمة وتفرض وجودها السياسى على منطقة المغرب الأوسط وفرض سيادتها على القبائل البربرية بوجين ومغراوة وغيرها من القبائل البربرية وكذلك القبائل العربية كبنى هلال وفروعها، ومن هنا كان تاريخها تاريخا عسكريا قضيت معظم سنواتها فى حرب داخلية وحروب خارجية (بنى حفص، بنى مرين).

ولقد كانت الحروب المتصلة مع القبائل القاطنة بالمغرب الأوسط وصراعها مع بنى مرين، كل هذه الأمور قد أضعفت من قوة الدولة وجعلت شغلها الشاغل الحفاظ على بقائها واستمرار الحال حتى احتل بنو مرين تلمسان (٧٩٥هـ/١٣٩٢م) وحكموا المدينة وممتلكاتها ربع قرن من الزمان قد تخلصت منهم وعادت إلى سابق عهدها ومدت سلطانها حتى بجاية من بلاد الحفصين بمساعدة الهلالية من الزواودة وبنى معقل بن عبد الله بن رياح.

وإذ كان أبو موسى الأول قد استطاع أن يحيى الدولة فى الربع الأخير من القرن الرابع عشر، وأن يحررها من الحكم المرينى وبصعوبة شديدة استطاعت الدولة أن تحافظ على كيانها، لكن كل هذه العوامل قد أثرت فى كيان الدولة فلم تستقر الاستقرار الطبيعى؛ بل أن الدولة تعرضت للإنهيار الداخلى بسبب الصراع على الحكم والسلطة، كذلك الهجوم الأسبانى على شواطئ المغرب الأوسط، ولو نظرنا إلى الدولة الزيانية فى

أواخر عهد أبو حمو الثاني (٧٦٠هـ/٧٩١هـ) نجد أن المشاكل التي كانت تنشب بسبب التنافس والتهالك على السلطة. دفعت أبا تاشفين الثاني إلى أن يستعين ببني مرين ضد أبيه وتفشت ظاهرة قتل السلاطين.

وكان ظهور الأسبان وما يدور في نفوسهم من حقد وكراهية للإسلام والمسلمين واتفاقهم على أن يكون المغرب الأقصى من نصيب البرتغال والمغرب الأوسط من نصيب الأسبان، وكان العدوان على المغرب من عمل أسبانيا والبرتغال التي قادت حركة الحروب الصليبية ضد المغرب؛ لأن المغرب كان دائماً يشكل الخطوط الخلفية التي تحمي ظهور المسلمين في الأندلس، وإذا كان المرابطون والموحدون قد استطاعوا أن يقدموا مساعدات فعالة للإمارات الإسلامية في الأندلس .. فإن خلفاء الموحدين من بني حفص وبني زيان وبني مرين لم يتمكنوا من إيقاف الخطر المسيحي على حساب الدويلات الإسلامية في الأندلس.

ولقد شهد القرن الثالث عشر الميلادي توازن القوى من الدويلات المغربية الثلاث وبين الدويلات المسيحية في الأندلس، لكن النصف الأول من القرن الرابع عشر شهد تحول القوى لصالح أسبانيا والبرتغال لأنهما اتجها نحو الاتحاد؛ بينما تغلبت عوامل التفكك في المغرب فهو لم يعد مقسماً بين الدول الثلاث (بني حفص، وبني زيان، وبني مرين)؛ بل ان جميع هذه الدول أصبحت في القرن الخامس عشر ومع نهاية الرابع عشر منقسمة على نفسها فالحفصيون منقسمون إلى دولتين احداهما في تونس والأخرى في بجاية، وفي المغرب الأوسط يستقل كل ميناء بحكومته الخاصة حتى شبهت هذه الموانئ بجمهوريات إيطاليا البحرية، وفي المغرب الأقصى قامت ثلاث حكومات في نفس الوقت أحداهما في فاس والأخرى في مراكش والثالثة في سجلماسة.

وبعد أن تحققت الوحدة الأسبانية، تم القضاء على غرناطة آخر المعاقل الإسلامية فى الأندلس عام ١٤٩٢م، ويقابل هذه الوحدة استمرار التفكك فى المغرب فكان ذلك أول عامل مهد الطريق لتحول أسبانيا من حرب الاسترداد إلى مرحلة الهجوم على أراضى المغرب ذاتها وظهور البرتغال كقوة بحرية كبيرة فى القرن الخامس عشر، مما جعل البرتغال تتجه نحو التوسع الخارجى وتشاركها فى ذلك أسبانيا. وكان تفكك المغرب السياسى أشد ما يغرى أسبانيا على ذلك؛ فقد كانت هذه الفوضى التى سادت المغرب تغرى رجال الدين المسيحيين على دفع الملوك؛ لتنظيم الحملات على شواطئ المغرب كما أن الجنود كانوا يتحرفون شوقاً إلى السلب والنهب.

وشهدت سواحل المغرب غارات مسيحية متعددة منذ القرن الثالث عشر، لكن الاحتلال الفعلى للمغرب الأوسط شهد قوة المد الصليبى فى القرن السادس عشر فنجد أن النفوذ الأسبانى انتشر فى المنطقة المراكشية عام ١٥١٨م؛ ثم جاء بعدها دور وهران فسلمت بعد مذبحة قتل بها أكثر من أربعة آلاف شخص وأسر أكثر من ثمانية آلاف ، وأخيراً سلمت بجاية فى يناير ١٥١٠م بعد مقاومة جبارة وأعقب ذلك النفوذ الأسبانى فى طرابلس فى يونيو من نفس العام كما استولوا على جربه عام ١٥١٨م، وأسروا فريقاً من الأهالى. وفى بضع سنين أصبحت أسبانيا سيدة جميع النقط الساحلية التى تستطيع أن تعتمد عليها لغزو الأقاليم الداخلية من المغرب الأوسط ولكنها لم تفعل بل اكتفت بالمناطق الساحلية، وقد ظل الأسبان على سواحل المغرب الأوسط فى المدن التى احتلوها يعانون نوعاً من الحصار ما داموا لايملكون اتصالاً بالمواطنين فى الداخل؛ فأصبحت حياة الجنوب مرهقة لهم فتعرضت مدن مثل وهران لخطر المجاعة من وقت لآخر وسوء الحالة الصحية.

ويتداخل العامل الاقتصادى مع التعصب الدينى فى دفع أسبانيا نحو هذه

السياسية التوسعية التى اتبعوها فى المغرب، وكان الأسبان مدفعين بهذه الروح منذ نهاية القرن الخامس عشر فى اعتداءاتهم على المغرب. لذا .. كانت فكرة تقسيم البلاد إلى منطقة نفوذ طبقاً لمعاهدة وقعت بين الطرفين فى عام ١٤٧٩م.

وكان للأسبان نصيب المنطقة الواقعة شرق حجر باديس، وهى نقطة تقع عند التقاء الساحل المراكشى بالساحل الجزائرى تقريباً.

وقبل نزول الأسبان إلى ساحل المغرب الأوسط عام ١٥١٠م، فقد استولى الأسبان عام ١٥٠٥م على شاطئ بلنسيا، وفى عام ١٥٠٨م استولوا على حجر باديس، وفى العام التالى سقطت وهران وبجاية، وفى ١٥١٠م دمرت طرابلس، وكان كل ذلك بدون مقاومة تذكر من قبل بنى زيان واضطرت موانئ أخرى فى المغرب مثل دلس والجزائر إلى دفع الجزية وأقام الأسبان أمام هذه الموانئ حصناً من الصخور، وكان على سلطنة تلمسان أن تواجه هذا الغزو لأن كثيراً من هذه الموانى تتبعها ولكن الدولة الزيانية لم تكن من القوة؛ بحيث تستطيع رد الغزو الأوربى عن المغرب.

بل على العكس من ذلك فقد تعرضت دولتهم فى هذه الفترة لتفكك جديد ونشوب ثورات داخلية احتجاجاً على الضرائب الجديدة التى اضطروا إلى فرضها لمواجهة الغزو الخارجى وانتهى الأمر بهم إلى عقد صلح مع الأسبان عام ١٥١٢م، اعترفوا فيه باستيلاء الأسبان على عدة موانئ فى غرب الجزائر.

وكان سقوط هذه الموانئ فى يد الملك الكاثوليكى فرناندو عام ١٥٠٦م/١٥٠٩م المرسى الكبير ووهران وغيره من هذه المدن خسارة جسيمة على سلطنة تلمسان حتى أن الشعب طرد السلطان أبا حمو وجاء شخص آخر من الأسر الزيانية هو أبو زيان، وهو عم أبو حمو وولده عبد الله بعد أن أطلق سراحه من السجن

ووضعه على العرش، ولكنه لم يتمتع بذلك كثيراً لأن العرش كان مطمع الأخوين الأتراك خير الدين وعروج بابروس. لكن عندما طرد الشعب أبا حمو .. فإنه ذهب إلى وهران فوراً، وكانت تخضع للحماية الأسبانية وسافر معها إلى أسبانيا لمقابلة ملك أسبانيا الامبراطور شارل وناشده أن ينجده ويساعده ضد سكان تلمسان وضد التركى خير الدين وأخيه عروج وأرسل الامبراطور مع أبا حمو جيشاً دخل بواسطته إلى مملكته وقتل الوالى مع حاشيته واسترد أبو حمو سلطته على تلمسان، وكان ظهور هذه القوى الجديدة الغزاة الأسبان والمغامرون العثمانيون؛ فقد كان على الأسرة الزيانية أن تختار حماية احدى هاتين القوتين، وفى خلال التنافس على السلطة بين أفراد الأسرة استنجد بعضهم بالعثمانيين، والبعض الآخر بالأسبان، ووسط هذا الصراع انتفت الأسرة تماماً؛ لأنه بعد هذه الأحداث كافأ أبو حمو القوات الأسبانية ورغبة منه فى الطمأنينة ظل وفياً لتعهداته التى قطعها على نفسه تجاه الامبراطور شارل الأول ملك أسبانيا الذى أمده بألفى رجل، وراح يرسل له كل عام الجزية المحددة، وهى مائة وعشرين ألف دينار من الذهب واثنى عشر حصاناً عربياً من العتاق وستة من أناث الصقور، وقد تمسك بهذه المعاهدة مدة حياته وبعد موته آلت أمور السلطنة إلى أخيه عبد الله أبى محمد عبد الله الذى تولى عام ١٥١٨م، وظل يحكم حتى عام ١٥٤٠م، وأرسل خطاب وفاء وطاعة لخير الدين بربروس بعد أن استولى هذا على ميناء الجزائر فى ٢٧ مايو ١٥٢٩م؛ فإنه رفض طاعة الامبراطور وتنفيذ بنود المعاهدة التى وقع عليها أخوه وذلك بسبب الثقة التى كانت له عند السلطان التركى سليمان بن سليم الأول سلطان الأتراك.

ولقد كان نمو القوة التركية فى غرب حوض البحر المتوسط من الأسباب القوية التى جعلت القوى الأسبانية غير مستعدة لاحتلال المناطقة الداخلية فى المغرب، ولذلك آثر الأسبان اتباع نظام أشبه بالحماية على سلطنة تلمسان الضعيفة واحتلال الموانئ

التى يمكن تموينها من أسبانيا عبر البحر.

وهكذا .. كان ظهور قوة البحارة الأتراك المغامرين الذين جاهدوا القوى الأسبانية سبباً فى التفكير فى عدم خوض حرب داخلية مع سلطنة تلمسان.

ولقد كان التطاحن على السلطة العامل القوى والوحيد الذى عجل بنهاية الأسرة الزيانية ذلك لأنه فى الوقت الذى استولى فيه الأسبان على المرسى الكبير ووهران، وتدلس، وشرشال، وبجاية، وعلى جميع مدن الساحل. كانت السلطة الزيانية فى أشد فترات التطاحن والصراع على الحكم فلم يستطيع أبو حمو الثالث صد العدوان الأسبانى وأوقع المغرب الأوسط فى مشكلة كبرى إذ وقع نفسه فى أحضان أسبانيا وأدى لها جزية سنوية. لذا .. كان اتجاه الشعب وخاصة العلماء ورجال الدين والقضاة وطلاب العلم والصناع والحرفيين إلى ضرورة الاستعانة بالقوى التركية الإسلامية لصد الزحف الصليبى الأسبانى الذى يريد بديارهم الشر والكفر.

وأخذت الوفود تذهب إلى الأخوين التركيين، وهما عروج بن يعقوب التركى، وأخيه خير الدين اللذين كانا قد أسسا ولاية الجزائر العظيمة وربطوها بالدولة العثمانية، لذلك .. فإن الظاهرة الأساسية التى تميز تاريخ المغرب فى هذه الفترة الصراع العثمانى الأسبانى فى غرب البحر المتوسط. ولبى الأخوان على الفور طلب سكان المغرب الأوسط وأصبح ذلك الجزء من المغرب ساحة حرب بين الأتراك والأسبان. ودخل الأتراك المغرب الأوسط وأزاحوا أبا حمو عن الحكم لالتجائه إلى أعداء الإسلام، وفر أبو حمو إلى وهران وتولى أبو زيان أحمد عرش تلمسان، لكن كما سبق القول كان زبو حمو قد عاد بقوات من الأسبان ضربت حصاراً حول تلمسان فاضطر عروج إلى اختراق هذا الحصار فقتل عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م، وفى هذه السنة كانت وفاة السلطان حمو الثالث وطلب خير الدين العون والمساندة من حكومة الأستانة فأرسل السلطان

سليم الأول ٩٢٤هـ/١٥١٨م ألفين من قوات الأنكشارية؛ بينما استعان الأمير أبو محمد عبد الله بالأتراك ونجد أبا عبد الله محمد بن السلطان محمد بن عبد الله ينحاز للأسبان محتمياً بهم ضد الأتراك.

ويبدو أن الصراع بين الأتراك والأسبان قد طال، ومن ثم استنجد أبناء المغرب الأوسط بالأشراف السعديين فى المغرب الأقصى واستطاع السعديون الزحف صوب المغرب الأوسط والاستيلاء على تلمسان ٩٥٧هـ/١٥٥١م.

وهنا يتضح مدى ما وصلت إليه الدولة الزيانية من ضعف وتحرك الأتراك لطرد السعديين من الجزائر ودارت بين الطرفين معركة انهزم فيها السعديون وعادوا إلى المغرب الأقصى. ودخل الأتراك تلمسان بقيادة حسن بن خير الدين، وعزل أبا زيان وولى مكانه الحسن بن عبد الله عام ٩٥٧هـ/١٥٥٠م، ولم تكن للسلطان حسن سلطة تذكر، وإنما كانت السلطة الفعلية للأتراك، وفى عام ٩٦٢هـ/١٥٥٤م خلعه الأتراك وضمت تلمسان منذ ذلك الحين إلى حكومة الجزائر وانقرضت أسرة بنى زيان على يد آخر سلاطينها السلطان الحسن بن عبد الله.

ومن هنا .. فإننا نرى كيف أن الصراع على السلطة بين أفراد الأسرة المالكة كان السبب المباشر للتدخل التركى الأسبانى، وكيف أن الصراع بين الأتراك العثمانيين والأسبان على مصير المغرب قد عجل بنهاية الأسرة الزيانية، التى قيل أن الوالى التركى صلاح ريس، وليس حسن بن خير الدين هو الذى دخل مدينة تلمسان وجعلها جزءاً من آيالة الجزائر عام ٩٦٢هـ/١٥٥٥م، وأصبحت تلمسان واقليمها جزءاً من المغرب الأوسط العثمانى.

وهكذا .. طويت صفحة من صفحات التاريخ فى المغرب الأوسط استغرق تاريخها

ثلاثمائة وأربعة وعشرين عاماً هجرياً، وثلاثمائة وخمسة عشر عاماً ميلادياً تحت سيطرة الأسرة الزيانية التى عملت على استقلال المغرب الأوسط وسط الصراعات الأقليمية فى المغرب بين المغرب الأدنى والمغرب الأقصى ومحاولة إيجاد توازن بين هذه القوى التى كانت تطمع فى السيطرة على كيان الأسرة الزيانية، وكيف أن هذه الأسرة لم تكن تقف مكتوفة الأيدى أمام تحدى القوتين ففى بعض حقبها التاريخية احتلت قوات بنى زيان تونس عاصمة الدولة الحفصية، وفى بعضها الآخر سيطرت قواتها على فاس عاصمة الدولة المرينية. وبهذا .. تكون قد وضعت نهاية الدولة تحت السيطرة التركية التى صانتها من رجس التدخل الأسبانى الذى ربما لو خضعت له البلاد فى تلك الفترة من القرن السادس عشر الميلادى لتغير وجه المغرب الأوسط عما هو عليه الحال حالياً.

* * * *

الأسرة الزيانية التى حكمت المغرب الأوسط

١ - أبو يحيى يعمراسن بن زيان (٦٣٣هـ-١٢٣٥م)

٢ - أبو سعيد عثمان بن يغمراسن (٦٨١هـ-١٢٨٢م)

٣ - أبو زيان محمد الأول (٧٠٣هـ-١٣٠٣م)

٤ - أبو حمو موسى الأول بن عثمان (٧٠٧هـ-١٣٠٧م)

٥ - أبو تاشفين عبد الرحمن الأول (٧١٨هـ-١٣١٨م)

٦ - أبو سعيد عثمان الثانى بن عبد الرحمن (٧٤٩هـ-١٣٤٨م)

٧ - أبو حمو موسى الثانى بن يوسف (٧٦٠هـ-١٣٥٨م)

خضعت سلطنة بنى زيان أثناء فترة حكم أبى سعيد عثمان فى أيدى بنى مرين طوال الحكم -اثنى عشر عاما- (٧٣٧هـ-٧٤٩هـ)، وأثناء حكم أبى حموى موسى -سبع سنوات- (٧٥٣هـ-٧٦٠هـ).

٨ - أبو تاشفين عبد الرحمن الثانى (٧٩١هـ-١٣٨٨م)

٩ - أبو ثابت يوسف الأول بن عبد الرحمن (٧٩٥هـ-١٣٩٢م)

١٠ - أبو الحجاج يوسف بن موسى (٧٩٥هـ-١٣٩٢م)

١١ - أبو زيان محمد عثمان بن موسى (٧٩٦هـ-١٣٩٣م)

١٢ - أبو محمد عبد الله الأول بن موسى (٨٠١هـ-١٣٩٨م)

١٣ - أبو عبد الله محمد الثالث (الواثق بالله) (٨٠٤هـ-١٤٠١م)

١٤ - عبد الرحمن الثالث بن محمد الثالث (٨١٣هـ-١٤١٠م)

١٥ - السعيد بن أبى أحمد موسى الثانى (٨١٤هـ-١٤١٧م)

١٦ - أبو مالك عبد الواحد (٨١٤هـ-١٤١١م)

١٧ - أبو عبد الله محمد الرابع بن أبى تاشفين الثانى الملقب بابن الحمرة

(٨٢٧هـ-١٤٢٣م)

١٨ - أبو مالك عبد الواحد (تولى الحكم للمرة الثانية) (٨٣١هـ-١٤٢٧م)

١٩ - أبو عبد الله محمد الرابع (ابن الحمرة) للمرة الثانية

(٨٣٣هـ-١٤٢٩م)

٢٠ - أبو العباس أحمد - العاقل بن أبى حمو الثانى (٨٣٤هـ-١٤٣٠م)

٢١ - أبو ثابت محمد الخامس المتوكل على الله (٨٦٦هـ-١٤٦١م)

٢٢ - تاشفين بن محمد الخامس (٨٩٠هـ-١٤٨٥م)

٢٣ - أبو ثابت محمد السادس (٨٩٠هـ-١٤٨٥م)

٢٤ - أبو عبد الله محمد السابع (٩٠٢هـ-١٤٩٦م)

٢٥ - أبو زيان أحمد الثانى المسعود (٩٠٩هـ-١٥٠٣م)

٢٦ - أبو حمو موسى الثالث (٩٠٩هـ-١٥٠٣م)

٢٧ - أبو زيان أحمد الثانى عودة للحكم مرة ثانية

(سقوط مصر تحت الحكم التركى) (٩٢٣هـ-١٥١٧م)

٢٨ - أبو حمو موسى الثالث تولى الحكم للمرة الثانية (٩٢٤هـ-١٥١٨م)

٢٩ - أبو محمد عبد الله الثانى بن المتوكل (٩٢٤هـ-١٥١٨م)

٣٠ - أبو سرحان مسعود (٩٢٥هـ-١٥١٩م)

٣١ - أبو محمد عبد الله الثانى (للمرة الثانية) (٩٣٠هـ-١٥٢٣م)

٣٢ - أبو عبد الله محمد الثامن (٩٤٩هـ-١٥٤٢م)

٣٣ - أبو زيان أحمد الثالث (٩٤٩هـ-١٥٤٢م)

٣٤ - أبو عبد الله محمد الثامن (عاد للحكم مرة ثانية) (٩٥٠هـ-١٥٤٣م)

٣٥ - أبو زيان أحمد الثالث (عاد للحكم مرة ثانية) (٩٥٠هـ-١٥٤٣م)

٣٦ - الحسن بن عبد الله الثانى (٩٥٧هـ-١٥٥٠م)

وكان السلطان ابن عبد الله آخر سلاطين أسرة بنى زيان كما سبق القول؛ فهو الذى شهد عهده انضمام حكومة تلمسان إلى حكومة الجزائر التركية وسقوط دولة بنى زيان نهائيًا من على مسرح الأحداث فى المغرب عام ٩٦٢هـ/١٥٥٤م، وصارت ولاية تركية تخضع لحكم الأستانة.

* * * *

الباب الثالث

بني زيان على مسرح الأحداث في المغرب الأقصى

قبيلة بني مرين من القبائل الزنانية التي لم تشأ الخضوع لنفوذ الموحدين على عكس أبناء عمومتهم بني زيان، ولهذا أثروا الهجرة إلى الصحراء جنوباً على الدخول في طاعة الموحدين وحياة الصحراء تلائمهم لأنهم من البدو الرحل. وكانوا يرحلون في فضل الربيع إلى شمال المغرب الأقصى لرعى ابلهم ومواشيهم فيقضون شهوراً من السنة نازلين بين فكيك وملوية حتى إذا اقترب فصل الشتاء رجعوا إلى بلادهم في الزاب أفريقية إلى سجلماسة.

وكان موطنهم الأصلى في المغرب الأوسط ثم دفعتهم قبائل بنو هلال العربية غرباً، ولم يرغبوا أن يدخلوا في طاعة الموحدين على عكس بني عمومتهم بني وطاس الذين دخلوا في طاعة الموحدين وساهموا في بناء الدولة، لكن بني مرين منذ البداية كانت أحاسيسهم نحو الاستقلال، فانحدروا مع نهر ملوية إلى الجنوب حتى منابعه عند وادى نهر زيزا أحد منابع المولودية شمال تافللت وسجلماسة، وهناك عاشوا مستقلين وإن كانوا مخالفين للموحدين. وقد اشتركت منهم قوة كبيرة في معركة الأراك التي انتصر فيها الموحدون على الفونسو الثامن ملك قشتالة، وفي تلك المعركة أصيب شيخهم محبو بن حمامة بجراح خطيرة مات فيها وخلفه في رياسة القبيلة ابنه عبد الحق الذي سيقع عليه عبء بناء دولة بني مرين في المغرب الأقصى والذى استطاع باتفاقه مع الموحدين أن يدخل برجال قبيلته بلاد المغرب الأوسط ويمتد حتى آخر سيف على نهر المولوديه.

ولم يجد بنو مرين بدًا من الانسياح جنوبًا حتى أصبحت ديارهم فى النصف الثانى للقرن السادس بين قبيلة زاب أفريقية وسجلماسة وكانت قبائل مرين بدوية كثيرة النقلة طلبًا لمواطن الكلأ ومساقط المياه فيرتحلون شمالاً وربما يصابون إلى أجر سيف وما أن ضعفت دولة الموحدين بعد معركة العقاب فى الأندلس حتى وجدوا الفرصة السانحة فتدفقوا إلى سهول البلاد الغربية باسطين سلطانهم على بوديها بالقوة طورًا وبالمهادنة أحيانًا أخرى.

وهم قبيلة قوية من قبيلة زنانة البترية، ولم تكن قبيلة مرين قبيلة عادية من قبائل زنانة؛ بل كانت تمثل قسمًا قويًا له عراقة وسطوة ونفوذ وقوة باسم القبائل الزنانية، بل كانوا أعلاها حسبا وأشرفها نسبًا. ورغم هذا الأصل الزنانى البربرى .. فإن المرنين يرفعون نسبهم إلى مضر؛ حيث يجتمعون بنسب الرسول ﷺ ، والبعض ينسبهم إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب.

ولم يكن لهذه القبيلة مكان محدد تستقر فيه؛ حيث كانت قبيلة بدوية أخذوا يشنون الغارات على حدود المغرب الجنوبية، ولم تزد أهدافهم عن كونها غارات بدوية تقصد السلب فى المناطق الحضرية، ولم تكترث الدولة الموحدية لهذه الغارات، ذلك لأنه لم يكن لهم مكان استقرار معلوم ودائم؛ بل تعددت أماكن استقرارهم فقد يستقرون فى بلاد القبيلة من أقليم الزاب الأفريقى، وذلك قبل دخولهم إلى بلاد المغرب الأقصى فى المنطقة الممتدة من جنوب مدينة القيروان إلى صحراء بلاد السودان، وكانت طبيعتهم البدوية تجعلهم ينتقلون من مكان إلى آخر، وهذه طبيعة القبائل البدوية التى ما تكاد تستقر فى مكان حتى ترحل إلى مكان آخر، وبهذا لم يكن لهم مكان معلوم ومحدد للسكنى والإقامة. لكن من الممكن القول أنهم كانوا يتحركون فى نطاق المنطقة الممتدة من بلاد الجريد شرقًا إلى المغرب الأقصى غربًا؛ حيث أنه يكاد

يكون معلوماً لدى الدارسين لتاريخ هذه القبيلة، وتحركاتها قبل أن تصبح دولة ذات كيان سياسي أنها بسطت نفوذها وسيطرتها الفعلية على المنطقة الممتدة من بلاد الزاب إلى تاهرت وبالتحديد ما بين تلمسان وتاهرت وأنها كانت قبل دفعها غرباً تسيطر على منطقة تلمسان وهي بؤرة التجمع القبلي لبني مرين، والذين تحركوا منه شرقا وغربا.

وعلى هذا .. فإن المكان الأول الذى كانت تستقر فيه قبائل بنى مرين هو المغرب الأوسط وليس المغرب الأقصى الذى أقاموا فيه دولتهم فيما بعد ذلك لأن المنطقة الأولى التى انتشروا فيها كانت إلى الشرق من تلمسان فى اتجاه مدينة تاهرت ثم تقدموا فى الاتجاه الجنوبى الغربى؛ حيث أماكن المعيشة أكثر وفرة فى بلاد الزاب والجريد، ثم كانت الاندفاعة الأخيرة نحو بلاد المغرب الأقصى، ومن ثم .. أصبحوا يقفون على أعتاب المغرب الأقصى الشرقية.

ولقد كانت بنو مرين فى فترة إقامتها فى المغرب الأوسط من القبائل النشطة ذات الفعالية فى الأحداث التاريخية، ومن هنا اضطرت دولة المرابطين فى فترة بسط نفوذها على المغرب إلى احتوائهم ومهادنتهم وتقديم الهدايا لهم. ولما كان جدهم الأكبر مرين بن ماخوج الزناتى قد نشأ فى بيت الزعامة للقبيلة؛ فقد كانت شخصيته من القوة والصلابة؛ بحيث تؤهله للقيادة وانجب ولدين، هما حمامة وعسكر، وفى عهد محبو بن حمامة بن مرين شارك بنو مرين فى أحداث المغرب مما دفع المنصور الموحدى أن يسند قيادة القبائل المتطوعة من زنانة ومرين إلى محبو بن أبى بكر بن حمامة. وبذلك ساعد بنو مرين الموحدين فى تأسيس دولتهم وعملوا على تدعيم كيانها السياسى وتوطيد أقدامها من بلاد المغرب؛ بل أنهم لم يكتفوا بذلك داخل المغرب؛ بل شاركوا فى حركة الجهاد فى الميدان الأندلسى.

ويعتبر أبو محمد عبد الحق بن محبو بن بكر بن حمامة بن زيان بن محمد بن

محمد بن على بن تاشفين بن يحى بن على بن ابراهيم بن اسماعيل بن عمر بن الحسن بن على بن أبى طالب (ابن خلدون) مؤسس هذه الدولة.

وقد تقلد أبو محمد عبد الحق بن محبو زعامة قبيلة بنى مرين بعد وفاة والده ويعتبر عبد الحق أول من قاد قبائل بنى مرين إلى داخل بلاد المغرب الأقصى.

وأن عبد الحق مؤسس الدولة المرينية حاول الانتساب إلى الأصل العربى والنسب القرشى النبوى وأظهر ذلك صراحة عن طريق كتابهم وشعرائهم وعقد أواصر القربى والمصاهرة مع زعماء القبائل العربية المستوطنة بالمغرب وإن كان ذلك لا ينفى بأى حال من الأحوال أصلهم المغربى من بربر زناتة، ولعل هذه السياسة العربية التى انتهجتها هذه الدولة المرينية كان وازعاً ضرورياً لاكتساب الشرعية القانونية فى مواجهة اعتدائها من الموحدين واحتواء القبائل العربية واخضاعها بجوارهم من جهة أخرى إضافة إلى النسب القرشى فنجد أن مؤسس الأسرة المرينية عبد الحق بن محبو يتزوج بشريفة عربية من بنى على الحسنين الشرفاء اسمها «سوط النساء»، وأنجب منها الاوده عبد الله وادريس وعبد الرحمن، ومن ثم حذا حذوه معظم أمراء بنى عبد الحق فى الدولة المرينية؛ فقد تزوجوا من النساء العربيات واستخدموهم فى الحجابة والكتابة.

ولقد كان الفراغ السياسى والعسكرى وسوء أحوال الدولة الموحدية بعد هزيمة معركة العقاب التى وقعت بالأندلس يوم الإثنين ١٥ صفر ٦٠٩هـ، ١٧ يونيو ١٢١٢م، والتى هلك فيها ألوف من خيرة محاربى المسلمين وعشرات الألوف من أبناء البربر. ففى أعقاب هذه الهزيمة فاء يعقوب المرينى إلى دخول المغرب الأقصى وفكروا جدياً فى الاستقرار النهائى ذلك لأن اضطراب الأحوال فى الدولة الموحدية من أثر تلك الهزيمة القاسية فى واقعة العتاب، وما ترتب على ذلك من أحداث قاسية واضطراب الأمور، وما أصاب الحياة من خلل فى جميع النواحى الإدارية، والسياسية، والعسكرية

فى جميع الأحوال فى نواحى البلاد؛ حيث أنه لم تمض على هذه الواقعة خمسة شهور إلا ومات الخليفة الموحدى الرابع أبو محمد الناصر فى ١٠ شعبان ٦١٠هـ/ ٥يناير ١٢١٣م. وبموته تعتبر نهاية الدولة الموحدية بهذه الكارثة العسكرية أصبح بنى عبد المؤمن من الموحدين عاجزين عن حماية دولتهم. ومن ذلك فقد كان ذلك الميعاد والفوضى هو الوقت المناسب لبنى مرين لكى يدخلوا البلاد فى ظل الفوضى السياسية والضعف العسكرى ووفاة عاهل الموحدين وأن يقيموا إقامة دائمة لأنهم كانوا قد دخلوا المغرب قبل هذه الأحداث؛ فإن الموحدين لاشك فى أنهم كانوا سوف يطاردونهم ويقاومونهم ويقضون على وجودهم داخل نطاق الدولة الموحدية. وهكذا كانت أحداث الأندلس والشرخ السياسى فى البيت الموحدى ونتيجة الهزيمة القاسية من الأسباب القوية لدخول بنى مرين إلى المغرب الأقصى.

ولما كانت بنى مرين من القبائل الكثيرة العدد القوية الشكيمة العنيدة ذات الصلابة الحديدية نظراً لظروف المعيشة السابقة؛ فكان لابد لهم أن يستغلوا الظروف الحالكة التى تعيش فيها الدولة الموحدية أحسن استغلال فكانت أنظارهم تتجه لبناء دولة كما أقام المرابطون والموحدون دولا لهم على أرض المغرب.

وبعد أن طاب لهم المقام والاستقرار فى المغرب الأقصى، وعدم تفكير الدولة المنهارة سياسياً وعسكرياً فى طردهم أو القدرة على مقاومة وجودهم فإن بنى مرين بدورهم أرسلوا إلى أشياخ القبائل من بنى مرين فأجمعوا أمرهم وشدوا رحالهم هابطين إلى بلاد المغرب الأقصى للانضمام لإخوانهم ولكى يشدوا أزر إخوانهم ويعملوا سوياً لإقامة الكيان المرينى المرتقب الذى كان يخالج فكر عبد الحق ولما كان دخولهم فى هذه الظروف يجعلهم على حذر وخوف من الدولة التى كانت قادرة فى أقصى ظروف الضعف أن تطردهم فقد عملوا على عدم التركيز فى مكان واحد حتى لا يكونوا تحت

بصر ورقابة الدولة؛ فكانت حركة انتشار واسعة شملت الريف من أقليم تازة وفضلوا الاستقرار في النواحي المرتفعة من المغرب الأقصى لأنها توفر الحماية لهم.

لكن ظروف إقامتهم جعلتهم يتصادمون مع القبائل العربية ومحاولة الحد من سطوة العرب بعد ما أصاب الموحدين من ضعف واضطراب وعدم قدرة على تيسير الأمور وحكم البلاد بالقوة.

وكان أن نشب الصراع بين بني مرين وبين عرب رياح وجشم حلفاء الدولة الموحدية التي بدأت عوامل التفكك والانحلال تدب في أوصالها إذ أنه عندما تمكن الأمير المريني من الاستيلاء على رباط تازا عام ٦١٣هـ / ١٢١٦م، وأخذ يغير غرباً على بلاد الهبط في شمال المغرب دفع الموحدون بأنصارهم من القبائل العربية، وهم عرب رياح التي كانت أشد قبائل المغرب قوة وأحدهم شوكة وعنفاً لحداثة عهدهم بالبداوة والقدرة على مقاومة النفوذ المريني الذي بدأ يظهر. ورحبت رياح بذلك دفاعاً عن بلادهم التي هي بلاد الهبط، والتي استقروا بها. ثم زحف عرب رياح وبربر بني عسكر الذين هم أبناء عمومة بني مرين إلى مقاتلة بني مرين وتقابلوا «بوادي سيو» فانتصر العرب وتمكنوا من قتل الأمير عبد الحق وابنه الأكبر ادريس عام ٦١٤هـ/١٢١٧م. وتولى قيادة القبائل المرينية الأمير عثمان بن عبد الحق.

ويعتبر عبد الحق المريني أول من نقل بني مرين من عيشة البداوة إلى التفكير في بناء دولة في المغرب الأقصى وكان اشتراك بني مرين في القوات التي يرسلها الموحدون للقتال في الأندلس والمغرب قد اكسبهم خبرة قتالية واطلعهم على الازدهار والعمران في المدن، ومن هنا .. تاقت أنفسهم إلى تكوين دولة، وقد ظل بنو مرين طيلة ثلاث سنوات حتى موقعة وادي سيو يعملون على توسيع رقعة نفوذهم في المغرب الأقصى. وقد أدرك الموحدون أن هذا التوسع يهدد دولتهم ومن هنا .. عملوا على القضاء عليهم

فكانت معركة وادى سيو التى لم يتم الانتصار النهائى فيها لبنى مرين. ذلك لأنه أثر قتل عبد الحق وابنه ادريس فإن ابنه السعيد عثمان قرر عدم دفن والده وأخيه إلا بعد أخذ ثأرهما من عرب رياح وفعلاً تمكن من إيقاع الهزيمة بهم وشردهم فى أماكن كثيرة، وغنم معسكرهم وأذعن عرب رياح للخضوع لبنى مرين وفرضوا عليهم اتاوة سنوية، بعد أن استطاع الأمير أبو سعيد عثمان بن عبد الحق أن ينهى الحرب الدائرة بينهم لصالح بنى مرين.

وازدادات قوة بنى مرين بعد هذا الانتصار مما مكن أبا سعيد عثمان بن عبد الحق أن يبذل جهوداً كبيرة لبسط نفوذ بنى مرين على أراضٍ جديدة بعد أن بدأ المرينيون حياتهم السياسية بصراع طويل وسريع ومدمر مع الموحدين استمر ثمانية وخمسين عاماً، ذلك لأن خصوم الموحدين قد دخلوا فى دائرة نفوذ بنى مرين.

وكان انتصار بنى مرين على الموحدين ذا دلالة سياسية أكثر منها دينية لأنه لم يكن لهم مذهب دينى يدعون له كالمرابطين والموحدين، حقيقة أنهم ادعوا أنهم حماة الدين ولكن الفضل فى انتصارهم فى وادى سيبو يعود إلى قوة جيشهم، إضافة إلى أنهم عملوا على استتباب الأمن والعمل لصالح الرعية، ومن هنا كسبوا محبة الناس لهم أكثر مما يعود إلى اعتقاد الناس بأحقيتهم فى العرش، ولم يحصلوا على اثامة كيانهم السياسى نتيجة هذه المعركة؛ بل نتيجة خطوات طويلة ومعارك طاحنة أخذت وقتاً طويلا.

* * * *

الفصل الأول

بداية ظهور الدولة

فى عام ٦١٦هـ/١٢١٩م بلغت الأحوال فى المغرب الأقصى درجة شديدة من سوء الإدارة وانتشار الأمراض وعم الغلاء جميع أوساط الشعب وعجز أمراء الموحدين عن ممارسة سلطاتهم السياسية والدينية وحدث تذمر شديد بين القبائل فى أنحاء المغرب مما دعا الأمير أبا سعيد عثمان بن عبد الحق المرينى زعيم قبائل بنى مرين والطامع فى انشاء كيان سياسى على نمط المرابطين والموحدين دعا كبار القوم فى قبيلته وأشياخ العشيرة من بنى حمام لكى يتدارس معهم الأوضاع الاقتصادية والسياسية وما آلت إليه الأمور فى البلاد، وبعد نقاش طويل أعلن المجتمعون خلع طاعة الموحدين خاصة وأن الموحدين فقدوا سيطرتهم تماماً على القبائل. ولم يعد لهم نفوذ إلا فى المدن الكبرى التى تخضع لحكم الولاة من قبلهم، ولقد كان من السهولة بسط نفوذ بنى مرين على القبائل فى ظل غياب قوة الدولة وضعف مندوبيهم وعدم قدرتهم على تحصيل الجباية والزكاة.

بل إن الأمير أبا سعيد عثمان اتخذ خطوة حاسمة فى سبيل إضعاف كيان الموحدين وبسط نفوذه على المدن توطئه لتوسيع دائرة الكيان المرينى والانطلاق به من السيطرة على القبائل إلى السيطرة على المدن الكبرى؛ فنجد أنه صالح أشياخ مدن قابس ومكناسة ورباط وتازى وغيرها من المدن وتعهد لهم بأن يقف حائلا دون غارات القبائل البدوية على هذه المدن فى نظير الاعتراف بنفوذه السياسى عليهم.

ولقد كان الموقف القوى الذى وقفه أبو سعيد عثمان بن عبد الحق من الخليفة

الموحدى الرشيدى بعد أن عمل الأخير على دفع بنى مرين خارج الأقاليم التى أوغلوا فيها حتى ممرتازا شرق وادى سيبو والنصر الكبير الذى حققه ودخول بنى مرين السهول شمال مراكش ووادى سيبو دافعاً لأن يتحرك أبو سعيد لمحاولة وضع اللبينات الأولى نحو بناء دولة؛ بل أنه لم ينته عام ٦٢٥هـ/١٢٢٨م. حتى كانت جميع قبائل المغرب قد خضعت لهم وتملكوا جميع بوادى المغرب من وادى ملوية التى رباط الفتح.

لكن إزاء هذا التوسع فى دائرة بنى مرين وخضوع القبائل والمدن الكبرى لهم فإن الخليفة الموحدى، وقد أحس بخطورة السعيد بن عثمان المرينى على كيان دولة الموحدين لم يجد أمامه وسيلة إلا الثأر والاغتيال فأرسل فى عام ٦٣٧هـ/١٢٣٩م من يقتل أبا سعيد عثمان غدراً. وهكذا تولى بعده أخوه محمد بن عبد الحق بن حمام المرينى قيادة المرنين نحو تحقيق هدفهم الذى طال أمده أكثر من خمسين عاماً حتى استطاعوا إسقاط دولة الموحدين وبناء دولتهم، ومن هنا .. فقد كان يتحمل عبء الدفاع عن كيان بنى مرين وحمل راية الكفاح ضد الكيان الضعيف للموحدين أن يسير على نهج سلفه، ومن هنا منذ اللحظة الأولى التى تولى فيها محمد بن عبد الحق نجد أنه سار على نهج أخيه أبى سعيد عثمان فقام بفتح الكثير من قلاع بلاد المغرب وأخذ يؤمن المكاسب التى حصل عليها بنو مرين من هدف القبيلة فى عبد الحق، وأخيه أبى سعيد عثمان وانطلق نحو هدف القبيلة فى بناء الدولة.

ودخل محمد عبد الحق مع بنى عسكر الذين هم فرع من بنى مرين فى معارك كثيرة ودارت معركة معهم انتصر فيها ابن عبد الحق على جيش بنى عسكر، لكن هذا الانتصار أفزع الخليفة الموحدى الرشيد الذى بادر بإرسال جيش من الموحدين (بربر مصمودة) والقبائل العربية والفرنجة والمرتزقة وفرسان من الأسبان حتى بلغ الجيش الذى أرسله عشريه ألف مقاتل لقتال بنى مرين، لكن بنى مرين انتصروا للمرة الثالثة على

قوات الموحدين وإزاء هذه الانتصارات لم يجد الخليفة الموحدى الرشيد من سبيل سوى المسالمة والمهادنة لبنى مرين وقد شهد عهد محمد الأول بن عبد الحق استعادة نفوذ بنى مرين فى شمال المغرب واستطاع أن يتغلب على بنى زيان وأخرجهم من أقليم تلمسان؛ حيث قامت دولتهم وقد دامت فترة حكم محمد الأول بن عبد الحق خمس سنوات (٦٣٧هـ-٦٤٢هـ)؛ حيث قتل فى معركة مع قوات الخليفة الموحدى السعيد، وذلك أثر ازدياد قوة المرينين واتساع دائرة نفوذهم فإن الخليفة الموحدى جهز جيشاً للانتقام منهم فما كان منه إلا أن جهز جيشاً من العرب والغز والروم والمصامدة والموحدين ورجال القبائل، والتقى الجيشان بالقرب من فاس وقتل الأمير المرينى محمد الأول الشهير بأبى معروف عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م، ولحقت الهزيمة ببنى ممرين وتركوا فاس وارتدو إلى البوادى والصحراء.

ولقد وضعت هذه المعركة حداً مؤقتاً لاندفاع بنى مرين للاستيلاء على المدن والتدخل فى شئون الحضر والاكتفاء بسيطرتهم على سكان البوادى والصحراء إلا أنهم رغم الهزيمة القاسية وقتل أميرهم إلا أن أشياخ القبيلة وعليه القوم بها بايعوا خليفته وأخاه أبا يحيى أبو بكر بن عبد الحق (٦٤٢-٦٥٦هـ/ ١٢٤٤-١٢٥٨م).

ولقد كانت فترة أبى بكر من أهم الفترات التاريخية فى حياة بنى مرين إذ وقع على كاهله مسئولية الحفاظ على كيان بنى مرين والإبقاء على قوة الدفع لبناء وتأسيس دولتهم وحمايتها من المخاطر، ومن هنا .. كان عليهم الوقوف أمام الموحدين والكيد لهم انتقاماً لقتل العديد من رؤسائهم (عبد الحق وابنه ادريس، والسعيد عثمان ابن عبد الحق ومحمد الأول بن عبد الحق)، ولقد كان عهد أبى بكر عهداً شهد حسم الصراع مع الموحدين إذ أن ذلك الأمير قد جعل استقلال بنى مرين أمراً طبيعياً وواقعياً؛ حيث دخل فى صراع طويل مع الموحدين تمكن فيه من التغلب عليهم ودخل قابس

ومكناس ووصل سلطانه إلى شاطئ البحر واحتل سلا والرباط وعلى يديه قامت دولة مرين وعاصمتها فاس.

لكن السعيد الموحدى تبعه بحشود من العرب، والتقى به بالقرب من تامسينا وانتهى الأمر بهزيمة بنى مرين وانسحابهم من أرض المعركة، لكن بنى مرين استغلوا فرصة مقتل السعيد الموحدى فى صراعه مع بنى زيان وتمكنوا من استعادة رباط تازا ومكناسة وفتح فاس وضواحيها حتى أنه لم يبق بيد الموحدين غير بلاد الحوز الجنوبية.

وفى ظل هذه الانتصارات التى كان لابد من تأمينها والحفاظ عليها فاستعمل أبو بكر أسلوباً سياسياً بارعاً، وهو الاعتراف بالتسمية للخلافة الحفصية فى تونس والتعاون معهم للتعاون فى وقف خطر بنى زيان وادخال قوى جديدة فى الصراع فى المغرب الأقصى هى قوة بنى حفص واستخدامها فى ضرب التعاون الزيانى الموحدى، بعد أن ظل خلفاء الموحدين يحكمون ٦٤٦هـ/١٢٤٨م.

وفى حقيقة الأمر .. فإن الأمير أبا بكر بن عبد الحق يعتبر أول الكبار من أمراء بنى مرين وهو أول سلاطين بنى مرين وإن كان هو رابع شيوخهم الذين قامت على أكتافهم اللبنات الأولى لبناء الدولة وكان أبو بكر من الذكاء والحكمة والكياسة السياسية؛ حيث أنه وجد نفسه بين قوتين بنى زيان والموحدين فما كان منه إلا الاحتماء والالتجاء إلى بنى حفص فى أفريقية وقام بنو حفص من جانبهم بمساعدة بنى مرين وتدمير تحالف (بنى زيان - الموحدين) والاستيلاء على تلمسان عاصمة بنى زيان عام ٦٤٠هـ/١٢٤٣م. ومن ذلك الموقف والتاريخ بدأ بنو مرين يحافظون على مظهر التبعية لبنى حفص.

وخلال فترة حكم أبى بكر عبد الحق التى امتدت أربعة عشر عاماً .. فإنه عمل

على توطيد دعائم حكمه داخلياً بعد أن آمن خطر بنى زيان خارجها فعمل على تأمين الجبهة الداخلية وتقسيم مناطق النفوذ المرينى فى المغرب الأقصى بين القبائل وأنزل كل قبيلة فى مكان محدد لها ومسئولية كل قبيلة فى حماية منطقتها ثم العمل على تقليص النفوذ الموحدى والاستيلاء على ما تبقى من المدن الكبرى. ووحد أبو بكر صفوف بنى مرين وحشد الخليفة الموحدى السعيد جيشاً كثيفاً يعاونه زعيم بنى زيان يغمراسن بن زيان حاكم تلمسان بقوة تزيد على الألف فارس وحشد الموحدون جمع القبائل المعادية لنفوذ بنى مرين معهم فى القتال لكن ذلك التحالف لم يجعل أبا بكر يتخلى عن موقفه فى ضرورة الاستيلاء على مدن الموحدين والتمكين لبناء الدولة.

الأمير عبد الحق وخطوات الإعداد لإنشاء الدولة المرينية
٦٤٢هـ - ٦٥٦هـ / ١٢٤٤م - ١٢٥٨م

لم يمض عام واحد على تولية أبى بكر قيادة المسيرة المرينية نحو بناء دولة وكيان سياسى لهم حتى استطاع السيطرة على مدينة مكناس ذلك أنه فى عام ٦٤٣هـ/١٢٤٥م خضعت المدينة لبنى مرين وخلعت طاعة الموحدين وفتحت المدينة أبوابها لبنى مرين سلماً وأرسل أهل مكناسة بيعتهم إلى الأمير الحفصى أبى زكريا نكاية الموحدين ومحاولة اصباغ الشرعية على ما يقوم به بنو مرين من الاستيلاء على أراضى الموحدين ومحاولة كسب التأييد الشعبى ببيعتهم لبنى حفص فى أفريقية وكان استيلاء بنى مرين على مكناسة ضربة قوية للخليفة الموحدى السعيد وها هو يشاهد دولة الموحدين تتمزق اربا أمام عينيه فالحفصيون سيطروا على أفريقية وبنو زيان يسيطرون على المغرب الأوسط ويبسطون نفوذهم على أبواب المغرب الأقصى وأقاموا هذه الأرجاء

الدعوة لبنى حفص وبنى هود واقتطعوا أجزاء من الأندلس وأقاموا الدعوة لبنى العباس وبنى الأحمر في غرناطة وأقاموا الدعوة لبنى حفص وهؤلاء بنو مرين لا يمر عليهم يوم دون اقتطاع أجزاء من المغرب الأقصى فسيطروا على ضواحى المغرب الأقصى ثم فتحوا مكناسة أخيراً وأقاموا فيها الدعوة لبنى حفص حكام أفريقية.

لكن لم ينته عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م، حتى كان الخليفة الموحدى السعيد قد قتل، ومن معه على أيدى بنى زيان وكان مقتل السعيد الموحدى فاتحة أمل لبنى مرين لأنه بعث جديد لهم وكان على أبى بكر بن عبد الحق أن يعترض فلول الموحدين المشحبة من المغرب الأوسط أثر مقتل سلطانها؛ حيث فروا إلى مراكش وتم له ذلك واستطاع أن يضم عدداً أكبر من جيش الموحدين إليه ثم يتجه نحو مكناسة للمرة الثانية وفتحها واتجه إلى رباط تازا وفتحه مسرعاً قبل أن يتجه إليه يغمراسن بن زيان لفتحه وضمه لأملاكه فى المغرب الأوسط.

لكن أهداف بنى مرين لم تتوقف عند فتح مكناسة وضمها إلى ديارهم ولكن كان الهدف هو السيطرة على كل أرجاء المغرب وأقصاء الموحدين من البلاد فكانت الخطوة الثانية مدينة فاس للعمل على انتزاعها بكل السبل والوسائل من أيدى الموحدين فحاصرها الأمير أبو بكر يحيى بن عبد الحق حصاراً شديداً وشدد عليها الحصار حتى خرج إليه أشياخها وتمت مبايعته خارج أسوارها ثم دخلها أبو بكر فى ربيع ثانى عام ٦٤٦هـ/١٢٤٩م، وبذلك خضعت فاس لسيطرة بنى مرين، وخلعت طاعة الموحدين وظل الأمير أبو بكر المرينى مقيماً بالمدينة أكثر من عام، لكن بعد مغادرته المدينة خلع أهلها البيعة والارتضاء ببيعة الخليفة الموحدى المرتقى، وعاد الأمير المرينى إلى المدينة لفتحها عنوة، لكن الأحداث لم تكن فى صالح أبى بكر وبنى مرين، ذلك أن يغمراسن بن زيان زعيم بنى عبد الواد فى المغرب لاأوسط انتهز فرصة ثورة

سكان فاس وخلعهم طاعة المرنين فأراد الاستيلاء على أقليم رباط نازى الذى كان يخضع فى الماضى لحكم بنى زيان أيام الموحدين وحكموه فترة طويلة، وفى نفس الوقت كان الخليفة المرتضى الموحدى قد راسل سراً حاكم المغرب الأوسط يغمراسن ابن زيان ليقف فى وجه بنى مرين، لكن زعيم عشائر بنى مرين غير اتجاه الحملة العسكرية من طريقها إلى فاس إلى الاتجاه المضاد نحو رباط تازى بدلاً من فاس وليقابل يغمراسن الذى سيطر على وجده ودارت معركة شرسة عند مدينة (اسيلى) فر بعدها يغمراسن إلى تلمسان وكانت هذه المعركة أول لقاء مباشر بين قوات بنى مرين وقوات بنى زيان وبعد هذا الانتصار عاد الأمير أبو يحيى المرينى عام ٦٤٧هـ/١٢٥٠م إلى فاس وأحكم قبضته عليها وطلب أهلها الصلح فدخلها الأمير المرينى فى جمادى الآخرة عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، وشدد على أهلها وتوطد النفوذ المرينى والسلطة المرينية فى هذه المدينة.

الخطط العسكرية :

ثم بعد ذلك كان على بنى مرين أن يسيروا فى نفس المنهج الذى اختطوه لأنفسهم بمتابعة فتح المدن والحصون والقلاع التى تخضع للموحدين وضرورة حصر الموحدين فى نطاق ضيق حول عاصمتهم مراكش فكان عليهم أن يوسعوا دائرة المدن تحت قبضتهم ففتحوا مدينة سلا ورباط الفتح وكانت خطة بنى مرين العسكرية فى ذلك الاستيلاء على هاتين المدينتين والهدف منها قطع الصلة بين الموحدين وبين شمال المغرب الأقصى وبذلك لايكون لهم أدنى صلة بهذه النواحى والبقاء محاصرين فى منطقة جنوب المغرب الأقصى.

ولكن على الجانب الآخر لم يكن الخليفة المرتضى الموحدى غافلاً من خطط

المرينين وما يريدون القيام به فقرر أن يبدأ بالهجوم بهدف إيقاف زحفهم نحو سلا ورباط الفتح والنقى المرتضى الموحدى ومعه قواته من بنى مرين بالقرب من مكناسة واستطاع المرينيون هزيمة الموحدين بسهولة، وكان ذلك بخدعة وحلت بالموحدين هزيمة دون قتال وكان ذلك دليلاً على ما أصاب القوى الموحدية من انهيار وتحاول الوقوف أمام بنى مرين، وسيطروا على بلاد زناتة وسلا ورباط الفتح عام ٦٤٩هـ/١٢٥١م.

وكان خضوع هاتين المدينيتين (سلا ورباط الفتح) قد دفع موسى بنى زيان التوكاسى وأخاه على بن زيان بالالتجاء إلى المرتضى الموحدى محرضين إياه على قتال أبى يحيى بن عبد الحق وإزاء حشود المرتضى طلب بنو مرين السلام والصلح، ولم يقبل المرتضى ذلك بتأثير وزرائه الذين أفتوا بعدم جواز وجود ملكين فتقابل الجيشان فى (أمان ليملول) وانسحب بنو مرين من ميدان القتال وخاف الموحدون أن يكون الانسحاب خدعة فلم يتبعوهم.

وفى عام ٦٥٣هـ/١٢٥٥م حشد المرتضى جيشاً ضخماً بلغ تعداده مائتى ألف مقاتل وسارية حتى وصل إلى قرب فاس وجبال بهلولة والتقى بالأمير المرينى أبى بكر يحيى وللمرة الثالثة يهزم الموحدين بدون قتال، وفر الخليفة إلى مراكش وترك قواته وعدته وعجلت قواته بالانسحاب تاركين خلفهم بعض آلاتهم ومضاربهم فضمها بنو مرين بدون قتال. وازدادت قوة بنى مرين بما غنموه فسارعوا بمهاجمة بلاد تادلا وقضوا على حاميتها من عرب جشم وقدمت له القبائل خضوعها ومنذ هذا الوقت صار اضمحلال دولة الموحدين وانهائها من مسرح الأحداث سريعاً واستعادتها بنو مرين.

وكانت هزيمة الموحدين فى موقعة جبل بهلولة ضربة قاضية للموحدين مما اضطر الأمير المرتضى إلى طلب الصلح مع المريين وأرغموه على دفع الجزية واكتفى

بما لديه من من مناطق يحكمها تمتد إلى جنوب المغرب الأقصى لكن بنى مرين كانت لديهم أمالهم وطموحاتهم باقتلاع جذور الموحدين تمهيداً لإقامة دولتهم بالمغرب الأقصى دون أن تنازعهم فى تلك الأماكن قوة أخرى وتمكن بنو مرين بفضل مساعدة ومخالفة عرب المعقل من الاستيلاء على درعه وسجلماسة جنوباً عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م.

وقد استغل بنو مرين الصلح مع المرتضى وتم الاستيلاء على سجلماسة ودرعه، وكان الاستيلاء على سجلماسة عن طريق انقلاب ضد حاكم المدينة وليس عن طريق القتال والحشد العسكرى والحصار. وكان يعمراسن بن زيان حاكم تلمسان قد تحرك لأخذ سجلماسة؛ حيث راسله بعض أهلها ولكن يغمراسن فوجئ بوصول الأمير المرينى أبى بكر يحيى بن عبد الحق ودارت بينهما معركة انسحب بعدها يغمراسن بعد أن تأكد من تمكن بنى مرين من سيطرتهم على المدينة.

وبعد أن سيطر بنو مرين على سجلماسة ودرعه ظل الأمير أبو بكر يعمل طوال العامين ٦٥٥هـ، ٦٥٦هـ على تثبيت أقدام بنى مرين فى سلا ورباط الفتح وسجلماسة حتى توفى فى جمادى الآخرة عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. وبوفاة الأمير أبى بكر بن عبد الحق انتهت مرحلة استيلاء بنى مرين على المدن الكبرى فى المغرب الأقصى وبدأت مرحلة جديدة لها أهميتها فى بناء قواعد الدولة الجديدة التى ستمارس دورها على مسرح الأحداث فى المغرب والأندلس وفى عالمها المعاصر.

بويع عمر بن أبى بكر بن عبد الحق المرينى بعد وفاة أبيه ليتولى أمر بنى مرين، لكن أشياخ بنى مرين وأهل الحل والعقد وقادة الفكر والدين لم يقبلوا تولية أمر الإمارة رغم رضاء عامة الشعب وقادة الجيش ذلك لأن الخاصة من أهل الرأى كانوا يرون أن عمه يعقوب بن عبد الحق الذى كان خارج فاس فى مدينة تيازى عند وفاة أخيه هو

الأحق بقيادة مسيرة بنى مرين للقضاء نهائياً على دولة الموحدين، لكن الأمور لم تستقر وظلت طوال أربعة شهور ولم تتفق الأمة على عمر بن أبى بكر مما دفع الأمير يعقوب ابن عبد الحق للقدوم إلى فاس ساعياً لإنهاء الأوضاع المتردية بالمدينة وتهدئة الأحوال بين بنى مرين وحسم الأمر الذى كان مقسماً بين عمر وعبد الحق وتنازل عن الحكم لابن أخيه عمر ليتولى العرش على أن تكون له بلاد نازى يحكمها إضافة إلى ملوية وبطوية، لكن شيوخ بنى مرين لم يقبلوا بالتنازل وأصروا على مبايعة يعقوب وأمام أمراء المشايخ والخاصة وأهل الرأى والقرار القوى من جانب مؤيديه فإنه قبل تكليفهم له فلما علم عمر بن أبى بكر بذلك خرج لقتال عمه عبد الحق لكنه انهزم وتنازل عن قيادة بنى مرين لعمه يعقوب وتولى عمر حكم إمارة مكناسة، فصار يعقوب بن عبد الحق أميراً منتخباً من قبل الخاصة، وأهل الحل والرأى، وهكذا .. وطد وضعه وشرعيته أمام الشعب.

بنى مرين تحت قيادة يعقوب بن عبد الحق
٦٥٧ – ٦٨٥هـ / ١٢٥٩ – ١٢٨٦م

بوفاة الأمير أبى بكر عبد الحق كان نفوذ الموحدين ينحصر فى المنطقة الواقعة بين وادى أم الربيع وبين عاصمتهم مراكش وأما بنو مرين فقد امتد سلطانهم ما بين ملوية وأم الربيع وسجلماسة وكانت القبائل العربية فى المغرب الأقصى تميل أحياناً إلى الموحدين وأخرى إلى بنى مرين وجدير بالذكر أن قيام دولة بنى مرين لم تعتمد على سواعد ومساندة العرب؛ بينما كان الموحدون يعتمودن كثيراً على القبائل العربية.

وكان الأمير يعقوب سيد بنى مرين من الشخصيات القوية، وكان له باع طويل

فى الحركة السياسية والبناء السياسى فى بلاد المغرب والأندلس وأنه ما كادت أوضاع بنى مرين تستقر فى بلاد المغرب حتى عمل على حفظ السلام وخدمة أهداف بنى مرين والوقوف بحزم وقوة ضد محاولات طرد المسلمين من الأندلس، وقد تعرض بنو مرين إلى عدة هجمات من جانب بنى زيان.

وكان يغمراسن بن زيان حاكم تلمسان يرى فى الصراع الدائر بين عمر بن أبى بكر وعمه يعقوب بن عبد الحق فرصة مناسبة للقضاء على يعقوب وتحقيق أهدافه فى التوسع غرباً فى المغرب الأقصى وأن تقسيم المغرب بين فاس (عبد الحق بن يعقوب) ومكناسة (عمر بن أبى بكر بن عبد الحق)، قد تمزق، وأن هناك عداء مستحكماً بين عمر بن أبى بكر حاكم مكناسة وعمه يعقوب فى فاس، وأن هذه الفرصة تمكنه من القضاء عليهم فجمع يغمراسن بن زيان جيشاً كبيراً، وضم إليه القبائل من بنى توجين ومغراوة البربرية وبنى عامر حلفائه من القبائل العربية ووصلت أنباء هذه الحشود إلى الأمير يعقوب بن عبد الحق فخرج بجيشه من بنى مرين والتى بيغمراسن عند بلدة، كلديان، وانهزم بنو زيان وانسحب يغمراسن بن زيان.

وكانت الجبهة الداخلية قد أصابها التصدع أثر الصراع بين عمر بن أبى بكر وعمه يعقوب؛ فعمل الأخير على تأمينها لكى يستطيع أن يواجه الموحدين وكان قد تم قتل منافسه عمر بن أبى بكر عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م. وبمقتل الأمير عمر بن أبى بكر عادت مكناسة إلى حكم يعقوب وجددت له البيعة وبذلك توحدت الأراضى المرينية تحت حكم يعقوب. واستطاع يعقوب بعد ذلك أن ينزع مدينة سلا من حكم أحد أفراد بنى عبد الحق الذى استعان بالأسبان فتم طردهم منها عنوة، وهكذا .. خضعت سلا ليعقوب بن عبد الحق، وبعد أن أتم الأمير يعقوب بن عبد الحق تنظيم شئون سلا وأصلح ما تخرب فيها وأمر بإعادة الحياة إلى مرافقها عين أحد رجاله عليها.

وبعد ذلك زحف بنو مرين بقيادة يعقوب بن عبد الحق إلى تامسينا شمالاً فواجهتهم القوات الموحدية فانسحبوا إلى وادى أم الربيع بعد أن اتفقوا مع عرب بنى جابر من جشم بالتخلى عن الموحدين عند نشوب المعركة ووقع الموحدون فى الفخ وانهزموا وانضم شيخ عرب الخلط إلى السلطان يعقوب المرينى الذى استولى على مدينة تامسنا وكذلك مدينة آنفا وهى المسماة حالياً بالدار البيضاء ثم استمر فى زحفه جنوباً حتى انتهى إلى جبل الجلبرا بالغرب من مدينة مراكش عام ٦٦٥هـ/١٢١٢م، وهكذا سيطر بنو مرين على معظم بلاد المغرب وبذلك وصل النفوذ الفعلى لبنى مرين حتى وادى أم الربيع، ومن هنا .. فقد قربت نهاية الخليفة المرتضى بالله الموحدى ودب الذعر فى صفوف الموحدين وارتاب المرتضى فى أنصاره من العرب واعتقل بعض زعمائهم وقتل جملة منهم ثم عهد لابن عمه أبى ديوس بقيادة الجيش الموحدى واستطاع أبو دبوس أن يوقف زحف السلطان يعقوب المرينى ويقتل بعض كبار قواده.

لكن صلحاً تم بين الخليفة المرتضى والسلطان يعقوب اعترف فيه خليفة الموحدين بالوجود المرينى وما وصل إليه من سيطرة على المدن والأراضى التى تحت يديه. وبعد معاهدة الصلح هذه مع الموحدين اتجه السلطان يعقوب بن عبد الحق إلى الشرق؛ حيث دولة بنى زيان فى تملسان فعقد صلحاً مع يغمراسن بن زيان والتقى الطرفان عند مكان يسمى (جوهربان) وأسفر هذا اللقاء عن صلح آخر مع بنى زيان قصد معه المحافظة على السلم بين الطرفين ووضع نهاية للصراع العسكرى بينهما.

والذى يدرس تاريخ تلك الفترة، وما تم فيها من معاهدات للصلح بين الأطراف الثلاثة يدرك أن الكيان السياسى لبنى مرين قد توطد واعترفت به القوى الأخرى وأن ما تم هو توزيع لمناطق النفوذ بين القوى الثلاث المتصارعة فى المغرب الأوسط والأقصى (بنى زيان، الموحدين، بنى مرين).

لكن الصلح مع الموحدين لم يدم فترة طويلة ذلك لأن المرتضى الموحدى كان يشعر بالخطر المرينى المحيط به ويدرك نوايا أبى يعقوب بن عبد الحق فى القضاء على دولته وأن نوايا بنى مرين لم تكن إلا تحقيق أهدافهم، ومن هنا .. فلا بد من جولة جديدة من القتال مع بنى مرين ولم يأت عام ٦٥١هـ/١٢٦٠م إلا وكانت قوات الطرفين تلتقى للقتال مرة أخرى عند مضيق أم الربيع وكعادة الموحدين كان اعتمادهم على العرب فشملت هذه الجولة جميع القبائل العربية فى المغرب الأقصى والتى منها قبيلة شعبان والخلط والاثبج وبنى جابر والعاصم وقوات من الروم والموحدين وكان ميدان المعركة فى مكان تنحسر عنه مياه الوادى ودارت الدائرة على الموحدين ولحقت بهم الهزيمة بسبب انسحاب عرب بنى جابر. وتركت هذه الهزيمة آثارها النفسية على سكان العاصمة مراكش وخشى القوم زحف قوات بنى مرين إليها؛ حيث تركت العاصمة دون حماية عسكرية، ودون دفاعات قوية، ولم تمض إلا أيام قليلة حتى كان السلطان أبو يعقوب بن عبد الحق بعد قواته وسار بها نحو العاصمة مراكش وكانت قوات الموحدين بقيادة أبى العلاء ادريس بن عم الخليفة المرتضى والمشهور بأبى ديوس الذى كان قد أبلى بلاء حسنا فى المعركة.

غير أن الهدف الهنائى لبنى مرين كان اسقاط خلافة الموحدين والسيطرة على دار الخلافة فى مراكش، ومن ثم .. فإن جهودهم لم تتوقف ففى عام ٦٦٣هـ/١٢٦٤م تقدم أبو يعقوب بن عبد الحق وخلفه جيش جرار نحو العاصمة بهدف الاستيلاء عليها، وهناك بايعته القبائل التى تقطن بالمناطق المحيطة بالعاصمة من عرب ومصامدة واكتفى أوى يعقوب بإظهار قواته وإرهاب الخليفة، ومن ثم .. عاد أدراجه مرة ثانية إلى فاس غير أن مثيرى الفتن سعوا عند الخليفة المرتضى وأوهموه بأن أبا دبوس بن عمه يطلب الأمر لنفسه وشعر أبو دبوس بهذه الوشاية، وخشى من بطش

الخليفة المرتضى فقر إلى فاس وأن الخليفة المرتضى أدرك عن رجاله بأنه مراسلات سرية متداولة بين بنى مرين وأبى دبوس وأن أبا دبوس عقد مفاوضات بينه وبين ابن أبى يعقوب عام ٦٦١هـ/١٢٧٣م، وطلب منه أن يعينه بقوة من عنده تعينه على دخول العاصمة مراكش على أن يشركه بعد ذلك فى الفتح والغنيمة فاستجاب السلطان يعقوب إلى طلبه وأمده بخمسة آلاف من بنى مرين وأهاب بالقبائل والعرب من أهل مملكته أن يكونوا معه يداً واحدة وسار أبو دبوس بهذه الكتائب ومعه زعماء القبائل العربية وافتتح أبواب العاصمة واستقل بالحكم فيها عام ٦٦٥هـ/١٢٦٦م، وتلقب بالواثق بالله؛ بينما فر المرتضى إلى مدينة أزمور واستتب الأمر لأبى دبوس وأصبح خليفة الموحدين ووصلت أنباء استيلاء أبى دبوس على السلطة فى مراكش فأرسل أبو يعقوب إليه طالباً الدخول فى طاعته لكن رفض طلبه فقرر أبو يعقوب يوسف الهجوم على مراكش وحشد قوات ضخمة وأطلق جيشه المرينى فى جهات مراكش، لكن أبى دبوس لما رأى أنه لاقبل له بتلك القوات أرسل إليه، بالوفاء بما عاهده عليه، لكن القبائل العربية بايعته وأيضاً يغمراسن بن زيان وشعر أبو دبوس أنه يستطيع مواجهة بنى مرين، ومن ثم .. ذهب أبو يعقوب لحصار مراكش للمرة الثانية وضيق الحصار على الموحدين، مما جعل أبا دبوس يستمد العون من بنى زيان وقامت قوات بنى زيان من توها بالهجوم على أطراف المغرب الأقصى وخاصة ملوية، فرفع أبو يوسف الحصار عن مراكش وسار للقاء بنى زيان وتقابل الطرفان فى وادى تلاغ ولحقت الهزيمة ببنى زيان.

بعد أن آمن أبو يعقوب مكر بن زيان خرج فى شعبان ٦٦٦هـ/١٢٦٨م فى حشود كبيرة وعبر وادى أم الربيع ودمر كل عناصر الحياة الاقتصادية لإضعاف أبى دبوس واستمرت هذه العمليات حتى نهاية ٦٦٦هـ/١٢٦٨م.

معركة وادى غفو ومولد دولة بنى مرين

فى أواخر عام ٦٦٧هـ/١٢٦٨م استعد أبو دبوس للحرب ولقاء أبى يوسف وخرج من مراكش بعد أن استدرجته قوات بنى مرين وتظاهر أبو يوسف بالفرار حتى يتم ابعاده عن عاصمته، ومن ثم .. قطع الطريق عليه للعودة والاحتماء بأسوار العاصمة ونزل أبو دبوس بوادى غفو، بعد أن كان الخليفة الجديد قد نقض العهد وتنكر لاتفاقه الأخير مع أبى يعقوب بن عبد الحق المرينى فتحرك الآخر لمحاصرة مراكش بهدف القضاء النهائى على نظام حكم الموحدين ومهد لذلك لغزو عرب الخلط من جشم ببلاد تادلا فأوقع بهم وانحاز على أحواز مراكش مما أغضب شيوخ العرب والمصامدة على أبى دبوس واتهموا بالخوف من مقاتلة بنى مرين رغم ما أنزلوه من دمار ببلادهم وما سلبوه من أموالهم فاضطر أبو دبوس إلى القتال وكان وادى غفو هو المكان الذى احتدم فيه القتال بين الطرفين وحاول أبو دبوس الفرار من المعركة إلى مراكش لكنه قتل، وكان ذلك فى يوم الأحد ٢ محرم ٦٦٨هـ/١٢٦٩م، وتعتبر معركة وادى غفو نقطة تحول فى تاريخ دولة بنى مرين إذ كان ذلك إيذاناً بمولد دولة جديدة وإنهاء دولة الموحدين من مسرح الحياة السياسية فى بلاد المغرب والأندلس، وتقدم أبو يوسف إلى العاصمة مراكش فدخلها بعد سبعة أيام من المعركة، وكان ذلك فى التاسع من المحرم ٦٦٨هـ/١٢٦٦م، وأصبح دخول العاصمة إعلاناً رسمياً بقيام الدولة المرينية التى أصبحت تسيطر على سائر بلاد المغرب الأقصى من وادى ملوية وجبال الأطلس الوسطى شرقاً وحتى المحيط الأطلنطى غرباً، ومن رباط تازى وجبال غمارة شمالاً حتى مراكش ووادى تتسبقت جنوباً وغدت هذه الدولة تقوم بدورها فى خدمة الإسلام وبناء صرح الحضارة الإسلامية فى بلاد المغرب وتلقب أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بلقب أمير المؤمنين ورغم اتساع دولته ونجاحه فى القضاء على دولة الموحدين إلا أنه ومن جاء

بعده من بنى مرين لم يحملوا لقب الخلافة واكتفوا بلقب أمير المسلمين، ناصر الدين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، ملك البحرين، وملك العدوتين.

ويعتبر أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المحارب الولى الذى بنى صرح هذه الدولة.

وقام أبو يوسف يعقوب باستكمال بناء الدولة بجهود ضخمة وقوية من أجل تثبيت دعائم البناء الجديد وفرض سيطرتها وقوتها على كافة الأقاليم وقد نجح بنو مرين فى ذلك فى فترة سريعة لأن حركتهم كانت حركة سياسية بحتة لم تكن ذات طابع دينى أو فكر إسلامى تدعو له كما فعل المرابطون والموحدون من قبل فلم يتخذ بنو مرين وسيلة لإثارة المشاعر الجماهيرية، وإنما كان شعارهم هو إقامة دولة ذات حكم سياسى يراعى مصلحة البلاد ويحافظ عليها وشعور الأهالى بالأمن والأمان فى ظل حكم الدولة الجديدة، وفى ضوء هذا الشعار الذى رفعه بنو مرين سار أمير المؤمنين أبو يوسف بن يعقوب وبذل جهوداً لإخضاع بقية الأقاليم، والتى منها أقليم السوس ودرعه وفضلاً عن طنجة وسبتة التى كانت تقع خارج منطقة نفوذ الموحدين، وكان لابد من تأسيس الدولة ضد أية مخاطر خارجية وكان الخطر الزيانى وزعيمه يغمراسن بن زيان يمثل حجر عشرة أمام انطلاق بناء الدوة الجديدة، والذى كان يسعى لبسط نفوذه الفعلى على أقليم سجلماسة، والذى كان تابعاً لبنى مرين.

وكان أبو يوسف يعقوب هو الذى نظم القبائل العربية ودفع بها إلى محاربة الأقاليم التى لازالت خارجة عن طاعته فنزلت قواتهم حتى واجه توات، وتأقللت، وضموا إليه أودية المولوية ودرعه وتوغلوا فى بلاد السوس الأعلى، وكان أبو يوسف يعقوب قد أرسل ابنه على رأس حملة كبيرة إلى بلاد السوس وتمكنت من اخضاع الأقاليم وقام هو بنفسه بغزو وادى درعه، ومن به من العرب، ونقل هؤلاء العرب إلى

مراكش ليكونوا تحت رقابة الدولة ثم قام عام ٦٦٦هـ/١٢٧١م بحملة إلى رباط الفتح وغادرها إلى سلا وهناك أصابه المرض وطلب ولاية العهد لابنه مالك بن عبد الواحد وهذه أول مرة يتم فيها مراسم تعين ولى عهد فى الدولة الجديدة، وعمل أبو يوسف وابنه مالك على إخضاع القبائل العربية، وطلب الثوار مغادرة الأراضى المرينية إلى تلمسان وانتقل بعضهم إلى تلمسان وغادروها بعد ذلك إلى الأندلس.

وبعد عودة أبى يوسف إلى فاس توفي ولى عهده أبو مالك فى صفر ٦٦٧هـ/١٢٧٢م، ومن ثم .. أخذت البيعة من أشياخ بنى مرين والعلماء والفقهاء والقاضى وعمال الأقاليم بولاية العهد لولدة الأمير يوسف وكان لهذه الجولة التى قام بها أبو يوسف يعقوب فى هذه المناطق حديثة الانضمام للدولة الجديدة أثرها فى استقرار الأمن والأمان وإحساس القبائل وسكان المدن بالولاء للدولة الجديدة، ومن ثم اتجهت أنظار ابن عبد الحق إلى الاستيلاء على سبتة وطنجة وذلك لما لهما من أهمية كبرى نظر لأنها ثغر العدوة المغربية ومرفا السفن والأساطيل وبها دور صناعة السفن والآلات البحرية كما أنهما المعبران الوحيدان إلى الأندلس؛ حيث ميدان الجهاد الإسلامى الذى كان ينظر بنى مرين؛ ففى عام ٦٧٢هـ/١٢٧٣ تحرك أبو يوسف نحو طنجة ووصل أمير المسلمين ابن عبد الحق إليها أوائل عام ٦٧٢هـ/١٢٧٣م، وثم فتح طنجة وبعد الانتهاء من تنظيم الأوضاع الداخلية بالميناء الهام أرسل أبو يعقوب ابنه يوسف للاستيلاء على سبتة ودخل حاكم المدينة ابن الغرفى فى طاعة بنى مرين. وكان ضم سبتة وطنجة مفتاحاً للعبور إلى الأندلس أمام بنى مرين وتم للمرة الأخيرة ضم أقليم سجلماسة للدولة فى صفر ٦٧٣هـ/١٢٧٤م، وبسقوط سجلماسة أكمل بنو مرين سيادتهم على جميع أراضى المغرب الأقصى واتخذ ابن عبد الحق من فاس عاصمة للدوة المرينية الجديدة، كما أنه رأى ضرورة وجود عاصمة جديدة له؛ حيث بنى قصراً

ومستقراً له وحاشيته ومركزاً لإدارته ومعسكراً لقواته فما كان منه إلا أن أصدر فى شوال ٦٧٤هـ/١٢٧٥م أمره ببناء عاصمة جديدة، سماها فاس الجديدة، وقد أطلق على هذه المدينة البيضاء بينما ظلت فاس القديمة مركزاً للتجارة والعلم وأتاح بناء فاس الجديدة لفاس القديمة أن تحافظ على سكانها القدامى المستقرين بها.

* * * *

الفصل الثانى ـ الفصل الثالث

جهاد بنى مرين فى الأندلس

سارت دولة بنى مرين على سياسة أسلافها المرابطين والموحدين التى تقوم على حماية الأندلس ومسلميه من أطماع جيرانهم المسيحيين وكانت الأندلس على عهد الدولة المرينية قد اقتصرت حدودها على مملكة غرناطة فى جنوب شرق الأندلس، وكان ملوك بنى الأحمر أبو بنى نصر الذين يرتفع نسبهم إلى سعد بن عبادة الأنصارى سيد الخزرج على عهد الرسول ﷺ يحكمونها. ولا شك أن مملكة صغيرة محاطة بالأعداء مثل غرناطة كانت فى حاجة إلى مساعدة جيرانها وأخوانها فى الدين والعقيدة بالعدوة المغربية، ولقد استجاب سلاطين بنى مرين إلى هذا النداء وقادوا الجيوش وأرسلوا الحملات عبر المضيق لمساعدة أخوانهم الغرناطيين من جهة والاحتفاظ ببعض القواعد الجنوبية الأندلسية التى تضمن لهم السيطرة على مضيق جبل طارق من جهة أخرى.

ولقد كانت نظرة بنى مرين إلى ميدان الأندلس مباشرة بعد إتمام سيطرتهم على المغرب الأقصى فى استئناف سياسة الجهاد الإسلامى ضد نصارى الأندلس، والمرينيون بهذه السياسة يتميزون عن معاصريهم من الحفصيين، وبنى زيان، فالحفصيون وبنو زيان لم تكن لديهم هذه السياسة للعمل والجهاد فى الميدان الأندلسى. وقد بدأ بنو مرين عملهم فى الميدان الأندلسى فور عودة أبى يوسف من فتح سجلماسة إذ أنه أثر عودته وصل وفد من السلطان محمد الفقيه سلطان غرناطة شرح تدهور أوضاع المسلمين فى الأندلس ويطلب المدد والعون والمآزرة من بنى مرين.

وكان الأمير عبد الحق قد وجه قوات مرينية بقيادة أبناء أخيه عام

٦٦٠هـ/١٢٦١م إلى الجهاد فى الأندلس؛ حيث كانت هذه أول قوة مرينية عاملة فى الميدان الأندلسى وبذلك وجهه الأمير يعقوب المرينى طاعة الثائرين عليه من البيت المرينى إلى حرب أعداء الإسلام فى الأندلس.

وكانت قوات قشتالة بقيادة ألفونس العاشر قد قامت بمهاجمة الأراضى الأندلسية فقام ابن الأحمر قبل وفاته عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م بتوجيه نداء إلى أمير المسلمين السلطان المرينى أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور يطلب عوناً ومساندة، لكن العون والمساندة لم يصلا إلا بعد وفاة ابن الأحمر أيام ولده محمد الثانى الملقب بالفقيه (٦٧١-٧٠١هـ/١٢٧٣-١٣٠٢م)، وكان عهده قد أصاب بعض الضعف فى الصف الإسلامى وأحس محمد الثانى بأنه لم يعد يستطيع الاعتماد فى قواه وحدها فراسل أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق أمير بنى مرين وطلب منه أن يعاونه بقوة عسكرية.

ورأى أبو يوسف أن يبدأ جهاده فى الميدان الأندلسى بحملة جعل ابنه أبا زيان قائدا عليها . وخرجت الحملة من فاس فى شوال ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م قاصدة الى طنجة وكانت الحملة من أنجاد بنى مرين وفرسان العرب وهيأهم للقتال ودفع اليهم رأيته المنصورة وعبرت الحملة ونزلت بطريف من بلاد الأندلس وكان قوامها خمسة آلاف مقاتل وشنت غارات على ديار النصارى ووصلت فى تقدمها الى شرش . ولقد لعبت أساطيل بنى الغرفى حكام سبتة دورا هاما فى عمليات العبور ونقل الجنود والمعدات من قصر المجاز الى مدينة طريف .

وقد شجعت نتائج الحملة التى قادها الأمير أبو زيان السلطان أبو يوسف يعقوب على العبور بنفسه الى الميدان الأندلسى، وذلك فى صفر عام ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م . ولما كان السلطان المرينى رجل حرب وسياسة ودهاء فانه قبل أن يعبر الى الأندلس قام

بارسال حفيده تاشفين بن مالك الى يغمراسن بن زيان حاكم تلمسان طالبا عقد صلح معه وذلك تأمينا لحدوده الشرقية من خطر غارات بنى زيان ، وقد أشاع جو الصلح الذى تم بين الطرفين جوا من الاستقرار فى المغرب الأوسط والأقصى وساد الهدوء سائر بلاد المغرب العربى واستطاع بنو مرين أن ينقلوا عملياتهم العسكرية لصلح أبى يوسف حتى أنه تصدق بالأموال ونحر الذبائح ، وعمل على الاستفادة من القبائل العربية فى حركة الجهاد الاسلامى فى الميدان الأندلس . فقد حشد أبو يوسف مع قواته العديد من فرسان القبائل العربية من شعبان والخلط والعاصم وبنى جابر وجشم واثبيج ودوى وحسان والشباتات من المعقل وقبائل رباح وغيرهم وقد بذلوا جهودا كثيرة فى هذا الميدان وطوائف من المتطوعين البربر . ودخل بجيوشه فى الأراضى الأندلسية وكان بنو الأحمر قد تنازلوا عن طريف والجزيرة الخضراء ورندة وأنزل بها القوات المرينية واتجه أبو يوسف من طريف الى الجزيرة الخضراء ثم الوادى الكبير وتوغل فى الأراضى التابعة لملك قشتالة الفونسو العاشر يدك حصونها وقلاعها ويقاتل جنودها حتى بلغ نهر الوادى الكبير قرب أشبلية بل أنه وصل الى الغرب من قرطبة واستولى على حصن بالمة بالقوة واقترب أبو يوسف من مدينة استجه ووصلت الأخبار بتقدم النصارى واستطاع أبو يوسف أن يقتل قائده نونو مع عدد كبير من من خبرة ضباطه وجنوده وبلغ عدد القتلى من مسيحى أسبانيا فى هذه المعركة ثمانية عشر ألف وخمسمائة جندى . وقد قاتلت القبائل العربية ببسالة وتحملت عبء المعركة .

وبعد عدة أيام اتجه أبو يوسف الى أشبلية بعد الانتصار الأول فى ربيع الأول ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م وقد قدرت المصار الاسلامية (ابن أبى زرع ، ابن خلدون ، عدد جيش قشتالة بتسعين ألف ، وكان استعداد الجيش القشتالى ضخما فى العدد والعدة مقبلا على الحرب بقوة وبقيادة بحرية بهرت الحروب فى تلك المناطق بالإضافة

الى أنها تقاتل فى أرض تعرفها شبرا شبرا ، غير القوات المرينية كانت تقاتل فى أماكن لم تطأها من قبل وباشر الأمير أبو يوسف القتال بنفسه وابنه يوسف على المقدمة ثم استعد للقتل وجاهد المسلمون صابرين محتسبين ونادى على المسلمين بالقتال ، حازت الجيوش الاسلامية المغربية والأندلسية نصرا حاسما فى هذه المعركة التى أعادت ذكريات الزلاقة والارك وتشتت الجيش القشتالى وقتل قائده ، وكان حصار أشبلية العاصمة قد أتى بثماره فطلبت الأمان والصلح ، وبعد أن قضى فى الأندلس خمسة شهور عاد الى المغرب فى أواخر رجب ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م بعد أن ترك فى الجزيرة الخضراء ثلاثة آلاف فارس لمعاونة اخوانهم الاندلسيين فى رد اعتداء قشتالة .

وكان هذا الانتصار قد ساعد محمد الفقبة على تثبيت أمره وتم الاتفاق على أن نقيم هذه القوة من المقاتلين الزناتين بنى بين مرة فى مملكة غرناطة ويرأسهم قائد يسمى شيخ الغزاة ومن ذلك التاريخ سيصبح شيخ الغزاة من كبار الشخصيات فى مملكة غرناطة .

وكانت أخبار انتصاراته قد سبقته الى المغرب ، وقد كتب أبو يوسف أمير المؤمنين الى جميع بلاد المسلمين بالأندلس والمغرب يشرح تفاصيل انتصاراته . وقد أسفر العبور الأول هذا الذى قام به أبو يوسف الى تلك الاراضى الاسلامية عن رفع الروح المعنوية للمسلمين اذا ساهم اخوانهم فى المغرب فى تحقيق هذا الانتصار كما أن هذا الانتصار أطاح بأحلام نصارى الأندلس فى تخطيطهم لطرد المسلمين من هذه الديار حيث أدركوا أن هناك قوة شابة جديدة تقتحم ميدان القتال جهادا فى سبيل الله ونصرا اخوانهم فى العقيدة .

كما أن هذا العبور قد أتاح للدولة الجديدة أن تجد لها رأس قدم فى الأراضى الأندلسية تستطيع أن تعتمد عليه فى العبور مرات أخرى قادمة حيث سيطرت قوات

بنى مرين على ثلاث قواعد هامة هى ، الجزيرة الخضراء ، طريف ، رندة ، وبذلك أتت هذه الغزوة المباركة التى قتل فيها اكثر من ثمانية عشر ألفا من قوات النصارى بثمارها.

أما العبور الثانى بميدان الجهاد فى الأندلس فقد تم فى المحرم من عام ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧ م حيث عبر أبو يوسف للأندلس وكانت حملته الى أشبلية وقد شاركت فيه كما هى العادة القبائل العربية التى يقتصر عملها فى هذه الحملة على تنفيذ ما يصدر اليها من أوامر عسكرية كما هو الحال فى الحملة الأولى بل شارك شيوخها كستشارين فى المجلس الحربى للسلطان المرينى لابداء الرأى حول الخطط العسكرية وأفضل الطرق لملاقاة العدو وقد نجحت هذه الحملة فى تحقيق أهدافها اذ حاصرت قواتها المرينية والعربية أشبلية وشريش وقرطبة وجبان وأنزلت بضواحيها الدمار واقتحمت بعض حصونها عنوة مما اضطر ملك قشتالة الفونسو العاشر الى عقد هدنة مع سلطان المغرب أبى يوسف يعقوب .

وكان السلطان يعقوب المنصور قبل توغله فى أراضى قشتالة قد التقى بابن الأحمر حيث قامت القوات المغربية والأندلسية المشتركة بالقضاء على كافة الحصون المحيطة بها وتدمير كل مظاهر العمران حول أشبلية ونالت شريش ضربات لا تقل عن ضربات تلقتها أشبلية .

ولقد كان أبو يوسف يهدف الى احتلال قرطبة واعادة الأمور الى سابق عهدها للاسلام والمسلمين ، الا أن الأمر كان يحتاج الى تكاتف جهود سائر القوى الاسلامية فى بلاد الأندلس وبخاصة قوات غرناطة واستجاب ابن الأحمر لهذه الخطوة والتقى به عند قرطبة وقامت الجيوش الاسلامية بمهاجمة قرطبة ولم تستطع الجيوش النصرانية الصمود أمام هذا التحالف القوى فتراجعت وتحصنت بالمدينة وأرسل ملك النصارى

وفدا يطلب الصلح من أبى يوسف لكن أبا يوسف ترك لابن أحمر حكم غرناطة وابرام عقد الصلح مع نصارى فشتاله والأكثر من ذلك فإن أبا يوسف عند عودته إلى الجزيرة الخضراء، وفى طريقه بغرناطة تنازل عن جميع الغنائم لابن الأحمر، لكن ابن الأحمد توجس خيفة من الوجود المرينى وتشكك كثيراً فى مسلكهم. وكان تنازل أمير مالقة لأبى يوسف عن بعض المدن الصغيرة سبباً فى تحالف ابن الأحمر ضد أبى يوسف مع ملوك قشتالة.

ولا أدرى لماذا تحالف محمد بن نصر بن الأحمر مع ألفونسو العاشر ملك قشتالة على مساعدته فيما كان يفكر فيه من العدوان على بلاد المغرب وبالفعل قام الأسطول القشتالى بمهاجمة أصيلة على الساحل المغربى كما احتل سبتة بمعاونة قوة من ملك غرناطة. ولعل تحالف غرناطة مع ملك قشتالة يعود إلى أن السلطان أبا يوسف كان يترك فى كل غزوة يقوم بها عددا من قواته؛ فقد ترك فى الغزوة الأولى ثلاثة آلاف مقاتل، وها هو يترك فى هذه الغزوة ألف مقاتل من بنى مرين والعرب.

وقد يكون الدافع لتخوف سلطان غرناطة محمد الثانى الفقيه من أطماع سلطان المغرب، وظن به الظنون وخشى أن يغلبه على بلاده كما فعل يوسف بن تاشفين مع المعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف فلجأ إلى جيرانه المسيحيين، وعقد مع سانشو الرابع ملك قشتالة (بعض المصادر ذكر ألفونسو العاشر ملك قشتالة) وخايمى الثانى، ملك أراجون معاهدات دفاعية ضد ملك المغرب واستطاع كل من الملكين سانشو وخايمى أن يقنع سلطان غرناطة بضرورة احتلالهما بصفة مؤقتة لبعض قواعد المضيق مثل طريف والجزيرة الخضراء التى كانت فى يد المرينيين لأنها تعتبر رأس جسر لعبور القوات المغربية إلى الأندلس ووافق سلطان غرناطة على ذلك بشرط أن تسلم له هذه القواعد بعد ذلك. وكان هذا تصرفاً شاذاً من حاكم مسلم يسمح لحكام أعداء

للإسلام بإنزال قواتهم في الجزيرة الخضراء. وقد جعل هذا الموقف سلاطين بنى مرين يأخذون حذرهم فى التعامل مع بنى الأحمر وأحسوا بأنه لابد لهم أخذ الحيطة والاحتياطات فأصبح من شروطهم للاشتراك فى القتال فى الأندلس أن يكون بيدهم الجزيرة الخضراء وجبل طارق ومالقة.

والذى ينظر إلى ما فعله حكام غرناطة من بنى الأحمر يدرك أن حكام غرناطة وساستها كان خوفهم على أملاكهم هو الشغل الشاغل لهم بل المصلحة الشخصية فوق مصالح المسلمين، وأنه كان لا يعينهم فى المقام الأول الدفاع عن الإسلام ضد الزحف المسيحى لابتلاع أملاك المسلمين بالأندلس وكانت أكبر فرصة عند قشتالة وأرجون للتفرقة بين المسلمين نقض الصلح مع أبى يوسف، ومن ثم أرسلا أساطيلهما إلى الجزيرة الخضراء لقطع الامدادات أمام وصولها إلى الأندلس.

وفى نفس الوقت هاجمت هذه الأساطيل الجيش المرينى الرابض فى هذه المناطق، وأسرع الأمير يوسف بن السلطان يعقوب لمباشرة حربهم ومنيت أساطيل أراجون وقشتالة بهزيمة فادحة أمام الأسطول المغربى واضطرت إلى الإقلاع عنها خائبة السعى وتمكن المغاربة من السيطرة على هذه المناطق الهامة، وهكذا .. خسر الأسطول القشتالى قواته البحرية وأصبحت هذه المناطق محطات وقاعدة للقوات المرينية التى تعبر إلى الأندلس للجهاد فيه.

ونعود إلى ابن الأحمر فنجد أنه لم يكتف بما فعله بشأن الإسلام والمسلمين وتحالفه مع أعداء الدين؛ بل أنه أغرى عامل أبى يوسف على مالقه واتفق معه على أن يتنازل عن مالقه مقابل أن يجعله حاكماً على أقليم آخر؛ بل وصل به الأمر بغدره بأبى يوسف الذى قدم له كل العون إلى آخر مدى بأن راسل يغمراسن بن زيان حاكم تلمسان والعدو اللدود لبنى مرين وتبادل معه الهدايا واتفقا على أن يقوم يغمراسن بن

زيان بمهاجمة حدود الدولة المرينية الشرقية حتى يصرف أبا يوسف عن العبور إلى الأندلس، لكن كل ذلك لم يفت فى عضد أبى يوسف إذ كانت قواته المؤلفة من سبعين سفينة قد حققت النصر ودمرت الأسطول القشتالي، لكن ابن خلدون يدافع عن بنى الأحمر ويذكر أن أسطولهم عاون الأسطول المرينى بعد أن أدرك حكام غرناطة خطورة تحالفهم مع القشتالين ضد أبى يوسف.

وكان لهذا النصر البحرى المرينى صداه الكبير فى الأندلس والمغرب.

ولما كان الجهاد فى بلاد الأندلس هو الهدف الذى ارتضته الدول المرينية سيراً على سياسة اسلافها من المرابطين الموحدين فإننا نجد باستقرار الأوضاع فى بلاد المغرب (صراعات المغرب الأوسط مع الأقصى) عاد الميدان الأندلسى يشغل بال أبى يوسف واهتمامه وشكل عنصراً هاماً فى السياسة المرينية. ولما كانت الانتصارات السابقة قد جعلت من دولة بنى مرين محور اهتمام الجميع فلجأ إليها فى عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م، وقد من قيل ذلك الأسبانى «هراندة» ليطلب معاونته فى استرجاع عرشه الذى استولى عليه ولده شانجة، وكان شانجة الرابع قد ثار على أبيه عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م ألفونس العاشر مما أثار السخط عليه فى مملكته، ولقد لبى السلطان المرينى المنصور طلبات الوفد وعبر إلى الأندلس (العبور الثالث) لمعاونة ألفونسو العاشر، وهرع إلى لقاء السلطان باحواز الفجوة قرب رندة، وأمده أبو يعقوب بالمال والجيش.

ولقد كان العبور الثالث فى ربيع ثانى ٦٨١هـ/١٢٨٢م. والتقى به ألفونسو العاشر ورأى المنصور المرينى مساعدته ضد ولده شانجة، أو سانشو لتعميق الخلاف داخل البيت الحاكم فى قشتالة واضعاف الجبهة المسيحية وأحداث تصدع بها وانقسام بين قواتها العسكرية، وأمده بمائة ألف دينار وقوات رمزية إسلامية، مساعدة له فى حربه ضد ولده وتدخل المنصور معه فى إدارة الحرب التى دارت بين الأب وابنه حول

قرطبة وطليطلة وحصن بربط، ثم عاد إلى الجزيرة الخضراء عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م لاسترجاع مالقة والحصون الغربية من بنى الأحمر، وقام أبو يوسف بجولة حربية أخرى امتدت من طليطلة وقرطبة حتى وصل إلى أيديه ويابسة وجبال ألبرت ثم عاد إلى المغرب بعد أن ولى أحد أحفاده والياً على هذه الأماكن التى حررها من النصارى.

والذى ينظر إلى العبور الأول والثانى يدرك بعد الاستعداد الذى استعده المسلمون لهذه المعارك؛ حيث كان لديهم حماس عظيم لاسيما أن السلطان المنصور المرينى كان يخطبهم ليزيد حماسهم؛ فنجد أنهم كانوا ينقضون على القوات النصرانية فى حماس بالغ أعاد إلى الأذهان حماسهم فى موقعتى الزلاقة والأرك على اختلاف فى حجم القوات الإسلامية فى كل من هذه المعارك وانتصر المسلمون انتصاراً كبيراً ومزقوا قوات قشتالة فى كل مرة شر ممزق، وهذا خير دليل على أن قوة الإسلام فى الأندلس كانت لاتزال قادرة على الدفاع عن نفسها وأنه لو أتيحت للمسلمين فرصة توحيد الصفوف والوعى والإداراك الكامل لخطورة ما يجرى على أرض الأندلس لاستطاعوا أن يصمدوا ويحافظوا على ما بقى بأيديهم من أراضٍ ولاستعادوا ما استولى عليه الأسبان من أراضٍ احتلت من قبل.

وعبر السلطان المنصور المرينى أبو يوسف للأندلس للمرة الرابعة فى صفر عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م. وهذه أقوى الحملات التى واجهها القشتاليون إذ بلغت الجيوش أربعة منها ثلاثة من المتطوعين وجيش بنى الأحمر لمعاونة أبى يوسف وقد بلغ أحد جيوش المتطوعين فى هذه الحملة ثلاثة عشر ألف من المصامدة وثلاثة آلاف من بربر المغرب وكان دور القبائل العربية هاماً فى هذه المعركة، وتظهر هذه الحملة مدى الضربات التى وجهها أبو يوسف لدولة قشتالة خلال هذه الحملة، وكان الجهد الحربى مركزاً لمدينة أشبلية باعتبارها عاصمة قشتالة ومدينة شريش باعتبارها مصدر خطر مباشر

على المسلمين، كما اشترك الأسطول المرينى فى هذه الحملة وكانت مهمته منع الأسطول القشتالى من الاقتراب من ممر العبور من المغرب والأندلس. واستطاعت سفن الأسطول المرينى أن تقوم بواجبها على خير أداء.

تذكر المصادر أنه عند وصول المنصور المرينى إلى مدينة شريش وانضمام بقايا حاميتها من بنى مرين والعرب بالأندلس له، قام فرسانه عرب العاصم بمنع الإمدادات من الوصول إلى المحاصرين وقتل الفارين والإغارة على حصن شالوقة وقتلوا حاميته وقام عرب الخلط بالحراسة حول شريش مع عرب العاصم ليل نهار. وعندما أرسل الأمير يعقوب حفيده أبا على المنصور بن عبد الواحد للإغارة على أشبلية كان معظم فرسانه من عرب العاصم والخلط والأثبج ومجلس الحرب يضم رؤساء العرب ولقد كانت للعرب اليد الطولى فى جميع الإمدادات التى وصلت من المغرب إلى الأندلس ورغم عجز الجيش المرينى من احتلال شريش وتحقيق نصر عسكرى كنصر المنصور الموحدى فى معركة الأرك عام ٥٩١هـ/١١٩٥م إلا أن المؤرخين تناولوا دور القبائل العربية بالتمجيد والفخار.

ولقد رأى ملك قشتالة شائجة أنه لا قبل له بجيوش المسلمين فأرسل وفداً من الأحبار والرهبان يفاوض السلطان المرينى عما يراه ويطلب الصلح وتم الصلح على أساس شروط رفعها أبو يوسف وقبلها شانشو ومنها مسالمة المسلمين كافة وعدم الاعتداء على الأندلس، واعترف الجميع بسيادة بنى مرين على الموقف فى الأندلس واستكمالاً لمظهر السيادة المرينية على ما بأيدى المرينين من أراضى أندلسية أرسل المنصور المرينى ابنه الأمير أبا زيان ليقف بجيوشه على الحدود من بلاده وبلاد ابن الأحمر.

وعاد أبو يوسف يعقوب إلى الجزيرة الخضراء بعد إقراره الصلح مع مملكة قشتالة

وقام بتنظيم حاميات الثغور وأسند إلى عرب العاصم حمايم اسطبونه والاستقرار بها مكافأة لهم.

ومات أبو يوسف فى الجزيرة الخضراء فى العشرين من المحرم عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م، ونقل جثمانه فى الثانى والعشرين من نفس الشهر إلى المغرب إلى مدينة رباط الفتح؛ حيث دفن بمسجد شالة، وهى الجبانة الملكية لبنى مرين بالقرب من مدينة الرباط. وكانت وفاته قبل العودة إلى المغرب، بعد حياة حافلة بالجهاد فى المغرب والأندلس. ويعتبر أبو يوسف المنصور من أعظم سلاطين المغرب؛ فقد كان من طراز يوسف من تاشفين وأبى يوسف يعقوب المنصور الموحدى؛ وكان حريصاً على الجهاد فى الأندلس، ومن هنا .. قام بأربع جولات فى هذا الميدان استطاع أن يوسع رقعة دار الحرب فى الميدان الأندلسى فوصل إلى طليطلة وقرطبة؛ بل وصل إلى مجريط وهى قرية من آخر معاقل وصل إليها الإسلام فى بلاد الأندلس كما وصل إلى جبال البرت وهو الذى أنقذ مملكة غرناطة من الانهيار السريع أمام ضربات قشتالة وأرجون وأن موته قد ترك سمعة خفاقة فى المجال الأندلسى والمغربى والعالم الإسلامى فى ذلك الوقت إذ كان شخصية تجلت فيها عمق العقيدة الإسلامية والغيرة على مصالح الإسلام والمسلمين والعمل على حماية الديار الإسلامية وتجهيز القوات بسرعة فائقة وإعلانه حالة التعبئة فى جميع أنحاء البلاد، وقت الاستعداد للحرب ومروره على القبائل والمدن والأعراب لجمع القوات والمؤن والذخائر، ولقد كان من الشخصيات التى يذكرها تاريخ بنى مرين بكل فخار؛ فقد وقع عليه عبء إنهاء سلطة الموحدين فى المغرب وورث دولة كانت مقسمة بين عديد من الحكام وقبائل عربية وبربرية، واستطاع أن يوحدها وأن يجعل من كل أراضى المغرب الأقصى دولة ذات سيادة واحدة وأخضع الموانى التى كانت مستقلة فى عهد الموحدين مثل سبتة وطنجة ورفع لواء الإسلام دفاعاً عن حق المسلمين فى ديار الإسلام فى الأندلس.

ولى يوسف بن يعقوب المرينى الحكم فى ٥ صفر ٦٨٥هـ/١٢٨٨م خلفاً لوالده وبايعته جميع قبائل بنى مرين والقبائل العربية فوزع الأموال والهدايا على الجميع وعين أخاه الأمير أبا عطية حاكماً على ممتلكات بنى مرين بالأندلس وأسند قيادة الجيش المرينى فى هذه البلاد لأبى الحسن على بن يوسف وكانت بها قوات من إثنى عشر ألف رجل ما بين فارس وراجل، وقد لقب بالناصر لدين الله، وهو من السلاطين الأقوياء ولازم والده يوسف بن يعقوب بن عبد الحق فى جميع أعماله الحربية والسياسية والإدارية وخاصة الحروب فى المغرب والأندلس.

ولقد كان له شأن فى الجهاد فى الأندلس إلى جانب إخوانه مسلمى غرناطة. ولقد أثرت الثورات المتتابعة فى بلاد المغرب فى عهد يوسف بن يعقوب فى مدى الجهد من جانبه فى الميدان الأندلسى؛ فلم يكن جهده يقاس بالنسبة لجهد أبيه لكنه حاول الإبقاء على العلاقة بينه وبين بنى الأحمر. قوية لا سيما وأن ابن الأحمر محمد الفقيه كان له نشاط واضح فى ميدان الجهاد ومهتماً به، لكنه صار أحياناً إلى المسلك الشاذ فى مهادنة بعض ملوك النصارى فى أسبانيا ضد آخر منهم؛ بل وأحياناً ضد بنى مرين ولقد شهدت فترة حكم يوسف هذا تنازلات عن بعض الأراضى التى تسيطر عليها الدولة المرينية فى الأندلس وذلك حرصاً على صمود وقوة وقدرة الجبهة الإسلامية على الوقوف أمام القشتالين ووحدتها والقضاء على كافة المشاكل والخلافات مع بنى الأحمر وطلب من ابن اشقليولة ترك الأندلس والانتقال إلى المغرب، وأنهى مشكلته مع بنى الأحمر. وكانت هذه الخطوات يتنازل بنى مرين لحكام غرناطة من بنى الأحمر عن العديد من الحصون من شأنه تقوية العلاقات بين فاس وغرناطة وذلك لكبح جماح قشتالة ولا تفكر فى الهجوم على المسلمين فى الأندلس. وقد نحجت سياسة يوسف فى تهدئة الأحوال فى الأندلس.

حتى كان عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م عندما نقض كل من سلطان غرناطة وسانشو الرابع ملك قشتالة اتفاقهم السابق مع بنى مرين وهاجم سانشو النخوم والثغور الأندلسية وأرسل يوسف إلى قائد بنى مرين بالأندلس بالهجوم على مدينة شريش؛ إلا أن ابن الأحمر هاجم مدينة اسطبونة، وتمكن من الاستيلاء عليها بعد انتصاره على واليها وتعاونت كل من قوات قشتالة وأرجون فى محاصرة طريف والاستيلاء عليها بعد حصار دام ستة شهور، لكن قائد بنى مرين شن الغارات على حدود قشتالة وجهز يوسف قوات للعبور بها من قصر المجاز، إلا أن القوى المسيحية بقيادة سانشو عندما أحست بذلك أرسلت أسطولاً قشتالياً لمنع بنى مرين من العبور ونجح هذا الأسطول فى تحطيم أسطول بنى مرين الذى تصدى له فى بحر الزقاق عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م، وأدى ذلك إلى تأخير العمليات العسكرية فى الأندلس، لكن بعد إصلاح السفن وتعويض الفاقد منها استطاع الأسطول المرينى إنجاز علمية العبور بنجاح دون أن يجرؤ الأسطول القشتالى على الاقتراب من الأسطول المرينى.

وعبر السلطان يوسف إلى الأندلس ونزل بطريف وأشعل جبهة القتال وشن الغارات على أشبيلية وشريش كما حاصر حصن كبير ثلاثة أشهر وأصدر السلطان يوسف أوامره لفرسان بنى مرين والعرب بشن الغارات على المسيحين قبل عبوره بقواته وبعد عبوره قامت قوات بنى مرين والقبائل العربية بالهجوم على الأماكن المحددة لها وأحرزت بعض الانتصارات، ومع ابتداء فصل الشتاء القارص بالأندلس عادت تلك القوات إلى المغرب فى أول المحرم عام ٦٩١هـ/١٢٩١م.

ولقد كانت مهمة المرينين هناك هى معاونة المسلمين والحفاظ على وجودهم بالأندلس واستمرت العلاقات الطيبة بين غرناطة وفاس حتى وفاة السلطان محمد الفقيه عام ٧٠١هـ/١٣٠٢م، وقد كسب محمد الفقيه معركة استجه بالتعاون مع القوات

المرينية، ولم يكن الفقيه ليقل كفاية عن أبيه فقد تمكن خلال الفترة الطويلة التى حكمها (٦٧١-٧٠١هـ/١٢٧٣-١٣٠٢م) تمكن أن يحافظ على مملكته ويزيد من قوتها إلا أنه كان يتخوف من بنى مرين وحاول الانضمام الى ملوك قشتالة ضدهم وهو أمر سيلجأ اليه ملوك غرناطة فيما بعد مما أدى فى النهاية الى وقوع القشور بين بنى مرين وبنى الأحمر وكان كل ذلك فى النهاية وبالأعلى الاسلام المسلمين فى الأندلس ولقد كان اختلاف المسلمين قادة وحكاما فيما بينهم واستعانة بعضهم بالعدو على البعض أشد وبالا ووطأة بالاسلام وأهله ودياره فقد فقدت ديار الاسلام فى الأندلس عبر تاريخها الطويل بسبب قصر نظر حكام غرناطة وغيرهم وعدم تفهمهم للمخطط الذى يحاك ضدهم ودخولهم فى تحالفات مع أعداء الاسلام ضد اخوانهم فى الدين والعقيدة والوطن الواحد .

وفى أيام محمد الفقيه بدأت مشكلة النزاع على مضيق جبل طارق تأخذ شكلها الحازم لأن كلا من مملكة غرناطة ومملكة قشتالة وسلطنة بنى مرين ومملكة أرغون ثم الجمهوريات الايطالية البحرية تدرك أهمية ذلك الزقاق الذى يعد مفتاح البحر المتوسط والسيطرة عليه تتيح لصاحبه قوة بحرية عظمى فينفذ الى المحيط الاطلسى والساحل الغربى لشبه الجزيرة الايبيرية . وكانت فى عهد ولده محمد المخلوع قد ساءت العلاقات مع بنى مرين وجرت أحداث داخلية فى مملكة غرناطة انتهزها ملك قشتالة فأرسل جنده لحصار جبل طارق ومدينة المرية بمعونة ملك أراعون (حايمى الثانى) بالرغم من المعاهدة القائمة بينه وبين سلطان غرناطة وجرت قرب المرية معركة قادها عثمان بن أبى العلاء شيخ الغزاة ضد جند أرغون هزم فيها قوات النصارى ورفع الحصار عن المرية الا أن جبل طارق بعد الحصار الشديد أرغم على التسليم .

وقد صمدت غزوات بنى مرين بالأندلس منذ دولة السلطان يوسف بن يعقوب

لانشغاله بالحروب مع بنى زيان وانشغال حفدته من بعده بأمور المغرب الداخلية . والصراع حول السلطة فى الدولة مع قصر مدة ولايتهم الى أن تولى عرش بنى مرين السلطان أبو الحسن المرينى (٧٣١ هـ / ١٣٣١ م - ٦٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) . وكانت له رغبة فى الجهاد فى الأندلس ورغم اشتراك أبى الحسن المرينى فى التوقيع على معاهدة السلام بين هذه الدول الثلاث ومدتها أربع سنوات ووقعها بنو الأحمر ومملكة قشتالة على ألا تمر قوات مغربية الى الاندلس وكذلك اشتراكه فى معاهدات سلمية مماثلة مع ملك أرغون وتسابق ملوك أسبانيا والمغرب مستغلين فرصة السلام فى التسليح والاستعداد للحرب وكان اهتمام كل فريق موجها نحو تقوية بحريته لأنها الضمان الأساسى للسيطرة البحرية بعد ذلك ، وكان ملك قشتالة قد استولى على جبل طارق ومن ثم أراد السلطان أبو الحسن المرينى انتزاعه من يديه وعودته للحكم المرينى الاسلامى وبدأت المعركة بينهما فى ربيع الأول سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٤٠ م فى مياه الجزيرة الخضراء انتهت بغرق معظم الاسطول الأرغونى وقتل قائده وانسحاب فلولة الى برشلونة وهزيمة الأسطول القشتالى أمام أسطول المغرب واستولى المسلمون على بعض قطعه وبهذا النصر التاريخى أصبح السلطان أبو الحسن المرينى سيدا بلا منازع على جبل طارق وصار من السهل عليه نقل قواته الى الأندلس فى سهولة ويسر .

ولقد كانت مجهودات السلطان أبى الحسن فى جمع كلمة قبائل زناتة (بنى زيان وبنى مرين) وتوحيد قوى المغربين الأوسط والأقصى له مدى بعيد فى استئناف حركة الجهاد فى سبيل نصرة المسلمين فى الأندلس بصورة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الدولة المرينية اذ أصبح بنو مرين بتوحيد البلاد (الأقصى والأوسط) لديهم طاقات هائله سواء أكانت اقتصادية أو عسكرية وبشرية مما تمكنهم من العمل فى ميدان الجهاد بالأندلس ، كما أن الجبهة الشرقية زمن بنى زيان زال خطرها بعد

التوحيد وأصبح بنو مرين فى مأمن ، وكان السلطان أبو الحسن المرين يبدى استعدادا للجهاد أكثر من أى سلطان سابق فيما عدا أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق والده ، ولقد كانت رؤيته السياسية تصل الى مدى بعيد حيث كان يدرك بثاقب نظرته أن الخطر المسيحى لا يهدد الأندلس فقط بل يهدد كيان المغرب وسواحله قبل الأندلس لأن الأندلس هى خط الدفاع الأول عن المغرب ، بل أن الأندلس هى جناح المغرب وكان يرى ضرورة تأمين هذا الخطر والعمل بكل جهده لسلامة ودفع الأخطار عنه وحصر النفوذ المسيحى ومنعه من تحقيق أهدافه فى طرد المسلمين من الأندلس .

وكان السلطان أبو الحسن قد استقبل فى بلاطه بمدينة فاس عام ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م . السلطان محمد بن اسماعيل الأحمر سلطان غرناطة وكان سقوط جبل الفتح فى يد نصارى الأندلس عام ٧٠٩ هـ / ١٣١٠ م اعظم نكبة منيت بها الأندلس وتم الاتفاق مع سلطان غرناطة لاستعادة جبل الفتح وكان سلطان غرناطة يعاونه الأمير مالك بن أبى الحسن والأسطول المرينى قد تمكنوا من استعادة جبل الفتح عام ٧٣٣ ه / ١٣٣٢ م بعد ثلاثة وعشرين عاما على احتلاله وبعد استعادته ثم تحصينه تحصينا قويا وباشر السلطان هذه العمليات العسكرية بنفسه وذلك نظرا لأهميته الاستراتيجية وكانت أحداث غرناطة والقشتالين من أجل العرش قد أسفرت عن مقتل السلطان محمد بن اسماعيل الأحمر عام ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م . وتولى عرش غرناطة السلطان يوسف الأول الذى حرص على توطيد علاقته مع بنى مرين لأجل الدفاع عن الدين والأهل والعرض والديار واستنجد بالسلطان أبى الحسن الذى كانت لديه رغبة فى الجهاد ، وتحرك الأمير أبو مالك بن السلطان بقواته الى الأندلس وعبر المضيق واقتحم بلاد الثغور وتوغل فى الأراضى القشتالية وحقق انتصارات عظيمة ولما كان بعد المسافة داخل الأراضى الأسبانية قد جعل القوات المسيحية تحاول قطع خط الرجعة

عليه وأبدى كبار قادة بنى مرين الرغبة فى الانسحاب والعودة لكن الأمير مالك رفض ذلك ودارت معركة انتهت بمقتل الأمير مالك حيث ثم الهجوم على المؤخرة أثناء الانسحاب وكانت معركة غادرة .

ولقد عمقت وفاة ابن السلطان أبو الحسن الاحساس لديه بضرورة العبور للميدان ليتولى بنفسه قيادة العمليات العسكرية ضد نصارى الأندلس وتمت استعدادات كبيرة وحشدت كل الطبقات فى المغرب الأقصى وبعث السلطان أبو الحسن الى أصهاره وحلفائه بنى حفص فى أفريقية يطلب منهم ارسال نجدة – فأرسلوا اليه أسطولا من ست عشرة سفينة بقيادة قائد بجاية وضم ضد الأسطول الحفصى سفنا من طرابلس وفاس وجرية وغيرها وبلغ عدد السفن التى تجمعت لهذه الحملة مائة سفينة وحشدت الجيوش البحرية وانتقل هو الى سبتة ومنها الى الأراضى الأندلسية وأصدر أوامره للأسطول المرينى بالهجوم على الأسطول الأسبانى وتمكن الأسطول الاسلامى من سحق أسطول قشتالة وبهذا الانتصار أصبح الطريق مفتوحا للعبور أمام القوات البحرية دون أدنى خطر وبلغ عدد القوات الاسلامية ستين ألف وعبر السلطان أبو الحسن فى أواخر عام ٧٤٠ هـ / ١٣٤٠ م ، وفى عام ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م وجهت ضربات الى طريف يعاونه سلطان بنى الأحمر أبو الحجاج يوسف الذى كان أبرع ملوك بنى الأحمر بعيد الهمة عالى الخلال شاعرا عالما وحاميا للعلوم والفنون واسع المطامع جم النشاط .

ولكن القوات البحرية القشتالية تمكنت من السيطرة على الطريق البحرى وقطع الطريق من المغرب والأندلس وثم قطع خطوط الامداد والتموين وقد اشتركت فى هذه المعركة قوات من قشتالة وأرغون والبرتغال والانجليز ، وقد بارك البابا هذه المعركة البحرية .

وفي جمادى الأولى ٧٤١ هـ / ١ أكتوبر ١٣٤٠ م جمع ملك قشتالة قوات ضخمة من القشتالين وانضمت اليهم قوات اخرى من الأراغون والبرتغاليين والمتطوعين الأوربين (انجلترا أو بحر الشمال) وسار الجميع ووجهتهم مدينة طريف للاستيلاء عليها بصورة نهائية لقطع الطريق من الأندلس والمغرب وقد اتخذ فى هذه الظروف أبو الحجاج يوسف بن نصر والسلطان أبو الحسن المرينى أدركاا منهما لأهمية هذه المعركة الاستعدادات اللازمة والحشد القوى نظرا لأن أنظار هذا المجاهد الكبير كانت تتجه الى مدينة طرف القاعدة الباقية فى أيدى غرناطة من ثغور المضيق فلو أنه استولى عليها لصار المضيق كله فى يده كما صار الطريق مفتوحا الى أشبلية لهذا عول على السيطرة عليها وأجاز اليها العساكر القوية . ولما تكاملت العساكر وكان عددها ستين ألفا تم عبورها فى يسر وسهولة نظرا لسيطرة الاسطول ونزل بساحة طريف ووفاة سلطان غرناطة أبى الحجاج يوسف عبد المؤمن العرب فى قرطبة وشريش وأشبلية وأسكن العرب فى بلنسية وفى شرق الاندلس وكذلك فى بطليموس ، وقد قلل هذا من انتشار الهلالية فى المغرب الاقصى مما ساعد على بقاء نسبة المتكلمين باللغة البربرية حاليا دون غيرها فى الجزائر وتونس .

الا أن اظلالة الزحف الهلالى قد جعلت من بلاد المغرب قطرا عربيا خالصا وأصبحت فيه مراكز للثقافة والحضارة والعلوم الاسلامية المختلفة فى مدن مثل القيروان وفى مسجد القرويين بفاس وفى تلمسان وغيرها من مراكز العلوم الاسلامية وهذا الانتعاش الثقافي والعلمى فى القرن الخامس والسادس الهجرى دون ما سبق من عهود ربما كان ما أسبابه تقارب فى السلالات أو نوع من القرابة الوحية والامتزاج الجنسى والسلالى .

وهكذا لم تكن الوحدة اللغوية قائمة دون أن تستند الى شئ من القرابة الروحية من العرب الهلالية وسكان المغرب ، ولما كان من الممكن أن تحدث استجابة من سكان

المغرب للمؤثرات العربية والاسلامية دون احساس بوحدة الجنس والتقارب السلالى .

وهكذا كانت المعجزة التى تحققت على أرض المغرب من وحدة الدم والجنس والسلالة واللغة والعقيدة والعادات والتقاليد والقيم والمفاهيم الاجتماعية والتراث الحضارى ولم يكن ذلك الا من أجل القرابة ، وهكذا لم يبق من أرض المغرب الواسعة الا جزر بسيطة فى قمم الجبال العالية الشاهقة لم تكن تتلاءم وطبيعة سكنى العرب الهلالى الذى زحف فى كل بقاع المغرب مواطنا متجاوبا متفاهما مع أخيه فكان الوجه الحضارى الذى تنعم به المغرب ، بل الاكثر من ذلك انتشار اللغة العربية كثيرا وأن قوة تأثير هذه اللغة يظهر فى اللهجات الريفية فى القرى المغربية فقد تفرعت من لسان عربى مغربى وهكذا قدمت الغروة الهلالية للغة العربية مكسبا كبيرا اذ ضمت أهل المغرب الى لسان القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف الذى أحبه أهل هذه الديار ودافعوا عن عقيدتهم ولغتهم وبهذا أفادت الغزوة الهلالية أهل المغرب بتقديم لغة حضارية ذات أصول عريقة يستعملونها ويفكرون بها ويقدمون عن طريقها عصارة تفكيرهم العلمى ليضاف الى الحضارة الاسلامية .

كما اننا نلاحظ أن المناطق الأقرب من المغرب الاسلامى الى المشرق كانت أكثر تأثرا بالعرب فى العادات والتقاليد واللغة حيث نجد فى ليبيا معظم سكانها كانوا ينتسبون الى قبيلة أولاد على وهو فى هذا يعد امتدادا لما نحده فى الجانب المصرى من القبيلة حيث نجد الفروع الشرقية من تلك القبيلة التى تمتد بطونها غربا حتى تصل الى طرابلس وقد يرجع ذلك الى تغلغل نفوذ عرب الزحف الهلالى وزيادة تأثيرهم فى المغربين الأدنى والأوسط ، بل اننا نجد أن من ينظر الى أقوال علماء علم الانساب (النسابة) وأقوالهم فى المغرب يرى انهم يدخلون بعض البربر فى العرب أو يفعلون العكس . فيدخلون بعض القبائل العربية كهوارة فى النسب البربرى أو نرى بعض القبائل العربية تدعى النسب العربى (صنهاجة ، المصامدة) ونرى من يقول بالاصل

الوافد للعرب والبربر وهكذا فان الخلط بين نسب العرب والبربر دليل على أن الفروق بينهما كانت تختفى . كما تعتبر محاولة البربر الانتماء الى العرب دليلا على نية صادقة ونزعة قوية للتعريب وكان التقارب هو الذى ساعد على اندماج العرب مع البربر وعدم اندماج البربر بمن سبق العرب فى الوصول الى المغرب من الرومان والقرطاجيين وغيرهم من المستعمرين .

وقد وجد البربر أنفسهم بعد الفتح العربى الاسلامى ازاء شعب من بنى عمومتهم يشاطرونهم ويشاركونهم مثلهم وعاداتهم وتقاليدهم فهنا امتزج العنصران ولم يزد توالى القرون التمازج الا قوة وعمقا ومن معابر انتشار العروبة نجد ان الزحف الهلالى كان له انجاز ضخم فى اقليم المغرب من الناحية الحضارية فقد ضموا الى العروبة أمة عظيمة هى أمة البربر وأضافوا الى الرقعة العربية منطقة واسعة هى منطقة المغرب العربى بأقسامه المختلفة (ليبيا – تونس – الجزائر – المغرب – موريتانيا) ولم تتم هذه الانجازات فجأة وانما تمت فصائل الزحف الهلالى بالتدريج وتغلغلت آثارها فقد تمت الهجرة ببطء وملأ العرب بلاد المغرب بالتدريج فقد جاوز العرب طرابلس الغرب بعد أن مكثوا بها سنين وزحفوا خطوة خطوة وسكنوا قد بدأت تتجمع فى أسبانيا والبرتغال واستمرت قشتالة على سياستها من العبث فى الأراضى الأندلسية ناقضة العهود لكن صلحا عقد بين الأندلس غرناطة وبين ملك أرغون بدور الرابع لكن ملك قشتالة الفونسو الحادى عشر تجهز عام ٧٥٠ هـ للاستيلاء على جبل طارق وضرب بجيشه حوله حصاره الشديد ، لكن الوباء تفشى فى الجيش وكان الفونسو من ضحاياه وأنقذ الله العلى القدير جبل طارق من خطر جيشه بعد قرابة سنة من بدء الحصار الى الانسحاب وقد وجهت بهذه المناسبة رسائل كثيرة الى الأندلس والمغرب ومصر ، وترك المسلمون موكب الملك يحتاز غرناطة الى أشبلية ، لكن أحداثا ظهرت كانت تهدف الى تصفية غرناطة وتوزيع أراضيها بين حكام أسبانيا النصرانية وباركها البابا لكنها

فشلت .

وكان استيلاء البرتغال على مدينة سبتة عام ٨١٨ هـ / ١٤١٥ نذيراً بانهيار دولة بنى مرين وهكذا انقلب الوضع بالنسبة للمسلمين وتحولت الحرب المقدسة على أرض الأندلس الى أرض المغرب وتمكن البرتغاليون من الاستيلاء على جزء كبير من ساحل المغرب .

والملاحظ هنا على دور بنى مرين فى الجهاد فى الميدان الأندلسى انهم لم يحرزوا انتصارا فى تلك البلاد كتلك الانتصارات السابقة التى كان لها بعدها السياسى والعسكرى على الساحة الأندلسية كمعركة الزلاقة فى عهد المرابطين على يد يوسف بن تاشفين ، ومعركة الاراك فى عهد الموحدين وذلك لان بنى مرين كانوا يقاتلون بامكانيات المغرب الاقصى فقط دون المغرب الادنى والأوسط وقد استنفذ منهم العمل فى هذين الميدانين كثيراً من الجهد والعمل مما أعاق التفرغ الكامل للعمل فى ميدان الجهاد فقد صرف النزاع المرينى – الزيانى الوقت الكبير من سياسة بنى مرين وربما كان خط الجبهة الشرقية مكشوفاً أمام بنى زيان رغم معاهدات الصلح ، وحاول بنو مرين التوسع فى المغرب لتحقيق الوحدة المغربية كسابق عهدها أيام المرابطين والموحدين وذلك دفعا للنشاط العسكرى فى الأندلس الا أن ذلك لم يعد بالنتائج المرجوة الا أن الوحدة لم تكن لتدوم الا لسنوات قليلة لوجود قوة بنى حفص فى أفريقيا وبنى زيان فى المغرب الأوسط ، الا أن جهود بنى مرين فى الأندلس ودورهم لا ينكر فقد حافظوا على بقاء الاسلام أطول فترة ممكنة ، بل أن مجرد وجودهم على الطرف الآخر للمضيق جعل نصارى أسبانيا يفكرون كثير قبل القيام بعمل عسكرى ضد مسلمى الأندلس .

وتبقى كلمة أخيرة فى هذا الفصل وهو أن جهل حكام بنى الأحمر بالخطر المحدق بهم وبديارهم وتعاونهم مع الأعداء وهم نفس الأعداء ضد أخوانهم فى العقيدة وكذلك طموحات بنى مرين فى الأندلس وعدم تفضيل المصلحة العليا وهى مصلحة

الدين والعقيدة والشعب جعلت الأعداء يجدون الثغرات للنفاذ منها حتى حققوا الهدف النهائى وهو طرد جميع المسلمين من ديار الأندلس ذلك الفردوس المفقود .

وغضب وحيق وحرق وتقوم بتأييده ونصرته وكان الجوارمعترفا به قبل النزوح الى المغرب لكنه أصبح جزءا من العرف السائد بين القبائل وقد أخذت به القبائل البربرية كصنهاجة وكتامة وزناتة وهوارة ومغوارة وغيرها من القبائل البربرية الأخرى اذ رأت فى ذلك العرف نوعا من الشجاعة والكرم والبأس والقدرة على حماية المستجير .

والتاريخ العربى الهلالى فى عصر بنى زيرى والموحدين وبنى حماد ملئ بأمثلة جوار وقدسيته فقد آثر عرب افريقية قتل أبنائهم على تسليم جارهم والغدر به ولو أتى القتل على كل القبيلة وكيف كان الامراء المتصارعون على الحكم والثوار فى وحه الدولة يلجأون الى القبائل العربية لحمايتهم من بطش السلطان أو قواته وكيف كان العرب يحسنون جوار من يلجأ اليهم .

هذه صفات وأعراف عربية أصيلة فمن يتمسك بها يأبى عليه وازعه الضميرى أن يقوم بالسلب والنهب والقتل والتدمير كما صور ذلك ابن خلدون .

وقد أجار عرب الزواودة بأفريقية المغضوب عليهم من أبناء الدولة الزيرية والحمادية أو الهاربين خوفا من بطش حكامها واللاجئين اليها طلبا للحماية مما جعل القبائل العربية فى صراع دائم مع الدولة بسبب الجوار الذى أخذه البربر عن اخوانهم العرب . ونتيجة لانتشار القبائل العربية بالمغرب وتعدد مواطن استقرارها فى جميع أنحاء البلاد امتزجت بقبائل البربر وصاهرتها مما أدى الى تطور مفاهيم القبيلة العربية فيما يختص بالعلاقة التى تربط الرجل بالمرأة والزواج والحلف والجوار والشعر والغناء والزى وحركة التنقل والارتحال ومساكنهم وحكامهم وعلمهم واختيارهم لشيخ القبيلة ومساعديه وتأثرهم فيما يختص بالعادات والتقاليد وتأثر ثقافتهم بطريقة التعليم فى المغرب لحاجة

القبيلة المستمرة الى زعيم القبيلة والقاضى والمفتى لمساعدة الزعيم فى حكم القبيلة .

وكذلك الى جانب كل هذا كان المظهر الدينى الاخلاقى الذى تجلت صورته بوضوح فى حياة بعض رؤساء القبائل وأفرادها الذين كرسوا حياتهم للعلم والدين وبناء المساجد والاربطة والزوايا وعمل الخير .

كذلك فانه عندما استولى الموحدون على بجاية من أيدى بنى غانية فان بعضا من سكانها خافوا على أنفسهم من بطش الموحدين فلجأوا كمجموعات كبيرة الى القبائل العربية المجاورة لمدينة بجاية فأجارتهم وحسن جوارهم حتى استقرت الأمور فى البلاد وعادوا الى مساكنهم ولقد تحملت القبائل العربية ضغط الدولة عليها من أجل تسليم من سبق اجارته وكان الرفض طابع العرب فى معظم الحالات .

كذلك نقل العرب الى المغرب ظاهرة التحالف والاحلاف التى كانت تتم بين القبائل عملا على الوقوف فى وجه عدو مشترك ، ذلك لان القبيلة منفردة وحدها قد لا تقوى على مواجهة أعدائها فكان لابد أن تنضوى تحت لواء حلف قوى يضم العديد من القبائل مما يدعم قوتها ويحافظ على وجودها وقد تكون الاسباب العسكرية من أهم مظاهر ظهور الاحلاف أو تكون عوامل اقتصادية أو تجارية والحلف أن يحلف الجميع على عهد يعاهدون عليه أن يكونوا يدا واحدة وصفا واحدا فى مواجهة الاخطار المحدقة لهم فقد تحالفت قبائل زناتة مع رباح وتحالفت بنو توجين مع الاثيج وتحالفت مغراوة مع بنى المعقل وظهر تحالف كثير من قبائل البربر مع العرب الهلالية فى مواجهة الأخطار الجسيمة التى تتعرض لها البلاد كما أن العرب وقبائلهم وبطونهم كانت تضمهم الاحلاف ساعة العسرة والشدة فقد تحالفت عرب رباح وزغبة وبنو قرة والاثيج وتناسوا ما فيهم من عدوان وتأثرات فى مواجهة زحف الموحدين على أفريقية واستطاعوا بهذا الحلف هزيمة قوات عبد الله بن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على ، كذلك تحالفت القبائل الهلالية فى المغرب الأقصى من عرب العاصم والخلط وسيفان وبنى

جابر والحارث فيما بينهم ضد استبداد الوزير عمر بن عبد الله وغمس العرب أيديهم في الماء ، بل أكثر من ذلك فانهم كانوا يعقدون الحلف عند قبر أحد الشيوخ الصالحين المشهود لهم بالكرامات لكي يكون للحلف طابع الاخلاص والقدسية ويأخذ صبغة دينية ، ثم يتصافحون بعد ذلك على التمسك بالحلف وقد سرى نظام كما أنه أنشأ الأبراج العالية فى داخل البحر أمام ميناء مدينة سبتة للمراقبة وليحول دون دخول سفن الأعداء فى مرساها .

والذى يطالع الفصل السابق عن جهاد بنى مرين فى الأندلس يستطيع أن يتبين الدور الذى قامت به البحرية المرينية فى حركة الجهاد وما ساهمت به سفنه وكيف كانت تتصدى لسفن الأعداء وقد حدثت معارك كبيرة وكثيرة وكانت الغلبة فى معظمها للاسطول الاسلامى الذى كان يشارك فيه أسطول الحفصيين وبلاد الأوسط مع أسطول بنى مرين .

ولقد كان السلطان أبو الحسن المرينى الذى تمت فى عهده واقعة طريف ٧٤١هـ / ١٣٤٠ السلطان الذى فاق غيره فى الاهتمام بالأسطول والبحرية ورجالها وذلك لأنه ربما كان يخطط للمدى البعيد للاستفادة منها فى غزواته المتعددة فى الأندلس . حتى أنه كان أول سلطان فى المغرب يستخدم الأسلحة النارية ومدافع النفط والبارود وهى المدافع التى كانت تقذف النيران لكن معركة طريف خذلته وأفسدت كل الخطط التى كان يسعى لها لتحرير الأندلس من قبضة الذين أهانوا الاسلام والمسلمين حيث أنه كانت له رؤى تختلف عن غيره من حكام بنى مرين اذ كان يرى أن الأندلس هو جناح المغرب ، بل هو خط الدفاع الأول عن المغرب . ومن هنا اهتم السلطان أبو الحسن المرينى بتحصين القواعد البحرية التابعة لبنى مرين سواء فى الأراضى المغربية أو الأراضى الأندلسية على الضفة الأخرى وأهمها جبل طارق الذى

حرره من من أيدى القشتاليين عام ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م وازدهرت صناعة السفن فى عهده وتعددت أنواعها ، وعمل على تزويد السفن بالبحارة المهرة والعدد والآلات وجدد دار صناعة السفن وزودها بكل ما تحتاج اليه .

وخاض السلطان أبو الحسن بأسطوله معارك بحرية عديدة ضد أساطيل قشتالة وأرغون وانتصر فى العديد منها كما انهزم فى المعركة البحرية التى دارت عام ٧٤١ هـ حيث اشتركت في ذلك قوات بحرية من الانجليز وأرغون والبرتغال وقشتالة وسفن المدن الايطالية وقد بارك البابا انتصار هذه الحملة .

وقد كانت كل هذه المعارك تدخل فى نطاق الصراع حول السيطرة على مضيق جبل طارق . وآلت الأمور فى بلاد المغرب الأقصى بعد الصراع بين أبى الحسن وابنه أبى عنان الى أبى عنان فارس (٧٤٩ – ٧٥٩) والذى اهتم باعادة بناء الأسطول المغربى وأعاد توسيع وصناعة السفن وعمل على تعويض ما تفقدته البحرية المرينية من سفن بعد هزيمة القيروان التى هزم فيها العرب والده والعاصفة المدمرة التى أتت على معظم الأسطول . بعد أن كانت دار الصناعة فى سلا تساعد دار صناعة سبتة فى الأمداد بالسفن اللازمة للبحرية وكانت ذات شهرة عالية فى بناء السفن اضافة الى أن أهلها كانوا من المقاتلين والملاحين المهرة .

وقد سار أبو عنان على سياسة والده فى توجيه عنايته نحو جبل طارق باعتباره قاعدة بحرية هامة لبلاده ولقد اهتم بهذه القاعدة اهتماما كبيرا وزاد فى تحصينها وبناء سور بطرق جبل الفتح وبعث اليه العدد الوافرة والأقوات والرجال والسلاح ، واهتم ببناء أسواره وأبراجه وحصنه وأبوابه ودار صنعته ، وقد حظى الأسطول فى عهد السلطان أبى عنان بعناية خاصة وأهتمام زائد حتى أن هذه السفن كانت تصل الى ميناء الاسكندرية بمصر ولقد ترأس قيادة الأسطول المرينى عدد من كبار قواد البحر فى ذلك

العصر كان منهم من سبتة أو من الأندلس حيث كان مشهودا لهم بالعراقة فى القيادة البحرية لا سيما بنى العزقى .

وفى عهد السلطان أبى الحسن المرينى كان قائد البحر محمد بن على بن أبى طالب العزقى الذى تولى القيادة العليا للأسطول وانتصر على أسطول قشتالة وأرغون والبرتغال فى مياه الجزيرة الخضراء عام ٤٧٠ هـ / ١٣٤٠ م واستمر هذا القائد فى منصبه الى أن قتل بعد وقعة القيروان عام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م .

وكانت القوات البحرية تقوم فى أوقات مناسبة من السنة بالمناورة البحرية التى كانت تتم مرة أو مرتين الى ثلاث مرات كل عام وذلك طبقا لحالة الاستعداد العسكرى وكانت المناورة البحرية يشرف عليها السلطان بنفسه ثم يتقدمهم القائد الأعلى للبحرية .

وكانت المناطق من القبائل العربية والبربرية لا يستطيعون الاعتماد على موارد الاقليم القاطنين فيه فيضطرون الى النقلة والارتحال انتجاعا للكلا وطلبا للمرعى والمعيشة المشهودة .

ومن هنا كان الظاهرة الاجتماعية فى ظل هذا المجتمع اليدوى أن يشتد التناحر فيه بين السكان وتكثر الهجرات من مكان الى آخر وتثور الفتن وتنتشـــر الغارات ولا تتعلق القبائل وبطونها بالارتباط بالارض بالصورة التى نجدها فى مجتمعات السهول والوديان حيث الاستقرار الدائم وانهم لا يدافعون عن أرض معينة طالما أنه من الممكن الانتقال الى مكان آخر توجد فيه وسائل المعيشة ميسورة انما كان الدفاع عن الاسرة والعشيرة والقبيلة فأصبحت القبيلة محور الحياة فى المجتمع المغربى العربى .

ومن هنا كان السكان يرتحلون صيفا وشتاءا الى جهات تتوافر فيها مصادر الرزق

والمعيشة ومصادر الحياة وهذه الحركة المستمرة شمالا وجنوبا فى مختلف مناطق المغرب فى أنحاء أماكن العشب والكلا كمرعى للأبل والماشية كثيرا ما كان يترتب عليها حروب نظرا لقيام قبيلة لسلب مرعى قبيلة أخرى وأراضيها .

ولقد كانت القبائل البربرية أكثر معرفة ودراية بأماكن المرعى والكلا والعشب ومصادر المياه لان هذه أوطانها ، ومن هنا كانت تترك أماكنها للقبائل العربية وتندفع زاحفة غربا وجنوبا فى حركة اخلاء تامة لاماكن استقرارها بعيدا عن مواطن العرب فى بداية الزحف الهلالى ، لكن لم يمض وقت طويل حتى عاد البربر الى أماكن واحدة وما صحب الاستقرار من انصهار وامتزاج وحسن جوار ونقل كل القيم والعادات والتقاليد .

لكن ظاهرة النقلة والحل والترحال كانت مرحلة أولى من مراحل الاستقرار الهلالى ذلك لان الزحف الهلالى كما جاء فى أقوال الكثير من المؤرخين كان يتميز بأن العرب المستقرين فى بلاد المغرب كانوا من بدو العرب انتقلوا بأحيائهم وحللهم وخيامهم وجاوروا أهل البلاد من البربر الذين لم يكونوا يعرفون الخيام والتى كان يصحبها العرب معهم والتى كانت تصنع من الوبر والصوف ويسهل هدمها عند غزوهم أو حروبهم .

لكن لم يمض على دخولهم المغرب الا فترة يسيرة حتى بدأوا يستقرون ويتأثرون بالمظاهر الحضارية العمرانية وانتقل بعض زعمائهم من سكنى الخيام الى سكنى القصور وحياة النعيم والرفاهية واتخذوا من الخيول العربية الأصيلة مطية لهم بدلا من الجمال ، ودخلت حياة الرفاهية بين فصائل القبائل العربية وانهم كانوا يعتمدون كثيرا على أنعامهم التى كانت تهتم بها القبائل العربية الهلالية فهم لا يستطيعون أن يستغنوا عنها فى جمع التصاريف .

وكان لكل قبيلة شيخ يتولى ادارتها ورياستها ويكون صاحب القول الاول فى شئونها واليه يلجأ أفراد القبيلة فى كل أمر من أمورها وهو كبير القبيلة أو البطن أو الفخذ ويكون زعيم أو رئيس المجلس القبلي أو ما يسمى رياسة القبيلة التى تتكون من مجموعة من الأفراد يعاونون شيخ القبيلة وكان شيخ القبيلة يعاونه فى ادارة أمورها أحد أقاربه أو أبنائه أو اخوته بناء على تزكية من أفراد القبيلة أو وجود اجماع عليه ويتم الاختيار لهؤلاء الاشخاص لتمتعهم ببعض الصفات المتميزة كالثروة والوجاهة والفراسة والصفات القتالية أو حسن الأخلاق والسيرة والقدرة على حل المشاكل وايجاد السبل للتغلب عليها .

وقد كان للقبيلة حق تغيير زعيمها وشيخها اذ ما أساء التصرف وأدى من الاعمال مالا يتلائم مع مصالح القبيلة أو عرض وجودها للخطر أو تسبب فى مذلة أو شرف القبيلة أو أدى من الاعمال ما يمس شرف القبيلة بل أن الأمر كان يصل الى حد القتل والاغتيال عندما يحاول كبار القبيلة عزله ولم يستجب فكان يتم الاتفاق على اختيار من يثق فيه ويجوز الاجماع ويتم خلع من يتولى اذ كانت أفعاله تحقق أهدافًا شخصية وكانت الشجاعة القتالية والحربية وكثرة الجمع حوله من أبنائه وأقاربه واخوته الهامه بشتى الطرق ولكن المحاولات باءت بالفشل وانتهى الأمر باستسلام الجزيرة الخضراء فى ربيع أول ٧٤٤ هـ / ١٣٤٤ م .

وهكذا نرى كيف أن الأسطول البحرى المرينى قد لعب دورا هاما فى حركة الجهاد الاسلامى فى الميدان الأندلسى ، ذلك لان دور الاسطول كان يتوقف عليه كل التحركات ولذا فقد كانت سفنه دائما فى أقصى درجات الاستعداد طوال العام وكانوا يختارون من خيرة رجال البحرية المشهود لهم بحسن القيادة والشجاعة والخبرة الطويلة والمران الشديد كما أن توفير المواد اللازمة للصناعة قد أبدى سلاطين بنى مرين اهتماما

شديدا بتوفيرها وامداد السفن المقاتلة وحشدها بالجنود والمعدات والآلات والاستعانة بالخبرة البحرية من الدول المجاورة حتى لو كانوا من دول الاعداء (قشتالة ، أرغون ، جمهوريات ايطاليا) ولقد كانت الاستعانة بالمرتزقة فى البحرية والجيش ثغرة استطاع أن ينفذ منها الأعداء الى أسرار الدولة وقوتها حيث أن هؤلاء لم يكن ولاؤهم على درجة عالية للدولة التى يخدمون فيها ولكن ولاءهم كان لأوطانهم الأولى وعقيدتهم السابقة وربما كانوا ولايزالون عليها .

لكن استطاعت البحرية المرينية أن تقوم بدورها بقدر الظروف العالمية المحيطة وبما توفر لها من امكانيات وطاقات محلية أو عالمية وشاركت أعظم مشاركة وأدت دورها وواجبها ونفذت كل الأعمال التى كانت توكل إليها أما أسباب الهزائم التى كانت تحدث لها فلم تكن ضعفا أو عدم قدرة على القتال ولكن كانت الظروف فوق قدرتها ولا تستطيع مقاومتها وفوق طاقتها ومن هنا كانت تحدث الهزائم التى كانت أقل كثيرا مما تحقق من انتصارات ومن يتصفح المواقف يدرك قوة أسطول بنى مرين والواجب الملقى على كاهل البحرية المرينية .

* * * *

الفصل الرابع

المد المرينى فى المغربين الأوسط والأدنى

منذ أن دخل أبو يوسف يعقول عبد الحق مراكش عاصمة الموحدين وازال ملكهم فى التاسع من محرم عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م والدولة المرينية ترى نفسها أنها أحق بأملاك الموحدين فى المغرب الأوسط والأدنى وأن خروج بنى زيان فى تلمسان وبنى حفص فى تونس عن الدولة الأم فى مراكش يجب أن يعود الى سابق عهده وأن يتم السيطرة على هذه الدول لكى يقوم المغرب الموحد كما كان فى سابق عهده أيام حكم المرابطين والموحدين وقد كان هذا خطا ثابتا فى السياسة المرينية سار عليه كل السلاطين بدءا من أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق الذى رأى أنه لابد من وقف خطر بنى زيان وزعيمهم يغمراسن بن زيان على حدود دولته الشرقية ومن هنا كانت معركة وادى تلاغ فى ربيع الأول ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م التى هزم فيها قوات بنى زيان ومن ثم كانت الأنظار تتجه شرقا لتوجيه ضربات لخصمه العنيد يغمراسن الذى كان يهدد دولته وانتصر عليه مرة أخرى فى معركة (اسيلى) بالقرب من وجدة عام ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م وحاصر تلمسان وحصن قادولت القريب من بنى زيان وشحنه بالقوات والعتاد والمؤن ليقف مركزا متقدما لمراقبة يغمراسن بن زيان وتحركاته وكان قبل ذلك قد أمر بهدم مدينة وجدة وتحطيمها حتى لا يحتمى بها يغمراسن مرة أخرى .

وفى عهد يوسف بن يعقوب (٦٨٥ - ٧٥٨ هـ / ١٢٨٦ - ١٣٠٨ م) فر محمد بن ادريس احد أبناء أسرة بنى مرين الى تلمسان ثم ثورة عمر بن عثمان بن يوسف الهسكورى وقد تم نفيه أيضا الى تلمسان وثم ثورة الأمير أبى عامر بن السلطان يوسف وكان السلطان قد عين أحد أبنائه فى اقليم مراكش للحيلولة دون قيام أية حركة انفصالية به خاصة انه كان موطن الموحدين ، لكن الأمير أبا عامر خلع طاعة

أبيه وأخذ الدعوة لنفسه إلى مصر رغم مروره بمناطق استقرار القبائل العربية ببلاد المغرب وكان الركب يحمل معه الهدايا والأموال الكثيرة التى وصلت فى احدى الرحلات الى مائة وخمسين ألف دينار ذهبا وكسوة للكعبة الشريفة ومصحف مكلل بالجوهر والياقوت والاموال السائلة التى كانت ترسل لتوزع على أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة وهى أموال كان يسيل لها لعاب قطاع الطرق والمفسدين؛ بل أن الركب كان ينعم بوفائه وكرمه وضيافة واستقبال القبائل العربية التى تسكن على طريق الحج.

وهكذا يتضح لنا دور العرب الهلالية فى نشر الطمأنينة والأمان والعلم والإيمان والعمل بما جاء به القرآن الكريم ومن كل هذه الخصال والصفات الاجتماعية التى انتقلت الى المغرب وسادت الحياة اليومية لأهل المغرب نجد ذلك التلاحم والامتزاج والانصهار بين عناصر العرب والبربر مما ساعد على وجود تلك الفرشة العريضة والواسعة من البناء السكانى العربى والاجتماعى فى السلوك والعادات والقيم والتقاليد والاعراف التى لا زال يتصف بها الانسان المغربى الذى يبدو فى تصرفاته ملامح الانسان العربى المغربى الهلالى الذى نقل مفاهيم وحضارة الجوار الحجازى للمدينة المنورة ومكة المكرمة الى أرض المغرب .

فانتقلت مفاهيم وأعراف وقيم وعادات لم تكن سائدة فى البوادى والجبال والسهول حيث كانت الزحفة العربية الاولى قبل منتصف القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى يقتصر دورها على العرب المستقرين بالمدن والأمصار والدين أسسوا المدن الاسلامية وأقاموا الدويلات العربية الاسلامية ببلاد المغرب وذلك حتى أواسط القرن الخامس الهجرى ، وهكذا كان انتقال القبائل العربية من هلال وسليم ومعقل الى بلاد المغرب وانتقالها وامتزاجها مع العناصر المستقرة من البربر مظهرا من مظاهر التغير الاجتماعى الذى عرضنا له فى هذا الفصل وخدمة للاجيال اللاحقة التى

ورثت مفاهيم اجتماعية ذات أصول عربية راسخة عاشت على تربة المغرب فأتت ثمارها فى ذلك الرصيد الحضارى الاجتماعى الزاخر فى أوجه الحياة المغربية .

البعد الاقتصادى للزحف الهلالى

لقد أتيح لعرب الهلالية عندما استقرت جموعهم فى مناطق استقرارهم بعد أن هادنوا السلطة السياسية واندمجوا مع الكيان السياسى للبلاد التى استقروا بها سواء بنى زيرى أو بنى حماد وتعاونهم مع المرابطين والموحدين وانتشارهم فى شتى أرجاء المغرب أن تسهم هذه القبائل فى تنمية اقتصاد البلاد التى وطنوا فيها حيث أن كثيرا من مدن المغرب المختلفة قد اتخذها الهلالية أوطانا استقروا بها أو كانت ضواحيها ومراعيها موقع استقلالهم وسيطرتهم ، لقد شارك الهلالية فى البعد الاقتصادى للدول التى استقروا فيها فقد كانوا يتحركون فى يسر وسهولة كما سبق القول ومن هنا ساهموا فى الحركة الاقتصادية وساهموا فى تنمية موارد الدول التى استقروا بها سواء كانت زيرية أو حمادية أو مرابطية أو موحدية ثم فى العصور اللاحقة مع بنى حفص وبنى زيان وبنى مرين .

وقد أدخل الهلالية الى المغرب تربية الخيول العربية الأصيلة التى انتقلت معهم من مصر والجزيرة العربية ولقد كان من الطبيعى أن تهتم القبائل العربية فى المغرب بأنواع الحيوانات المختلفة التى جلبتها معها من مصر وبلاد العرب حيث أنها لا تستطيع أن تستغنى عن ممتلكاتها من الأغنام والمواشى والأنعام وقد استفادوا بخبرتهم فى الاحتفاظ بسلامة أنساب الخيول والابل وكانوا يدافعون عن ثروتهم الحيوانية أكثر مما يدافعون عن أى شئ آخر فقد كانوا يحمون بها حريمهم وتعينهم على الاغارة والنجاة وتصحبهم حيثما يكونون حتى أصبحت هذه العلاقة الحيوية بين الفرسان والخيل يضرب بها المثل فى التعاطف والتآلف واشتهر بنو سليم وهلال بنى عامر بتوليد وتكثير

الخيول الاصيلة وارتباطهم بهذا الحيوان فقد اعتمد الهلالية على الخيول فى فتوحاتهم فى هذه البلاد المترامية الاطراف فى أواخر القرن الخامس وقبل وفاة المعز بن باديس الزيرى كانت له هديته الى قرطبة خمسين فرسا ثم ألحقها بتسعمائة بعد عودة ابنه من قرطبة، لكن رغم دور الهلالية فى كثرة وانتاج الخيل الى المغرب إلا أنه قتل داخل بلاد المغرب الأوسط بندرومه وانسحبت جميع قوات بنى مرين من جميع بلاد المغرب الأوسط وعلى الرغم من أن السلطان أبا ثابت نفذ مطالب بنى زيان الا أنهم بادروا الى تدمير مدينة المنصورة .

وفى عهد السلطان أبا الربيع سليمان (٧٠٨ – ٧١٠ هـ) وهو شقيق أبى ثابت وحفيد السلطان يوسف بن عبد الحق ، وكان قد عقد اتفاقا لحسن الجوار بينه وبين موسى ين عثمان بن يغمراسن حاكم تلمسان ونفذ موسى الاتفاق ورفض أن يساعد اعداء أبى الربيع سالم عندما راسلوه بعد أن خلعوا طاعته وأحجم عن مساعدتهم.

وفى عهد أبى سعيد عثمان (٧١٠ – ٧٣١ هـ) تعرض لبعض المتاعب اثناء حكمه كان بعضها من جانب بنى زيان فى تلمسان ، ذلك لان بنى زيان بمقتضى الصلح الذى تم بين موسى بن عثمان بن يغمراسن وأبى الربيع سالم كان يقوم على أساس تسليم الثائرين والفارين الى بلاده ، لكن سلطان تلمسان الجديد أبا حمو سهل طريق وصول الثائرين الى الأندلس ومن ثم رأى السلطان أبو سعيد عثمان ضرورة القيام بحملة ضد بنى زيان استطاع بها اكتساح بلاد المغرب الأوسط ومحاصرة تلمسان لكنه عاد مسرعا الى تازى دون أن يحقق أهدافه .

ويعتبر عهد السلطان أبى الحسن بن يوسف وابنه أبى عثمان أزهى عصور بنى مرين فى المغرب الأوسط ، ذلك لأن سياسة بنى مرين فى عهد أبى الحسن كانت

قائمة على امتداد رقعة الدولة والتوسع على حساب من يجاورونه شرقا سواء بنى زيان أو بنى حفص والمغرب الأوسط وأفريقية ، وذلك لتحقيق وحدة المغرب أملا فى أن يصبح الحاكم الوحيد فى المغرب وكان بنو مرين يشعرون أنهم أحق من غيرهم بتلك الزعامة لأنهم هم الوحيدون من سائر القوى فى بلاد المغرب الذين حملوا العبء الأكبر للقضاء على دولة الموحدين ، وكانت أحقيتهم تعود الى أنهم أقوى القوى الثلاث ولما حققوه من الاستقرار والازدهار الحضارى والاقتصادى وكان عهد أبى الحسن على بن عثمان ، وابنه أبو عنان فارس بن أبى الحسن والذى دام قرابة الخمسة والثلاثين عاما هما اللذان أخضعا هذه البلاد ، وأما الجهود التى بذلت قبلهما فلم تكن الا بمجرد غزو أو عمليات تأديبية .

ولقد ساعدت العلاقات القوية التى توطدت بين دولة بنى مرين فى المغرب الأقصى ودولة بنى حفص فى أفريقية بعد زواج السلطان أبى الحسن من بنات الأسرة الحفصية ، ساعد ذلك القيام بمشروعاته التوسعية فى أفريقية (المغرب الأدنى) بعد أن كان بنو حفص يتعرضون للهجوم والغارات من قبل بنى زيان ، ولقد واتت الظروف المناسبة لأبى الحسن عندما رفض بنو زيان الصلح والتعاون مع بنى مرين وخلف جوا من حسن الجوار والتعايش السلمى بين القوى الثلاث فى بلاد المغرب ولو لفترة مؤقتة ، وتمت سفارة بين أبى الحسن المرينى والسلطان أبى تاشفين الزيانى وكانت هذه السفارة تحوى مطالبة أبى الحسن لبنى زيان بالتخلى عن مدينة تدلس » وأن يرجع الى حدود بلاده شرقا ولو لعام واحد فقط لكن أبا تاشفين أساء الرد ومن هنا بدأت سياسة التوسع المرينى وامتداد السيطرة على المغرب الأوسط وتحركت قوات أبى الحسن ونزلت عند تاسالت فى شعبان ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م الى الشرق من تلمسان وفى نفس الوقت كان الأسطول المرينى الحربى يتحرك نحو تلمسان لمعاونة القوات البرية ونجح

الأسطول المرينى فى حمل مدد من جنود الجيش المرينى من وهران الى بجاية حيث اشتركت هذه القوات مع الجيش الحفصى فى الاستيلاء على بعض المدن ومنها بعض الثغور الهامة لبنى زيان وبفضل المساعدة السريعة للاسطول المرينى تمكن بنو حفص من اكتساح بعض المدن وأبعدوا عن بجاية خطر بنى زيان ، ولم يتحرك أبو الحسن من مكانه انتظارا لوصول صهره السلطان الحفصى أبى يحيى للاشتراك فى الهجوم على تلمسان ، لكن أخبار أخيه عمر حاكم سجلماسة وتعاونه السرى مع بنى زيان بقيادة أبى تاشفين وكانت بنود الاتفاق تقضى بتعاون كل من الطرفين ضد أبى الحسن وانسحب أبو الحسن الى سجلماسة مع ترك قوات تحمى المؤخرة بقيادة ابنه وتمكن من دخول سجلماسة فى ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م وقتل أخاه عمر وتوقفت أعمال بنى مرين فى المغرب الأوسط مع انشغال القوات المرينية فى الأندلس الا أنه فى منتصف عام ٧٣٥ هـ / ١٣٣٥ م . حاصر بنو مرين مدينة وجدة وتغلب بنو مرين على وهران ومليانة وتنيس والجزائر وقام حلفاء أبى الحسن بالاستيلاء على شرق المغرب الأوسط حتى مدينة لمدية ومضى السلطان أبو الحسن فى بسط نفوذه على المغرب الأوسط واقاليمه واستمر حصار تلمسان ثلاث سنوات حتى سقطت فى يد أبى الحسن فى العشرين من رمضان ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م . ودافع عنها أبو تاشفين الزيانى دفاع الأبطال لكنه قتل.

واتخذ أبو الحسن خطوات ادارية لدمج المغرب الأوسط بجميع سكانه مع الدولة المرينية واستطاع أبو الحسن أن يجمع كلمة بنى وابين مع بنى مرين وهم أبناء عمومه وبنى عبد الواد وبنى توجين وسائر زناتة وانزلهم بلاد المغرب وأصبح سلطان زناتة .

ولم يكتف السلطان أبو الحسن بما تحقق له فى المغرب الأوسط بل أخذ يرنو ببصره متطلعا الى أفريقية رغم المغامرة وحسن العلاقة والصلة . الا أن الفكر السياسى

لهذا القائد الذى دمرته معركة طريف عام ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م بل وقتلت طموحاته كان الاتجاه نحو المغرب الأدنى ولذا كان يتحين الفرص للتوسع فى المغرب الأدنى للقضاء على بنى حفص حيث كان بنو حفص القوة الوحيدة الباقية التى تحول دون توحيد المغرب كله تحت حكم بنى مرين بزعامة أبى الحسن . وآتت الفرصة مواتية له عندما توفى الخليفة أبو يحيى الحفصى عام ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م . واحدثت وفاته خلافات كثيرة فى البيت الحفصى اذ تولى الأمير عمر بن يحيى عرش البلاد بدلا من أخيه أبى العباس أحمد الذى كان وليا للعهد والذى كان شاهدا عليه لدى السلطان أبى الحسن المرينى واستطاع الحاجب ابن تافراجين أخذ البيعة للامير عمر لكنه أخيرا اضطر للفرار الى المغرب الأوسط لدى السلطان أبى الحسن مما أحدث خللا فى صفوف الأمير عمر بن يحيى الحفصى ومن ثم واصل الأمير أبو العباس أحمد تقدمه نحو تونس ودخلها فى ٩ رمضان ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م . ولكن الأمير عمر بن يحيى دخل بقواته من بجاية ودخل المدينة تونس وقتل أخاه الأمير أبا العباس وأخويه خالد وعبد العزيز ، وكانت نهاية هذه الحرب الأهلية لهذه المأساة بداية تدخل بنى مرين العسكرى فى المغرب الأدنى(أفريقية) ذلك لأن السلطان أبا الحسن قد وقع وثيقة ولاية العهد باعتباره صهرا أو شاهدا ، تحرك أبو الحسن فى صفر ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م . الى تونس بعد أن أسند الى ابنه أبى عنان ادارة شئون المغرب الأوسط ، ولم يكد أبو الحسن يدخل أرض أفريقية حتى انهالت عليه مبايعة حكام الأقاليم .

وكان أبو الحسن قد استجاب لتحريض القبائل العربية الثائرة على الحفصين بتونس فبعد أن احتل وهران زحف الى أفريقية بقواته من بنى مرين والعرب وأصبح على باب بجاية واثناء ذلك وفد عليه شيوخ عرب أفريقية وامراؤها من نسل عرب الفتح المستقلين ذاتيا بامارات بلاد الجريد الزاب وبسكرة مبايعين ومؤيدين فأقرهم على بلادهم واقطاعاتهم ودخل أبو الحسن المرينى تونس فى موكب حافل من شيوخ

القبائل بالمغرب وأفريقية، وهكذا .. استطاع السلطان أبو الحسن المرينى أن يعيد للمغرب الكبير وحدته وكذلك وصلته بيعة حاكم طرابلس وكما بايعه عدد من أمراء الحفصيين فان القبائل العربية أدت دورا كبيرا فى تأييد السلطان أبى الحسن فبايعوه ومنهم أمير الزواودة وعرب الكعوب وقتل الأمير عمر بن يحيى الذى سرق عرش البلاد من أخيه أبى العباس أحمد وكان السبب فى السيطرة المرينية وأصبح الطريق مفتوحا أمام أبى الحسن للدخول الى تونس ودخلها فى ٨ جمادى الآخرة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م حيث تلقاه أهلها وأعلنوا مبايعتهم وبهذه الجهود استطاع أبو الحسن المرينى أن يجعل المغرب موحدا كما كان أيام المرابطين والموحدين وامتد من مسراته شرقا الى السوس الأقصى غربا والى رندة من عدوة الأندلس وبدأت هذه الانتصارات تحدث آثارها بين سائر القوى فى العالم الاسلامى لكن فى محرم من نفس العام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م حدثت ثورة على أبى عنان فى تلمسان وخرجت عن طاعته مما اضطر أبا عنان الى الفرار منها وزحف أبو الحسن المرينى الى تلمسان وحاصر المدينة وأثناء تفقده لحصونها ومعاينته أبوابها فاجأه فرسان بنى زيان بهجوم خاطف مقلدين ما فعله زعيم الأسرة اليغمراسنية ، يغمراسن بالخليفة السعيد الموحدى وكادوا يقتلون أبا الحسن لولا موقف أمير عرب سويد الذى دافع عنه ودخل بنو مرين تلمسان مرة أخرى .

ثم عاد الى أفريقية لكى يعيد تنظيم البلاد وتسليح ثغور أفريقية بالقوات والآلات الحربية واعادة النظر فى اقطاعات العرب فأراد أن يطبق نظام المغرب الأقصى وترك لهم ما كان فى حدود المعقول أما اقطاعات الأرض للضواحى والتى تؤدى الى الاستقلال الذاتى ومنافسة الدولة فقد عوضهم عنها برواتب من ديوان الجند والغى الاتاوات والتى كانت تفرض بالحفارة نظير الحراسة وعدم الاجارة . وبذلك واجهته الأوضاع الاقتصادية فقد كان الخلفاء الحفصيون يبذلون العطاء للاعراب وترك لهم الحفصيون

حرية التصرف ، لكن هذه التصرفات أفزعت السلطان أبا الحسن واسترجع هذه الاقطاعيات من العرب وكان ذلك يتعارض مع مصالح القبائل العربية . وأدت هذه الاجراءات الى تذمر بعض القبائل العربية بأفريقية فثاروا وأغاروا على معسكرات بنى مرين وقواتهم بثغور المغرب الأدنى وامتدت أيديهم الى أملاك السلطان بضواحى تونس وتآمر العرب والحفصيون لطرده من أفريقية ، وبدأت القبائل العربية حركة مقاومة للغزو المرينى فى أنحاء أفريقية وتطورت معارضتهم الى احياء الخلافة الحفصية لكى يعملوا من خلالها على مقاومة بنى مرين ، لكن قوات بنى مرين استطاعت أن تحرز انتصارات أولية على جيش القبائل العربية وقام السلطان أبو الحسن بالقبض على شيوخ العرب الوافدين على تونس للتهنئة بعيد الفطر وتوحدت جميع القبائل العربية وتبايعوا على الموت وصاروا يدا واحدة رغم ما بينهم من عدوات وتأرات ضد بنى مرين وتمكنوا من الحاق هزيمة لأن جيش القبائل العربية كان يزيد عن ثلاثين ألف مقاتل ونجا السلطان بنفسه وتحصن بالقيروان وكانت الهزيمة انتكاسة خطيرة لبنى مرين بعد موقعة طريف الأندلسية فقد قاومته بنو زيان وبنو يوجين ومغراوة وغيرهم وانسحبت من تحالفها مع بنى مرين وحاصر العرب القيروان فى ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م .

وكانت القبائل العربية قد استطاعت أن تستميل ابن تافراجين حاجب بنى حفص وعين العرب أحد سلالة الموحدين وآخر خلفائهم وهو أحمد بن أبى دبوس الموحدى خليفة لهم ودفعوه لحرب بنى مرين داخل تونس ، وما ان شاعت أخبار هزيمة أبي الحسن المرينى ومحاصرته بالقيروان وكان السلطان وهو محاصر يقضى وقته فى تلاوة القرآن الكريم الذى كان يحفظ جزءا كبيرا منه وفى سماع الأحاديث الدينية والمحاضرات من مختلف العلماء الذين حرص على تقريبهم وتوالت عليه المشاكل فثأرت تونس وقامت العامة من أهل المدينة بمحاصرة بنى مرين بقلعتها ومن بها من

أبناء السلطان وحريمه ووجوه قومه وامناء بيت المال ولم تستطع القوات المرينية المرافقة للأمير أبي سالم ابراهيم بن السلطان والوافدة من المغرب الأقصى كمدد لوالده أن تصل الى القيروان لفك الحصار حيث انقضت عليها قوات القبائل العربية فلجأ الى تونس لينضم الى المحاصرين من بنى مرين وتخلى حاجب الحفصيين ابن تافراجين عن السلطان أبي الحسن وبدلا من مفاوضة القبائل العربية لصالح سيده أبي الحسن وضع يده في يدهم فقلدوه حجابة سلطانهم أحمد بن أبي دبوس ، وحاول السلطان أبو الحسن التفاهم مع القبائل العربية وعقد عدة اجتماعات مع رؤسائهم وأسفرت هذه الاجتماعات عن حماية القبائل العربية له حتى خروجه من القيروان ، لكنه سرعان ما ظهرت الخلافات العربية القديمة بين القبائل العربية المتحالفة وأنفرط عقد الوحدة وعملت كل قبيلة على الاستفادة من نكبة بنى مرين فوافق أولاد مهلهل على الإفراج عن أبي الحسن مقابل مبلغ من المال ، لكن أولاد أبي الليل لم يكن يعنيهم المال لأنه كان اتفاقهم مقابل اطلاق سراح بعض زعمائهم وشيوخ العرب المعتقلين بالمدينة فوافق أبو الحسن المرينى على ذلك ودعم هذا الاتفاق زواج ابنه الأمير أبي الفضل بابنه زعيم عرب الكعوب فأخرجوه من القيروان سرا الى سوسة وركب الى تونس وأفزع دخول أبي الحسن الى تونس ابن تافراجين حيث فر الى الاسكندرية بمصر وتم القبض على سلطانهم أحمد بن أبي دبوس وسلموه لأبي الحسن وأودع السجن وظل أبو الحسن في تونس ولجأ الى القبائل العربية تدعيما لموقفه وظل طيلة عام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م وفي شوال ٧٥٠ هـ / ١٣٤٨ م تحرك لاستعادة نفوذه بأفريقية لكن نظرا لهزيمة القيروان وما أشيع عن وفاة أبي الحسن فان ابنه أبا عنان كان قد أخذ البيعة لنفسه واستصدر وثيقة بذلك وأصبح لأبي عثمان الحق في تولية واعتلاء عرش بنى مرين وبويع سلطانا عام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م ، وعندما علم أبو عنان بأن والده لازال حيا

أرسل الى عماله بأن يصدوه عن المغرب وبادر بارسال الولاة الحفصين الى بلادهم ليحاربوا أبا الحسن والده ويكونوا حائلين بينه وبين العودة الى بلاده في المغرب الأقصى .

واستغلت القبائل العربية جو الاقتسام وانضمت الى الأمير الحفصي أبي العباس الفضل تعاونه على استرجاع ملك أبائه ودخلت في طاعة الأمير الجديد وطلبت العون من بلاد الجريد وقفصة وقابس وجربه وغيرها من المدن واكتملت الحلقة على أبي الحسن حيث بقايا بني زيان الذين اجتمعوا في عاصمتهم تلمسان ليبايعوا أميرهم عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى ابن يغمراسن سلطانا لاحياء دولة بني زيان وتمكن عثمان هذا من الاستيلاء على العاصمة تلمسان وطرد بقايا بني مرين منها في جمادى الآخرة عام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م ، وهكذا حصلت أفريقية والمغرب الأوسط على استقلالها بفضل الدور الذى لعبته القبائل العربية في مساندة الحفصين في المغرب الأدنى ومساندة بني زيان في المغرب الأوسط . أما المغرب الأقصى فقد كانت تتصارعه قوى أبي عنان بن أبي الحسن وحفيده منصور بن مالك والمغرب يمر بظروف سيئه وتتقاذفه الأمواج فقرر أبو الحسن الرحيل الى بلاده . وألقت به الأمواج على ساحل الجزائر وتمكن من تجميع بعض قواته وأنصاره واتجه بهم الى تلمسان لكنه هزم شر هزيمة على يد قوات بني زيان بقيادة أبي ثابت شقيق السلطان الزياني عثمان بن عبد الرحمن وهزمه عند شدبونة وفر أبو الحسن الى سلجماسة ثم منها الى مراكش ودخل في حماية واستجارة القبائل العربية لكن أبا عنان قاد حملة ضد والده وهزمه وفر الى جبل هتاتة ومات عام ٧٥٢ هـ / ١٣٥١ م .

وفي كل هذه الأحداث التى جرت على أرض المغرب الأوسط وأفريقية كان للعرب دورهم في الصراع الدائر بين أفراد البيت المريني والذى انتهى بتنصيب الأمير

أبي عنان سلطان فى ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م وتأرجحت طاعة العرب فى مدينة المغرب بين أبي الحسن وابنه أبي عنان وحسم الصراع بينهما على أرض المغرب الأوسط وقامت عرب سويد بالقضاء على ثورة أبي العنان وحلفائه من بنى زيان وعرب بنى عامر . .

وزاد الأمر سوءا بتحول عرب أولاد أبي الليل الى الحفصين ومحاصرتهم لأبى الحسن المرينى بتونس عدة مرات ومبايعة امارات الجريد للأمير الفضل الحفصى فلم يسع السلطان أبي الحسن الا أن يقرر العودة الى المغرب ويترك تونس وركب البحر فى أسطول ضخم (خمسمائة قطعة) فى فصل الشتاء قاصدا المغرب . فلم يلبث أن هاج البحر وغرق الأسطول بمن فيه من علماء وجنود وخلص السلطان على قطعة خشب من بقايا سفينة غارقة ونجا بنفسه الى الجزائر تاركا ابنه فى تونس فحاصرته القوات الحفصية وكادوا أن يتفكوا به وبأنصاره لولا تدخل عرب ابن حمزة الذين من عرب الكعوب اصهاره الذين أخرجوه الى مخيماتهم وأوصلوه الى أبيه عام ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م ، وهناك فى الجزائر اجتمعت عليه ووالده أبي الحسن قوات كبيرة من عرب سويد والديالم والحرث وحصين وغيرهم ، والتف حوله عرب الثعالبة فزحف بهم نحو تلمسان والتقى بقوات بنى زيان وحلفائهم من عرب بنى عامر بقيادة الأمير أبي ثابت شقيق الخليفة الفضل الحفصى ودارت الدائرة على القوات المرينية ومن تحالف معها وفر أبو الحسن وولده الى الصحراء حتى بلغ سجلماسة بالمغرب الأقصى عزما على استراد ملكه .

وتولى أبو عنان بن أبي الحسن المرينى الحكم (٧٥٢ – ٧٥٩ هـ / ١٣٥١ – ١٣٥٨ م) وكان يخطط للتوسع فى المغرب الأوسط وأفريقية ومحاولة استرداد ما فقد فى عهد أبيه وكانت العلاقة مع بنى زيان فى تلمسان فى صراع دائم حيث كان بنو زيان يمثلون فى نظر أبي عنان قوة لا يستهان بها رغم تحالفه معهم وقد بقى بنو زيان

يثبتون أقدامهم فى المغرب الأوسط بعد هزيمتهم لأبى الحسن وابنه أبى الفضل . ولمحاولة اعادة بناء دولتهم فانه كان لابد من كسب رضا ومودة أبى عنان ومن ثم قاموا بارسال وفد كبير على رأسه مشايخهم للتهنئة بالعرش ولتوقيع معاهدة السلام وتعاون وحسن جوار وكان بنو زيان فى تلك الفترة يشعرون بنوع من التبعية ، لكن عندما استردوا أنفاسهم وأقاموا صرح دولتهم وتكون جيشهم وتحسنت أحوالهم الاقتصادية ونمت حركة التجارة الخارجية والداخلية أحسوا بكيانهم السياسى وقوتهم فرفضوا طلب أبى عنان فى شفاعة كبير قبيلة مغراوة واعتبروا ذلك تدخلا فى شئونهم الداخلية وأن فى هذا مساسا بسيادة الدولة وغضب أبو عنان من ذلك الرفض ومن ثم كان يحس أنه القوى عدة وعتادا فاتخذ للأمر عدته وحشد قواته للاستيلاء على المغرب الأوسط ، وفى أوائل عام ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م . رفع درجة الاستعداد القصوى وتحركت قواته وعلى الجانب الآخر كان السلطان الزيانى أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن وأخوه أبو ثابت عن طريق جواسيسهم وعيونهم التى كانت ترصد كل هذه الاستعدادات على علم بكل هذه الحشود واتخذ للامر عدته وأهبته واستعدا لملاقاة أبى عنان والتقى الجمعان فى « أنكاد » فى ربيع ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢م . والحق بهم أبو عثمان هزيمة قاسية وسقط سلطانهم أبو سعيد عثمان أسيرا وفر أخوه الأمير أبو ثابت بعد أن حافت بهم الهزيمة لكن أبا ثابت يثبت لبعض الوقت لكنه هزم عند مدينة شلف وفر الى شرق المغرب الأوسط ولكنهم فى النهاية قتلوه واستقر الأمر لبنى مرين وأبى عنان فى المغرب الأوسط مرة ثانية .

وكان زعيم قبائل عرب سويد والمعقل سببا فى هزيمة بنى زيان حيث قام ومعه أتباعه من العرب بمتابعة الفارين من ميدان المعركة حتى تمكنوا من أسر وقتل الأمير أبى ثابت وانتقموا لهزيمتهم السابقة التى أوقعها بهم هذا الأمير فى عهد أبى الحسن

المرينى وكافأه أبو عنان فأقطعه بلاد السويد وقلعة أبى سلامة وكثيرا من بلاد توجين .

وكان على أبى عنان أن يتابع السير للسيطرة على بلاد الحفصيين فى المغرب الأدنى حيث كان ينظر الى امراء البيت الحفصى الذين يتولون حكم الولايات والاقاليم ما هم الا عمال عاديين شأنهم شأن بقية عمال الدولة فى المغربين الأوسط والأقصى بحيث يمكن عزلهم واقصاؤهم من وظائفهم واحلال آخرين بدلا منهم أو نقلهم الى ولايات أخرى بدلا من التى يتولون حكمها ، وكانت بعض المشاكل الداخلية فى أعوام ٦٥٤ - ٦٥٥ هـ تحول دون الاتجاه أكثر بعدا الى الشرق فاكتفى بالسيطرة على بجاية وقسنطينة ، لكن لم يأت عام ٧٥٧هـ/١٣٥٦م حتى كانت الاستعدادات فى المغرب الأقصى تجرى على قدم وساق لقيام بنى حفص بالاعتداء على بعض ولاة بنى مرين وعزلهم وطردهم من البلاد وكان ذلك يشكل انتهاكا صارخا للنفوذ المرينى واعتداء على الوجود المرينى فى أفريقية وتحركت القوات المرينية نحو قسنطينة وعزل السلطان الحفصى أبو العباس أحمد بن محمد بن أبى بكر وأرسله أبو عنان الى سبتة وأحدث استيلاء أبو عنان على قسنطينة رد فعل عنيف فى أفريقية ، حيث قام امراء المدن والأقاليم من فورهم بارسال البيعة لأبى عنان وكذلك شيوخ القبائل العربية وزعماؤها وقبائل البربر الكبيرة وخطب لأبى عنان فى سائر أنحاء أفريقية فيما عدا مدينة سوسة والمهدية وتوزا ، ثم رحل أبو عنان الى تونس ودخل فى صراع مع القبائل العربية وحاول السيطرة عليها الا أنها أعلنت عصيانها وحاول أبو عبان القضاء عليهم الا انهم توغلوا فى الصحراء ولم تجرؤ جنود بنى مرين على التوغل وراء المجهول فى الصحراء الواسعة حتى لا يصيبهم ما أصاب أبا الحسن وقواته من قبل وعادوا الى المغرب الأقصى ورفضت بعض القبائل التبعية لبنى مرين مفضلة عليهم بنى حفص لكنهم يتمتعون بكثير من الحرية ولأن بنى مرين كانوا يطبقون فى المغرب

الأدنى نفس الأساليب الادارية والتنظيمية التى كانوا يطبقونها فى بلاد المغرب الأقصى ومن هنا فان تحقيق وحدة المغرب بين الأقاليم الثلاثة قد فات أوانه وبات ضربا من المستحيل ولم يمض وقت طويل على عودة أبى عنان الى المغرب الأقصى حتى مرض ومات فى ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م .

وبوفاة أبي عنان انتهت آخر مرحلة من مراحل توحيد المغرب ومن النفوذ المرينى فى بلاد المغربين الأوسط والأدنى كما أن وفاة أبى عنان كانت آخر حلقة من سلسلة سلاطين بنى مرين الأقوياء وأسدل الستار على النفوذ المرينى شرقا فلم يحاول أى من السلاطين الذين حكموا من بعده القيام بأية غزوة فى الأقاليم وأكتفوا بالقيوع فى قصورهم ولم نعد نسمع عن حشود مرينية بعد حدود المغرب الأقصى شرقا فى اتجاه بنى زيان أو بنى حفص .

* * * *

الفصل الخامس

مظاهر حكم بنى مرين وانجازاتهم فى المغرب الأقصى

٦٥٦ - ٨٧١ هـ / ١٢٥٨ - ١٤٢٧م

تكون مجتمع المغرب الأقصى فى عصر حكم بنى مرين فى مجموعات بشرية ساهمت فى بناء هيكل وشكل الدولة ولعب كل منهم دورا فى قيام هذه الأسرة بالحكم طوال ما يقرب من قرنين من الزمان وقد شكل البربر بصفة عامة وبنو مرين بصفة خاصة السواد الأعظم للمجتمع المرينى لأنهم كانوا عماد الدولة بل العمود القوى الذى ارتكزت عليه الدولة فى قيامها حيث أنهم هم الذين بسطوا نفوذهم على الحكم بالقوة وكانوا هم صفوة المجتمع وبسطوا نفوذهم على قبائل البربر الأخرى فهم الطبقة الحاكمة والوزراء والقادة والحجاب وعلية القوم لا سيما بن حمامة وكان لهذه النزعة أثر كبير فى غلبة عناصر بنى مرين فى مدن البلاد المغربية وفى الحواضر الكبرى كفاس وبفضل اعدادهم الكبيرة استطاعوا السيطرة على كل المدن اضافة الى بوادى البلاد وأصبحوا حكام للولايات ونجحت كل قبائلهم فى حفظ التوازن مع القوى الأخرى سواء كانت عربية أندلسية أو قوى أخرى اصبحوا هم من بيوتات فاس الكبرى وتغير حالهم من البداوة الى حياة المدينة بصورة واسعة وقد كان ذلك أكثر الأشياء ألما على نفوس الأندلسين الذين كانوا أسبق فى مجال الحياة المدنية والحضارة لان تجمع بنى مرين ضم بعض الأندلسين حيث كانوا قلة فى أول عهد بنى مرين ثم ازداد عددهم مع جهاد بنى مرين فى الأندلس وقد بدأت هجرتهم الى البلاد المغربية فى القرن السادس وأصبحت مراكش مركز الشغل السياسى للأندلسيين ثم كانت فاس وكانت هجرة الأندلسين الى المغرب الأقصى أكثر منها الى البلاد الشرقية كالمغرب الأوسط والأدنى .

ولقد حاول بنو مرين جمع طاقات الأندلسين للاستفادة بهم ضد نصارى الأندلس المتربصين الدوائر بالاسلام فى تلك الديار كما ضم مجتمع المغرب الأقصى فى عصر بنى مرين بعض العرب وقبائلهم الكثيرة وقد بدأت هذه القبائل العربية فى التوسع نحو المغرب الأقصى بعد الفتح الموحدى فى هضبة الشطوط واستعان بهم بنو مرين فى مجابهة نصارى الأندلس وكانت قبائل رياح من الجشم تسكن بلاد الهبط من قصر كنانة والمحيط وجشم وهم الخلط وسفيان وجابر بلاد تامسينا وغمارة مما يلى ساحل طنجة الى سلا وظل لهذه القبائل وجود قوى لا سيما فى حوض سيو ووادى أم الربيع وأزمور وأصبح لهم كيان فى المناطق الساحلية والسهول وانتشر عرب المعقل قرب فج تازا ونتيجة لهذا الوجود العربى فقد تعربت بادية المغرب الأقصى وطبعت بالطابع العربى .

ولم يعتمد بنو مرين على القبائل العربية حتى التى حملت لواء المعارضة ضد الوجود المرينى فى بلاد المغرب الأوسط والأدنى وساهمت فى اعادة بنى حفص فى افريقية وبنى زيان فى تلمسان مرة ثانية وقد ارتبطت الأسرة المرينية الحاكمة ببعض القبائل العربية برباط النسب فتزوج يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦ – ٦٨٥ هـ) أرملة أمير عرب سفيان الثائر عليه بعد وفاته ٦٨٠ هـ ، كما تزوج بنت أمير عرب الخلط صاحب الدور الشهور فى غزوات الأندلس وأنجب منها ابنه عثمان الذى تولى حكم المغرب ٧١٠ – ٧٣١ هـ وقد تمركزت هذه القبائل فى المواضع المشار اليها وفى كثير من أماكن المغرب الأقصى ، ولقد كانت هذه العناصر الثلاثة (البربر – العرب– الأندلسين) تشكل عصب المجتمع المرينى اضافة الى أقليات أخرى كثيرة منها الغز أو الأتراك أو الأكراد ويطلق عليهم الأغزاز وهم من المماليك المصريين وقد ظهروا فى المجتمع المغربى فى عهد المرابطين وكانو مصدر خطر فى عهد الموحدين ثم أصبحوا

يشكلون عنصرا قويا فى الجيوش نظرا لشجاعتهم ونكايتهم فى عدوهم حتى التى دفعت الموحدين لاستخدامهم فى الجيش الموحدى ثم جاء بنو مرين واستفاد منهم استفادة كبيرة وظل ذكرهم يتردد فى الأعمال العسكرية ويبدو أن بعضا منهم قد تولى امارة بعض الولايات ويأتى بعدهم الروم وقد شهد القرن السادس حركة تجارة واسعة فى الرقيق الرومى وكانت بجاية المركز الرئيسى لهذه التجارة مع حركة الحروب فى عهد المرابطين والموحدين وبسبب المعارك ازدادت أعدادهم فى بلاد المغرب الأقصى وقد عملوا عبيدا أو خدما اضافة الى عملهم كجنود فى الجيش وكخصيان فى القصور وكثير منهم الجند الرومى وطبيعة عملهم العسكرى فرضت وجودهم فى المدن الكبرى مثل فاس ومراكش ومكناسة ولاسوس ويبدو أن بعضهم أسلم أو تظاهر بالاسلام وكانوا يشكلون فرقة من فرق الجيش وكان قائدهم يطلق عليه قائد جند النصارى .

ويأتى بعد ذلك اليهود ، وقد برع يهود المغرب فى التجارة فكثر ثراؤهم لا سيما فى فاس فى عهد بنى مرين وقد كان القرن السادس والسابع الهجرى عصر الازدهار المالى لليهود فى المغرب وقد استأنفوا مسيرتهم مع بنى مرين بعد تنحية الموحدين وكان لهم دور فى الحياة السياسية فى الدولة المرينية حتى كان منهم صاحب السلطان يعقوب بن عبد الحق وقد أدى تحكم اليهود فى مقاليد الأمور فى دولة بنى مرين الى مقتل آخر سلاطينهم وهو عبد الحق المرينى وقد كانوا أكثر عملا فى الخطط الادارية واشتغلوا فى الادارة المالية والوزارة والحجابة وقد غدوا أصحاب أموال ممدودة وأنهم عملوا فى الصياغة المصرفية وكان لهم الدور الرئيسى فى الأعمال المصرفية (طبيعة اليهود فى كل العصور) اضافة الى عناصر أخرى وغيرهم من الأقليات فى المجتمع المرينى .

ومن هنا يتضح أن سكان المغرب فى العصر المرينى كانت الغالبية العظمى من

البربر والعرب وأن تعددت بعض العناصر الأخرى نتيجة هجرة الأندلسيين والغزوات المستمرة من نصارى أسبانيا والنزاع من قبائل المغرب الأوسط والأقصى والأدنى ولا شك أن هذه الأحداث قد أثرت على شكل ونظام الدولة والنشاط الحضارى والثقافى وغيره من الأنشطة الأخرى للدولة .

النظام السياسى :

ظهر بنو مرين على المسرح السياسى فى بلاد المغرب الأقصى كقوة سياسية وعسكرية منذ عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م عندما اسقطوا نظام الخلافة الموحدية وقضوا على آخر سلاطينهم أبى دبوس فى مراكش ، ولقد كان نظامهم فى الحكم والسياسة يختلف كل الاختلاف عمن جاورهم شرقا من بنى زيان الذين استقلوا عن الموحدين بالمغرب الأوسط عام ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م وعن بنى حفص الذين استقلوا بالمغرب الأدنى عام ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م لكن كفاح بنى مرين ضد الموحدين لم يكن بين ليلة وعشاها بل استغرق خروجهم على الدولة الموحدية حتى اسقاطها ما لا يزيد عن خمسين عاما ، ولما كانت ثورتهم لتحقيق العدالة الاجتماعية وشعور المواطنين بالأمن والأمان ولم تكن لهم أهداف دينية أو فكر دينى يدعون له كالمرابطين أو الموحدين بل كانوا أصحاب فكر سياسى أكثر منه فكر دينى .

وقد كان السلطان هو رمز الحكم والسياسة فى البلاد واتخذ بنو مرين نظام السلطنة شعار الحكم بدلا من الخلافة التى كان يتخذها الموحدون وبنو حفص فقد عمل الأمير عبد الحق منذ أن شغل فكرة قيام دولة مرينية فى أن يكون لقبه السلطان بدلا من الخليفة وقد سار رؤساء بنى مرين على هذا الخط فتلقبوا جميعا بلقب سلطان

وقد كان السلطان يتولى عن طريق البيعة ولا تصح له السلطة الا بعد مبايعته

فكانت البيعة تتم أولا عن طريق أشياخ بنى مرين وأهل الحل والعقد وعليه القوم وقواد الجيش وكبار رجال الدولة على بيعة خاصة وهؤلاء يكونون مجلس وصاية على العرش وبعد ذلك تتم البيعة العامة ويقوم بها كبار رجال القبائل والقبائل جميعها التى تفد الى القصر السلطانى بالعاصمة وجموع الشعب وقد ظل بنو مرين يتخذون لقب أمير المؤمنين أو أمير المسلمين حتى اسقاط الدولة الموحدية فى عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م .

وكان السلطان يعاونه مجلس استشارى مكون من أشياخ ويضم رؤساء بعض القبائل العربى وكان نظام الحكم شورى وليس ملكيا استبداديا كما صور ذلك كتاب الغرب اذ كان السلطان يرجع الى مجلس الأشياخ فى كل الأمور التى تهم الدولة كاعلان حالة الحرب والتعبئة العامة وجمع الضرائب وارسال السفارات أو عقد المعاهدات وذلك تطبيقا لقوله تعالى : (وشاورهم فى الأمر ، وأمرهم شورى بينهم) .

وكان يلى منصب السلطان مباشرة ولى العهد وهو من المناصب الهامة فى الدولة وكان الغرض من تعيين ولى العهد وأخذ البيعة له هو المحافظة على تسلسل الحكم فى البيت الميرينى ، وكان ولى العهد يقوم بمنصب نائب السلطان ويقوم أحيانا بقيادة الجيوش نيابة عن السلطان ويتولى الحكم فى البلاد عندما يغادرها السلطان الى الأندلس أو المغرب الأوسط (السلطان أبو الحسن واختار ابنه أبا عنان حاكما على المغرب الأقصى أثناء حملاته على المغرب الأوسط وبلاد أفريقية) ، وكانت ولاية العهد تسبب كثيرا من الخلافات من أفراد الأسرة الحاكمة عندما يموت السلطان فجأة وتحدث الاختلافات .

وكان يلى منصب ولى العهد الوزير أو كبير الوزراء الذين كانوا دائما من أصحاب السيف وكان الوزير رابطة السلطان والرعية ، وكان ديوان الانشاء والكتابة من أهم وأخطر الوظائف المعاونة للسلطان المرينى وكان ذلك الديوان يضم عددا كبيرا من

الكتاب الذين يقومون بكتابة الكتب والرسائل وكان سلاطين بنى مرين يسندون الى كتابهم بعض المهام الأخرى التى رفعت من شأن الوظيفة وأصحابها .

وكانت وظيفة الحاجب وظيفة تنظيمية وهى أن يقوم الحاجب بباب السلطان ليكون صلة ربط بينه وبين الرعية حيث لا يتداخل ذلك مع وظيفة الوزير وهو يترأس مجموعة الحرس السلطانى بباب السلطان وكان سلاطين بنى مرين يعينون بعض حجابهم أما من عبيدهم المخلصين أو من أهل الذمة أو من الخصيان من أهل الثقة .

وعندما تولى السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق السلطة كاملة فى البلاد فانه عمل على اعادة التنظيم الادارى للبلاد وأقاليمها المختلفة فبدل النظام الموحدى الذى كان معمولا به فى السابق والذى كان يقسم البلاد الى ستة أقاليم رأسية فأضاف عليها بنو مرين ثلاثة أقسام أخرى ليصبح تسعة أقاليم وجعلوا كل اقليم مستقلا بذاته عن الأقاليم الأخرى وكانت سبتة الميناء الهام لها وضع خاص اذ أسندت ادارة هذه الأقاليم والأنحاء التابعة له لأسرة العزفى ، وكان كل حاكم اقليم له مسؤليات محددة ملتزم بتنفيذها وعليه واجبات لابد أن يؤديها قبل الدولة والعاصمة فاس وضمت ادارة الحكم دواوين مختلفة كل ديوان عليه مسؤليات محددة مثل ديوان العسكر وتولى أمور الجيش والبحرية وديوان الخراج والأراضى الزراعية وديوان الأنشاء ، وغيرها من الدواوين المختلفة والى جانب هذه الدواوين كانت هناك وظائف لها نظارات كنظارة الأحباس والأوقاف .

كذلك أبدى سلاطين بنى مرين اهتماما خاصا بالقضاء وذلك لاشاعة العدل بين الرعية والحكم بالكتاب والسنة المطهرة واحساس الناس بالطمأنينة والأمن على حياتهم وممتلكاتهم والشعور بالأمن والأمان ولقد كانت هذه فلسفة حكمهم التى قام عليها النظام ذلك لأن تنظيم القضاء والعيش فى جو من العدالة يحقق الاستقرار

الادارى للدولة وتسيير الحياة وفق متطلبات القيادة السلطانية ، وكان منصب قاضى الجماعة فى المغرب الأقصى والذى يعادل منصب قاضى القضاة فى بلاد المشرق من أخطر الوظائف فى الدولة لأنه يلى منصب السلطان مباشرة ولأنه منصب الفصل فى القضايا بين الناس ولقد حرص سلاطين بنى مرين على تعين أكثر قضاة دولتهم بأنفسهم لا سيما قاضى الجماعة نظرا لأهمية المنصب وجلاله .

وكان قاضى الجماعة (قاضى القضاة) يتبعه من حوله القضاة الذين يتوزعون فى الولايات والأقاليم والذين كان يتم اختياره لفترة معينة لا تطول حرصا على عدم الالتزام بالمبادئ التى عينوا عليها وكان يوجد بجانب القضاة القضاء العسكرى وكان السلطان يعينه للفصل فى القضايا الهامة بالجيش وللفصل فى القضايا داخل هذا الجهاز الحاكم الهام والحيوى للدولة وكانت السمة الغالبة فى القضاء هو الصلاح والتقوى والتفقه الشديد فى قضايا الدين والفقه والخوف الشديد من الله والحرص على التزام العدل والنزاهة .

وقد أسند الى القاضى احيانا القيام بمهمة السفير لدى الدول الخارجية كبلاد المشرق العربى ، لبنى زيان وبنى حفص وبنى الأحمر وقشتالة وأرغون وغيرها من الدول ذات العلاقة بالغرب الأقصى فى العصر المرينى .

اضافة الى أن سلاطين بنى مرين قد حرص العديد منهم على الجلوس للنظر فى المظالم التى ترفع اليهم والتى تتطلب حكمهم . وكان السلطان أبو الحسن المرينى يجلس يومى الأثنين والخميس من كل أسبوع للنظر فى المظالم بنفسه وأبدى سلاطين بنى مرين حرصا شديدا على اشاعة جو من العدل بين الرعية تمكينا لهم للعمل خارج القطر وحماية للجبهة الداخلية .

كما أن نظام الشرطة كان معمولا به فى دولة بنى مرين وكان صاحب الشرطة فى كل اقليم من أقاليم الدولة يأتمر بأمر الوالى أو حاكم المدينة وكان يوجد الى جانب ذلك ديوان الحسبة وهو معاونة للقضاء والشرطة ووظيفة المحتسب هى البحث عن المنكرات والمحافظة على المصالح العامة وقد اهتم بنو مرين بهذه الوظيفة اهتماما كبيرا وكان صاحب الحسبة أحد عناصر الادارة الهامة فى كل مدينة من مدن الدولة المرينية .

وأقام بنو مرين نظامهم الحالى من الجباية على أساس أن كل والٍ من ولاة الاقاليم مسئول مسؤلية كاملة عن الجباية فى اقليمه والاتفاق فى ولايته ثم يبعث بما تبقى للادارة المركزية فى العاصمة وكانت الولايات التسع المقسمة اليها الدولة تخضع لاشراف دقيق من الناحية المالية وكان المشرف على الجباية يسمى كاتب الجباية أو صاحب الأشغال وقد أطلق على هذا الديوان فى عهد أبى عنان بن أبى الحسن اسم ديوان الجند والحساب .

* * * *

الحركة الثقافية والفكرية فى عهد بنى مرين

شهد القرن السادس والسابع الهجريان نموا ثقافيا فى بلاد المغرب الأقصى فى ظل حكم بنى مرين فقد أدى طرد الكثير من المسلمين من الأندلس وفرار الكثير منهم الى المغرب الأقصى بفنهم وعلمهم وثقافتهم احتماء فى جو الاستقرار الذى فرضه بنو مرين على بلادهم ولقد كان طبيعيا ان يعتصم هؤلاء ومن بينهم العلماء بأقليم بعيد عن متناول أيدى نصارى الأندلس اضافة الى حركة الهجرة من الشرق حيث تابع العلماء نشاطهم الثقافى فالتجأ أغلبهم الى مدارس المغرب الأقصى فى فاس ومراكش وسبتة وطنجة واغمات (تلمسان تحت حكم بنى مرين) فكانت الثقافة والحضارة الاسلامية فى أشد قوتها وعنفوانها فى عصر بنى مرين وبرزت فاس عاصمتهم متفوقة على جميع مدارس المغرب وبرزت فى ميدان الحضارة وتألق نجمها فى عالم الفكر والثقافة .

ولقد ساعد على ذلك حصاد قرنين من النشاط العلمى والثقافى بفعل جهود المرابطين والموحدين وجاء بنو مرين ليجدوا حقلا خصبا ومجالات ثقافية وعلوما وآداب نزهو بها بلاد المغرب الأقصى ولكن بنو مرين عملوا من جانبهم على الانطلاق بخطوات أوسع فى تلك المجالات الفعلية التى أتاحت للعقلية المغربية أن تبدع فى عطائها . والذى ساعد على ذلك أن سلاطين بنى مرين لم يقيموا دولتهم على فكر دينى معين ولم يفرقوا بين العلماء واحتضن السلاطين فى مجالسهم العلماء على اختلاف مستوياتهم ولذلك شهد عصر بنى مرين بالمغرب الأقصى وجود أكبر حركة ثقافية وعلمية وفكرية شهدتها البلاد طوال تاريخها الاسلامى .

فقد شهد المغرب الأقصى ذلك العدد الضخم من المدارس العالية المتخصصة التى انتشرت فى طوال البلاد وعرضها على نحو لم تشهده البلاد من قبل إضافة إلى أن

هذه المدارس قد امتدت الى المغرب الأوسط تحت سيطرة بنى مرين .

ولقد أسدى سلاطين بنى مرين للعلم والحضارة الثقافية الاسلامية اليد الطولى ومكنوا المدارس العليا وعلماءها لا سيما مدرسة الطب العليا فى سلا ، من متابعة الرسالة المقدسة للعلماء بعيدا عن كل ما يهددهم أو يقطع عليهم جهودهم فى البحث والعطاء لا سيما أن السلاطين أجزلوا لهم فى العطاء ومنحوهم كل الفرص للابداع وقد أدى ذلك الى اختراع وانتاج المدافع الحربية التى تقذف النيران وغدا هذا السلاح مستعملا فيما بعد واخترع العلماء الأسلحة الجديدة والتى تشبه المدفع وكانت مجهزة بآلات قاذفة وهى النفط .

وقد صان المرينيون تراث الحضارة الاسلامية الذى ورثوه عن المرابطين والموحدين وعملوا على دفع هذه الحركة للأمام استفادة منها فى كل المجالات وبسطوا ظل حمايتهم على العلماء واخذت مدارس المغرب الأقصى لا سيما مدارس فاس وسبتة وسلا فى كنفهم تزداد تفوقا ويتألق نجمها حتى لقد قيل ان جامعة فاس هى أقدم الجامعات العلمية (أنظر كتابنا : الاسلام والثقافة العربية فى أوربا . القاهرة ، ١٩٧٩) فى العالم وأنها ورثت تقاليد مدرسة القيروان وصار لهما السبق فى مضمار الثقافة الاسلامية وقد ظلت هذه الجامعة التى شد اليها المغاربة والمشارقة الرجال تغذى الحياة الثقافية فى العالم الاسلامى طيلة أربعة قرون .

ولم يضع سلاطين بنى مرين أدنى العوائق أمام العلماء المغاربة وغيرهم من علماء الأندلس وأدبائهم المهاجرين الى المغرب الأقصى وتمتعوا ببعض المميزات التى يتمتع بها أبناء المغرب بل لقد انضم كثير من هؤلاء العلماء الى مجالس سلاطين بنى مرين وشغل بعضهم مناصب عليا فى الدولة وقد أدى ذلك الى تطعيم الحركة الفكرية والعلمية وتعميق جذورها فى المجتمع المغربى حتى غدت فاس عاصمة الفكر والعلم

والحضارة والثقافة الى جانب أنها العاصمة السياسة وكانت مجالس السلاطين عبارة عن ندوات علمية تطرح فيها الأفكار وتناقش وكان شغف السلاطين بالعلم وحبهم العلماء دافعا لعقد هذه المجالس العلمية وكانوا يعقدون هذه المجالس للمناظرة والمحاضرة ومطارحة الأفكار بين الأدباء والعلماء ورجال الدين والفقه والشعراء .

وكان السلطان أبو الحسن وابنه أبو عنان من محبى هذه المناظرة ومجادلة العلماء وكان الأخير عارفا بالمنطق وعلوم الرياضة والفلك وأصول الدين ، وقد شهد البلاط المرينى فى عهد أبى الحسن أعظم مجالس العلم والعلماء التى شهدتها الدولة حيث احتضن البلاط المرينى فى عهده حشدا من العلماء لا يحصى عددهم ، حتى أن المصادر تذكر أن أسطول أبى الحسن عندما غرق فى مياه تونس فى فصل الشتاء كان من بين سفنه الغارقة (خمسمائة قطعة) عدد من العلماء لا يقل عن أربعمائة عالم فى التخصصات المختلفة .

وكانت المساجد تقوم برسالتها كما قصد هذه المساجد العلماء والعباد وقاموا بدورهم فى تقديم الفتوى والفقه وعلوم الدين للناس اضافة للمدارس المتخصصة . وكان السلطان أبو الحسن من أبر سلاطين بنى مرين بالعلماء وأعرفهم بقدرهم وكان يحرص أشد الحرص على تتبع أخبار العلماء فى أنحاء البلاد وكان يضم النابهين وأصحاب الاختراعات العباقرة منهم الى مجلسه وأجرى عليهم العطايا وقد شجع سلاطين بنى مرين حركة التأليف والوراقة وساعدوا العلماء على الاكثار من المخطوطات حيث كانوا يجزلون ويزيدون لهم العطايا على مؤلفاتهم الجديدة وتشجيعا لهم على مواصلة الحركة العلمية وكانت جوائز السلاطين لهؤلاء العلماء سخية .

كما اهتم سلاطين بنى مرين بخزانات الكتب وتعين الموظفين عليها ووقف الأموال عليها وفتحها للطلاب للبحث والدراسة واهتم أبو الحسن وابنه أبو عنان بتزويد

هذه المكتبات بالمخطوطات وشرائها من دول المشرق والأندلس والاعتزاز بهذه الخزانات من الكتب .

وقد اهتم بنو مرين بالمدارس وتعتبر المدارس المرينية أبلغ دليل على روعة الحضارة الاسلامية المغربية والأندلسية ذات الطابع المرينى حيث قدموا اللوازم لهذه المدارس ومتطلباتها حيث كان الطلبة يقيمون فيها على نفقة السلطان المرينى واهتموا بها لاتخاذها ميدانا لتدريس الفقه المالكى عملا على القضاء على مذهب التوحيد (الموحدين) وقد أنشأ المرينيون مدارسهم على نمط جديد لم يعهده المغرب من قبل وهى مدارس التعليم العالى المتخصص والسكن الداخلى للطلاب بعد أن كانت العصور السابقة تشهد القاء العلماء لدروسهم فى المساجد وبصفة خاصة مسجد القروين وقد بنى سلاطين بنى مرين مدارسهم فى العاصمة فاس وغيرها من مدن المغرب الأقصى .

وكانت مدرسة الصغارين أولى المدارس التى أنشأها السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بالقرب من السوق الذى يضع فيه النحاس الأصفر وجاء السلطان أبو سعيد عثمان المرينى فاهتم ببناء المدارس فى فاس وخاصة مدرسة العطارين ومدرسة المدينة البيضاء وغيرها الكثير من المدارس الأخرى ولم يكتف سلاطين بنى مرين بانشاء المدارس فى العاصمة فاس بل أنشأوها فى سائر بلاد المغرب الأقصى والأوسط وانشأ السلطان أبو الحسن مدرسة فى مدينة تازى ومكناسة وسلا وطنجة وسبتة وانفا وأزموروأسفى واغمات ومراكش والقصر الكبير وبالعباد بالقرب من تلمسان وبالجزائر مدارس أخرى وأنشأ أبو عنان بن الحسن المدرسة العنائية وكانت متخصصة فى الطب وأنشأ أبو عنان بن الحسن المدرسة العنائية عام ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م . وقد أراد بنو مرين التوسع فى العلم بأنشاء المدارس الكثيرة على نحو لم تعرفه بلاد المغرب من قبل وذلك لاغلاق جميع المنافذ أمام مذهب التوحيد ونشر المذهب المالكى وأقام بنو مرين

نظام السكنى والاقامة الداخلية للطلبة ليتسنى لهم التحصيل ولخلق جيل من الطلاب ليس من أهل المدن وانما من أهل البوادى والجبال والصحراء فانتشر التعليم على نطاق واسع بفعل هذه السياسة وشهدت عصور بنى مرين أزهى عصور المغرب الأقصى فى مجال الفكر والثقافة والأدب والتعليم الجامعى الذى أدخل لأول مرة فى تاريخ المغرب وحرص بنو مرين على تنشيط حركة التعمير والبناء وشعروا بحاجتهم الى المدن الجديدة سيما وقد انتقلوا من حياة البداوة الى المدن ونزحت القبائل وازداد عددها وضافت عليها المدن القديمة فشهدت فترة حكمهم ظهور الكثير من المدن الجديدة ومنها فاس الجديدة (المدينة البيضاء) وتم بناؤها عام ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م فى عهد أبى يعقوب بن عبد الحق وبقيت ملاصقة لمدينة فاس القديمة ونزل فيها السلطان بحاشيته وذويه وأصبحت هذه المدينة من أعظم مدن الدولة ، ثم مدينة البنية وأمر ببنائها السلطان يعقوب بن عبد الحق واختار لها مكانا ملاصقا لمدينة الجزيرة الخضراء (مدينة ذات هدف عسكرى) وكذلك مدينة منصورة تلمسان وبنيت فى عهد يوسف بن أبى يعقوب فى أثناء حضارة تلمسان عام ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م . وكذلك مدينة قطاوين وأسسها أبو ثابت المرينى عام ٧٧ هـ / ١٣٠٧ م . وكان الهدف من بنائها عسكريا وكما اهتم بنو مرين ببناء المدن الجديدة وحرصوا أيضا على تجديد المدن القديمة وبناء الأسوار لها وتوصيل الحياة اليها .

واهتم سلاطين بنى مرين وعلاة القوم من الأسرة الحاكمة وأشياخهم ببناء المساجد الجديدة فاحتوت كل مدينة من هذه المدن الجديدة على مسجد كبير كالمسجد الجامع بفاس الجديدة الذى بنى عام ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م ، وغير هذه المساجد فى المدن الجديدة ، مساجد أخرى لا تقع تحت الحصر بنيت فى جهات الدولة المختلفة اضافة الى الزوايا والأربطة وبنى العديد من المساجد فى المدن الجديدة فى عهد السلطان

أبى الحسن المرينى وكذلك ابنه أبى عنان واهتم سلاطين بنى مرين بترميم المساجد القديمة واصلاحها وتزويدها بكل ما تحتاج اليه حفاظا على الطابع الاسلامى للمساجد ، وفى عهد السلطان يعقوب بن عبد الحق زود مسجد القروين بكل ما يحتاج اليه ونال مسجد الأندلس نفس العناية التى لقيها مسجد القروين وعمل سلاطين بنى مرين على تهيئة المساجد فى دولتهم كى تؤدى رسالتها فى نشر المذهب المالكى الذى استعاد مكانته التى كان عليها قبل ظهور الموحدين وكان سلاطين بنى مرين يهتمون بأنفسهم بفهم هذا المذهب واتاحة الفرصة له لأنه المذهب المفضل والمحبب عند شعبهم وكان السلطان أبو الحسن يحرص على أن يوضع بين يديه مؤلفات المذهب المالكى والذى يعتبر أكبر من غيره من المذاهب الأخرى واجتذب سلاطين بنى مرين على المذهب المالكى وقام أبو عنان بتجديد ضريح الشيخ (أبو ميمونة دارس بن اسماعيل) وهو من أوائل حملة المذهب المالكى ، لدرجة أن عبد الرحمن بن عفان الجزولى وهو من أكبر علماء المذهب المالكى فى ذلك العصر كان يحضر مجلس علمه أكثر من ألف فقيه مالكى كانوا يدرسون المدونة لابن سحنون وقام العلماء بتدريس المذهب المالكى فى المدارس والمساجد حيث كان هذا المذهب هو محور التعليم فى العصر المرينى ذلك لأن المسلمين ببلاد المغرب شديدو التمسك بسنة رسول الله ﷺ معرضين عن اتباع المذاهب الأخرى التى تعتمد على الرأى والتأويل وهذا هو سر انتشار المذهب المالكى الذى لقى قبولا من الفقهاء المغاربة لاعتماده اساسا على نصوص القرآن الكريم والأحاديث . ولقد أصبح المذهب المالكى فى بلاد المغرب هو الحصن الذى اعتصم به سكان البلاد . بل أمعنوا فى تعصبهم للمذهب المالكى فمن كان مالكا قبلوه ومالوا اليه ومن كان غير ذلك حاربوه والمالكية وافقت طبيعة المغاربة ، كما ان الفقهاء المالكين سموا فى نفوس المغاربة الى مرتبة الزعماء الذين يعارضون الحكام فى سبيل

اعلاء كلمة الحق وانتصرت المالكية على مذهب الموحدين وصمدت رغم محاربة الموحدين لها وازداد انتشارها فى العصر المرينى .

وشهد العصر المرينى ازدهار العلوم الاسلامية والدينية من تفسير القرآن الكريم وعلم الحديث وتأثرت هذه العلوم بالمذهب المالكى واصبحت هذه العلوم تواكب هذا المذهب وتشبعت به واهتم العلماء والمفسرون فى العصر المرينى بدراسة القرأن الكريم باعتباره المصدر الأول للتشريع الاسلامى واهتم السلاطين أيضا بحفظ القرآن الكريم وتفسيره وكان السلطان أبو عنان حافظا للقرآن الكريم كله وازدهرت بعض العلوم المتصلة بالقرآن كعلم القراءات وازدهر علم الحديث باعتبار الحديث هو المصدر الثانى للتشريع ولقى علم الحديث رواجا كثيرا حيث كان بعض العلماء من المتصوفة يتكسبون من نسخ كتب الحديث . لذلك كانت كتب الحديث أوسع انتشارا من غيرها من المؤلفات الأخرى وحرص الأهالى على تعليم أولادهم الحديث وحفظه بجوار القرآن الكريم لاحظ حب الشعب للرسول ﷺ ولأحفاده ، الأسرة الادريسية والسعدية ، والعلوين الحكام الحالين فى المغرب .

أما الفقه فى العصر المرين فقد لقى تقدما كبيرا وكان الفقه فى الدولة يسير وفق المذهب المالكى وبرع كثير من العلماء فى علم الفرائض والأصول وذلك بظهور كثير من الفقهاء فى العصر المرينى الذين نبغوا وتفقهوا فيه وظهرت كثير من المؤلفات التى ألفت فى مختلف فروع الفقه كما يدل على ذلك أن الفقهاء أصبحت لهم المكانة السامية فى البلاد وفى مجالس العلم التى كانت تعقد فى البلاد السلطانى كما تولى الفقهاء أرفع المناصب فى الدولة ومنها القضاء والافتاء والحجابة وكان القضاء مستقلا حيث أن قضاة الأقاليم فى المغرب لم يكونوا مستقلين عن الادارة أو السلطة فقط بل عن سلطة قاضى الجماعة بفاس .

ولم تكن العلوم الفقهية فى عصر بنى مرين قاصرة على العلوم الدينية فقط وانما شملت مختلف العلوم الأخرى العلمية كاللغة العربية وعلم النحو والتاريخ والسير والرحلات والجغرافيا والفلك والطب والرياضة والعلوم والمنطق وغيرها من العلوم الأخرى التى قامت بدورها فى اذكاء الحركة العلمية والفكرية والثقافية والتعليمية فى العصر المرينى الذى كان المجتمع يتقدم نحو الرقى والرفاء وعم النمو والتقدم كافة المرافق والجوانب وغدت فاس درة فى جبين الحضارة المغربية والاسلامية وتقدمت العلوم والفنون وكثرت المدارس والجامعات وعمرت الدور بالكتب وانشئت المكتبات الكثيرة ووصفت فاس بأنها جوهرة العلم والعلماء وكانت فاس أعظم علما وأكثر فضلا بالنظر الى غيرها من الممالك لاتصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارثة منها .

وتابع علماء اللغة العربية جهودهم فى العصر المرينى التى بذلها علماء اللغة السابقين وظهرت فى بلاد المغرب طائفة من الكتاب المجدين فكانت فاس بها جوهرة العلم والعلماء وكانت فاس أعظم علما وأكثر فضلا وبرعوا فى الكتابة وأحاطوا بأسرار اللغة فتهافت عليهم السلاطين والرؤساء يستخدمونهم فى دواوين الانشاء وزاد نشاط حركة البحث فى العلوم الدينية من تفسير وقراءة وفقه وحديث وسار العلماء الدارسون الى فهم أسرار اللغة العربية وكان أكثر علماء العصر المرينى على صلة كبيرة بالدراسات اللغوية وقد أدى هذا الى دعم اللغة العربية وصار علماء اللغة يجمعون الى براعة الفقهاء براعة الشعراء والنبهاء ويتصرفون تصرف المطبوعين ويتكلمون بألسنة المجيدين وقد أدى ذلك الى نهضة كبرى فى علم النحو وظهر الكثير من علماء النحو اضافة الى ظهور العديد من كتاب التاريخ والسير وقد أرخ هؤلاء للدولة المرينية ومنهم ابن أبى زرع وابن عذارى المراكشى ، وابن خلدون وابن الخطيب والجرنائى وغيرهم من علماء التاريخ ، كذلك من الرحالة المشهورين ابن بطوطة الذى أصدر السلطان أبو

عنان أمرا بتدوين رحلته التى كانت أحسن ما كتب من أدب الرحلات وظهر العديد من الجغرافيين ونشط علم الرياضيات ، وكما ارتفع شأن الفقه والحديث والأدب والشعر فقد تألق نجم علوم الفلسفة والطب حيث لقى هذا العلم جانبا كبيرا من اهتمام السلاطين الذين أنشأوا له مدرسة عليا اسمها مدرسة الطب العليا فى سلا وقد زاد ذلك من اهتمام بنى مرين بصحة المواطنين وكثرة البمارستانات والمكتبات التى كانت تضم العديد من الكتب والمخطوطات .

وظهر علم المتصوفة والذين كان لهم دورهم فى الحركة الفكرية سيما أنهم لقوا تقدير سلاطين بنى مرين واحترامهم وقد تركت هذه الحياة العقلية والعامية والفكرية اثرها البعيد فى حياة شعب المغرب فى العصر المرينى اذا أقبلت طوائف الشعب على الثقافة الاسلامية بجوانبها المختلفة ينهلون منها ما طاب لهم وأصبحت عقول شبابها وطلابها أكثر استعداداً لحياة علمية رفيعة (المدارس العليا المتخصصة) وتفتحت عيونهم على آفاق جديدة فى ميدان العلم حتى شاع العلم بين أفراد الرعية لا سيما بعد انتشار العديد من المدارس واقبل الجميع على التعليم بعقول واعية حتى أنه لم تمض خمسون عاما (نصف قرن) على حكم بنى مرين حتى ظهر هناك جيل من العلماء برع فى العديد من المجالات واحتلوا مكان الشيوخ المعلمين الذين جلسوا فى المدارس بدلا من المساجد يخدمون الناس والتلاميذ وينفعونهم وأخذ الطلاب يختلفون الى مدارسهم ويروون عنهم ، وبذلك انتشرت الثقافة العربية الاسلامية وكثر الانتاج العلمى وشاعت المعرفة حيث نشأ العلم وانتشر وعم وتشهد على ذلك المؤلفات الكثيرة والمكتبات العامة والخاصة وازدهار صناعة الوراقة وكثرة الوراقين .

واهتم سلاطين بنى مرين بالنواحى الصحية حرصا على علاج أفراد الشعب ومن هنا اهتموا بانشاء البمارستانات لعلاج المرضى وكان السلطان أبو يوسف يعقوب بن

عبد الحق أول بنى مرين الذى قام ببناء مستشفى للمرضى والمجانين ورتب عليها الأطباء ليتفقدوا أحوال المرضى وتابع بنو مرين هذه السياسة فأنشأوا العديد من المستشفيات فى المدن الكبرى وليس فى العاصمة فاس واهتموا بالرعاية الاجتماعية وبنوا معهدا للفقراء والضعفاء واليتامى وأقاموا مدارس لتعليمهم واهتموا برعاية الشيوخ والفقهاء الذين لا يستطيعون النفقة على أنفسهم وكذلك اهتموا ببناء الفنادق لازدهار الحركة التجارية فى البلاد حيث لعبت الفنادق دورا كبيرا فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب وانتشرت على طول الطرق فى أنحاء الدولة المرينية ما يشبه الفنادق الصغيرة وهذه كانت تقوم بخدمة المسافرين والمحافظة على أمتعتهم وقد تواجدت هذه الفنادق الصغيرة على مسافات ثابتة يعلمها المسافرون وتقدر باثنى عشر ميلا .

كما اهتم بنو مرين ببناء القناطر وانشأوا القناطر وجددوها بين عدوتى الأندلس والقروين فى فاس القديمة وأصلح السلطان أبو سعيد عثمان المرينى العديد من القناطر واعتنى السلطان أبو الحسن المرينى ببناء المزيد من القناطر داخل فاس وغيرها من مدن المغرب ووصل المياه للعديد من المدن (مدينة تلمسان) وزاد اهتمامه بمشروعات المياه وقد انفق السلطان أبو الحسن أموالا طائلة لتوصيل المياه الى مدن سلا وتلمسان .

واهتم بنو مرين بانشاء الحصون والأسوار لا سيما المدن الساحلية حيث المدن التى هى مرفأ للأسطول الذى نما وزاد قوة وفنا فى عصر بنى مرين واكثروا من القلاع والحصون لان دولة بنى مرين تميزت بكثرة الحروب التى خاضتها وتركزت أهم هذه التحصينات الدفاعية على الحدود الشرقية للمغرب الأقصى لمراجهة خطر بنى زيان وفى بلاد الأندلس وعلى طول خط السواحل المطلة على البحر المتوسط لمواجهة خطر الأسطول الأسبانى المسيحى على ساحل البحر المتوسط والمحيط . وقد ذكر مارسى أن أثار هذه القلاع والحصون لا تزال باقية حتى اليوم ، وكانت المنشآت الصناعية

العسكرية مثل مدينة البنية التى كانت ميناء هاما للأسطول المرينى والتى بنيت ملاصقة للجزيرة الخضراء وأعيد بناء مدينة وجدة وحصنت أسوارها كما بنى السلطان يوسف بن أبي يعقوب حصن « تاوديت » على الحدود الشرقية فى مواجهة بنى زيان وقرر السلطان أبو الحسن المرينى بعد استيلائه على جبل الفتح ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م تحصين جبل الفتح لأهميته الاستراتيجية حتى أنه كان يشرف عليه بنفسه واستغرق بناؤه سبع سنوات ولم يكن اهتمام أبى الحسن بجبل الفتح فحسب وانما اهتم ايضا بجميع القلاع والحصون التى للمسلمين فى الأندلس فشحنها بالرجال والعتاد والذخيرة والزاد والأقوات وما تحتاجه الحصون من الآلات والعتاد وذلك توطئة للتوسع فى حركة الجهاد ويدل على ذلك ما رواه المؤرخون من أن أبا الحسن أقام الحصون فى بلاد الأندلس وشحنها بالأسلحة والأطعمة ورتب فيها عسكرا نقيا من نخبة رجاله وأسكنهم بها كما بنى قلعة حصينة قرب فاس ليحتمى بها الجند عند الخطر .

الحياة الاقتصادية :

تركت الحياة التى تمخضت عن قيام دولة بنى مرين أثر سقوط الموحدين اثارا بارزة فى الميدان الاقتصادى ، فان الأحوال الاقتصادية فى البلاد كانت أكثر تأثرا بالظروف التى أدت الى قيام الدولة من أى ناحية من نواحى الحياة فى المغرب فى القرن السادس الهجرى والسابع الهجرى .

وقد اعتمدت الدولة على عدة مصادر لتمويلها وهى الزكاة والخراج والجزية والضرائب والغنائم والصادرات وكانت هذه الموارد تصب فى خزينة الدولة ويضاف اليها المكوس وقد حرص سلاطين بنى مرين على استعمال ذوى العدل والسمعة الطيبة فى جميع هذه الجهات التى تقوم بجمع هذه المصادر لتمويل الدولة وكانوا يلتزمون جانب العدل فى تحصيل هذه الموارد وقد طبق سلاطين بنى مرين القواعد الشرعية لتوزيع هذه

الموارد وكانت الزراعة من المصادر الرئيسية التي تدر دخلا للدولة فقد كان المغرب الأقصى في القرنين السابع والثامن الهجرى الثالث عشر والرابع عشر الميلادى مجتمعا زراعيا على الوجه الأغلب وكان سكانه يعتمدون اعتمادا كبيرا على الزراعة وتتفشى البداوة في أرجائه وقد ازدهرت الزراعة في العصر المرينى بفضل ما تمتع به المغرب الأقصى من دعائم ضرورية للزراعة وأهمها جودة التربة وتنوع المناخ ووفرة المياه والمغرب الأقصى به عدة أنهار تسهل عملية الزراعة منها ملوية ، نهر أم الربيع أو أبو الرقراق ، نهر السوس الأقصى ، نهر درعة ، نهر سيو ونهر بهتا ، نهر تسفيت ، ومن هنا ازدهرت الزراعة ومن هنا كثرت المحاصيل الزراعية وكذلك الخضر والفاكهة والى جانب ذلك كانت الغابات التي كانت مصدرا يمد أهالى المغرب الأقصى بالأخشاب المستخدمة في صناعة السفن وساعدت الغابات على وفرة الثروة الحيوانية وكذلك الثروة الداجنة (الدواجن والأسماك) .

وكان بنو مرين لما بسطوا سلطانهم على المغرب الأقصى لما استقر مفهوم التوحيد واطمأن الناس على أموالهم فاقتنوا الدور والضياع والأراضى الزراعية وزاد زحف الأندلسيين نحو الأراضى المغربية مشترين للضياع بسبب الاستقرار الذى شهدته البلاد وقد ازداد ذلك من التقدم الزراعى واقبل الناس على شراء الأراضى الزراعية واستثمارها وقد أولى أهلها عناية خاصة بالزراعة وقد أمر سلاطين بنى مرين باشاعة الاستقرار دائما واتخاذ المحاريث والاتساع في الزراعة وحرموا على الجند السير في الأرض المزروعة وهكذا ظل الاعتماد على الزراعة في بلاد المغرب الأقصى كمورد من موارد الدولة في عهد بنى مرين كما كان الحال في عهد الموحدين وقبلهم المرابطين وكانت الصناعة من الأنشطة الاقتصادية الهامة التي يعتمد عليها سكان الدولة اذ امدت الأهالى بكل ما يحتاجون اليه من صناعة وموارد . ويعنى بالصناعة تصنيع الانتاج الزراعى وما يتصل

به واستخراج المعادن وتصنيعها وقد ازدهوت الصناعة فى العصر المرينى عما كانت عليه فى عصر الموحدين بسبب اتساع العمران وتدمت الصناعة بسبب توافر المواد الخام اللازمة لصناعة . وكان الغالب على المغاربة طوال القرن التاسع وما بعده أنهم معجبون بالصناعة ويحبون تعلم حرفها الجديدة ولقد ساعدت النهضة الزراعية على قيام صناعات جديدة فى بلاد المغرب الأقصى حيث مركز السلطان السياسى ومكان الصناعات الجديدة ، وقد اهتم سلاطين بنى مرين بالصناعات الحربية لحاجة الجيوش المغربية لها والتى يدافعون بها عن البلاد وصد العدوان عن الاسلام فى الأندلس وقد استخدم المرينون السلاح النارى فى الدفاع عن الجزيرة الخضراء التى هاجمها القشتاليون فى عام ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م . واستخدموا مدافع البارود ، وازدهرت صناعة الأزياء العسكرية وازدهرت الصناعات المساعدة التى يحتاج اليها الجيوش واهتم سلاطين بنى مرين بالصناعة اللازمة للاسطول المرينى وخاصة صناعة السفن لاهميتها فى الصناعات الحربية فى الميدان الأندلسى للدفاع عن سواحل دولتهم وازدهرت صناعة السفن وتعددت أنواعها وقد حرص سلاطين بنى مرين على حماية الصناع لأنهم الذين ينتفعون بهم وشجعوا الصناعات الحربية لحاجة الدولة لهذا النوع من الصناعات واتساع نطاق الموارد وزاد الطلب على أشياء الترف واستجلبوا الخبرات الصناعية الأندلسية فى مختلف الصناعات مثل الصناعات الطبية والصيدلية والكمياء . وقد برز من أهل المغرب العديد فى مختلف الصناعات فى البناء وهندسة الرى والمعمار والهندسة.

وتقدمت صناعة النسيج والصوف وكثرت الثياب المتخذة من الأصواف والبسط وصناعة الورق والوراقة وكان المغاربة يتخذون ثياب الصوف فى الشتاء وثياب القطن والكتان فى الصيف وازدهرت صناعة الكتان المغربى وادت العناية بالكتب التى تطور

صناعة التجليد وازدهرت الصناعات الجلدية والصباغة ، والصناعات الخشبية والنهضة المعمارية وصناعة الآلات الموسيقية ، وكثرت المطاحن وصناعة الزيوت والصابون ، وصناعة السكر ، والعقاقير الطبية والعطور وكثر استخراج المعادن ورادت معرفة أماكن التعدين وطرق البحث والتنقيب والصناعات الفخارية وصناعة الزجاج .

وانعكست حالة الأمن والاستقرار التى سادت الدولة على نشاطها التجارى ، وقد حرص سلاطين بنى مرين على توفر الأمن حماية للتجار فى المغرب كما شهد عصر بنى مرين تأمين المواصلات بين مدن الدولة وتنظيم فرق لحراسة الطرق بين المدن واداء الخدمة للقوافل وحمايتها من أى خطر يهددها وتوافرت الأسواق الداخلية وازداد النشاط التجارى الخارجي وكانت الأسواق تمد الأهالى بكل ما يحتاجون اليه .

ولقد كان من الطبيعى أن تتأثر التجارة فى عهد بنى مرين بما طرأ من متغيرات على الأنتاج الزراعى والصناعى لا سيما أن المغاربة قد شغفوا بالتجارة لا سيما أن التجارة كانت مصدرا أساسيا لدخل الدولة وقد ازدهرت التجارة الداخلية فى عهدهم .

وكانت تجارة المرور من أهم أنشطة التجارة الخارجية فى الدولة المرينية ولعبت الموانئ أهمية كبرى فى التجارة الخارجية وكان ميناء سبتة ترد اليه معظم التجارة الخارجية وكانت السفن تتردد بين موانئ المغرب الأقصى وكانت مدينة مرية الأندلسية قاعدة الاتصال الاقتصادى بين أوربا وبلاد المغرب الأقصى لذلك حرص سلاطين بنى مرين وسلاطين بنى الأحمر فى غرناطة على تأمين طرق التجارة البحرية بين البلدين واحترام تجار النصارى من أسبانيا ومن المدن الايطالية . وعدم الاعتداء عليهم أو على أموالهم وتجارتهم وانشاء الفنادق لسكناهم والعمل على توفير الأمن والراحة لهم وكانت قوافل الحج البحرية والبرية هى الوسيلة الرئيسية لربط المشرق العربى ومصر بالدولة المرينية فى مجال التجارة الخارجية وكان التجار ينظمون القوافل التى تحمل

التجارة المغربية والأوربية الى بلاد السودان الغربى والأوسط وجنوب الصحراء الكبرى ونشطت الحركة التجارية مع بلاد الأندلس ودول جنوب أوربا الا أن الحروب الطاحنة مع نصارى أسبانيا فى بعض الفترات جعلت التجارة معهم وغيرهم الى أوربا تزدهر الى فى سنوات الهدنة وهذه كانت كثيرا ما تخرق . وكانت علاقات بنى مرين ممتازة جدا ببلاد السودان الغربى والأوسط (انظر علاقات بنى مرين ببلاد السودان الغربى) وقد حرصوا على أن تكون الطرق الخارجية ببلاد السودان مفتوحة والحركة بها سهلة حسبما يذكره الادريسى وابن بطوطة ولم تكن علاقة بنى مرين بصقلية والمدن الايطالية بأحسن منها مع نصارى الأندلس .

وكان بنو مرين يبنون الأسواق فى المدن الجديدة أو عندما تتسع المدينة وكانت شديدة الحرص على تشييد الفنادق للتجار وتعبيد الطرق وتجهيزها بما تحتاج اليه . ويلاحظ الدارس للتجارة الخارجية المغربية على الرغم من توتر العلاقات مع الدول المعاصرة الهامة فى حوض البحر المتوسط خلال القرن السابع والثامن الهجريين ، ان التجار المغاربة كانوا يدخلون صقلية والمدن الايطالية وأسبانيا المسيحية كما كان تجار تلك الدول يدخلون الى المغرب فى أوقات الهدنة والصلح وكان التجار المغاربة يصلون الى ايطاليا وجنوب فرنسا ويدخلون الى بلاد المشرق ومصر كما كان التجار المشارقة يدخلون الى المغرب ، وعمل اليهود فى بلاد المغرب فى الصيرفة والتعامل بالدرهم والدينار وقد مهد انتشار اليهود فى أوربا وبلاد الشرق وعمل اليهود فى المغرب فى التجارة الخارجية ، الا أن دور المدن الايطالية كان أكثر من دور اليهود .

ولقد ترك تزايد أعداد الأجانب فى التجارة المغربية خاصة فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى تأثيرا كبيرا على أوضاع التجار المغاربة وبسبب نفوذ تجار المدن الايطالية فى تجارة البحر المتوسط والتجار السودانيين وأهل غانة فى تجارة السودان فقد

تأثر وضع أرباب الأموال الكبيرة من التجار المغاربة وواجه التجار المغاربة صعوبات كثيرة فى التجارة الخارجية وبصفةخاصة فى مراكز التجارة الساحلية الا أن دورهم فى العصر المرينى كان لا يزال له وضعه المؤثر فى الحركة التجارية الخارجية والداخلية بوجه خاص .

وتعتبر السكة الوجه الاقتصادى للدولة اذ يتوقف على قيمة السكة (العملة) القوة الشرائية والاستقرار الاقتصادى وكانت السكة المستعملة فى الدولة المرينية تصنع من الذهب والفضة وكان معظم الذهب يأتى من بلاد السودان والفضة من داخل البلاد حيث المناجم المحلية .

وكانت السلطنة المرينية تتخذ دور ضرب للعملة وقد تعددت دور الضرب فى المغرب وكانت توجد دور سكة للعملة فى عدوة القروين بفاس وأخرى فى عدوة الأندلسين وكانت هناك دار أخرى فى مراكش واغمات وتلمسان وفاس وسجلماسة وتول لمطة وسبتة وسلا . وجعل بنو مرين لكل دار سك نقود أمانة وكان السلطان أبو يوسف يعقوف بن عبد الحق أول من اهتم بإنشاء دارا لسلك العملة المرينية وغير شكل الدينار الموحدى واعادة الى شكله قبل الموحدين وقد ارتفعت القيمة الشرائية للدينار المرينى واستعمل الى جانبه الدرهم وكان دينار الذهب يساوى ستين درهما الى جانبها كانت توجد عملات أصفر تصنع من النحاس وقد تميز العصر المرينى بقوة نفوذه وكان للانتعاش الزراعى والصناعى والتجارى أثره الكبير فى تقدم الدولة .

وتلك هى صورة مبسطة وموجزة للأحوال العامة لعهد بنى مرين وانجازاته فى جميع الأصعدة التى عرضنا لها فى ذلك الفصل الذى أوجزناه بقدر المستطاع دون الدخول فى تفاصيل لأن كل مجال من هذه المجالات التى عرضنا لها تحتاج الى دراسة مستقلة وهذا ما نتركه للباحثين والدارسين الذين يسيرون على الدرب .

الفصل السادس

السياسة الخارجية لسلطنة بنى مرين

بعد أن أسقط بنو مرين خلافة الموحدين فى عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م وأصبحت لهم شخصيتهم الدولية المستقلة فقد ارتبطت دولتهم بعلاقات سياسية (دبلوماسية) وثقافية واقتصادية مع دول العالم المعاصر ولقد كان لهذه السياسة أثرها الكبير فى دعم الدولة المرينية سياسيا واقتصاديا وحضاريا وثقافيا ، بل أن علاقاتها شملت معظم العالم الاسلامى فقد كانت العلاقة مع بلاد المشرق وبالذات مصر علاقة ود ومحبة الناس فى المغرب على صلة بأخوانهم يرتادون بلدان كل منها للسفر والحج ولتلقى الدرس كما استقبل بالترحيب علماء المشرق ورجالهم فى بلاد المغرب ووجدوا فيها الأمل والتشجيع وكذلك استقبل ابناء المغرب (ابن خلدون) فى بلاد المشرق وتولوا المناصب العليا وبعض مشايخ الأزهر كانوا من أهل المغرب ، ولم يحدث مع بلاد المشرق على المستوى الرسمى صدام ، ومواجهة بينهما بل حدث تعاون يدل على حسن الصلة فالعقيدة تجمع بين هذه الأطراف وكان لذلك أثره فى ألا تتخذ العداوة شكلا عنيفا بين الجهات الرسمية .

وكانت علاقتهم وطيدة مع مصر والشام والعراق والجزيرة العربية ومع بلاد السودان الغربى جنوب الصحراء الكبرى وارتبطت بعلاقات مع الحفصين فى المغرب الأدنى وبنى زيان فى المغرب الأوسط وبنى الأحمر فى غرناطة وكانت لهم علاقات مع القوى المعادية فى قشتالة وأرغون .

علاقات بنى مرين مع مصر :

تطلع سلاطين بنى مرين الى مصر باعتبارها قلب العالم العربى الاسلامى وكانت

مصر محط أنظار سلاطين بنى مرين لأنها الواجهة التى تطل منها بلاد المغرب على بلاد المشرق العربى ، من ذلك سعى سلاطين بنى مرين الى توطيد علاقاتهم بمصر والمشرق العربى وكانت مصر مرتبطة بقوافل الحج ولقد تنوعت العلاقات فى العصر المملوكى الذى ظهر على أشدة بعد انتصارات مصر على المغول والتتار والصليبيين ولقد كان لمصر دورها فى توجيه بعض الأمور الداخلية والمبادلات الرسمية فى الرسائل بين الاطراف السياسية فى كل من الحجاج المغاربة الى الأراضى المقدسة ، وفى ظل حكم المماليك الجراكسة والبرجية واتسمت العلاقات مع بنى مرين فى فاس بروح المودة والاخاء فقد قبل السلطان العباسى أحمد بن أبى سالم المرينى شفاعة السلطان برقوق فى الشيخ يوسف بن على بن غانم أحد شيوخ العرب بالمغرب وكان يوسف قد لجأ الى القاهرة عام ٧٥٣ هـ / ١٢٣٩ م تأجيا من سخط السلطان أحمد بن أبى سالم بعد قيامه بثورة عربية ضد نظام الحكم .

وفى عام ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م كان السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق قد استولى على المغرب الأوسط الذى كان يحكمه بنو زيان الذين كانوا يعوقون تقدم القوافل نحو مصر والمشرق العربى وقد خرجت أول قافلة تحمل حجاج بنى مرين الى الأراضى الحجازية عام ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م ، وأرسل هدية قيمة أكثرها من الخيول وحمل هذه الهدية أحد المماليك المصريين العاملين فى البلاط المرينى وهو (ايدغدى الشهير زورى) ووصلت الهدية عام ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م . وتعتبر هذه الرسالة أول صفحة فى العلاقات المصرية المغربية فى العصر المرينى .

وقد رد السلطان الناصر محمد بن قلاوون على هدية السلطان يوسف بهدية عظيمة وقد وصلت هذه الهدية الى مدينة المنصورة بالمغرب الأوسط عام ٧٠٦ هـ / ١٣٠٦ م . وقد احتفل السلطان يوسف المرينى بالوفد احتفالا عظيما وأرسله الى بلاد

المغرب الأقصى لتفقد معالم هذه البلاد وآثارها ، وفى هذا الأثناء توفى السلطان يوسف فقام خلفه السلطان أبو ثابت عامر بن أبى عامر بمتابعة اكرام الوفد المصرى وقدم لهم عند عودتهم هدايا قيمة وعاد الوفد المصرى الى بلاده فى ذى الحجة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٨ ، لكن اللصوص سطوا على القافلة المصرية ونهبوا ما معهم مما أدى الى تأثر العلاقات وفتورها بين البلدين ولم ترسل مصر أدنى وفد بعد ذلك رغم ارسال بنى مرين للعديد من الوفود وربما يكون بنو زيان فى المغرب الأوسط وراء هذه الحادثة ليتعكر جو العلاقات الودية بين مصر وبنى مرين (ابن خلدون) .

وقد أرسل السلطان المصرى الناصر محمد بن قلاوون هدية صغيرة مع رسالة عتاب لما أصاب القافلة المصرية فى بلاد المغرب وقد غضب السلطان أبو ثابت من ذلك وأرسل خطابا يلوم فيه سلطان مصر على ما جاء فى رسالته وهديته وأدت هذه الرسالة الى قطيعة استمرت حتى عهد السلطان أبى الحسن المرينى وكانت سياسته المعتدلة وقيمه الاسلامية قد أدت الى اعادة العلاقات مع مصر مرة ثانية بل وصلت الى عهدها الذهبى وكان انتصاره فى بلاد المغرب الأوسط قد أعاد مكانته والمغرب فى مصر وبلاد المشرق العربى والعالم الاسلامى ، وكان السلطان أبو الحسن هو الذى بدأ بأرسال سفارة الى مصر وسلطانها الناصر محمد بن قلاوون يخبره فيها بالفتح وكان حامل رسالة بنى مرين فارس بن ميمون بن وردار وأرسل سلطان مصر رسالة تعزية فى وفاة السلطان أبى الحسن .

وفى عام ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ م . خرجت قافلة من بنى مرين وبها والده السلطان وكان سفير البلاط المرينى الى السلطان الناصر محمد بن قلاوون (عثمان بن جرار) وارسل معه السلطان أبو الحسن هدية ضخمة كانت حديث المجال فى المشرق والمغرب وكانت بها ٥٠٠ خمسمائة من عتاق الخيل بسروج من الفضة والذهب ووصل الركب الى مصر فى عام ٧٣٨ هـ / ١٣٣٨ م . وأمر الناصر محمد بن

قلاوون باستقبال الوفد أحسن استقبال وقدرت قيمة الهدية بما لا يزيد عن ألف دينار وقد أدى ذلك الى حسن العلاقة ، ولما عاد موكب الحجاج المرينى من الأراضى الحجازية الى مصر جهز لهم السلطان الناصر هدية تعادل فى قيمتها وفخامتها الهدايا التى أرسلت الى مصر .

وظلت العلاقات قائمة بين أبى الحسن والسلطان الناصر محمد بن قلاوون حتى توفى الأخير عام ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م وقد شهد الناصر ملكا طويلا عاصر فيه ستة من سلاطين بنى مرين ، ابتداء من أبى يعقوب يوسف الى أبى الحسن المرينى .

وقد شهدت العلاقات المصرية المرينية توتراً ملحوظاً أواخر عهد السلطان أبى الحسن حين فر الوزير الحفصى ابن تافراجين الذى كان يمثل المقاومة الحفصية ضد بنى مرين من أفريقية إلى مصر، أرسل السلطان أبو الحسن الميرينى إلى السلطان المملوكى حسن بن الناصر قلاوون للقبض على ابن تافراجين وارساله إلى المغرب؛ إلا أن السلطات المصرية رفضت ذلك باعتباره فى حماية مصر وأن ابن تافراجين فى حماية أحد المماليك الأقوياء.

ولم يقتصر دور قوافل الحج على دعم العلاقات الدينية السياسية بين مصر وبنى مرين لكن تدعمت خلال هذه الفترة العلاقات الاقتصادية فقد حملت قوافل الحج فى عودتها منتجات هذه البلاد إلى الديار المصرية؛ حيث كان الحج وسيلة لتصدير السلع المغربية إلى مصر وبلاد المشرق الإسلامى كما أنها أدت إلى انتعاش الصناعات المغربية التى كانت تحملها القوافل وكانت الخيول لها حظ كبير فى هذه التجارة لحاجة مصر الشديدة إليها حتى كان يدفعهم إلى إرسال الرسل لطلبها فقد بعث السلطان برقوق برسائله وهداياه إلى سلطان فاس أبى العباس بن أبى سالم لشراء أعداد من الخيول المغربية.

وعن العلاقات الثقافية فقد كان لها نفس الحظ من النشاط فقد رحل علماء بنى مرين إلى مصر وبلاد المشرق الإسلامي الذين كان منهم الكثيرون كما رحل إلى العاصمة المرينية فاس بعض علماء مصر والمشرق؛ حيث كان سلاطين بنى مرين يحرصون على استقبال هؤلاء العلماء وضمهم إلى مجالسهم العلمية؛ فقد وفد من مصر والعراق ومكة المكرمة والمدينة المنورة وفود كثيرة إلى أبى الحسن الميرينى.

وقد حفظ ديوان الإنشاء المصرى (القلقشندى) : صبح الأعشى فى صناعة الانشا (ج٨، ص١٠٣ ، ص١٠٦) نص رسالة متبادلة بين السلطان المصرى المملوكى فرج بن أبى سعيد برقوق فى شعبان (٨٠٤هـ/١٤٠١م) إلى السلطان عثمان بن أبى عباس المرينى، وكانت الرسالة تعرض رغبة السلطان المرينى لتقديم المساعدات العسكرية لصد أعدائها من الصليبيين وبقايا التتار وتعنى هذه الرسالة أن بنى مرين وقفوا من السلطات المصرية موقف المترقب للتعاون ضد خطر التتار والمغول أيام تيمور لنك ٨٠٣هـ/١٤٠١م، ويبدو أن السلطان المرينى كان يتابع موقف الجبهة المصرية أمام التتار ويدل على ذلك الرسالة التى أرسلها السلطان فرج للانسحاب من دمشق والعودة إلى مصر بعد أن علم بوجود مؤامرة للاستيلاء على الحكم فى مصر أثناء غيابه فى دمشق لإقامة سلطان جديد. وهذه بعض من أوجه العلاقات بين مصر المملوكية وبنى مرين فى فاس للاستزادة حول هذا الموضوع. راجع كتابنا دور مصر الحضارى فى القارة الأفريقية، فضل دور مصر السياسى فى بلاد المغرب.

علاقات بنى مرين مع حلفاء بنى الأحمر فى غرناطة :

إن نظرة عامة على سير العلاقات بين بنى مرين وبنى الأحمر فى غرناطة بعد أن تدخل السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق فى الصراع الدائر بين غرناطة والممالك النصرانية فى الأندلس ودور بنى مرين فى حركة الجهاد الإسلامى يدرك منها

أن تلك العلاقة لم تكن تسير على وتيرة واحدة؛ بل كانت تخضع للمتغيرات فهى علاقات يشوبها الحذر والترقب ومرجع ذلك إلى تشكك سلاطين بنى الأحمر كثيراً فى نوايا بنى مرين وتطلعهم إلى حكم بلاد الأندلس، ولهذا كان يغلب على هذه العلاقات التذبذب بين الود المتبادل أو العداء والتنافر فى بعض الأحيان ولذا .. فإننا نجد أنه ما أن استتب الوضع السياسى لبنى مرين باستيلائهم على آخر المعاقل فى المغرب سجلماسة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م. حتى استجابوا للنداء ولحضور رسول سلطان غرناطة محمد الثانى الفقيه طالباً معاونته ضد زحف نصارى الأندلس للاستيلاء على ممتلكات المسلمين، ونظر بنو الأحمر للعالم الإسلامى فلم يجدوا أمامهم سوى بنى مرين، وذلك لقرب دولتهم منهم ولشعورهم بمكانة بنى مرين العسكرية بين سائر القوى فى المغرب (بنى زيان، بنى حفص)، وقد استجاب يعقوب بن عبد الحق للجهاد فى الأندلس معتمداً على قواته وعلى بنى اشقيلولة الذين نظراً لحرصهم على الإسلام أكثر من حرصهم على مصالحهم الذاتية وضعوا أنفسهم تحت تصرف بنى مرين؛ بل من أجل الإسلام والمسلمين تركوا الأندلس نهائياً وقبلوا العيش فى المغرب (روح إسلامية خالصة للدين عكس بنى الأحمر)، وأدى خلاف بنى الأحمر مع بنى اشقيلولة إلى حدوث نوع من الجمود فى العلاقات خلال العبور الأول للسلطان المرينى إذ ترك محمد الثانى الفقيه السلطان يقاتل منفرداً فى العبور الثانى ٦٧٦هـ/١٢٧٥م اعادة الجسور مع بنى الأحمر لمهاجمة قرطبة، وتم التفاهم وأسفر التقارب عن هزيمة الجيوش المسيحية وتحصنها بمدينة قرطبة وطلب الصلح مع المسلمين وترك سلطان المغرب الأمر لبنى الأحمر وتنازل لهم عن الغنائم، لكن شكوك حكام غرناطة ودرس يوسف بن تاشفين والموحدين ماثل أمامهم فى تعاملهم مع بنى مرين، لكن تنازل بنى اشقيولة عن مالقة والغربية فجر الموقف ووصل العداء بينهم إلى درجة أن بنى الأحمر

سعوا للتحالف مع أعداء الإسلام وطاردى المسلمين من ديارهم فى الأندلس، تحالفوا مع النصارى فى قشتالة وتحالفوا مع بنى زيان أعداء بنى مرين وجعل عامل مالقة من قبل بنى مرين يعلن الخروج عن غرناطة بنى مرين، لكن أبا يوسف أفشل هذا المخطط، وقام بنو الأحمر بمعاونة أسطول بنى مرين القوى بتحطيم الأسطول القشتالى ودخل بنو مرين الجزيرة الخضراء بالقوة وأسفر التقارب الذى حدث بينهما خلال العبور الثالث إلى تلاحم القوتين وخلال العبور الرابع نجح بنو مرين وبنو الأحمر فى إبعاد النصارى خلف نهر الوادى الكبير وراء الخط الذى يمتد من قرطبة إلى أشبليه وشرش كما أسفرت معارك العبور الرابع عن صلح بين المسلمين ونصارى الأندلس أقره كل من سلطان الأندلس (غرناطة) والمغرب وملك قشتالة.

وقد لعب شيوخ الغزاة من بنى مرين دوراً هاماً فى تاريخ العلاقات بين بنى مرين وبنى الأحمر، وكانت العاصمة غرناطة هى مقر القيادة العامة لهذه القوة المغربية.

وبعد وفاة يعقوب بن عبد الحق حاول ابنه يوسف تلاحم القوتين فتنازل لبنى الأحمر عن كثير من الأراضى والقلاع والحصون، ولم يحتفظ إلا بالقواعد اللازمة للعبور، وهى طريف ورندة والجزيرة الخضراء عملاً للقضاء على المشكلة التى تشغل بال بنى الأحمر، وهى الخوف على ممتلكاتهم، لكنه رغم هذه التنازلات فقد تحالف بنو الأحمر مع ملك قشتالة ضد بنى مرين، وكان ذلك سبباً فى ضياع مدينة طريف وعدد من الحصون التى كان يملكها بنو الزحمر ورفض ملك قشتالة تسليم ذلك فيما بعد.

وقد أدرك محمد الفقيه الثانى سلطان غرناطة خطأ هذه السياسية فعاد يطلب ود بنى مرين فلم يتردد المرينيون وعادت العلاقات معهم ودية حتى وفاة السلطان محمد الفقيه (٧٠١هـ/١٣٠١م)، ورغم أن العلاقات سارت سيراً حسناً فى بداية عهد خليفته أبى عبد الله المخلوع إلا أنه تحالف مع ملوك قشتالة؛ بل أنه اعتدى على مدينة

سبتة الخاضعة لحكم بنى مرين وقد أحدث ذلك شرخاً فى العلاقات، ومات أبو يوسف فجأة (٧٦١هـ/١٣٠٦م)، وجاء بعده أبو ثابت الذى مات هو فجأة عام (٧٠٨هـ/١٣٠٨م)، ولكن أخوه السلطان أبو الربيع سلمان المرينى قد تمكن من إلحاق الهزيمة بعثمان بن أبى العلاء الذى ساعده بنو الأحمر، وتمت السيطرة على سبتة وضمها نهائياً للدولة المرينية وظلت العلاقات غير ودية حتى اعتلاء السلطان أبى الحسن العرش عام (٧٣١هـ/١٣٣٣م).

وكانت فى الفترات السابقة على تولية أبى الحسن قد اقتصرت العلاقات على العون المادى وبعض المساعدات بل القوات والخيول فى عهد السلطان أبى الربيع، لكنها تجمدت نهائياً فى عهد السلطان أبى سعيد عثمان المرينى الذى أصر على ضرورة تسليم قائد شيخ الغزاة الذى سبب كثيراً من المشاكل للأسرة الحاكمة، وقد رفض بنو الأحمر تسليمه.

لكن الأحوال تبدلت فى عهد السلطان أبى الحسن إذ صادفت دعوة بنى الأحمر لبنى مرين لمعاونتهم فى وقف زحف النصارى عليهم؛ فقام المسلمون بالاستيلاء على جبل الفتح فى ذى الحجة عام (٧٣٢هـ/١٣٣٣م). لكن أبا الحسن منى بهزيمة فادحة عند طريف عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م، وقد صرفت نتائج هذه المعركة القاسية أنظار المرينين عن القيام بأى جهد عسكرى بعد ذلك. وفى ربيع عام ٧٤٤هـ/١٣٤٤م تم عقد معاهدة سليمة بين قشتالةوغرناطة والمغرب مدتها عشر سنوات، وما كادت حركة الجهاد ضد المسيحيين فى أسبانيا تهدأ حتى دب نزاع جديد بين سلطان المغرب أبى عنان فارس المرينى ٧٤٩هـ/١٣٤٨م. وبنى الأحمر فى غرناطة والسبب فى هذا النزاع يرجع إلى أن اثنين من أخوة أبى عنان وهما الأمير أبى الفضل وأبى سالم خرجا عن طاعة أخيهما السلطان وهربا إلى سلطان غرناطة ملتمسين

حمايته وقبل الحجاج أبو يوسف طلبها وأواهما فى بلاطه وقد أثار هذا العمل غضب السلطان المرينى فأرسل إلى سلطان غرناطة خطاباً شديد اللهجة مليئاً بعبارات الاحتجاج والتهديد، وكان رد حاكم غرناطة واضحاً إذ أوعز إلى الأمير أبى الفضل بالسفر إلى قشتالة وطلب معونة من ملكها. بدور الأول لمحاربة أخيه وانتزاع الملك منه ووافق ملك قشتالة على طلب الأمير المغربى أبى الفضل لأنه كان متخوفاً من أطماع أبى عنان فأمده بالأموال والأساطيل والجنود وأنزله بنواحي السوس فى جنوب المغرب كى يشعل حرباً أهلية ضد أخيه وثارت ثائرة السلطان أبى عنان لهذا العمل العدائى، غير أن الظروف سرعان ما هدأت من روعه عندما قام واليه على درعه بمقاومة حملة أبى الفضل بمساعدة حلفائه وأعوانه من عرب المعقل وتمكن من القبض على أبى الفضل وإرساله لأخيه ليقتله عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م.

ونظراً لهذا الموقف .. فقد اقتصرت العلاقات فى عهد أبى عنان على العلاقات الدبلوماسية، والتى انحصرت فى تبادل الرسائل والسفارات، أو رسائل ترافقها الهدايا من بنى الزحمر لأبى عنان، بعض هذه الرسائل كان للتهنئة بفتح تلمسان وبجاية أو الانتصار على الثورات الداخلية، ورغم هذه الرسائل إلا أن بنى الأحمر طلبوا من أبى عنان مساعدة بحرية لحماية السواحل الأندلسية، وقد استجاب أبو عنان لطلبات سفير بنى الأحمر عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، وكان فى مقدمة هذه المطالب العون الحربى لمقاومة أطماع القشتاليين.

بعد وفاة السلطان أبى عنان قويت العلاقات بين الطرفين وخاصة فى عهد أبى سالم المرينى الذى أعطى السلطان الغرناطى محمد الغنى بالله الأحمر ووزيره حق اللجوء السياسى للمغرب بعد الانقلاب الذى أطاح به، وقد وصل إلى فاس عام ٧٦١هـ/١٣٥٩م، وفى عهد السلطان أبى زيان محمد بن يعقوب الذى تولى أمر بنى

مرين عام ٦٧٣هـ/١٣٦١م أصدر مرسوماً يعنى بالاهتمام بوزير السلطان محمد الغنى بالله وهو ابن الخطيب الذى عمل على ربط علاقة فاس، وبنى الأحمر بنوع من المودة والإخاء، وارضاء سلاطين بنى مرين فى كل ما يطلبونه من ساسة غرناطة.

وقد استقل الغنى بالله محمد بنى الأحمر بعد استرجاعه للعرش فى غرناطة مرة ثانية ضعف سلاطين بنى مرين بعد أن أقام بينهم فترة طويلة عرف خبايا الدولة، وذلك أثناء نفوذ الوزراء للتدخل فى الشئون الداخلية لهم، وكان ذلك عن طريق استغلال الأبناء المرشحين لتولى حكم بنى مرين والموجودين تحت اشرافه ورعايته فى بلاط بنى الأحمر في الأندلس، وكان سلطان بنى الأحمر فى غرناطة يمارس هذه السياسة مع بنى مرين لإجبار سلاطينهم على السير فى تلك السياسة، وفى حالة عدم طاعة أوامره كان الغنى بالله يدفع إلى المغرب بشخصية أخرى من بنى مرين ويساعده بالمال والسلاح والرجال حتى تنجح هذه الشخصية فى الاستيلاء على زمام الأمور فى الدولة، وكانت تعقد معهم معاهدات تتضمن نصوص هذه المعاهدات تصرف بنى الأحمر فى الأراضى المغربية، وقد كان هؤلاء السلاطين يقومون بعقد اتفاقيات مع ملك قشتالة، وأرغون بناء على طلب سلطان غرناطة، وأصبح بنو مرين مطية لغرناطة وحكام النصارى فى الأندلس. ولقد بدأت هذه السياسة بعد وفاة السلطان عبد العزيز المرينى عام ٧٧٤هـ/١٣٧٢م، وانتهت بوفاة السلطان محمد الغنى بالله بن الأحمر ٧٩٣هـ/١٣٩٠م، واستمرت تسعة عشر عاماً. وبعد انقضاء هذه المرحلة لم تشر المصادر إلا إلى حادثتين فقط، وهى تدخل بنى مرين فى شئون بنى الأحمر بمؤامرة دبرها أبو العباس أحمد المرينى لاغتيال أبى الحجاج يوسف الثانى سلطان غرناطة والثانية مساعدة السلطان المرينى أبى سعيد عثمان بنى أبى العباس أحد ثوار جبل الفتح ضد بنى الأحمر وأرسل لهم قوات مغربية بقيادة أخيه عبد الله بن أبى العباس أحمد،

ولكن تم أسره ثم أطلق سراحه واغتيل أخوه أبو سعيد، وتولى عرش بنى مرين، والذى يلقى نظرة فاحصة على العلاقات بين بنى مرين وبنى الأحمر فى غرناطة يدرك تمام الإدراك أن المصلحة الشخصية ربما لدى الطرفين كانت هى الغالبة عليها دون النظر لصالح المسلمين والإسلام؛ فلقد كان على بنى مرين ألا يحتفظوا بقواعد لهم، وأن تكون قواتهم تحت سيطرة بنى الأحمر، وأن بنى الأحمر لم يعنهم فى المقام الأول إلا المحافظة على عرشهم فالأرض إسلامية سواء للمغرب أم للأندلس والقوات الإسلامية، سواء كانت أندلسية أو مغربية لكن حب السيطرة والتملك دون النظرة البعيدة بالأخطار المحدقة وسياسة النفس الطويلة التى اتبعها الأسبان فى حركة الاسترداد لم تكن تخطر على بال مخططى السياسة الإسلامية فلو أنهم أدركوا بثاقب نظر بعيد خطر المخطط لما تم عقد مصالحات، ولا اتفاقيات، ولا تعاون بنى الأحمر مع قشتالة وأرغون ضد بنى مرين ولا تحالف بنى زيان وقشتالة على حساب بنى مرين. أنها أمور تدعو للأسف؛ فقد كانت الضحية دائماً هى الشعوب والأرض والديار، وفقد الإسلام أرضاً عمرها أكثر من ثمانية قرون.

ولقد ازدهرت العلاقات الثقافية بين الطرفين ذلك لأن حركة الانتقال بين البلدين كانت ميسورة للعلماء والأديان والفقهاء، ولم تكن الخلافات السياسية تحول دون تدفق الأندلسيين إلى المغرب أو انتقال علماء المغرب إلى غرناطة؛ فقد رحل الكثير من العلماء والفقهاء والسفراء والشعراء والصالحين والمتصوفة والذين كان لهم دور ثقافى وتأثير حضارى فى بلاد المغرب واستعان بهم السلاطين وكانت عدوة الأندلسيين بفاس خير شاهد على ذلك، وقد شجع حق اللجوء السياسى الذى سار عليه بنو مرين وبنو الأحمر الكثير من علماء الدولتين على الرحيل من بلد إلى آخر وساعد ذلك على ازدهار حركة الفكر والثقافة والحضارة وتقدم العلوم والكيمياء والطب والصيدلة، وظهور

الاختراعات، وقد كانت فاس وغيرها من المدن الكبرى فى المغرب الأقصى ملاذاً خصباً لطلبة العلم الأندلسيين الذين حولوا بها، والذين كانوا يرحلون بدورهم إلى تلمسان؛ حيث تقدمت دراسة الطب فى مدرسة تلمسان.

ولقد أسهم بنو مرين فى حركة التجارة الخارجية بينهم وبين من بقى من المسلمين فى الأندلس خاصة وأن هناك أجزاء من مدن جنوب الأندلس كانت تخضع لهم مما سهل حركة النقل مثل رندة، وطريف، والجزيرة الخضراء، ومن ثم .. كانت سبتة ميناءاً هاماً وحلقة الاتصال الرئيسية مع أسواق الأندلس لتنقل منها البضائع المغربية والسودانية وبلاد الشرق الإسلامى إلى دول أوربا ودول حوض البحر المتوسط، لكن هذا النشاط التجارى قد قل عن مثله أيام المرابطين والموحدين نظراً لضيق الرقعة التى كان يسيطر عليها المسلمون فى بلاد الأندلس ولخطر الأسطول القشتالى والأرغونى لكن فترة المعاهدات والصلح كانت تدعم حركة التبادل التجارى مع مسلمى الأندلس لكنه فى نهاية العلاقات بين الطرفين نلاحظ أن بنى مرين لم يحرزوا انتصارات مدوية فى الأندلس كتلك التى أحرزها المرابطون فى معركة الزلاقة والموحدون فى معركة الأراك، وذلك لضعف امكانيات المرينيين وتوحد صفوف نصارى الأندلس، ولقد كان الفكر المرينى يرى فى التوسع فى تحقيق الوحدة المغربية بضم بنى زيان فى المغرب الأوسط وبنى حفص فى المغرب الأدنى، قد يدفع نشاطهم ويزيد من قوتهم وقدرتهم على الوقوف أمام الخطر الصليبى فى الأندلس إلا أن ذلك كان على العكس؛ فقد استنفذ طاقاتهم وقدراتهم القتالية، ولم تدم انتصاراتهم فى الميدان الأندلس، بل إن وحدة المغرب لم تدم إلا لفترات قصيرة جداً نظراً لوجود بنى زيان وبنى حفص، إلا أنه يمكن القول إنصافاً للحق أن دور بنى مرين فى الأندلس كان دوراً مشهوداً له على مر التاريخ؛ فقد دخلوا ميدان الجهاد دون سائر القوى الإسلامية الأخرى وحافظوا بقدر إمكانياتهم على بقاء الإسلام لأطول فترة ممكنة؛ بل إن مجرد وجودهم فى عدوه المغرب فى عصر

نفوذ الوزراء قد جعل نصارى الأندلس يفكرون كثيراً قبل القيام بأى عمل من الأعمال العسكرية ضد بقايا المسلمين فى غرناطة التى كانت مساحتها تقل يوماً بعد يوم.

علاقات بنى مرين مع قشتالة وأرغون فى الأندلس :

اتسمت علاقة بنى مرين مع هاتين الدولتين بسمة عدم التوافق والتنافر وليس بسمة العداوة لأن الإسلام لا يعادى أحدا ولا يحارب إلا من اعتدى عليه، ومن هنا كان موقف بنى مرين مع ملوك قشتالة وأرغون الذين هددوا الوجود الإسلامى بالأندلس وحاصروا أهله وعملوا على طردهم من ديارهم التى أقاموا بها أكثر من ثمانية قرون هو موقف دفاع ولقد عمل بنو مرين على خوض المعارك والاشتراك مع حكام غرناطة ضد القوتين اللتين كانتا تتمسكان فى مصير الأندلس وهما قشتالة التى توحدت عام ٦١٤هـ/١٢١٧م ودولة أرغون التى ظهرت كقوة فى أسبانيا عام ٧٣٢هـ/١١٣٧م ، ورغم العداوة التى كان يكنها حكام المملكتين للإسلام والمسلمين إلا أن قشتالة كانت أكثر إيجابية فى عداوتها من أرغون، ولقد علا نجم الدولة الميرينة فصار قوة عالمية نظراً لاشتراكهم فى حركة المقاومة، لكن حالة الحرب والعداوة لم تكن لتدوم، إذ كانت تتبعها أحياناً فترات من السلم والصلح عن طريق المعاهدات التى كانت تتم بين الطرفين؛ حيث كانت حركة التجارة والتنقل تتم بينها وبين ما يسمى مسيحيى أسبانيا وتجارة صقلية وجنوب إيطاليا وكان التجار المسلمون يقومون بعبور أراضى هذه الدول بتجارتهم أو الوصول إلى موانيهم للتجارة دون أدنى اعتراض؛ حيث واجهت التجارة المغربية مع بلاد البحر المتوسط صعاباً كثيرة لأن علاقة بنى مرين ببلاد البحر المتوسط الأوربية كانت متوترة؛ فالحروب الدائرة رحاها على أرض الأندلس جعلت التجارة لا تزدهر إلا فى حالة الهدنة، وهذه كانت كثيراً ما تخرق.

كذلك .. فإن الصراع المسلح والحرب العسكرية كانت لا تؤثر على التبادل

الثقافى بين أصحاب الإسلام والمسيحية من رجال الدين وصلة الحضارة حيث سماحة الإسلام وعمق حضارته ورغبة رجال العلم فى أسبانيا المسيحية فى الاستزادة من العلوم الإسلامية، وقد تدعمت العلاقات الثقافية والحضارية خلال فترة السلم وازدهرت الثقافة الإسلامية فى الجانب المسيحى، ووفد طلاب أسبانيا المسيحية وجنوب أوربا إلى جامعة فاس للدرس والتحصيل وتلقى علوم المسلمين على أكبر علماء العصر فى ذلك الوقت واستخدم حكام بنى مرين أسلوب المهادنة والاحتواء والمصالحة لكسب ود طرف على حساب الطرف الآخر من ذلك نجد أن السلطان أبا يوسف يعقوب استغل الخلاف بين قشتالة وبين أرغون لتكوين محور يضم بنى مرين وحكام غرناطة وأرغون ضد قشتالة لكن هذه المحاولات باءت بالفشل لرفض حكام أرجون الدخول فى معاهدة مع المسلمين ضد اخوانهم المسيحيين فى قشتالة لاحظ موقف بنى الأحمر فى غرناطة من بنى مرين.

وقد كان خوف حكام غرناطة من تزايد النفوذ المرينى مدعاة لتحالفهم مع نصارى الأندلس مما أضعف موقف بنى مرين، محمد الثانى الفقيه سلطان غرناطة تحالف مع سانشو ملك قشتالة ويدور الثانى ملك أرغون مع بنى مرين فى عام ٦٩١هـ/١٢٩١م، وكذلك تحالف نفس السلطان مع سانشو الرابع ملك قشتالة وخايمى الثانى ملك أرغون ضد يعقوب بن عبد الحق وأسفر ذلك عن ضياع مدينة طريف وسبتة وعدة حصون من أملاك بنى الأحمر.

وفى نفس الوقت دفع موقف بنى الأحمر العدائى لبنى مرين إلى التقارب بين المرينيين والأرغونيين فقد ثارت سبتة على أبى يعقوب المرينى بتحريض من بنى الأحمر ووجه أبو يعقوب طلباً إلى خايمى الثانى ملك أرغون لتقديم بعض المساعدات البحرية لمعاونة القوات المرينية فى سبتة من البحر لكنه لم يستجب لطلبه لأن يعقوب عقد صلحاً مع فرناندو الرابع ملك قشتالة وكان ٧٣٤هـ/١٣٣٤م قد شهد توقيع معاهدة

بين فاس وقشتالة المرينى بتقديم عون بحرى له مكن بنى مرين من الاستيلاء على سبتة عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، وقد عقدت معاهدة أبرمها أبو الحسن سلطان المغرب وغرناطة مع ملك قشتالة بعد معركة طريف بثلاث سنوات وكان عام الثانى ملك أرغون بعد ذلك من مساعدة السلطان أبو الربيع سليمان هذا الصلح شاملاً لمحمد الثالث سلطان غرناطة. وقد تمكن خايمى وغرناطة مدتها أربع سنوات وقد انضمت أرغون إلى هذه المعاهدة، وبعد معركة طريفة أصبح بنو مرين وبنو الأحمر فى موقف صعب بعد هزيمتهم، وقد رفضت مقترحات المسلمين لدى النصارى، ولم يعقد الصلح إلا بعد استيلاء قشتالة على الجزيرة الخضراء، وفى عهد أبى عنان المرينى أكد التزامه ببنود المعاهدة، وفى عام ٧٥٩هـ/١٣٤٧م جددت المعاهدة بين بنى مرين وملك قشتالة لمدة خمس سنوات أخرى وفى عام ٧٦٠هـ/١٣٥٨م احتج يبدور الرابع ملك قشتالة لدى أبى عنان المرينى لعدم وفاء محمد الخامس سلطان غرناطة بنصوص الاتفاقية المبرمة بينهم.

وكانت آخر المعاهدات التى أبرمت بين بنى مرين وبنى الأحمر وأرغون وقشتالة هى معاهدة عام ٨١٦هـ/١٤١٥م. وقد جرى تجديدها والعمل بها عام ٨١٧هـ/١٤١٤م، وعام ٨١٨هـ/١٤١٥م. كما أنه بالنسبة لباب العلاقات بين البلدين تجدر الإشارة إلى أن بعض أبناء البيت المرينى قد لجأ إلى ملوك قشتالة مثل أبى الفضل شقيق السلطان أبى الحسن والذى أمده ملك قشتالة بالمال والسلاح والأسطول لكن تم القضاء على محاولته، وكذلك من الشخصيات الأخرى الأمير أبو سالم أحمد المرينى الذى تولى عرش بنى مرين لجأ إلى بلاط قشتالة، وقد عاونه ملك قشتالة؛ حيث حملته احدى القطع البحرية القشتالية مثلما فعلت سابقاً مع الأمير أبى الفضل وأنزلته ساحل المغرب ليطالب بعرش بنى مرين، ومن هذه الشخصيات أيضاً الأمير أبو زيان محمد بن عبد الرحمن بن أبى الحسن المرينى، وقد استدعاه الوزير محمد بن عبد الله

من بلاط قشتالة وأقامه على العرش المرينى عام ٧٦٣هـ/١٣٦١م.

من هذا ندرك مدى الضعف الذى أصاب البيت المرينى فى عصر تحكم الوزراء، وكيف أصبح لقشتالة كما كان لغرناطة نفوذ قوى على سلاطين بنى مرين، وهكذا وصل الهون والضعف بحكام المسلمين فى تلك الحقبة حتى كان تسلطهم يتم عن طريق قوى خارجية تعمل لغير صالح الإسلام، ومن هنا .. بات الوجود الإسلامى فى خطر حتى تم القضاء على غرناطة نهائياً عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م. ومن ثم تداعت أحوال المسلمين، وذلك نتيجة لجهل الحكام وتحكمهم فى الرعية، وقيام الخلافات والابتسامات بين حكام المغرب الأدنى والأوسط والأقصى، وما أصاب المسلمين من بلاء فى الأندلس إنما يعود إلى تلك الانقسامات والأهواء الشخصية ودائماً الشعوب هى الضحية والحكام يعيشون حياتهم كما يتراءى لهم ووفق المزاج الشخصى اللهم الا ما ندر من حكام المسلمين العقلاء النبهاء العارفين بكتاب الله وسنة رسوله والذين ساروا على نهجه ومن هنا كان لهم مقام مرفوع فى مسيرة التاريخ على مر الأزمان والأجيال .

علاقات بنى مرين مع بلاد السودان الغربى جنوب الصحراء الكبرى

حرص سلاطين بنى مرين كما حرص أسلافهم من المرابطين والموحدين على أن تكون علاقاتهم ببلاد السودان الغربى طيبة وممتازة كما حرصوا على أن تظل الطرق الصحراوية مفتوحة لحركة التنقل والانتقال وأن تظل هذه الطرق دائمة ومتصلة . وكانت دولة مالى الكبرى تعاصر قيام دولة بنى مرين (انظر إبراهيم طرخان ، دولة مالى الإسلامية.

القاهرة، ١٩٧٣)، وقد ارتبطت معها بأوثق الروابط وأهمها وكانت مالى تمثل أكبر الوحدات السياسية جنوب الصحراء الكبرى وكانت المسالك الصحراوية (انظر رسالة المؤلف الدكتوراه سياسة سنغاى الاسلامية الخارجية ١٩٨٣) التى تربط المغرب بهذه البلاد وكانت هذه الطرق تخرج من بلاد المغرب الأقصى الى مصب نهر السنغال أو من جنوب مراكش الى مصب نهر السنغال (منحنى)نهر النيجر وحتى المناطق الجنوبية وجاءت أول اشارة العلاقات السياسية بين مالى وبنى مرين خلال عهد السلطان أبى الحسن المرينى حيث أرسل السلطان منساموسى سفارة ترأس أحد رجال البلاد المالى ومعه أحد المترجمين من صنهاجة .

وفى زمن مسنامفا (١٣٧٧ – ١٣٤١) كانت فى تمبكنو عاصمة مالى سفارة من قبل السلطان أبى الحسن المرينى أعظم سلاطين بنى مرين فى فاس وتضم السفارة عددا من كبار البلاط المرينى برياسة الزعيم الشهير ابن غانية وجاءت هذه السفارة ردا على بعثة التهنئة التى كان السلطان موسى قد بعث بها من قبل لتهنئة السلطان أبى الحسن أثر انتصاره ومنح تلمسان ، وكانت السفارة المغربية تحمل معها هدية فاخرة الى مساموسى ولكنها وصلت بعد وفاته فاستقبلها ابنه مغان وتسلم الهدية وقد أحسن السلطان مغان اكرام الوفد المرينى وعند العودة ارسل وفدا من كبار بلاط الدولة المالية . وقد احدثت وفاة السلطان أبى الحسن المرينى دويا فى بلاد مالى وشعبه حيث جلس السلطان لتقبل العزاء .

وفى عهد السلطان منسا سليمان شقيق منسا موسى وليس ابنه كما تذكر المصادر والمراجع التى تقع فى أخطاء قاتله رحل الى بلاط تمبكتو عاصمة مالى الرحالة المعروف ابن بطوطة مرسلا من قبل سلطان بنى مرين فى فاس وهو السلطان أبو عنان فارس المتوكل على الله (٧٤٩ – ٧٥٩ هـ / ١٣٤٨ – ١٣٥٨ م) وكان

سلطان فاس قد اغتصب العرش من ابنه أبى الحسن على بن عثمان صاحب السفارة السابقة وكان هدف أبى عنان من سفارة ابن بطوطة فى بلاد مالى دراسة الطرق التجارية والوقوف على حجم تجارة الذهب المتبادلة بين هذه الأقطار وبين مصر وذلك للعمل على تحويل ما يستطاع تحويله بها الى بلاده نظرا لأهمية الذهب وتجارته فى ذلك القطر واستمرت العلاقات الودية بين مالى وبين بنى مرين حتى سقوط دولتهم وكان تبادل الهدايا بين البلاطين يحظى باهتمام سلاطين الدولتين وأرسل مسنا سليمان هدية الى أبى الحسن ، كذلك أرسل مسنا سليمان مستشاره « زاطة » بالهدايا الى السلطان أبى سالم المرينى .

ولقد صاحب هذه العلاقات السياسية الودية علاقات ثقافية واقتصادية وحضارية تتمثل فى انتقال العلماء والطلاب وازدياد الحركة التجارية ونمو الاقتصاد وازدهاره فى كلا الجانبين وانتقال المؤشرات المغربية من اللغة العربية والكتابة والخط المغربى والمذهب المالكى والتنظيمات الادارية والمعمارية والمالية وظهور أحياء التجار العرب والمغاربة فى العاصمة تمكيتو لاتخاذ السلاطين الماليين للمستشارين المغاربة ، وكان مسنا موسى وأخوه مسنا سليمان قد جعلا من مالى مركزا حضاريا جنوب الصحراء الكبرى بالاضافة الى أنها مركز تجارى (علاقات المغرب السياسية الثقافية والاقتصادية مع هذه البلاد فصل فى رسالة الدكتوراه (١٤٠ - ١٨٦ ، للمؤلف ٢٦١ - ٢٨٧ - ٣٤٨ - ٣٧٥) ، رسالة الماجستير للمؤلف سلطة البرنو الاسلامية بها فصول عن العلاقات) .

وكانت رحلة الحج التى قام بها مسنا موسى للأراضى المقدسة فى الحجاز ومروره بالقاهرة أثرها فى انخفاض سعر الذهب وزادت سمعة مالى لدى أوربا ورسمت خريطة للعالم الاسلامى ظهرت مالى بها ومن ثم صارت جزءاً من العالم الاسلامى ترتبط مع

أقطاره بشتى الروابط وبجاحه مع بلاد المغرب حيث كانت القوافل التجارية القادمة من المغرب تزود مالى بكل ما تحتاج اليه من منتجات أوربا وبلاد المغرب وخاصة الكتب والمخطوطات والمؤلفات العلمية وظهر فن البناء المغربى فى بلاد مالى ومارس التجار المغاربة كثيرا من الصفقات التجارية .

وربط الاسلام وعمق الصلات الحضارية والثقافية والدينية والعلمية فقد حمل التجار العرب ولا سيما المغاربة رسالة الاسلام الى تلك الديار ووقع عليهم العبء الأكبر فى ايصال المؤثرات الحضارية والثقافية الاسلامية الى مالى ولقد كان التجار هم أنفسهم علماء وسرعان ما كانت القوافل التجارية يلحق بها العلماء كرحيل الشيخ جلال الدين السيوطى الى بلاد غرب افريقيا ، الشيخ محمد عبد الكريم المغيلى وغيرهم من علماء المغرب ومصر الى مالى وسنغاى فيما بعد . .

واشتهرت اللغة العربية على نطاق واسع وكتب مؤرخو بلاد مالى باللغة العربية (عبد الرحمن السعدى ، تاريخ السودان) ، أحد باب التمبكتى : قبل الابتهاج بتطريز الديباج ، محمود كعت : تاريخ الغتاشى) .

لقد صار كل شئ اسلاميا عربيا فى بلاد مالى وتأثرت بالتجارة والثقافة والحضارة الاسلامية ولا سيما المغربية كما أن بلاد مالى وسنغاى جنوب الصحراء الكبرى قد رحل اليها كثير من علماء الأندلس (الساحلى) الذى قام ببناء المساجد فى مالى السلطان مسنا موسى ومسنا سليمان) وغيره من السلاطين .

أن الصلات الدبلوماسية (السياسية) والثقافية والاقتصادية مع بلاد السودان فى عصر بنى مرين قد شهدت ارتباطا وثيقا ونموا وازدهارا فى مختلف المجالات والأصعدة حتى أن هذه الروابط والصلات كانت مقدمة لقيام السلطان المنصورى السعدى عام

٩٩٩هـ/ ١٥٩١م بإرسال حملة عسكرية بسطت نفوذ المغرب على بلاد السودان الغربى.

هكذا نرى أن الروابط الأخوية الاسلامية كانت تسود فى جو من التكافل الاقتصادى والتعاون الاسلامى فى شتى المجالات ولم تكن العلاقات الدبلوماسية وتبادل السفارات والوفود والهدايا الاجزءا بسيطا فى هذه الصلات التى كانت تدعمها حركة الشعوب لاداء فريضة الحج وطلاب العلم والمعرفة والتجار الذين ساعدوا على خلق الجو الاسلامى الذى عاشته مالى وأن حسن الجوار والعلاقة كنت دائما هى الطريق للروابط الأخوية الاسلامية التى تميزت بها الدولة المرينية طوال حكمها الذى زاد عن قرنين ونصف من الزمان .

* * * *

الفصل السابع

العلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية بين بنى مرين وبنى زيان وبنى حفص (الدويلات الثلاث)

كان انفصال أبى زكريا الحفصى عن الدولة الموحدية عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م واعلانه الاستقلال التام بالمغرب الأدنى عن الدولة الأم فى مراكش وكذلك استيلاء يغمراسن بن زيان على تلمسان وإعلانه عام ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م قيام دولة بنى زيان فى المغرب الأوسط وكذلك أستيلاء يعقوب بن عبد الحق على مراكش عاصمة الموحدين وقتله الخليفة أبى دبوس ودخوله عاصمة الموحدين عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩م نهاية للدولة الموحدية كانت تحكم المغرب الكبير من حدود برقة (بنى غازى) شرقا حتى المحيط الأطلسى غربا وبالأعلى هذه الدويلات الثلاث بمقدار ما كان نكسة ونكبة للمسلمين فى بلاد الأندلس.

ذلك لأن التشرذم الذى شهدته هذه الدويلات والدخول فى صراعات داخلية وحروب كثيرة فيما بينها وتحالفات مع أعداء الديار والدين كل هذا قوض من دعائم الدولة الاسلامية بالأندلس كما زاد من مطامع الأورربين فى تلك البلاد فكانت الحملات على أفريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى والاخلال بالتوازن العالمى وتعرض سواحل هذه الدول لعدوان دول أوربا واحتلالها للعديد من المدن ودفعها للجزية وهى صاغرة للقوى الخارجية واستعانة بحكام بعض من هذه الدويلات بالمسيحين بعضهم على بعض والدخول فى تحالف ضد أخوانهم فى العقيدة والوطن والمصير.

العلاقات المرينية الحفصية

لم تكن العلاقة بين بنى حفص فى تونس (المغرب الأدنى) وبنى مرين فى المغرب الأقصى تسير على وتيرة ثابتة بل كانت تتحكم فيها الظروف والمواقف ومن ثم مرت هذه العلاقة بعدة مراحل كانت كل منها تعنى نهاية فترة معينة من العلاقات بحيث اذا أنتهت حلقة حققت فيها بنو مرين أهدافها غايرتها مرحلة أخرى تختلف كل الاختلاف عما سبقها من مراحل وفى النهاية يسعى بنو مرين إلى تحقيق ذاتهم والاعتراف بكيانهم ثم سيادتهم فى المغرب كله ففى حالة اعلان الدولة واسقاط دولة الموحدين أى قبل عام ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م كانت بنو مرين تتبع اسميا الخلافة الحفصية وتدعو لها. وفى هذه المرحلة أعلن بنو مرين تبعيتهم لبنى حفص وكان الهدف اضفاء لون من ألوان الشرعية على حركتهم ضد الموحدين وكان بنو مرين يبعثون ببيعة البلاد التى يتم فتحها إلى الأمير أبى زكريا الحفصى وكان بنو مرين يرسلون الهدايا والأموال لبنى حفص فى سبيل مساندتهم على صاحب مراكش وكذلك كسب التأيد الشعبى فى بلاد المغرب الأقصى وتمت فى ذلك سفارات متبادلة بينهما كان لها أثرها المباشر فى تقريب وجهات النظر وتوحيد الأهداف، ومن تلك السفارات السفارة التى أرسلها الأمير يعقوب بن عبد الحق عام ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م إلى البلاط الحفصى وقد رد عليه المستنصر الحفصى بأرسال سفارة مماثلة عام ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م فأرسل هدية عظيمة للأمير المرينى يعقوب بن عبد الحق.

وقد ظل المرينيون خاضعين لهذه التبعية حتى بعد فتحهم لمراكش لكنها كانت تبعية اسمية وقد بدأ ذلك منذ عهد السلطان أبى يعقوب ويوسف بن يعقوب فعندما حاصر تلمسان خرج عليه راشد بن محمد فأتبعه جنود بنى مرين حتى دخل الأراضى الحفصية فى أفريقيا وهنا وقف الحفصيون فى وجه القوة المرينية وقامت الدولة الحفصية

بحمايته كذلك لجأ الثوار الحفصيون إلى بلاط بنى مرين عام ٧٠١هـ / ١٣٠١م. ومن ثم ساءت العلاقات بين الطرفين واتخذ بنو مرين ذلك ذريعة لاحتلالهم بجاية ومن ذلك نجد أنه منذ أن قوى أمراء بنى مرين وهم يتطلعون إلى المغربين الأوسط والأدنى فلما تمكنوا من السيطرة على المغرب الأوسط نظروا إلى أفريقية طامعين فى بناء دولة المغرب الكبير.

وأصدر السلطان يوسف أوامره لأخيه أبى يحى بن عبد الحق بالاستيلاء على بجاية ونجح الأمير فى مهمته ودخل المدينة وكان ذلك بمثابة أعلان حرب على بنى حفص ونهاية تبعية بنى مرين الاسمية. لكن ذلك لم يؤثر فى العلاقات ففى عام ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣م أوفد سلطان تونس الحفصى الملقب بأبى عصيدة بن يحيى الواق وفدا للزيارة وزيادة الصلة مع السلطان يوسف بن يعقوب وتعددت السفارات وتحسنت العلاقات وأدى ذلك إلى توطيد دعائم الصداقة مما دعا السلطان يوسف بن يعقوب إلى الاستعانة بالأسطول الحفصى لاحكام الحصار حول تلمسان وتعاون الطرفان ضد بنى زيان وقد لقى أفراد الأسطول الحفصى حفاوة كبيرة من حكام وهران المرينى وبذلك تنوعت العلاقة وأختلفت بين الطاعة والاستقلال حتى وصل الأمر إلى استعانة الدولة الحفصية بالدولة المرينية وتطلب عونا منها للقضاء على اطماع بنى زيان فى أفريقية. وكان السلطان أبو يحى بن زكريا الحفصى قد طلب معاونة السلطان أبى سعيد عثمان المرينى لدفع خطر بنى زيان الذين اقتحموا تونس ونصبوا على ملك الحفصين محمد بن عمران، أحد عملائهم ولكن الحفصيين نجحوا فى استعادة العاصمة تونس قبل وصول المدد المرينى وقد وجد السلطان أبو سعيد عثمان المرينى فى ذلك فرصة لتقوية العلاقات فأرسل فى خطبة أبنة السلطان الحفصى أبى يحيى لولده الأمير أبى الحسن ولقد شعر أبو الحسن بأهمية أرتباطه بعلاقة المصاهرة مع الحفصين فى تونس، لذلك كان أصراره على مصاهرتهم مرة ثانية ولقد ربطت علاقة المصاهرة بين الدولتين المرينية

والحفصية برباط قوى متين ومن ذلك ان السلطان أبا يحيى الحفصى جعل الأمير أبا الحسن أحد شهود عقد ولاية العهد فقد شهد هو العقد عندما أرسل أبو بكر الحفصى حاجبه أبا القاسم بن عيو ، فى سفارة إلى بنى مرين. وبذلك جعل السلطان الحفصى السلطان أبا الحسن فى منزله الوصى على العرش عند وفاته عندما كتب وصيته لابنه أبى العباس أحمد وكان اختلاف بنى حفص بعد مقتل أبى العباس أحمد (٧٤٧ هـ / ١٣٤٦م) سببا فى تدخل أبى الحسن فى أفريقية ومبرراً لتنفيذ التوسع المرينى وكان حجة بنى مرين أن الأمير أبى الحسن كان أحد شهود عقد الولاية.

وهكذا .. طمع أبو الحسن المرينى فى ملك أفريقية بعدما أحس بضعفها وبعدما لجأت إليه الدولة الحفصية وإلى أبيه طالبة العون لحمايتها من بنى زيان وبعد ما استطاع أبو الحسن أن يفرض سلطانه على المغرب الأوسط ومحاولة أبى الحسن أن يكون الوارث للدولة الموحدية وكان أبو الحسن يحدث نفسه بحكم تلمسان وأفريقية.

وكان التوسع المرينى سببا فى قيام علاقات من العداء بدلاً من الود والاخاء وقد رحب بعض الأمراء الحفصيين بسيطرة أبى الحسن على أفريقية وكانت الفترة الأولى، الاحتلال الأول (٧٤٨ - ٧٥٠ هـ / ١٣٤٧ - ١٣٤٩ م) وكان أبو الحسن قد أعد قواته واستعان بقوات من بعض ولاة بنى حفص وبعض القبائل العربية وقدمت له العون العديد من الولايات والتى منها قابس ونوزر، قفصة والزاب، طرابلس وقسنطينة، وتمكن جيش أبى الحسن من القبض على الخليفة أبى حفص عمر وعلى قائده، وتم قتلهما ودخل أبو الحسن المرينى تونس فى ٨ جمادى الآخرة عام ٧٤٨هـ ليكون قد أعلن توحيد المغرب الكبير تحت سيادته.

لكن القبائل العربية استطاعت هزميته فى عام ٢ محرم ٧٤٩هـ قرب القيروان؛ حيث قاد حركة المقاومة أحد الأمراء الحفصيين الذى تعاون مع العرب وانقضت

أفريقية على السلطان أبي الحسن المرينى فى أوائل ٧٥٠هـ مما اضطره إلى ترك أفريقية. وانتهت فترة الاحتلال المرينى التى استمرت عامين وخمسة عشر يوما.

وتحسنت العلاقات لفترة قصيرة بين الدولة الحفصية ودولة بنى مرين عقب انتهاء فترة الاحتلال السابقة فتبودلت الهدايا بين الخليفة الحفصى والأمير المرينى ولكن أطماع أبى عنان فى ملك أفريقية أفسدت هذه العلاقات لأنه يفكر فى أن تظل تحت سيطرته فيما لم يستطيع أن يطيقه أبوه فبدأ عام ٧٥٣هـ/١٣٥٢م فى إفساد العلاقة بالخليفة الحفصى وتوطيد علاقته بوالى بجاية الأمير الحفصى أبى عبد الله بن محمد ونجاحه بعد أن تمكن من إعادة سيطرته على المغرب الأوسط، وقد استغل أبو العنان فرصة وجود والى بجاية الحفصى فى بلاطة فجعله يتنازل عن ولاية بجاية دون اراقة دماء، وبعد أن تمكن أبو عنان من بجاية، وبعد أن فرض أبو عنان سيطرته على بجاية استولى على قابس وطرابلس .. فإنه نظر إلى أفريقية والى قسنطينة لأنها قاعدة قوية ومن يستولى عليها يمكنه الاستيلاء على تونس وحتى عام ٧٥٣هـ زحفت جيوشهم على قسنطينة إلا أنها اضطرت للانسحاب لكن عام ٧٥٥هـ شهد المحاولة الثانية لأخذ قسنطينة لكنه فشل، وفى عام ٧٥٨هـ استولى على قسنطينة بعد حصار دام أربعين يوما.

وحشد أبو عنان قوات برية وبحرية للاستيلاء على تونس واستطاع فى رمضان ٧٥٨هـ أن يدخل عاصمة بنى حفص وتمت البيعة له حتى أغلب أجزاء أفريقية فيما عدا المهدية وسوسة وتوررزر، وبدأ العرب المقاومة الثانية للاحتلال المرينى وحدث انشقاق فى الجيش المرينى وانصرف كثير من قواته إلى المغرب حتى كان ابن أبى عنان إلا أنه تراجع -هو نفسه- إلى المغرب وأسرع أهل تونس بالثورة على من بقى من بنى مرين ودخلوا المدينة وعادت إلى ملك الحفصين (٧٥٣هـ-٧٦١هـ) وبعد وفاة السلطان أبى

عنان عام ٧٥٩هـ/١٣٥٧م أخذت العلاقات بين الطرفين تسير فى اتجاه جديد يقوم على الود المتبادل لاسيما أن العلاقات بين أفراد البيت المرينى كانت علاقة صراع للوصول إلى العرش ففى عام ٧٦٠هـ/١٣٥٨م أطلق منصور بن سليمان بن عبد الحق المرينى سراح أبى العباس الحفصى صاحب قسنطينة. وكانت هذه المدينة آخر ما تبقى للمرنيين فى أفريقية وقدم أبو العباس أحمد الحفصى مساعده الأمير أبو سالم بن أبى الحسن المرينى فى تولية عرش البلاد، وفى مقابل ما قدم أبو العباس الحفصى حفظ أبو سالم المرينى الجميل للأمير الحفصى أبى العباس فتنازل له عن قسنطينة وأمر واليها المرينى بالانصراف عنها وتسليمها لأبى العباس الحفصى وبعودة قسنطينة إلى الدولة الحفصية انتهى الاحتلال المرينى الثانى، والذى لم يتمكن من فرض نفوذه على البلاد الحفصية واستمرت العلاقات ودية طيلة عهد أبى العباس أحمد الحفصى حتى وفاته عام ٧٩٦هـ/١٣٩٤م، واستمر ذلك الود حتى كان عام ٧٩٧هـ/١٣٩٤م عندما وصل إلى البلاط المرينى ثائر حفصى هو أبو عبد الله محمد بطلب معاونة السلطان المرينى أبى فارس عبد العزيز ضد السلطان الحفصى وقد أرسل معه السلطان المرينى حملة عسكرية سرعان ما عادت ادراجها إلى المغرب الأقصى دون أن تحقق أهدافها، وقد أدت هذه الحملة إلى جو من سوء العلاقة إذ أنه بعد نجاح السلطان الحفصى فى قتل الأمير أبى عبد الله محمد أرسل رأسه سراً وعلقت على أحد أبواب العاصمة فاس إلا أن العلاقات قد تحسنت؛ ففى عام ٨٠٤هـ/١٤٠١م أرسل السلطان المرينى أبو سعيد عثمان بعض الرسل والهدايا إلى البلاد الحفصى ورغم ذلك فإن السلطان الحفصى أبا فارس عبد العزيز عندما قام بحركته التى استولى فيها على تلمسان بالمغرب الأوسط عام ٨٢٧هـ/١٤٢٣م حرص على التوجه بقوات بنى حفص نحو فاس لإخضاعها لنفوذ بنى حفص واعتبارها مناطق نفوذ لكن الأمير المرينى أبا سعيد عثمان

صاحب فاس أحق البيعة والتبعية له ووصلت البيعة إلى تونس، وكان السبب فى بيعة بنى مرين يعود إلى ما كان يعانيه بنو مرين من ضعف وظلت علاقات التبعية حتى أرسل عام ٨٦٤هـ/١٤٥٩م. السلطان عبد الحق المرينى آخر سلاطين بنى مرين هدية عظيمة إلى السلطان الحفصى، وقد استقبل الحفصيون رسول بنى مرين أحسن استقبال.

كذلك .. فإن العلاقات الثقافية لم تتأثر كثيراً بالأوضاع السياسية التى كانت قائمة بين بنى حفص وبنى مرين لقد كان جو للعلم والعلاقة الثقافية والتعاون بين تلمسان وفاس والمدارس التى أنشأها سلاطين بنى مرين فى المغرب الأوسط ومدنه المختلفة وحركة التنقلة فى المخطوطات بين البلدين ومدارس الزيتونة والقروين وتعاون تونس وفاس واستقبال الطلاب للدراسة والعلماء للتدريس كل هذا كان يجرى على قدم وساق فى أقصى الظروف فنجد أن أبا الحسن المرينى عندما أبحر من تونس عائداً إلى بلاده أثر فشله فى البقاء فى أفريقية اصطحب معه نحو أربعمائة عالم منهم ابن الصباغ والظمى، وكان يتنقل العلماء من أفريقية إلى المغرب الأقصى فى يسر وسهولة دون أدنى اعتراض ووصل بعض طلاب بنى مرين الدراسة فى تونس وفى مدرسة الشماعين، وكذلك وصل بعض من علماء بنى مرين للتدريس فى هذه المدرسة إلا أن العلاقات الاقتصادية كانت تتأثر بجو العلاقات السياسية، بين بنى حفص وحكام بنى مرين وبنى زيان؛ فكانت العلاقات الاقتصادية تنشط عندما كان جو العلاقات يسوده الود والسلم بين بنى زيان وبنى حفص ففى تلك الحالة يصبح الطريق آمناً أمام حركة القوافل التجارية، وكانت قوافل الحج المتجهة إلى مصر والمشرق العربى تقوم بدور رئيسى فى هذا النشاط الاقتصادى بين أفريقية الحفصية والمغرب الأقصى. لذلك .. حرص المرينيون على تثبيت أقدامهم فى المغرب الأوسط تسهيلاً للحركة التجارية

وتأميناً لطريق الحج، ومهما يكن من أمر هذه العلاقة فإن صلة الدم والعرق والدين والجوار والعقيدة الإسلامية جعلت هذه العلاقات تتسم بروح التسامح والتوافق أحياناً كثيرة، وأن سحابة الصيف التى كانت تسود العلاقات سرعان ما كانت تتقشع ويتم الصفاء وتاريخ البلدين الطويل به سمات ولمحات من التعاون والتضافر من أجل الصالح العام؛ فقد اشتركت قوات بحرية وبرية من بنى حفص فى مساعدة بنى مرين فى حركة الحياد الإسلامى فى الأندلس هذا دليل على قوة العقيدة وتلك لمحة بسيطة عن العلاقات.

العلاقات المرينية الزيانية

طبعت العلاقات بين بنى مرين وبنى زيان بطابع العداء المتواصل والمتوارث، والذى ظل تتوارثه الأجيال حتى أنه لم يهدأ عبر تاريخ الدولتين إلا لفترات قليلة لا تحسب فى عمر الدولتين والتى كانت تسود فيها المودة والسلم، والذى كان يفرض على بنى زيان من مركز قوة بنى مرين وانهزام بنى زيان، لكن بنى زيان سرعان ما كانوا يسارعون إلى نقض الصلح وعودة العلاقة إلى حالتها الطبيعية، وتاريخ العداوة بين الطرفين رغم رابطة العقيدة والجوار والانتماء لقبيلة واحدة عداء قديم؛ فقد كان بنو زيان الذين هم بطن من بطون بنى زيادين فى صراع دائم مع بنى مرين، وكانت الغلبة دائماً لأجداد بنى زيان نظراً لكثرة عددهم مما اضطر بنى مرين للإقامة الدائمة فى الفيافى والقفار والصحراء فى المغرب الأوسط وبعد زوال المرابطين أصبح بنو زيان من أصدقاء الموحدين فى المغرب الأوسط وقاتل بنو زيان المرينين عام ٥٤٠هـ/١٢٤٥م، وألحقو بهم هزيمة فادحة وقتلوا زعيم بنى مرين، وكان بنو مرين يشعرون بالمرارة لما يلاقونه من أبناء بنى عمومتهم بنى زيان حتى اضطر بنو مرين للرحيل من المغرب

الأوسط عام ٦٠١هـ/١٢٠٤م فى أعقاب حرب دارت بينهما واستقر بنو مرين عند مدخل المغرب الأقصى عند وادى ملوية ودخلوا بلاد المغرب الأقصى عام ٦١٠هـ/١٢١٣م، وكانت هذه الأحداث من أسباب العداوة.

واستغل الموحدون هذا العداء منذ عام ٦١٠-٦٦٨هـ/١٢١٣-١٢٦٩م طوال هذه الفترة التى تزيد عن خمسين عاما تحالف الموحدون مع بنى زيان عندما تحالف يغمراسن بن زيان مع السعيد الموحدى وبنى عسكر لكن أبا يحيى المرينى قضى على هذا التحالف عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م. وعاد بنو زيان، وقام يغمراسن بمحاصرة رباط تازى، ولكن الأمير يحيى لاحق يغمراسن حتى ألحق به هزيمة قاسية عند أيسلى وتحالف يغمراسن بن زيان مع أبى دبوس آخر سلاطين الموحدين وشن غارات كثيفة على أطراف المغرب الأقصى وخاصة أقليم ملوية للتخفيف من حصار أبى يعقوب بن عبد الحق حول مراكش مما دفع يعقوب بن عبد الحق إلى توجيه ضربة انتقامية إلى يغمراسن فهزمة وقتل ابنه عند وادى تلاغ وعلا نجم بنى مرين بانتصارهم على أعدائهم من بنى زيان واسقاط خصومهم الموحدين.

ولقد حاول بنى مرين بكل الطرق ضرب القوة الزيانية، وكانت الوسيلة العسكرية أهم وسائلهم ثم بذر بذور الشقاق بين أفراد البيت الزيانى الحاكم واستخدام الإغراء بالمال، وكانت خطة بنو مرين العسكرية هو حصار تلمسان عاصمة الدولة ثم تخريبها وتدميرها وكانت خطة بنى زيان الانسحاب من العاصمة تلمسان والتوغل داخل حدود بنى مرين بالمغرب الأقصى وتدمير ممتلكات بنى مرين ولاسيما فى الحدود مما كان يضطر بنى مرين للإقلاع عن تلمسان لكنهم كانوا يعيدون الكرة أكثر من مرة وبهزيمة بنى زيان زادت الثقة لدى بنى مرين فأصبحوا بعد إقامة دولتهم يطمعون فى إسقاط دولة بنى زيان كما اسقطوا دولة الموحدين والسيطرة على المغرب كله والقضاء على

أعدائهم التقليديين بنى زيان، وفى الوقت نفسه يلاحظ أن بنى زيان كانوا لا يتركون فرصة إلا واغتنموها فى سبيل ضرب قوة بنى مرين.

ونهض بنو مرين قاصدين تلمسان (٦٣٠هـ/١٢٧١م) لتحقيق غرضهم ولجأ بنو مرين إلى القوة العسكرية فزحفوا صوب بنى زيان والتقى الجمعان وانتهت المعركة بهزيمة بنى مرين وفرار يغمر اسن إلى تلمسان فحصارها المرينيون ثم عادوا إلى بلادهم واستخدم بنو مرين وسيلة أخرى فى ضرب بنى زيان وفى تأليب قبائل المغرب الأوسط عليهم فأكثروا فى اكرام قبيلة بنى يوجين البربرية وبالفعل وقف بنو يوجين معهم فى حربهم ضد بنى زيان.

وفى عام ٦٦٩هـ/١٢٧٠م مد بنو مرين أيديهم إلى بنى زيان يطلبون الصلح معهم ليتفرغوا للعمل ضد نصارى الأندلسيين ولكن يغمر اسن رفض الصلح وأصر على موقفه المعادى لهم وقام أبو يوسف يعقوب بحملة ضد يغمر اسن بن زيان هزمته وحاصرت العاصمة تلمسان ورغم هذا أصر السلطان أبو يوسف على التصالح مع بنى زيان فى المغرب الأوسط قبل عبوره الأول إلى الأندلس وأرسل حفيدة أبا يوسف بن تاشفين فى وفد من بنى مرين لعقد الصلح مع يغمر اسن والرجوع للمودة ووضع أوزار الحرب تفرغا الجهاد فى الأندلس فأكرم يغمراسن الوفد وأرسل مشايخ بنى زيان إلى فاس ومعهم الهدايا وتم عقد الصلح بين الطرفين عام ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م وأضطر بنو زيان لقبول الصلح لكن بنى زيان نقضوا الصلح واتفقوا مع بنى الأحمر فى غرناطة الأندلس لمهاجمة أملاك بنى مرين الشرقية لصرف أبى يوسف عن العبور للأندلس للمرة الثالثة وكان هذا الموقف سببا فى قيام أبى يوسف بحملة تأديبية وهزم فيها يغمر اسن عند موقع يقال له الملعب بالقرب من تلمسان عام ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م وقضوا على هذا التحالف بحربهم الحاسمة ضد بنى زيان هذه وحاصروا تلمسان وعادوا إلى بلادهم.

ووقف بنو زيان موقف المدافع عن أنفسهم عام ٦٩٥ هـ/ ١٢٩٥ م حتى عام ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م وبلغ الوضع مداه بين الطرفين عندما قدم بنو مرين أمير مفراوة بالمغرب الأوسط مستصرخا من اعتداء بني زيان ومستنجدا ببني مرين ووصلت الحملات التأديبية ضد بني ز يان زروتها عام ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م عندما حاصر السلطان أبو يعقوب يوسف تلمسان طيلة ثمانية أعوام وحاصروا تلمسان حصارا شديدا حتى آستولوا فى أثنائه على غالبية المغرب الأوسط واستخدم بنو مرين كل الطرق لاحكام الحصاو فقاموا ببناء سور حول تلمسان كما قاموا ببناء مدينة أطلقوا عليها المنصورة على أحسن طراز وأستمر الحصار ثمانية أعوام وأنقذ المدينة مقتل السلطان أبى يعقوب يوسف و انسحب المرينيون من المغرب الأوسط. واختلف بنو مرين بين تأيد أبى ثابت بن أبى عامر وبين أبى سالم بن يعقوب وفى هذا الأثناء راسل أبو ثابت بنى زيان فى تأييدهم له ووعدهم بالافراج عن تلمسان فى حالة أنتصاره وبعد توليه العرش وفى بنى زيان بما وعد به وتنازل عن البلاد التى أخضعها بنى مرين لسلطانهم داخل حدود المغرب الأوسط وارتحل بنو مرين واشترطوا على بنو زيان عدم دخول تلمسان الجديدة ومن ذلك فان بنى مرين أصبح لهم موطن قدم فى المغرب الأوسط للاطلاع على أخبار بنى زيان، ولكن بنى زيان هدموا المدينة ووقفوا بالمرصاد لبنى مرين فأووا اليهم الخارجين على سلطة فاس. ووقفوا بجانب آخرين فى حروبهم ضد بعضهم البعض ورفض بنو زيان تسليم الخارجين على دولة بنى مرين، وكانت آخر الحملات التأديبية التى قام بها أبو سعيد عثمان المرينى عام ٧١٤ هـ / ١٣١٤م. وكان سببها أن السلطان الزيانى أبا حمو سهل فرار الثائر عبد الحق بن عثمان إلى الأندلس فغزا تلمسان أيام أبى حمو وكذلك ساعد بنى زيان فى عهد أبا تاشفين، الأمير أبا على بن السلطان أبى سعيد عثمان المرينى عندما خرج على أبيه وبعثوا إليه بقوات إلى نواحى تازى ليشغل أبا سعيد عن حرب أبنه.

وعلى هذا .. فإن بنى مرين لم يلجأوا للصلح مع بنى زيان الا لتأمين جبهتهم الشرقية لبعض الوقت وكان صلحا مؤقتا ثم يعودون للهجوم على بنو زيان ولذا لم يرضخ بنى زيان للصلح.

ولذا .. فإن بنى مرين فى المراحل الأولى لم يستطيعوا ضرب بنى زيان وساروا على المنهج الذى رسمه لهم مؤسس دولتهم يغمرا سن بن زيان بمنع بنى مرين من التوسع شرقا وجعل كل المغرب الأوسط أرضا لبنى زيان فاستولى بنو زيان عام ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م على تونس فلم يجد بنو حفص بدا من الاستعانة ببنى مرين أعداء بنى زيان التقليدين فكانت فرصة لسلطان بنى مرين للقضاء على دولة بنى زيان والاستيلاء على المغرب الأوسط لكى تكون خطوة تقربهم إلى أفريقية فرفضوا طلبهم ومن ذلك أتخذ بنو مرين هذا الرفض ذريعة للزحف نحو تلمسان وكان السلطان أبو الحسن المويني الذى خلف أباه أبى سعيد عثمان قد فشل فى أقامة علاقات من الود والتفاهم مع بنى زيان وحسن الجوار بين القوى الثلاث فى المغرب بنى حفص وبنى زيان وبنى مرين وجاءت هذه الجهود بعد قيام أبى الحسن بدور بارز بجانب اصهاره بنى حفص حيث قام أبو زيان بن تاشفين باحتلال أجزاء من ممتلكات الحفصين الذين كانت تربطهم بهم علاقات مودة وعاد بنو زيان لأسلوبهم القديم فى التعامل فأساء أبو تاشفين سلطان بنى زيان معاملة رسول أبى الحسن المرينى وقد فجرت هذه الأحداث تطلعات أبى الحسن فى التوسع فى المغرب الأوسط فرآى القضاء نهائيا على بنى زيان ففى عام ٧٣٧ هـ / ١٣٢٦م قام أبو الحسن بغزو شامل للمغرب الأوسط وافتتح تلمسان وقتل أبا تاشفين وبذلك سيطر على المغربين الأوسط والأقصى وتلاشت دولتهم وأصبح المغرب الأوسط أقليما من أقالم الدولة المرينية، لكن بنى زيان لم يستسلموا للضرب فانتهزوا الفرصة لضرب القوة المرينية وانسحبوا من أرض المعركة التى

دارت بين بنى مرين وبين القبائل العربية أثناء قتاله القبائل العربية بالقرب من القيروان (٧٤٩ هـ / ١٣٤٨م) فانهزم بنو مرين شر هزيمة وتمكنوا فى نفس العام من أحياء دولة بنى زيان وبايعوا أميرهم عثمان بن عبد الرحمن بن يحى بن يغمر اسن سلطانا على تلمسان وأقاموا دولتهم من جديد وانتقلوا من الخضوع إلى الاستقلال واستفاد بنو زيان في تدعيم موقفهم من الصراع الدائر بين أبى الحسن فى المغرب الأوسط ثم فى سلجماسة وولده أبي عنان. وقد ساعد أبو عنان بنى زيان ضد أبيه للوصول إلى السلطة بعد أتفاق أبي عنان معهم بالسيطرة على بلادهم واستطاع أبو عنان هزيمة أبيه عام ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م، ثم عاد أبو عنان للسيطرة على المغرب الأوسط مرة ثانية عام ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م. واستولى عليه وقتل سلطان بنى زيان وبسط نفوذه من جديد وظلت بيعة بنى زيان للمرينين قائمة واستمر ذلك طوال ست سنوات حتى وفاة أبى عنان عام ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م حتى أستطاع أبو حمو موسى بن يوسف أحياء الدولة من جديد وأعاد استقلالها مرة أخري. وظل بنو زيان خلال عصر تحكم الوزراء فى سلاطين بنى مرين فى عدائهم التقليدى مما دفع بنى مرين لاحتلال المغرب الأوسط فى عام ٧٧٢ هـ / ١٣٧٠ م. وكان أبو حموا فى تلك الفترة يترك تلمسان ويهاجم أطراف المغرب الأقصى حتى يجعل قوات بنى مرين تترك تلمسان واستطاع بنو مرين اغراء بنى عامر العرب بالمال وكذلك تفريق شمل البيت الزيانى والوقوف مع أمير ضد آخر واشعال الفتنة كذلك سيطروا على تلمسان عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م. فى عهد السلطان العباسى أحمد، قد أنهكوا قوى الدولة بل أن بنو مرين أخذوا يتدخلون فى تولية سلاطين بنى مرين هادفين من وراء ذلك انهاك القوى الزيانية والذى يلاحظ سير هذه العلاقات يدرك أن بنى مرين حاولوا عدة مرات ضرب القوة الزيانية لكنهم لم يستطيعوا توجيه ضربة قاصمة لهم الا بعد تحالفهم مع بنى حفص كما أن بنى مرين عند تحالفهم مع بنى حفص كانت نظرتهم أشمل فأنهم يعتبرون الاستيلاء على

تلمسان خطوة لاستيلاءهم على أفريقية والدليل على ذلك أن أبا الحسن المرينى بعد أن أستولى عن المغرب الأوسط استغل الخلاف الدائر داخل البيت الحفصى وزحف إلى أفريقية وأستولى عليها ٨٤٨ هـ / ١٣٤٧ م كذلك فأن بنى زيان أستغلوا انشقاق بنى مرين على أنفسهم وأعادوا اقامة دولتهم بينما أستغل بنو مرين الانشقاق لذا لم يواجهوهم فى زحفهم نحو تلمسان أنما أتبعوا الهجوم المماثل فكانوا يتركون تلمسان لبنى مرين ثم يزحفون إلى المغرب الأقصى مما يضطر بنى مرين للاقلاع عن تلمسان.

وعلى هذا فإن علاقة الدولة الزيايتية بدولة بنى مرين قد تأرجحت عدة مرات بين الخضوع والاستقلال والتبعية وكان بنو مرين فى كل هذه الحالات فى مركز القوة يستخدمون كل الوسائل لضرب بنى زيان.

لكن مما يلفت النظر أنه خلال سيطرة بنى مرين على المغرب الأوسط كانت تلمسان المنصورة طوال احد عشر عاما مقرا للحكومة المرينية يمارس منها أبو الحسن تسير أمور الدولة فى المغرب الأوسط والأقصى وأنشأ بنو مرين بها القصور والمساجد والمدارس والبيمارستانات وأهتم السلطان والأشياخ بمجالس العلم والعلماء ونشروا التعليم وأكثروا من بناء المدارس فى المدن الكبرى وكانت مجالس أبى الحسن تضم كثيرا من العلماء والأدباء وكثر عدد الطلبة بالرحيل إلى فاس لتلقى العلم على أئمتها وعلمائها ومن هؤلاء الذين عادوا إلى فاس أبو عبد الله محمد السلوغى الذى اصبح رائدا علميا فى بلاد المغرب الأوسط حيث أسس له أبو تاشفين ابن آبى حمو الزياتى مدرسة يدرس فيها ما حصله من علوم فاس كما اهتم المرينيون باعادة تعمير مدينة المنصورة التى سبق انشاؤها فى عهد السلطان أبى يعقوب يوسف.

وتلك هى لمحة مختصرة عن العلاقات بين بنى مرين وبنى زيان رالتى كانت فى مجملها صراع متواصل أضر بقضايا الأسلام والمسلمين فى الأندلس.

علاقة الحفصين مع بني زيان

كانت القوى الثلاث التى ظهرت على أنقاض الدولة الموحدية تحاول كل منها بسط نفوذها على المنطقة فكانت تصطدم بالدولة الزيانية عندما يحاول بنو حفص الامتداد غرباً ، وعندما يحاول بنو مرين التوسع فى المغرب الأوسط شرقا ومن ثم كانت الدولة الزيانية هى الأخرى تحاول تثبيت أركانها.

ولقد كان بنو زيان فى بداية قيام دولتهم يتعاونون مع الموحدين مما أغضب الحفصيين وبنى مرين فى آن واحد وقد كان بنو زيان فى حاجة إلى الموحدين لان بنى زيان ينظرون إلى بنى حفص وبنى مرين على أنهما قوتان شابتان يؤثر وجودهما على الدولة الزيانية مستقبلا.

ولقد أغضبت علاقة بنى زيان بالموحدين بنى حفص فى المغرب الأوسط وظهر ذلك فى هجومهم على تلمسان عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م ولا شك فى أن هجوم بنى حفص على تلمسان أثر فى أنجاز الدولة التوسعية، ومن ثم فانه بعد قيامها بسبع سنوات ٦٣٣هـ تراها تخضع لنفوذ بنى حفص وكان الخضوع شكليا لا يتعدى الدعاء لبنى حفص على منابر تلمسان والمغرب الأوسط ورغم محاولة بنى زيان التوسع شرقا الا أنهم اصطدموا ببنى حفص عندما حاول ابن تاشفين اخضاع قسنطينة وبجاية وحدث صراع بين القوتين الحفصية والزيانية فانتصر بنو زيان ودخلوا تونس العاصمة واستولوا عليها عام ٧٣٠هـ/١٣٢٩م. لكن أثناء توسع بنى زيان فى عهد ابن تاشفين استنجد بنو حفص ببنى مرين لضرب القوة الزيانية ونتج عن ذلك حصار بنى مرين لتلمسان عام ٧٣٥هـ/٧٣٧م، ولم يستطع بنو زيان مواجهة قوة بنى حفص فى الشرق وبنى مرين فى الغرب فسقطت تلمسان وفرض النفوذ المرينى على سكانها.

وتحسنت العلاقات بين الحفصيين وبنى زيان عندما وقف بنو حفص إلى جانب أبي حمو الثانى صاحب تلمسان وساعدوه لطرد بنى مرين من المغرب الأوسط والذين كانوا يتطلعون إلى بسط نفوذهم على أفريقية والمغرب كله واستطاع أبو حمو بمساعدة جيش حفصى تم تسليحه عن طريق بنى حفص استعادة تلمسان مرة أخرى، ولما حاول بنو زيان توسيع مناطق نفوذهم فى عهد أبى حمو الثانى وقف لهم بنو حفص وكانوا دائماً يحاولون ضرب نفوذ أية قوة بالمغرب الأوسط يشم منها رائحة تهديد نفوذهم فى أفريقية مساعداً بنى مرين للاستيلاء على تلمسان لكبح جماح القوة الزيانية ثم ساعدوا أبا حمو الثانى فى القضاء على نفوذ بنى مرين بالمغرب الأوسط لمنعهم من التوسع شرقاً على حساب ممتلكات الحفصين، ثم ساعدوا أبا زيان بن أبى سعيد فى مزاحمة أبى حمو الثانى على عرش تلمسان، وهى محاولات تهدف إلى إضعاف النفوذ الزيانى سلباً وإيجاباً.

وقد خاض جند بنى حفص حرباً ضد أبى حمو الثانى فى بجاية؛ حيث أن هذا الانتصار قلل من شأن الدولة بين عرب المغرب الأوسط وأضعف جانبها أمام أبى زيان المنافس على العرش والذى أصبح لأول مرة ذا قوة لا يستهان بها فى المغرب الأوسط.

ولما تولى أبو مالك عبد الواحد بن السلطان أبى حمو الثانى الحكم فى الدولة الزيانية استطاع أن يعيد للدولة كيانها وسمعتها السياسية واسترجع كل ما كان بين الحفصيين عام ٨١٤هـ/١٤١١م من أملاك بنى حفص فى شرق سلطنتهم؛ بل أنه لم يقف عن هذا الحد بل توسع غرباً فى المغرب الأقصى؛ حيث استطاع أن يستولى على فاس عاصمة بنى مرين وأن يعين عليها أميراً زيانياً من قبله.

ولم يقف بنو حفص أمام توسع بنى زيان فى المغرب الأقصى الذين شنوا حملة على بنى مرين وانتصروا فيها، لكن بنى حفص استطاعوا عام ٨٢٧هـ/١٤٢٧م أن

يدخلوا تلمسان وأن يعينوا عليها أميراً من أسرة بنى زيان لكنه كان من قبلهم وخاضعاً لهم هو أبو عبد الله محمد المعروف بابن الحمزة بن السلطان تاشفين الثانى وخضع بنو زيان لسلطة الدولة الحفصية وأخذ بنو حفص منذ ذلك الحين يلعبون دوراً هاماً فى أمور الدولة الزيانية فى تولية الأمراء وعزلهم وكلما ازداد النفوذ الزيانى كان عاملاً على التوسع، وكانوا يعملون على وقف هذا التوسع لأنه كان دائماً يكون على حساب أراضيهم وديارهم فى بجاية وقسنطينة.

ومن ثم .. فإنه يمكن القول أن العلاقات بين الطرفين فى أغلب فتراتها كانت صورة من الصراع الدائم؛ حيث تصارعت أفكار كل منها عكس الآخر كان بنو زيان يريدون التوسع شرقًا وبنو حفص يريدون التوسع غرباً، وهذا جعل المجابهة بين الطرفين قوية وكانت زيان تابعة ثم استقلال ثم تفوق عسكرى ثم تبعية بنى زيان للحفصيين شكلية، ولم تنشأ العلاقة صراعاً عسكرياً، وكانت تبعية بنى زيان للحفصيين شكلية، ولم تنشأ العلاقة من فراغ فعندما استقل بنو حفص بحكم المغرب الأدنى عن الموحدين عام ٦٢٥هـ/١٢٢٧م كان هدفهم الاستيلاء على المغرب كله وتطورت العلاقة بين الطرفين كل يحاول الاتساع على حساب الطرف الآخر، ومن ثم كان تحالف بنى زيان مع أعداء بنى حفص، وهكذا .. وجد بنو حفص أنفسهم أمام قوة تقف حائلاً دون استقرارهم وتوسعهم وحاول بنو زيان التوسع داخل حدود المغرب الأوسط بإخضاع شلف، ومن ثم .. استنجد بنو يوجين ومغراوة ببنى حفص للظهور على قوة بنى زيان، وكانت بنو حفص أكثر قوة فى جعل بنى حفص يستولون على تلمسان عام ٦٣٩هـ/١٢٤١م. ومن ثم وضعنا تحت حماية حفصية كما فعلوا بقسنطينة وبجاية من قبل. وكان أبو زكريا الحفصى قد أرسل إلى يغمراسن بشأن عقد صلح أو اتفاق بينها على أن يدين بنو زيان للدولة الحفصية فأبى يغمراسن، ومن ثم استولى بنو

حفص على تلمسان بينما لحق بنو زيان بالصحراء وأرسل يغمراسن بن زيان إلى أبى بكر الحفصى بشأن التفاوض وقبل بنو حفص التفاوض وعاد بنو زيان إلى تلمسان شريطة أن يقيموا الدعوة لبنى حفص على منابرهم بدلاً من الخليفة الموحدى وأن يعاونوهم ضد الخليفة الموحدى بمراكش، وهذا الاتفاق بين بنى زيان وبنى حفص أخذ شكلاً عملياً بالدعاء للحفصيين على منابر تلسمان واضطر زعيم بنى زيان بالاعتراف بسيادة الحفصيين وأصبحت بلاد المغرب الأوسط تحت وصاية وحماية الحفصيين.

وكان بنو زيان يتلقون الأوامر من سلطان بني حفص وكانت الأمور فى تلمسان تسير بيد بني زيان، ومن ذلك حربهم ضد العرب الذين ساعدوا أبا زكريا وكذلك معاداتهم الموحدين أعداء بني حفص ضد بنى مرين عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م. ولقد استولى الأمير الزيانى محمد بن محمد بن أبى ثابت الملقب بالمتوكل على تلمسان وطرد سلطان بنى زيان أبا العباس أحمد إلى الأندلس عام ٨٦٦هـ/١٤٦١م. وهنا نهض بنو حفص إلى تلمسان بجيوش ضخمة وأدرك بنو زيان أنهم فى مأزق فطلبوا الصلح واستطاع الوفد الزيانى أن يعقد الصلح على أن يدخل بنو زيان فى طاعة بنى حفص وعاد بنو حفص إلى تونس مرة أخرى، ولم يهنأ بنو زيان باستقلالهم وسويد (قبيلة عربية) إلى تلمسان ونصب الحفصيون على جيش العرب قائداً لهم وحاصرت الجيوش تلمسان (٨٧١هـ/١٤٦٦م) وهدم بنو حفص أسوار المدينة وأرسل المتوكل وفداً يطلب الصلح وزوج ابنته للخليفة الحفصى ودخل فى طاعتهم إلى أن توفى عام ٨٩٠هـ/١٤٨٥م.

وبلغ بنو زيان درجة من القوة جعلتهم يهاجمون بنى حفص فى عقر دارهم ويستولون على تونس وتعاون بنو حفص مع بني مرين، وتم اخضاع تلمسان واستخدم بنو حفص طريقاً آخر لضرب القوى الزيانية بعد احيائها من جديد، وهى حرب بنى زيان

بعضهم لبعض فوقفوا بجانب أمير ضد آخر ثم كانوا يتركون هذا الأمير ويقفون مع الآخر وهم يأملون فى كل هذه المواقف أن يقضى بنو زيان بعضهم على البعض الآخر.

واستخدم بنو حفص القوة الحربية فى حرب بنى زيان، لكن فى عام ٨١٤هـ/١٤١١م استطاع بنو زيان أن يسترجعوا ما بين الحفصيين شرقًا مما دفع بنى حفص للهجوم على تلمسان وبعد معارك طاحنة استطاعوا تحريك مقاليد الأمور فى تلمسان ويعينون أمراء بنى زيان كما يشاءون ويخلعون كذلك كما يريدون وتتجلى هذه التبعية الرسمية لبنى زيان فى إرسال أبى مالك السلطان المخلوع والقاطن بالمغرب الأقصى إلى بنى حفص لكى يتم إعادته مرة ثانية للعرش الزيانى وذلك دليل على أن بنى حفص كانت لهم اليد الطولى فى تسيير الأمور فى تلمسان وإلا لماذا أرسل أبو مالك إلى بنى حفص بصدد إعادته ووعده بنو حفص بالعودة.

وعندما ساءت الأمور فى تونس وحدث الانقسام بين الأمراء من الناحية الغربية؛ حيث عمل أمراء هذه الناحية على الاستقلال عن أفريقية فقد استغل ذلك بنو زيان وأعلنوا استقلالهم عنهم؛ حيث كانت علاقة بنى زيان بأمير بجاية الحفصى طيبة، وهذه العلاقة لم يرض عنها سلطان بنى حفص فلم يتحركوا لنجدة بنى زيان أثناء حصار بنى مرين لهم وأكثر من ذلك فإن سلطان بنى حفص أرسل لسلطان بنى مرين أثناء حصارهم تلمسان وفداً لتجديد الصلة والصداقة وأدى هذا الموقف إلى إعلان بنى زيان استقلالهم الذاتى فخرج بنو زيان عن طاعة بنى حفص وأعلنوا استقلالهم فلم يعد يذكر بنى حفص على منابر تلمسان ولقد حاول السلطان أبو بكر شقيق أبى البقاء خالد السيطرة على الأقاليم القريبة لكنه عاش فى صراع مع بنى زيان الذين حاولوا بدورهم اخضاع نايين بنى حفص من أراضى داخل المغرب الأوسط.

وإذا كانت العلاقة بين بنى زيان وبنى حفص قد ساءت منذ هجوم بنى مرين

على تلمسان مما أدى إلى تطور العلاقة من التبعية إلى الاستقلال، لكن فى عهد أبى تاشفين الأول الزيانى؛ فإنه قد استغل فرصة الخلاف بين أبناء البيت الحفصى فى أفريقية، وكذلك خروج بنى سليم على بنى حفص واستغل بنو زيان فرصة الانقسام والصراع الداخلى ووجهوا عدة ضربات قوية بدأوها بمحاولتهم للاستيلاء على بجاية وقسنطينة عام ٧٢٠هـ/١٣٢٠م - ٧٢١هـ/١٣٢١م، وتكررت هجمات بنى زيان على بجاية وقسنطينة واستطاع بنو زيان بناء مدينة تاز بزدكت بالقرب من بجاية وجعلوها بمثابة القاعدة العسكرية للمساعدة فى الزحف على الأقاليم الشرقية واستطاع بنو زيان هزيمة بنى حفص هزيمة قاسية والاستيلاء على تونس ثم تركوها لزعيم عرب بنى عمران الذى لم يستطيع صد أبى يحيى الحفصى واستردادها مرة ثانية.

ولقد كان هدف بنى زيان الاستيلاء على بجاية وقستنطينة فقط، دون زحفهم على تونس نظراً لصراع عرب بنى سليم وأبى يحيى الحفصى.

لكن طابع العداء والصراع سرعان ما تبدد وأخذ طابع الهدوء النسبى يسود العلاقات وذلك فى الاتفاقيات التى تمت بين بنى زيان وبنى حفص والمصاهرة التى تمت بين الطرفين، وفى الهدايا المتبادلة والسفارات مثلما حدث فى عهد يغمراسن بن زيان، وساعد بنو زيان على استعادة سيطرتهم على قبائل المغرب الأوسط ولم يفكروا فى محاربة بنى حفص والصلح الذى تم فى عهد المتوكل الحفصى بين بنى زيان وبنى حفص عندما حاصر بنو حفص تلمسان عام ٨٧١هـ/١٤٦٦م؛ حيث عاش بنو زيان فى هدوء وإن كانوا تابعين لبنى حفص وكذلك حالة الزواج السياسى التى تمت بالمصاهرة عندما خطب يغمراسن ابنة أبى اسحاق بن أبى زكريا الحفصى لابنه عثمان وكذلك تبادل الهدايا أثناء حكم أبى العباس أحمد بن أبى حمو موسى الثانى وكذلك تم عقد معاهدة صلح وحسن جوار عام ٨٣٤هـ/١٤٣٠م، وحدث نوع من الاستقرار

بين الطرفين ووردت رسل من قبل السلطان أحمد العاقل عام ٨٦٢هـ/١٤٥٧م إلى سلطان بنى حفص حاملاً هدية فرد السلطان الحفصى بهدية مع الرسول المذكور وحدث مثل ذلك فى عهد السلطان الزيانى محمد المتوكل فبعد أن تم الصلح بين بنى زيان وبنى حفص تحسنت العلاقات بينهم إلى حد تبادل الهدايا.

كما أن العلاقات الثقافية بين الطرفين لم تتوقف؛ فقد كانت تلمسان فى الظروف العادية قبلة العلم والعلماء يشد إليها الرجال طلاب العام من أفريقية والمغرب الأقصى، ومن مصر وبلاد المشرق وسائر العالم الإسلامى وكثير من العلماء الذين كانوا يلقبون بالتلمسانى والذين رحلوا إلى المغرب الأقصى وبلاد السودان الغربى والسودان الشرقى وبلاد الشام والحجاز ونشطت العلاقات الثقافية بين القيروان وتلمسان وكانت قوافل الحج تنقل طلاب المعرفة للحج والدرس والتحصيل وارتبطت القيروان مع تلمسان وغيرها من بلاد المغرب الأوسط بروابط وعلاقات ثقافية.

كما أن حركة التبادل التجارى والعلاقات الاقتصادية بين البلدين كانت تزدهر لاسيما أوقات السلم وكانت الصلات بين البلدين قوية وساعدت فترة السلام والهدوء بين البلدين على ازدياد الروابط الاقتصادية بين المغرب الأدنى والأوسط ونعم سكان البلدين بتبادل منتجات كل منهما كما أن منتجات بلاد المغرب الأقصى وأوربا كان يتم نقلها إلى أفريقية (تونس) ومصر وبلاد المشرق العربى (عبر بلاد بنى زيان).

وهكذا .. نرى كيف كانت تسير العلاقات السياسية والاقتصادية بين بنى زيان فى المغرب الأوسط وبنى حفص فى المغرب الأدنى.

وتلك هى صورة العلاقات التى كانت تتم بين البلدين الشقيقين والمتجاورين والتى لم تكن فى معظم فتراتها إلا صراعات من أجل السيطرة وبسط النفوذ، لكن

الذى يلاحظ حركة العلاقت وتطورها يدرك أن بنى زيان كانوا دائماً وفى معظم فترات التاريخ هم الطرف الأضعف سواء فى علاقتهم مع بنى حفص أو مع بنى مرين. لذا .. كان المغرب الأوسط دائماً يتعرض للهجوم من الشرق والغرب رغم حرص بنى زيان على الحفاظ على استقلالهم إلا أن تلمسان عاصمتهم لم يكن يمر عليها زمن قصير إلا وتهاجم من بنى حفص أو بنى مرين.

* * * *

الفصل الثامن

نهاية الدولة وسقوطها

بعد وفاة السلطان أبى عنان فارس المرينى فى عام ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م استبد بأمور الدولة وزيره حسن بن عمر فترة من الوقت الى أن تولى السلطان أبى سالم ابراهيم سلطة المغرب عام ٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ م فأبعد هذا الوزير الى مراكش تحفظا منه وريبة بمكانته فى الدولة غير أنه لم يلبث أن ثار ضد السلطان أبى سالم فى عام ٧٦١ هـ / ١٣٦٠ م ولجأ الى عرب جشم ببلاد تادلا فأجاره كبيرهم فأرسل أبو سالم جنوده للقضاء على ثورته فاحتلت بلاد جشم واعتصم الوزير حسن بن عمر بالجبل بجوار بربر صناكة الذين قبضوا عليه وسلموه وقتل بفاس .

وفى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى تمزقت الدولة المرينية بين الأمراء المتنافسين على السلطة بين فاس ومراكش وقام زعماء العرب بدور نشيط بن المتنافسين سعى زعيم عرب بنى صبيح فى الصلح بين الوزير ابن عمر بن عبد الله بفاس وعامر بن محمد الهنتاتى بمراكش وفى عام ٧٦٨ هـ / ١٣٦٧ م . ثار عامر بن محمد الهنتاتى على سلطانه أبى الفضل بمراكش وهرب خوفا من بطشه الى فاس مبايعا سلطانها عبد العزيز وعندما علم السلطان أبو الفضل زحف عبد العزيز وانسحب الى بلاد تادلا وترك فاس واعتصم بحماية أهل تادلا من عرب بنى جابر من جشم فأتبعه عبد العزيز وانهزم أبو الفضل وهرب الى قبائل صناكة وتم أسره ونقله الى عبد العزيز الذى أمر بقتله وقتل مستشاره مبارك بن عطية فى عام ٧٦٩ هـ / ١٣٦٨ م .

وفى عصر قوة الوزراء (٧٥٩ - ٨٦٩ هـ / ١٣٥٧ - ١٤٦٥ م) أصبح سلاطين بنى مرين العوبة فى يد الوزراء حيث ضعف السلاطين وضعف تأثير أهل

الحل والعقد على هؤلاء الوزراء وانفرد الوزراء بترشيح السلاطين ولم يكن أحد يجرؤ على الاعتراض على ما أفسده الوزراء المستبدون وقد أدى ذلك الى ضعف الدولة ومن فان مقتل السلطان أبي عنان وما تم فى أعقاب مقتله قد أصبح تحولا كبيرا فى النظام السياسى وكان هذا التحول هو انتقال السلطة الفعلية الى أيدى الوزراء بدلا من السلاطين وأصبح هذا التحول دلالة على انتهاء عصر القوة المرينية وأنها فى طريقها الى الانهيار والسقوط وصاحب ذلك تقلصها داخل حدودها السابقة فى المغرب الأقصى حيث استرد الحفصيون أملاكهم فى قسنطينة وبجاية وتمكن أبو حمو موسى الزيانى من استعادة تلمسان (٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ م) . بمعاونة عرب بنى عامر وكانت هذه نهاية السياسة التوسعية لبنى مرين وكانت هذه الخسائر أهم أسباب ضعفهم واندفاع الدولة نحو الانحلال والتفكك ومارس الوزراء سلطانهم الواسع .

كذلك فانه فى عصر نفوذ الوزراء الذى امتد الى مايقرب من مائة عام وعشرة هجرية ومائة وثمانية عام ميلادية لم يعد لولاية العهد قيمة كبيرة فكثير من سلاطين بنى مرين فى هذه الفترة لم يجرؤ على تحديد ولى عهده فى حياتهم لأن مقاليد الأمور والسلطة كانت فى يد الوزراء ولم يكن من صالح الوزراء تحديد ولى العهد حتى يصبح فى امكانهم اختيار السلطان الذى يريدون .

ولقد كانت الدولة المرينية فى المغرب الأقصى فى أواخر القرن الثامن الهجرى ، وأوائل القرن الرابع عشر الميلادى تعانى اقتصادا متدهورا وانعكست أثار التدهور الاقتصادى على الحياة السياسية اذ أدى ذلك الى اضمحلال الدولة المرينية وسقوطها وتركت آثار التدهور الاقتصادى بصماتها على الحياة السياسية منذ النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى وفى الفترة التى صاحبت نهاية المرينين فى بلاد المغرب .

وبدأت هذه الفترة بتولى السلطة أبى سعيد بن أبى العباس أحمد الذى بويع عام ٨٠٠ هـ / ١٣٩٨ م وصار للحجاب نفوذ أقوى من الوزراء حتى أصبح الحجاب فى يدهم جميع الخيوط والوظائف السلطانية ومفاتيح باب القصر وصار الحاجب هو صمام الأمن والأمان للسلطان الجالس على العرش وأدت هذه السيطرة من الحجاب الى المؤامرات داخل القصر السلطانى والى مقتل أو هروب السلاطين بأنفسهم خوفا على حياتهم فى القصور ، وقتل السلطان أبو العباس ثم وقف السلطان مكتوف الأيدى ولم يقدر على الدفاع عن حدود دولته أمام خطر الحفصين .

فقد منح السلطان أبو سعيد عثمان بعض القبائل العربية من بنى سليم وهى الثائرة على الدولة حق اللجوء للمغرب الأقصى والاستقرار وضمها الى جانب الجيش المرينى لمحاربة أبى فارس الحفصى وجعل قيادتهم فى يد الأمير أبى عبد الله محمد بن أبى زكريا صاحب بونة وكان ثائرا على أبى فارس الحفصى ولكن السلطان الحفصى أبا فارس رأى فى ذلك عداوة له فبادر الى لقاء قوات بنى سليم وبنى مرين وهزمهم وأرسل رأس قائدهم الى فاس وتقدم أبو فارس الحفصى واستولى على تلمسان ثم تقدم لتأديب سلطان بنى مرين أبى سعيد عثمان ولم يكن فى استطاعة السلطان المرينى أن يواجه سلطان بنى حفص وأرسل له البيعة وبذلك امتد نفوذ بنى حفص الى المغرب الأقصى وبايعت فاس للخلفاء الحفصين وبهذه البيعة الأخيرة تعنى أن المرنين صاروا من الناحية السياسية تابعين لبنى حفص فى تونس وتوفى أبو سعيد عثمان عام ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م بعد أن حكم ثمانية عشرة عاما وخلفه أخوه عبد الله المعروف سيدى عبو . وكان هذا السلطان هو آخر سلاطين بنى مرين وأطولهم مدة وفى أيامه ضعف أمر بنى مرين وتداعى الى الانحلال وكان مصير الدولة بين الحجاب والوزراء .

وفى هذه الفترة كان للقبائل العربية دور خطير فى توجيه أحداث المغرب فقد كانت القبائل العربية تجتمع لنصرة أمير مرينى ضد آخر حتى انتهى الأمر الى استقرار أبى العباس أحمد بن أبى سالم المرينى بفاس . ومنافسة ابن أبى يغلوسن بن أبى على المرينى بمراكش تفصل بين أملاكها ولاية أزمور العربية شبه المستقلة ويلاحظ هنا فى أثناء ضعف السلاطين وظهور ولايات عربية شبه مستقلة داخل الدولة ، ولقد أصبح الوزراء في هذه الأحوال حتى سقوط الدولة وزراء تفويض لأن السلاطين تركوا للوزراء تدبير الأمور برأيهم وتوجهاتهم وفق اجتهادهم واستبد هؤلاء الوزراء بالدولة وعلى نفوذهم على نفوذ السلاطين وقد جمع هذا الصنف من الوزراء جميع مقاليد السلطة فى أيديهم ولم يبقى لمعظم السلاطين فى عصر نفوذ الوزراء سوى شكليات السلطة ولذلك لم يكن هناك فى الدولة فى الغالب سوى وزير واحد ووزيرين فى معظم الأحوال .

واشتد الصراع بين العاصمتين فاس ومراكش وأصبحت الدولة تنقسم فيما بينها قسم يناصر فاس والآخر ينحاز الى مراكش ، لكن القتال اشتد وطال حتى تمكن أبو العباس أحمد من الاستيلاء على مراكش فى أواخر فترة حكمه فى عام ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م ، ووحد المغرب غير أن أبا العباس لم ينعم بالحكم طويلا اذ بعد عامين فقط من توحيده للبلاد قام موسى بن أبى عنان بطرده من الحكم عام ٦٨٦ هـ / ١٣٨٤م ففر الى الأندلس . وهرب وزيره الى عرب المعقل لكنه أرسل الى السلطان موسى وسلموه له فقتله .

وحينما ضاقت الحاشية والاتباع بالسلطان موسى بن أبى عنان وتأمرت عليه وعملت على ضرورة استبدال سلطان جديد به يأتى من غرناطة (لاحظ تحكم الأندلس

في تعيين سلاطين بني مرين وتغير الأحوال) وكانت غرناطة قد أصبحت ملجأ للمطالبين بالعرش المريني والمبعدين عن السلطة بالمغرب وكان زعيم القبائل العربية محمد الصبيحي على رأس الوفد المرسل الى الأندلس لاحضار السلطان الجديد معتمدا على ازدياد نفوذ جنده .

وساءت العلاقة بين الدولتين المرينية ومملكة غرناطة فأعاد ابن الاحمر سلطانها السابق أبا العباس أحمد الى المغرب وأعلنت القبائل العربية تأيدها له المغرب واجتمعت على مبايعته وساعدته ودخل فاس عام ٧٨١ هـ / ١٣٨٧ م . وقتل من تردد في مبايعته وتحكم بنو وطاس في مقاليد الأمور وازداد نفوذهم .

وفي عهد آخر السلاطين بني مرين عبد الحق بن أبي سعيد بن أبي العباس (٨٢٣ - ٨٦٩ هـ / ١٣٢٠ - ١٤٦٥ م) غزا الوزير أبو زكريا يحيى بن زيان الوطاسي عرب الشاوية لتمردهم على الدولة ففرق شملهم .

واضطربت أحوال الدولة المرينية بتعدد الثورات وتدهورت الأمور بفاس بعد أن سيطر الحجاب غير المسلمين على مقاليد الأمور مما اضطر شيوخ المرنين ورؤساءها الى الدعوة للثورة التي عمت أحياء فاس كلها واضطروا الى مبايعة سلطان جديد هو الشريف أبي عبد الله محمد بن علي الادريسي نقيب الأشراف بفاس في رمضان (٨٦٩هـ/ ١٤٦٥م) الذي استمر في الحكم يعاونه ابنه وسار الناس خلف سلطانهم الجديد نقيب الاشراف بعد أن تحكم غير المسلمين في السلطان عبد الحق وكان مطية لأهدافهم ومنفذا لأوامرهم وكان يعمل برأيهم ومشورتهم وتم انتزاع خاتم الملك من يده وضربت عنقه لسيره وراء أهواء غير المسلمين في رمضان ٨٦٩ هـ / ١٤٦٥ م . وبهذه النهاية انتهت آخر صفحة من صفحات الدولة المرينية بعد أن عاشت في بلاد

المغرب أكثر من قرنين من الأزمان جادت بعطائها الفكرى والعلمى والحضارى فأحسنت العطاء ووقفت قواتها على أرض الأندلس تجاهد فى سبيل دفع العدوان عن أخوة الاسلام بقدر ما أتيحت لها من امكانيات فى ذلك العصر وبقدر ظروفها السياسية فانها لم تبخل عن الذود والعطاء والدفاع .

والذى ينظر الى تاريخ سلاطين بنى مرين الذين حكموا البلاد من هذا القرن ويزيد قليلا منذ ازدياد نفوذ الوزراء يدرك أنهم زادوا عن سبعة عشر سلطانا كان بعضهم يتولى السلطة ثم يعزل ثم يعود اليها مثل السلطان أبو العباس أحمد أو أنه هؤلاء السلاطين أصبحوا مطية لتنفيذ أوامر الوزراء أو الحجاب أو تنفيذا أوامر دولة خارجية مثل غرناطة بل الذى زاد الطين بلة أن ملوك قشتالة وأرغون كثيرا ما ساعدوا بعض السلاطين وأمدوهم بالسلاح والمال والرجال لاستعادة سلطانهم فى بلاد المغرب الأقصى ومن السلاطين الذين تولوا عرش البلاد من كان منهم يقيم لدى ملوك قشتالة .

لكن حكم نقيب الأشراف لم يدم طويلا ذلك لاننا نجد أن محمدا بن الشيخ زكريا الوطاسى يعين نفسه سلطانا على المغرب عام ٨٧٦ -٨٩٠ هـ/ ١٤٧٢-١٥٠٤م مؤسساً بذلك الدولة الوطاسية ، وهكذا انتهت دولة بنى مرين الدولة التى أسسها عبد الحق المرينى وكافح بنو مرين طويلا حتى استقرت على أيدى أبناء عمومتهم من بنى وطاس .

وتلك هى لمحة موجزة ومختصرة عن تاريخ دولة بنى مرين خلال حكمها للمغرب الأقصى نضعها بين يدى رجال البحث والتاريخ والدارسين .

* * * *

سلاطين بنى مرين الذين تولوا حكم المغرب الأقصى

١ - أبو محمد عبد الحق أبو خالد محبو بن أبى بكر بن حمامة المرينى

(٥٩٢هـ-١١٩٥م)

٢ - أبو سعيد عثمان بن عبد الحق (أدرغال) (٦١٤هـ-١٢١٧م)

٣ - محمد الأول بن عبد الحق (٦٣٧هـ-١٢٣٩م)

٤ - أبو يحيى أبو بكر بن عبد الحق (٦٤٢هـ-١٢٤٤م)

٥ - أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦هـ-١٢٥٨م)

٦ - أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق (الناصر لدين الله)

(٦٨٥هـ-١٢٨٦م)

٧ - أبو ثابت عامر بن أبى عامر (٧٠٦هـ-١٣٠٦م)

٨ - أبو الربيع سليمان بن أبى عامر (٧٠٨هـ-١٣٠٨م)

٩ - أبو الحسن على بن عنان (٧١٠هـ-١٣١٠م)

١٠ - أبو الحسن على بن عنان (٧٣٢هـ-١٢٣١م)

١١ - أبو عنان فارس المتوكل بن أبى الحسن على (٧٤٩هـ١٣٤٨م)

أبو زيان محمد بن أبى فارس أبى عنان، وتم عزله فى الحال

(٧٤٩هـ-١٣٥٧م)

١٢ - محمد السعيد بن أبى عنان تولى وعمره خمس سنوات

(٧٥٩هـ-١٣٥٧م)

١٣ - أبو سالم إبراهيم بن على (٧٦٠هـ-١٣٥٨م)

١٤ - أبو عامر تاشفين بن على (٧٦٢هـ-١٣٦٠م)

١٥ - عبد الحليم بن أبى على عمر (حكم سلجماسة منذ ربيع)

(٧٦٣هـ-١٣٦١م)

١٦ - أبو زيان محمد الثانى المستنصر بن أبى عبد الرحمن

(٧٦٣هـ-١٣٦١م)

١٧ - أبو فارس عبد العزيز المستنصر بن على (٧٦٨هـ-١٣٦١م)

١٨ - أبو زيان محمد الثالث السعيد بن عبد العزيز (٧٧٤هـ-١٣٧٢م)

١٩ - أبو العباس أحمد المستنصر بن إبراهيم (حكم بقابس)

(٧٧٦هـ-١٣٧٤م)

٢٠ - عبد الرحمن بن بغلوسن (٧٧٦هـ-١٣٧٤م)

٢١ - موسى بن أبى عنان المتوكل على الله أبو فارس (٧٨٦هـ-١٣٨٤م)

٢٢ - أبو زيان محمد المنتصر بالله بن أحمد (٧٨٨هـ-١٣٨٦م)

٢٣ - أبو زيان محمد الرابع الواثق بالله بن أبى الفضل المستنصر

(حكم للمرة الثانية) (٧٨٨هـ-١٣٨٦م)

٢٤ - أبو فارس أحمد (٧٩٦هـ-١٣٩٣م)

٢٥ - عبد العزيز بن أحمد (٧٩٩هـ-١٣٩٦م)

٢٦ - عبد الله بن أحمد (٨٠٠هـ-١٣٩٧م)

٢٧ - أبو سعيد عثمان الثانى بن أحمد (٨٠١هـ-١٣٩٩م)

٢٨ - أبو محمد عبد الحق بن أبى سعيد الثانى

(نهاية أسرة بنى مرين) (٨٣١-٨٦٩هـ/١٤٢٧-١٤٤٥م)

* * * *

الخـــاتمـــــة

إن الذى يتصفح طيات هذا الجزء من الموسوعة يدرك تمام الإدارك كيف ظهرت هذه الدويلات على مسرح الأحداث السياسية فى المغرب العربى، وكيف أن الخليفة المنصور الموحدى ٥٩٥هـ/٦١١هـ قد أقطع عبد الواحد بن أبى حفص حكم المغرب الأدنى (أفريقية) على أن يظل تابعاً، وتحت نفوذ الموحدين بالمغرب الأقصى إلا أن ابنه أبا زكريا الحفصى استطاع الخروج على طاعة الدولة الموحدية وإعلان المغرب الأدنى إمارة مستقلة ويسقط اسم الخليفة الموحدى من الخطبة؛ بل أن الحفصيين لم يكتفوا بذلك؛ فقام المستنصر بالله بن أبى زكريا الحفصى بإعلان الخلافة وتلقب بلقب الخليفة مثله مثل خلفاء الموحدين وبدأت التوسعات الحفصية فى المغرب الأوسط على حساب الوجود الموحدى؛ بل أن نفوذهم قد وصل إلى الأندلس وبلاد المغرب الأقصى نفسها مقر حكم الموحدين، ولم يأت عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م إلا وكانت أفريقية تمارس سيادتها بنفسها دون أن تعبأ بالوجود الموحدى وكان ذلك من أسباب ضعف الخلافة الموحدية.

بل إن انفصال الحفصيين لم يكن كافياً لإقطاع أحد أوصال الخلافة فتمرد المغرب الأوسط؛ حيث قامت قبائل بنى عبد الواد الزيانية بالاستيلاء على تلمسان عاصمة الإقليم وإعلانهم عام ٦٣٣هـ/١٢٣٦م قيام دولة لهم فى المغرب الأوسط، وعلى الرغم من أنهم لم يعادوا الموحدين منذ ظهور دولتهم حتى سقوطها عام ٦٦٨هـ على يد أبى يعقوب يوسف بن عبد الحق المرينى .. إلا أنهم بإعلانهم الاستقلال عن

الموحدين واقتطاع المغرب الأوسط لنفوذهم فإن ذلك أضعف دولة الموحدين أكثر فأكثر وفقدت هيبتها ونفوذها لدى الأهالى. فما كان من القبائل المرينية التى كانت تحلم ببناء الدولة على نمط المرابطين والموحدين إلا أن تستخدم المعاول لهدم البناء الموحدى والانقضاض عليه دفعة دفعة فأخذوا فى شن الهجمات على الدولة أو بقايا دولة الموحدين فى المغرب الأقصى منذ عام ٦١٠هـ حتى عام ٦٦٨هـ تاريخ سقوط مراكش فى أيدى الموحدين أكثر من خمسين عاما فى استنزاف موارد الدولة الموحدية.

وهكذا ظهرت للعيان ثلاث دويلات فى المغرب الأدنى بنو حفص ، وفى المغرب الأوسط بنو زلمان ، وفى المغرب الأقصى بنو مرين على أنقاض الدولة الأم الموحدين .

والذى يتابع الأحداث السياسية التى مرت بها هذه الدويلات منذ ظهورها حتى سقوطها ونهاية وجودها السياسى بعلم أن قيام هذه الدويلات لم يكن فيه فائدة ترجى للعالم الاسلامى والمسلمين بقدر ما أضر بالمصالح الاسلامية فالتمزق والتشرذم والتفكك أضعف من هيبة المسلمين أمام القوى الخارجية فالدولة الواحدة صارت ثلاث دويلات مما مكن عدو الاسلام أن يتابع تنفيذ خططه فى ظل الكيانات الصغرى محققا أهدافه البعيدة فى أضعاف الوجود الاسلامى فى الأندلس وفى غرب حوض البحر المتوسط وفى الهجوم على السواحل الاسلامية وانتزع زمام المبادرة من أيدى المسلمين والاخلال بالتوازن العسكرى بعد أن كان تفوقا عسكريا للمسلمين طوال خمس قرون .

ولهذا كان قيام هذه الدويلات وبالا على قضايا المسلمين ولم يكن قيامها الا خسارة للقضية الكبرى فى الأندلس . كذلك فان هذه الدويلات لم تكن الأحوال والعلاقات السياسية بينها الا كما هو الخلاف والسيطرة وبسط النفوذ وكبح جماح آية قوة تحاول السيطرة على حساب القوى الأخرى .

فالحفصوين كانوا يريدون التوسع غربا على حساب بنى زيان وبنو زيان يريدون التوسع شرقا على حساب الحفصيين وبنو مرين يريدون التوسع شرقا على حساب بنى زيان وبنى حفص وكل منها تحاول الادعاء بأنها وريثة العرش الموحدى ، الحفصيون يرون أنهم أحق باعتبارهم فرع من الأسرة الموحدية وبنو زيان يرون أنهم أحق باعتبار صداقتهم وصلة المودة طوال تاريخ الموحدين والوقوف معهم فى خندق واحد ضد كل الأعداء فى سقوط الدولة فى عهد أبى دبوس والدولة المرينية ترى أنها أحق بالسيطرة على المغرب كله باعتبار أنها الوريثة الوحيدة لملك الموحدين وأنها التى أسقطت خلافة الموحدين ومن ثم يكون لها السيطرة على المغرب الأوسط والأدنى ومن ثم اشتعلت الحروب واحتشدت الجيوش ودامت الحروب فترات طويلة استنفدت موارد وطاقات كل منها فالذى نظر الى تطور الاحداث يرى أن تلمسان عاصمة الزيانين لم تكن الا مطية للحفصين وبنى مرين فتارة تخضع للحفصين وتخطب ودهم وتقدم البيعة للخلفاء الحفصيين وتارة اخرى تخضع لنفوذ وسيطرة بنى مرين وتارة أخرى تسيطر قوات بنى مرين على الحفصيين وبنى زيان وتبسط نفوذها على المغرب الأوسط والأدنى وتارة أخرى نجد قوات الحفصيين تصل الى فاس عاصمة بنى مرين ويقدم سلطانها البيعة للسلطان الحفصى وفى فترات أخرى من تاريخ هذه الدول يقوم بنو زيان بالسيطرة على تونس ودخول قواتهم الى العاصمة تونس واخضاعها لسيادتهم وفى حقب تاريخية اخرى يدخل بنو زيان عاصمة المرينين وكأن المنطقة كانت ميدان صراع داخلى بدلا من التوحد وجمع الصف ومعرفة الهدف ومساندة أخوة الاسلام فى الميدان الأندلسى .

ولم نجد الا أن عبء الجهاد يقع على بنى مرين للدفاع عن قضايا المسلمين فى الأندلس ومساندة بنى الأحمر فى غرناطة ، وتقديم العون البشرى والمادى والمعدات والعبور عدة مرات لوقف الزحف المعادى القادم من الشمال بمساندة دول أوربا وقيام

قشتالة وأرغون بقيادة حركة الاسترداد وطرد المسلمين من ديارهم وأوطانهم . بل أن بنى الأحمر لم يحفظوا لبنى مرين موقف الأخوة الاسلامية فتعاونوا مع أعداء الأندلس من النصارى وقدموا لهم الأراضى الاستراتيجية للوقوف فى وجه بنى مرين ، بل أنهم فى بعض الحقب التاريخية تدخلوا فى شئون بنى مرين وأصبحت لهم ولقشتالة اليد الطولى فى تعيين وعزل السلاطين الذين صاروا العوبة فى يد الوزراء والحجاب .

وهكذا صار تاريخ هذه الدويلات من سئ الى أسوأ صراعا وتنافرا وتطاحنا وتباعدا فالمسلم يستعين على أخيه عدو الاسلام ويحارب أخاه من أجل السلطة أو تعدى على الحدود وضم المدن والأراضى وخادم يقتل سيده أو يضع له السم ويقطع رأسه ويصلبها على أبواب فاس .

صحيح أنى ركزت أكثر على الجانب السلبى فى هذا الغرض الا أن هناك وجها مشرفا من تاريخ هذه الدويلات لقد قدمت هذه الدويلات للاسلام وللحضارة الاسلامية حركة علمية وثقافية وحضارية وعمرانية شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء فلقد تطورت النهضة الاسلامية وأبدع علماء الاسلام فى كل حقل من حقول العلم والنهضة الفكرية والثقافية وابدع طلاب العلم وصارت مدن فاس ومراكش وتلمسان والقيروان وسبتة واغمات وسلجماسة ووهران وطرابلس مدنا علمية تشد اليها الرحال طلبا للعلم والاستزادة من الأبحاث التى يقدمها الأساتذة وبذل السلاطين جهودا مشكورة فى انشاء المساجد والمدارس العلمية والمدارس العليا المتخصصة ووفروا الامكانيات تحت تصرف الأساتذة والطلاب وقدم لهم السكن والاقامة والمنح والعطايا وضمت مجالس السلاطين صفوة رجال العلم والفكر والثقافة وكانت المناظرات ومن هنا قدمت القيروان وتونس وتلمسان وفاس وغيرها من مدن المغرب الأدنى والأوسط والأقصى عطاء فكريا وعلميا لا يزال حتى يومنا هذا يشهد بعظمة هذه الدول فى هذه المجالات المختلفة .

لكن العطاء قد يكون أكثر خصبا ونماءا فى حالة الوحدة والتعاون نحو وجهة واحدة ومعرفة الهدف البعيد والاحاطة بما يدور من أحداث وتحرشات أودت بالأندلس ذلك الفردوس المفقود فى ظل قيام هذه الدويلات .

وذلك ما تم التوصل اليه فى تلك الدراسة .

تم بحمد الله

* * * *

المصادر والمراجع

أولا - المصادر :

١ - الادريسي : محمد بن عبد العزيز الشريف : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس . لندن ، ١٩٨٦ م .

٢ - ابن الأحمر : أبو الوليد بن الأحمر : روضة النسرين فى دولة بنى مرين : الرباط، ١٩٦٢ م .

٣ - البكرى : عبد الله بن عبد العزيز : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب : دى سلان ، الجزائر ، ١٩١١ م .

٤ - التيجانى : أبو محمد عبد الله بن محمد : رحلة التيجانى ، نشرة حسن حسنى عبد الوهاب : تونس ، ١٩٥٨ م .

٥ - ابن الخطيب : لسان الدين : أعمال الاعلام . جزء المغرب وصقلية ، نشرة أحمد مختار العبادى ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤ م .

٦ - ابن الخطيب : لسان الدين : الاحاطة بأخبار غرناطة . تحقيق محمد عبد الله عنان . القاهرة ، ١٩٦٥ م .

٧ - ابن خلدون : المقدمة . بيروت . ١٩٧٨ م .

٨ - ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد : العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم . القاهرة ، ١٩٨٤ م .

٩ - ابن خلدون : أبو زكريا يحيى . بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد - الجزائر - ١٩٠٣ م .

١٠ – ابن أبى دينار : محمد بن أبى القاسم القيروانى . المؤنس فى أخبار أفريقية . تونس ، ١٢٨٦ هـ .

١١ – الجزنائى : أبو الحسن على : زهرة الأس فى بناء مدينة فاس – الجزائر – ١٩٢٣ م .

١٢ – ابن أبى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار تاريخ المغرب وتاريخ مدينة فاس – ١٨٤٢ م .

١٣ – الدباغ : عبد الرحمن بن محمد : معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان . تونس ، ١٣٢٠ هـ .

١٤ – الرقيق القيروانى : تاريخ أفريقية والمغرب . تونس ، ١٩٦٨ م .

١٥ – ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب . قطوان ، ١٩٦٣ م .

١٦ – الزركشى : أبو عبد الله محمد بن ابراهيم : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور – تونس – ١٩٦٦م .

١٧ – ابن القاضى : احمد بن محمد بن احمد ، جذوه الاقتباس فيمن حل من الاعلام بمدينة فاس . د . ت .

١٨ – السلاوى : أبو العباس أحمد الناصر : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى : القاهرة ، ١٩٥٤ م .

١٩ – ابن القنفد : أبو العباس احمد بن الخطيب : الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية – تونس – ١٩٦٨ م .

٢٠ – القلقشندى : أحمد بن على : صبح الأعشى فى صناعة الانشا : القاهرة ، ١٩٦٣م .

٢١ – المالكى : أبو بكر عبد الله : رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وأفريقية . نشرة حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥١ م .

٢٢ – موسى أبو يوسف : أبو حمو بن زيان العبد الوادى واسطة السلوك فى سياسة الملوك – ١٢٧٩ م .

٢٣ – مؤلف مجهول : الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية . الجزائر ، ١٩٢٠م.

٢٤ – مؤلف مجهول : مفاخر البربر ، نشرة ليفى بروفيسال – الرباط – ١٩٣٤ م .

٢٥ – النويرى : شهاب الدين بن عبد الوهاب : نهاية الأرب فى فنون الأدب . القاهرة – ١٩٥٤ م .

٢٦ – مؤلف مجهول : نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى مضر . تحقيق الفريد البستانى– المغرب – ١٩٤٠ م .

ثانيا : المراجع :

١ – ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ – الدار البيضاء – ١٩٦٥ م .

٢ – ابراهيم احمد العدوى : المجتمع المغربى – القاهرة – ١٩٦٤ م .

٣ – ابراهيم احمد العدوى : مصر الاسلامية – القاهرة – ١٩٧٥ م .

٤ – ابراهيم بيضون : الدولة العربية فى أسبانيا – بيروت – ١٩٨٥ م .

٥ – ابراهيم على طرخان : دولة مالى الاسلامية – القاهرة – ١٩٧٣ م .

٦ – ابراهيم على طرخان : امبراطورية البرتو الاسلامية – القاهرة – ١٩٧٥ م .

٧ – أحمد الزواوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا – القاهرة – ١٩٥٤ م .

٨ - أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس - الاسكندرية - ١٩٦٨ م .

٩ - احمد محمد كانى : الجهاد الاسلامى فى غرب أفريقيا - القاهرة - ١٩٨٧ م.

١٠ - احسان عباس : تاريخ ليبيا من الفتح العربى حتى مطلع القرن التاسع الهجرى- بيروت - ١٩٦٧ م .

١١ - الحبيب الجنحاجى : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الاسلامية فى المغرب العربى - تونس - ١٩٦٨ م .

١٢ - زاهر رياض : استعمار افريقية - القاهرة - ١٩٦٥ م .

١٣ - زاهر رياض : شمال افريقية فى العصور الوسطى - القاهرة - ١٩٨١ م .

١٤ - زاهر رياض : الممالك الاسلامية فى غرب افريقية - القاهرة - ١٩٦٨ م .

١٥ - الحسن الوزان : ليو الأفريقى : وصف أفريقية ، ترجمة - عبد الرحمن حميده- الرياض - ١٣٩٩ م .

١٦ - جمال حمدان : العالم الاسلامى المعاصر - القاهرة - ١٩٧١ م .

١٧ - حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين - القاهرة - ١٩٥٦ م .

١٨ - حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى أفريقية - القاهرة - ١٩٦٣م .

١٩ - حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس - القاهرة - ١٩٨٠ م .

٢٠ - حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب - القاهرة - ١٩٤٧ م .

٢١ - حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية - تونس - ١٩٧٢ م .

٢٢ - حسن على حسن : دراسات فى تاريخ المغرب العربى - القاهرة - ١٧٩٩ م .

٢٣ - حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام فى القارة الأفريقية - القاهرة - ١٩٨٤م

٢٤ - سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى - القاهرة - ١٩٦٥ م .

٢٥ - صلاح العقاد : المغرب العربى : ١٩٦٩ م .

٢٦ - عبد العزيز السيد سالم : المغرب الكبير - القاهرة - ١٩٦١ م .

٢٧ - عبد العزيز السيد سالم : تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والأندلس - بيروت - ١٩٦٩ م .

٢٨ - عبد الرحمن على حجى : التاريخ الاسلامى للاندلس من الفتح حتى سقوط غرناطة - القاهرة - ١٩٨٣ م .

٢٩ - عبد العزيز بن عبد الله : معطيات الحضارة المغربية - المغرب - ١٩٥٧ م .

٣٠ - عبد القادر الصحراوى : جولات فى تاريخ المغرب : الدار البيضاء - ١٩٦١ م.

٣١ - عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الاسلام والثقافة العربية فى أوربا - القاهرة - ١٩٧٩ م .

٣٢ - عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الاسلام والعروبة فى السودان - القاهرة - ١٩٨٦م .

٣٣ - عبد الفتاح مقلد الغنيمى : حركة المد الاسلامى فى غرب أفريقية - القاهرة - ١٩٨٥ م .

٣٤ - عبد الله على علام : الدولة الموحدية بالمغرب - القاهرة - ١٩٧١ م .

٣٥ - عبد الله جنون : مدخل الى تاريخ المغرب - الدار البيضاء ، د . ت .

٣٦ - عبد الوهاب منصور : قبائل المغرب - الرباط - ١٩٧٠ م .

٣٧ - عبد الرحمن الجيلالى : تاريخ الجزائر العام - الجزائر - ١٩٥٥ م .

٣٨ - عز الدين احمد موسى : النشاط الاقتصادى فى المغرب الاسلامى - القاهرة - ١٩٨٣ م .

٣٩ - محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس - القاهرة - ١٩٦٤ م .

٤٠ - محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير - القاهرة - ١٩٦٤ م .

٤١ - محمد عبد السلام بن عبود : تاريخ المغرب - تطوان - ١٩٥١ م .

٤٢ - محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الأفريقية - القاهرة ، د . ت .

٤٣ - مراجع عقيلة الغنامى : قيام دولة الموحدين - بنغازى - ١٩٧٠ م .

٤٤ - الميلى : مبارك بن محمد الهلالى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث - الجزائر ، د . ت .

٤٥ - مصطفى أبو ضيف أحمد : أثر العرب فى تاريخ المغرب - الاسكندرية - ١٩٨٣ م .

٤٦ - محمد محمد أمين : العلاقات العربية الأفريقية (فضل) - القاهرة - جامعة الدول العربية - ١٩٧٨ م .

٤٧ - يسرى الجوهرى : افريقية الاسلامية - القاهرة - ١٩٨٠ م .

٤٨ – ارنولد ، توماس : الدعوة الى الاسلام . ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرين . القاهرة ، ١٩٧٠ م .

٤٩ – أوليفر ، رولاند ، جون فج : موجز تاريخ افريقية .ترجمة دولت صادق – القاهرة – ١٩٦٥ م .

٥٠ – جوليان ، شارل اندريه : تاريخ افريقية . ترجمة طلعت عوض اباظة – القاهرة – ١٩٦٨ م .

٥١ – ستودارد الوثروب : حاضر العالم الاسلامى . ترجمة وتعليق شكيب ارسلان – بيروت ، د . ت .

٥٢ – لاند ، روم : تاريخ المغرب . ترجمة نقولا زيادة – بيروت – ١٩٨٣ م .

ثالثا : رسائل جامعية :

١ – زين العابدين السراج : دولة الكانم الاسلامية . رسالة ماجستير – آداب القاهرة – ١٩٧٥ م .

٢ – طاهر راغب حسين : الدولة الحفصية . رسالة ماجستير – دار العلوم .

٣ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : سلطنة البرنو الاسلامية . رسالة ماجستير – جامعة القاهرة – ١٩٨٣ م .

٤ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الاسلامية . رسالة دكتوراه – جامعة القاهرة – ١٩٧٥ م .

٥ – عبد المرضى محمد عطوة زايد : دولة بنى زيان بالمغرب . ماجستير – دار العلوم – جامعة القاهرة – ١٩٨٢ م .

٦ – محمد عيسى صابر سليم : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى دولة بنى مرين بالمغرب . رسالة دكتوراه دار العلوم – ١٩٧٩ م .

المراجع الأجنبية

1 - Barth, H. : Travels and discoveries in North and Central Africa, London, 1875.

2 - Baulin, J. : The Arab role in Africa, London, 1962.

3 - Baur T. : West Africa trade, Cambridge, 1950.

4 - Brunschrig, W. : La Berberie orientale sous les Hafsides, Paris.

5 - Cooley, W.P.: The Negro Land of the Arabs, London, 1940 - 1947.

6 - Despois, T.V.: Afrique du Nord, Paris, 1964.

7 - Doutte, E.F.: Notes sur l'Islam Maghribin, Paris, 1960.

8 - Dozy, L.R.: Recherches sur l'histoire d'Espagne, Amsterdam.

9 - Gautier, E.F.: Notes sur l'Islam Mag, du Nord, Paris, 1927 - 1965.

10 - Gautier, E.F.: Le passe d'Afrique du Nord, Papot, 1940.

11 - Hopkins, J.P.: Medieval Muslim government in Barbary, London, 1948.

12 - Levi-provenciel, E.: Histoire d'Espagne Musulmane, Paris, 1960.

13 - Marcais, G.: Les Arabes en Berberie, Paris, 1930.

14- Marcais, G.: La Barberie Muslmane et l'Orient au Moyen Age, Paris, 1942.

15 - Mussignon, L.: Le Maroc dans les premières années du XVI siècles, Aleg, 1906.

16 - Hamet, L.: La Civilisation arabes en Afrique, Paris, 1911.

17 - Julein, A.: Histoire de l'Afrique du Nord, Paris, 1931.

18 - Scolt, S.P.: History of the Morish Empire in Europe, London, 1940.

19 - Terasse, H. : Histoire du Maroc des origines, Casablance, 1949 - 1954.

20 - Warmington, B. : The North African provences, Cambridge.

21 - Westerman, D. : Les peuples et les civilisation de l'Afrique, Paris, 1949.

22 - Piquet, V. : Les civilisations de l'Afrique du Nord, Paris, 1956.

23 - Kjein, J. : La Tunisie, Paris, 1960.

24 - Antichan, P.H.: La Tunisie son passe et son avenir, 1824.

25 - Martin, St. : Le Nord de l'Afrique dans l'Antique, Paris, 1863.

* * * *

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

هذه الدراسة عن المغرب العربي نقدمها للقارىء العربي والمسلم ولكل الذين يهتمون بالتاريخ الإسلامي تتناول حقبة تاريخية على امتداد ١٤٠٠ سنة وصل فيها المد الإسلامي أبعاداً واسعة حتى يمكن القول أن الإسلام استطاع أن يكون قارة إسلامية شملت أجزاء متجاورة من آسيا وأفريقيا وأوروبا٠ وعلى هذا تكون هذه الدراسة عن جزء عزيز من عالمنا العربي والإسلامي والذي لعب دوراً في إثراء الحركة العربية الإسلامية حتى وقع على تلك الكتلة من القارة الإسلامية دور كبير في نشر الإسلام والعروبة في أرجاء واسعة من القارة الإفريقية لا سيما تلك الأقاليم التي تقع إلى الجنوب من المغرب العربي وكذلك في أوروبا حيث الأندلس وما جاورها من أقاليم٠

مكتبة مدبولي
MADBOULI BOOKSHOP

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت :٧٥٦٤٢١
6 Talat Harb SQ. Tel. : 756421